

بطرس البستاني

أدباء العرب

في

الأعيان القبايية

تدوينه واراكسيسيل بيروت - لبنان



بطرس البستاني

ادباء العرب في

الأعصر العباسي
مبايعهم - آثارهم - نقد آثارهم

طبعة جديدة منقحة ، مشروحة ، مفهرسة

دارماروت عبود

١٩٧٩

جميع الحقوق محفوظة
لدار مارون عبود

مقدمة

هذا الكتاب الثاني من أدباء العرب ، يشتمل على خصائص آداب العباسيين وعلومهم ، وميزات شعرائهم وكتّابهم ، مع استفاضة في النقد والتحليل ، لأن هذا العصر ، عصر حضارة العرب ، لما يتّح له بعدُ ببحث شامل يجلو حقائقه ، ويكشف عن كنوزه .

واضطرارنا إلى الامعان في البحث جعلنا نجتريء بطائفة معدودة من الشعراء والكتّاب . وهم ، وإن كانوا فحول الشعر والنثر ، لا يستقرون في المنزلة العليا وحدهم ، بل يشركهم فيها جماعة آخرون لم نجد بداً من اغفالهم .

ورأينا أن لا نخلط الأدب الأندلسي بالأدب الشرقي ، فإِعلَ من تقدمنا من مؤرخي الآداب ، لأن العوامل التي أثرت فيه غير العوامل التي أثرت في ذلك . وإن له ميزات خاصة تجعله مستقلاً منفصلاً عن أدب العباسيين . فأثرنا أن نوجه إلى الكتاب الثالث ونخصه ببحث منفرد ، ونضم إليه عصر الانبعاث ، وكلاهما يفتقر إلى درس صحيح ، لأنها لا يزالان في عزلة تامة عن أفلام النقد . وأما عصر الانحطاط فنسلم به إلماماً ، ونبين ميّزته السياسية والأدبية ليطرّد لنا الحديث إلى عصر الانبعاث ، والله ولي التوفيق .

بطرس البستاني

العصر العباسي الاول

٧٥٠ - ٨٤٦ م و ١٣٢ - ٢٣٢ هـ

يبتدىء بقيام الدولة العباسية وينتهي بخلافة المتوكل على الله

لمحة تاريخية

أسباب سقوط الأمويين

الاحزاب السياسية . الشعوبية . ترف الامويين واهمالهم .
شقاق البيت المالك . الدعوة العلوية . الدعوة العباسية .
ميزة العصر .

١ الاحزاب السياسية

عرفنا في كلامنا على صدر الاسلام ان الدولة الأموية قامت على كره
من الانصار ، ومن القرشيين انسابها . فناوأوها جميعاً ، وخصوصاً بعد أن
نبذت الشورى في الخلافة ، وجعلتها ملكاً عضواً .

ثم نشأت الأحزاب السياسية ، فكانت بعض الأسباب القوية التي أودت بملك بني أمية فتركته أثراً بعد عين . فإن قيسام الزبيريين في الحجاز ، والحوارج في الجزيرة ، والشيعيين في العراق ، فت في ساعد الأمويين ، وجعل مملكتهم دريئة للثورات والدسائس ، حتى إذا تبين الضعف عليها ، طمع فيها الخصوم ، فقاموا يكيدون لها في السر والعلانية . ولم يكن زوال الحزب الزبيري ليرد الراحة على بني أمية ، والشيعيون والحوارج أيقاظ لا تنام لهم عين . والشعوبية يدسون للعرش ، ويتحينون الفرص لدكه من أساسه .

٢ الشعوبية

حمل الفتح الإسلامي للعرب شعوباً كثيرة دانت لهم فبسطوا سلطانهم عليها ، وأثقلوا كواهلها جزية وخراجاً . واستاقوا منها الأسرى والسبايا ، فاستعبدوهم وأذلّوهم . ثم أطلقوا على من أعتق منهم لقب الموالي^١ . على أن هذه الشعوب المتورة لم تكن لتنام على الضيم طويلاً . وفيها أمم عريقة في حضارتها ، عادية في استقلالها ، تأبى الخنوع لقوم غزاة خرجوا من صدر البادية حفاة عراة ، فكسحوا الشرق والغرب بسنابك خيولهم . وأفادوا من فتوحاتهم مالا وافراً ، فأيسروا بعد فقر ، وأترفوا بعد شظف وخشونة .

فأسلم كثير من هذه الشعوب المغلوبة رجاء أن يجدوا في اسلامهم نصفاً ومساواة . ولكن العرب الفاتحين أسكرتهم نشوة النصر ، وأخذتهم

١ الموالي : جمع المولى وهو كل عجمي يسترق ثم يعتق فينسب إلى أسرة معتقه أو إلى قبيلته . ولكن لا يحق له أن يتزوج قرشية أو عربية .

عزة السلطان ، بعد أن أخضعوا مملكة فارس ، واقتطعوا جزءاً كبيراً من بلاد الروم فباتوا ينظرون إلى كل عجمي نظرة ازدراء واحتقار . وحُق لهم أن يعتزوا ببطشهم ، فقد كان العالم يومئذٍ مشطوراً بين كسرى وقيصر ، فجمعوا إليهم شطريه . فزلزل الايوان ، وتقلص ظل الروم . فلذلك لم يجد الذين أسلموا من الأعاجم ما كانوا يرجون من كرامة وإنصاف . مع أن فيهم من حسن اسلامهم . وفيهم من أتقنوا اللغة العربية ، وبرعوا فيها ، فخرج منهم الكتّاب والشعراء . وتبحروا في العلوم الدينية ، فكان منهم الفقهاء والمحدثون . وتولى بعضهم الحُطط العالية كالقضاء والحجابة^١ . فأمضهم أن يهونوا على العربي فيأنف أن يزوجهم بناته ، وهو لا يتورع من التسري والاستمتاع بنسائهم . وساء لهم أن يروا من خلفاء بني أمية ايشاراً للعرب ، وتعصباً على العجم . فقد كان المولى يساق إلى الحرب ماشياً ، لا يعطى غنيمة ولا فيئاً . فلا غرو أن يتولد في نفسه كره شديد للعربي ، ويتبنى زوال ملكه ، ويكيد للعرش الأموي تخلصاً من جورده واستبداده .

فمن هنا نشأ حزب الشعوبية يضم إليه أبناء الأمم المقهورة ، متحدين على بغض العرب والتنقص منهم ، وذكر مثالبهم ، وتفضيل العجم عليهم . ولكنهم كانوا ضعافاً في شباب الدولة الأموية فلم يرتفع لهم صوت حتى آنسوا الضعف في جسمها ، والانحلال في أعضائها ، فعضدوا العباسيين على أمل أن يكونوا لهم خيراً من الأمويين وأبقى .

١ الحجابة : هي التي يتولى صاحبها الاذن للناس في الدخول على الملك أو السلطان .

٣ ترف الأمويين واهمالهم

كان العهد الأموي عهد ثورات وحروب ، فلم يبت خلفاؤه ليلة إلا على عصيان يتأهبون لقمعه ، أو على مكيدة يحاولون ردها . وكان لهم في بدء أمرهم من القوة والسلطان ما مكنهم من نحور أعدائهم . ولكن لم يلبثوا أن تسلل الضعف إليهم لتفاقم الثورات من جهة ، ثم لانغماسهم في الترف من جهة أخرى . فإنهم انصرفوا إلى اللهو والحرر والمجون . وأصبحوا لا يهتمون بتأييد سلطانهم ولا يُعَنِّون بانتقاء عمالهم ، فإن هشام بن عبد الملك ولّى نصر بن سيار أعمال خراسان ، وهو يعلم أن عصيته فيها ضعيفة ، وإن خراسان لا يظطلع بأمرها إلا من كان قوي العشرة . فكانت ولايته عليها شؤماً ووبالاً ، فقد اجتمعت عليه أفناء اليمن وربيعة ، وحاربتة لانحيازها إلى المضربة .

وربما وُلّي العامل عملاً بإشارة جارية ، أو مكافأة على هدية ، فعمل هشام بالجُنَيْد بن عبد الرحمن . وكان الجُنَيْد قد أهدى لامرأة هشام قلادة من جواهر ، فأعجبت هشاماً ، فأهدى إليه الجُنَيْد قلادة أخرى ، فولاه هشام خراسان .

ورأى العمال من الخلفاء غفلة واهمالاً ، فأصبحوا لا هم لهم إلا حشد الأموال ، والاستكثار من الصنائع^١ والموالي . ورأى الناس الانحلال يدب في هيكل الدولة ، فأخذوا يشقون عليها عصا الطاعة . وهم إنما كانوا خاضعين كرهاً لا رغبة .

١ الصنائع : جمع الصنعة . تقول : هو صنيعتي أي الذي اصطنعته لنفسه ، وربيته وخرجته ، واختصصته بالصنع الجميل .

٤ شقاق البيت المالک

قيل لبعض الأمويين : ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : « اختلاف فيما بيننا واجتماع المختلفين علينا. » ومن يتتبع الحوادث التي تقدمت سقوط بني أمية يتبين له صحة هذا القول . فإن الاحزاب السياسية على اختلافها في المذاهب والعقائد كانت تسعى جميعاً لقلب العرش الأموي . فاجتمع على ذلك الخارجي والزبيري والعلوي والعباسي والشعوبي . فشرع كل واحد منهم يرمي إلى هدفه من الناحية التي ينتمي إليها . فتكاثر وقع السهام على هيكل الدولة حتى انهدت بناؤه فانهار انهياراً .

وساعد أعداء الأمويين على نيل مأربهم انشقاق أمية على نفسها ، فإن أمراءها أخذ بعضهم يكيد لبعض ، فأضعفوا شأنهم وأطمعوا الناس فيهم . ويعود سبب هذا الانشقاق إلى نظام ولاية العهد ، فإنه كان يثير الضغائن بين الأخ وأخيه ، فضلاً عن القريب وقريبه . وحسبنا أن نلقي نظرة عجيلى على طلاب ولاية العهد في صدر الاسلام وفي العصر العباسي لنعلم مبلغ ما جرّت من الويلات على الخلفاء وأبنائهم .

وفساد النظام في ولاية العهد قائم على تعددها . فإن الخليفة كان يعقد الولاية في حياته لاثنتين أو ثلاثة من أولاده ، أو لولده وأخيه . فإذا استُخلف ولي العهد الأول ، استبدّ بالأمر ، وحاول خلع الثاني لينقل الولاية إلى بنيه . فهشام بن عبد الملك لم يشتع على ابن أخيه الوليد بن يزيد ، ويرمه بالكفر والفسوق ، وينفر الناس عنه إلا لأن ولاية العهد كانت له ، وهشام يريد لها لابنه من بعده .

ومات هشام ولم يستطع خلع الوليد، ولكنه استطاع أن يسيء إلى سُمعته ، فجعله في عيون الناس كافرآ زنديقاً لا يشبع من الحمر والفسق والمجون .

ولسنا نحاول أن ندفع هذه التهمة عن الوليد فإنه لم يكن بريئاً من التهنك والشك . ولكننا نعتقد انه لم يكن شرّ بني قومه . ولولا ولاية العهد، واضطهاد هشام له ثم انتقامه من ابني هشام بضربه أحدهما ، وحجبه الآخر ، لما كره الناس حكمه وثاروا به وقتلوه . ولكن السياسة صورته لهم جباراً عنيداً ، يمزق القرآن ، ويستهتر بالفجور ، ويغتسل بالحر . وصورت ابني هشام ضحيتين بريئتين يطفئ عليهما الفاسق بالحبس والتعذيب . وليس من غرضنا أن نتبسط في الكلام على الوليد وقته ، وإنما نريد أن نظهر ما جرّ نظام ولاية العهد من النكبات على بني أمية ، فإنه رمى بينهم الشقاق ؛ فتفرقت كلمتهم . وكان مقتل الوليد شؤماً عليهم ، وسبباً قوياً لسقوطهم ، لأن الناس طمعوا فيهم واجتروا عليهم . فأخذوا يثيرون بعضهم على بعض ليزيدوهم ضعينة واختلافاً . فلم يقم خليفة بعد الوليد إلا خرج عليه بعض أبناء عمه ، وحاربوه ونازعوه الإمامة . فأصبحت البلاد في أواخر العصر الأموي ميداناً للحروب والثورات .

فيتضح بما تقدم أن عدة أسباب تواطأت على إضعاف سلطان أمية ، فمن إمعان في اللهو والترف ، إلى غفلة وإهمال في أولي الأمر ، إلى شقاق واختلاف في الأسرة الأموية ، إلى اتفاق الأحزاب المختلفة على إزالة هذا الملك الضخم . فالحوارج يرون أن الحكم لله لا للناس ، والشعبية يطلبون الخلاص من بني أمية ، لعل في تغيير السلطان راحة لهم وفرجاً . والعلويون يبشرون الدعوة لأنفسهم . والعباسيون يسايرونهم في بشها ، ليستغلوها منهم بعد حين .

وقد رأيت أن قول الأموي في زوال ملكهم : اختلاف فيما بيننا ، واجتماع المختلفين علينا ، يكاد يختصر أسباب الضعف كلها في البيت المالك .

الدعوة العلوية

ذكرنا في الكتاب الأول ان الحسن بن علي نزل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان نفوراً من الحرب وابتغاء لحقن الدماء . غير ان هذا النزول لم يرق الشيعة العلوية ، فقابلته بالسخط . ولكن لم يكن لها قبل معاوية فصبرت كارهة على أمل أن يعود الأمر من بعده إلى أهل البيت . وشدة ما كانت خيبتها لما أوصى معاوية بالملك إلى ابنه يزيد ، جاعلاً الخلافة وراثية بعد أن كانت شورى .

وما استُخلف يزيد حتى نشط العلويون في الكوفة وبايعوا الحسين بن علي . فحاربه يزيد وقتل في كربلاء . فاستفطع الناس مقتل بن بنت الرسول . ونشأ على أثره الحزب الزييري يريد نزع السلطان من يد الأمويين . وازداد الشيعة حماساً وتعصباً لعلّي وأبنائه ، ونقمة على بني أمية ، ولكنهم انقسموا فرقاً فبايعت الشيعة الكيسانية^١ محمد بن الحنفية^٢ وجعلته إمامها . ثم توفي محمد بن الحنفية ، فانقلبت الإمامة إلى ابنه عبد الله أبي هاشم ، وكان عالماً جليلاً . فوفد يوماً على سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ، فرأى منه سليمان فصاحة وقوة وعلماً وعقلاً ، فخافه لعلمه بطمعه في الخلافة . فأرسل إليه من يدس له السم في اثناء رجوعه إلى المدينة . فلما

١ الكيسانية : نسبة إلى كيسان مولى علي بن أبي طالب . وقيل انه تلميذ ابنه محمد بن الحنفية . ويعتقد أتباعه انه أحاط بالعلوم كلها ، واقتبس من سيده الأسرار بجملتها . وترى الكيسانية ان الامامة بعد الحسن والحسين تحولت إلى أخيهما محمد بن الحنفية وتحالف بذلك الشيعة الامامية التي تحصر حق الامامة بولد فاطمة بنت النبي .

٢ محمد بن الحنفية : هو ابن علي بن أبي طالب والحنفية امه . وكانت امه سوداء لبني حنيفة ، فصارت إلى علي ، فولدت له محمداً فنسب إليها .

شعر أبو هاشم بالسلم وهو في بعض الطريق عرج على الحُمَيْمَةِ^١ وفيها محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس^٢ ، فنزل عنده ، وأوصى إليه بالخلافة من بعده خوفاً من أن تضيع البيعة وهو بعيد عن أهله .

فلما مات أبو هاشم هبَّ محمد بن علي ينشر دعوته واثقاً بالنجاح لاكتسابه الشيعة الكيسانية ، ولكن المنية عجلت عليه ، فأوصى إلى ابنه ابراهيم الإمام ، فأرسل ابراهيم دعواته إلى خراسان لأن الفرس أشدَّ الشعوب نقمة على بني أمية ، ولأن أكثر الشيعة الكيسانية في خراسان والعراق .

وكان الحزب الأعظم من الشيعة يناصر عبد الله بن حسن بن الحسين ابن علي . فتخوف العباسيون منه ، وحسبوا له حساباً ، فرأوا أن يعقدوا مؤتمراً يجمع بني هاشم علويّهم وعباسيهم للاتفاق على من يخلف الأمويين من أهل البيت . فعقد المؤتمر في مكة ، وحضره من العباسيين أخو ابراهيم الإمام أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور وغيرهما . وحضره من العلويين عبد الله بن الحسن وولده محمد و ابراهيم وغيرهم فتشاوروا في الأمر ، فتشبت العلويون بحقهم في الإمامة ؛ فلم يجد العباسيون بداً من مسايرتهم إلى أن تنهيا لهم الأسباب فيستقلوا بالأمر دونهم . فوافقهم على مبايعة محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية .

ويرجح ان هذه البيعة جرت سرّاً لأن العباسيين أنكروها بعد أن قوي ساعدهم . وحاول محمد بن عبد الله اعلانها ، فلم يصدقه أحد إلا الذين عرفوا دخيلة الأمر وعددهم قليل .

١ الحُمَيْمَةُ : من أعمال البلقاء في الشام .

٢ عباس : عم الرسول وعلي وإليه ينسب العباسيون .

وجملة القول ان الدعوة العلوية كانت ضعيفة ضئيلة بالنسبة إلى الدعوة العباسية . وتعود أسباب هذا الضعف إلى انقسام الشيعة وتعدد فرقهم . ثم إلى مبايعة أبي هاشم لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس والتفاف الشيعة الكيسانية عليه وعلى ابنه ابراهيم الإمام من بعده . ثم إلى مبايعة بعض العباسيين لمحمد بن عبد الله بن الحسن ، فإن العلويين غرتهم هذه الظاهرة من أبناء عمهم ؛ فركنوا إليهم . ومن أسباب الضعف أن العلويين بالغوا في الخروج على بني أمية . فكثرت فيهم التقتيل ؛ فقللوا وضعفوا . أما العباسيون فلم يعمدوا إلى العصيان ، ولم يقتل واحد منهم إلا بعد ان أظهروا دعوتهم ، فكثروا وقوّوا .

الدعوة العباسية

ابتدأت الدعوة العباسية بالظهور سنة ١٠٠ هـ (٧١٨ م) في خلافة عمر ابن عبد العزيز . فإن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بعد أن أخذ الوصاية من أبي هاشم ، أنشأ يؤلف الجماعات السرية ، فاختار اثني عشر نقيباً لبث الدعوة . وجعل تحت أيديهم سبعين رجلاً يأترون أمرهم . وأوصاهم أن يولوا وجوههم شطر خراسان لأنها أصلح من غيرها لنشر الدعوة . وبما قاله في كتابه لهم : عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير ، والجلد الظاهر . وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدغل . وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل ، ولحى وشوارب ، واصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة . وبعد فإني اتفائل الى المشرق ، والى مطلع سراج الدنيا ، ومصباح الخلق .

١ مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق : اي مطلع الشمس والقمر .

وقد أحسن محمد باختيار خراسان لان الأمصار العربية كانت تشغلها الاحزاب ، وكل حزب يسعى لنفسه . اما خراسان فان الفرس فيها يكرهون العرب وبني امية . ولكنهم لا يطعمون في الخلافة . وهم شيعيون في كثيرهم ، ولكنهم لا ينفرون من بني العباس لانهم هاشميون من أهل البيت .

فراح دعاة العباسيين يتنقلون في الامصار الاسلامية ، ويثبون الدعوة سرّاً متظاهرين بالتجارة وطلب الرزق . وبقوا على هذه الحال حتى توفي محمد بن علي ، وصار الامر الى ولده ابراهيم الإمام . فكتب ابراهيم مشايخ خراسان ودهاقينها ، وبعث اليهم الدعوة . ثم ارسل أبا مسلم الخراساني وكان كثير الدهاء شجاعاً مقداماً ، شديد الاخلاص للعباسيين . فجاء خراسان سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ م) واقام في مَرَوْ و يدعو الناس الى مبايعة آل محمد من غير تعيين ، لتكون الدعوة مبهمه ، مشتركة بين العباسيين والعلويين . وقد لجأ الى هذه الحيلة ليأمن معارضة الشيعيين في بلاد فارس . فتبعه خلق كثير . وكان على خراسان نصر بن سيار من قبل الأمويين . فخاف عاقبة الأمر ، فأرسل إلى الخليفة مروان بن محمد يخبره بحال أبي مسلم وكثرة من معه . وفي ذلك يقول :

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِیْضَ نَارِ ، وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضِرَامُ
فَإِنْ لَمْ يُطْفِئْهَا عُقْلَاءُ قَوْمِ ، يَكُونُ وَقُودُهَا جُثَّةٌ وَهَامُ

١ نشأ ابر مسلم في الكوفة ببيت الاب ، فتعهد تربيته عيسى بن معقل . وكان ان قدم الكوفة جماعة من نقباء الامام محمد بن علي بن عبد الله العباسي مع عدة من الشيعة الخراسانية فصادفوا أبا مسلم فأعجبهم عقله ومعرفته . ومال هو اليهم وعرف انهم دعاة للعباسيين فخرج معهم . وجاؤوا الى ابراهيم الامام بعد وفاة أبيه .

فإنَّ النارَ بالعودَيْنِ تُذْكَى ، وَإِنَّ الحَرْبَ أَوْلَاهَا كلامُ
فقلتُ مِنَ التعجُّبِ : ليتَ شعري ! أأَيْقَاطُ أُمَيَّةُ أَمْ نِيَامُ ؟^١
فتخاذل مروان عن إنجاد نصر ، وكتب إليه يقول : ان الحاضر يرى
ما لا يرى الغائب ، فاحسِّم أنت هذا الداء الذي قد ظهر عندك .
واشدت شوكة أبي مسلم ، فهرب نصر بن سيار فقصده العراق فمات
في الطريق .

وكان مروان قد تنبه في تلك الاثناء من غفلته ، فأرسل إلى الحُسيمه
بعثاً ، واعتقل ابراهيم الإمام . فلما قبض عليه أوصى بالخلافة إلى أخيه أبي
العباس السفاح . وأمر أهله وأنصاره بالمسير إلى الكوفة ، لأن فيها أنصاره
من الشيعة الكيسانية .

وحُبِس ابراهيم في حران^٢ حتى مات . واختلف في سبب موته فزعم
بعضهم انه سقي سماً ، وقال آخرون : بل هدم عليه بيت فمات .
فلما علم أبو مسلم بموته ، دعا أهل خراسان إلى مبايعة أبي العباس
السفاح ، فأجابوه ، ثم سَيرَ العساكر لقتال مروان . وكان السفاح قد ذهب
بأهله وأنصاره إلى الكوفة ، فأظهر دعوته هناك فبايعه أهلها في ١٢ ربيع
الثاني سنة ١٣٢ هـ (٢٨ تشرين الثاني سنة ٧٤٩ م) .

وتجهزت العساكر الخُراسانية وغيرها من جهة السفاح لقتال مروان .

١ ليت شعري : أي ليتني شعرت . وشعري اسم ليت والخبر مضر استغني عنه بالياء مفعول
شعر ، وتقديره واقع .

٢ حران : قال ياقوت : « هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور وهي قصبة مضر بينها
وبين الرها يوم وبين الرقة يومان . وهي على طريق الموصل والشام والروم . »

ومقدّمها عبد الله بن علي عم السفاح . وتقدم مروان بجيشه إلى الزاب الأعلى^١ فالتقته جيوش العباسيين وقاتلته ، فاندحر مكسوراً . واشتفت نفوس الفرس من العرب في ذاك اليوم بعد أن قهرها وأذلها يوم القادسية . وتعقب جيش السفاح مروان في هزيمته ، حتى أدركه في مصر صالح أخو عبد الله بن علي ، فقتله واحتز رأسه ، وأرسله إلى السفاح . وباع أهل مصر العباسيين فاستتب لهم الأمر ، وزالت الخلافة الأموية من الشرق بعد مقتل مروان .

ميزة العصر

فقد رأيت أن الفضل في بنيان العرش العباسي للفرس عموماً ، ولأبي مسلم خصوصاً . فلا غرو أن تصطبغ المملكة العباسية باللون الفارسي ، ويكون للفرس صوت بعيد فيها ، فيستأثروا بالخطط العالية ، ويتولوا شؤون الدولة ، ويدبروا سياستها ، ويتمتعوا بجميع الحقوق التي كان العرب يتمتعون بها دونهم . فقد أعادت لهم موقعة الزاب سابق عزهم . فغلب عنصرهم على العنصر العربي ، وطبعوا العصر العباسي الأول بطابعهم الخاص . على أننا لا نرى إطلاق الكلام دون احتياط ، فإن بني العباس في عصرهم الأول كانوا أصحاب حزم وقوة وتديبر . وقد علموا أن الفرس أهل سيادة وبطش ، ورأوا منهم اخلاصاً ومناصرة ، فقرّبوهم ، وقلدوهم أعمال الدولة . ولكنهم لم يحجموا عن الفتك بكل من يخشى شره منهم ، فأبو جعفر المنصور قتل أبا مسلم الحراساني لما داخلته الريبة في اخلاصه ، مع

١ الزاب الأعلى : نهر بين الموصل واربيل ونخرجه من بلاد مشتكر وهو حد ما بين اذربيجان وبابغيش . ويفيض في دجلة . ويسمى بالزاب المجنون لشدة جريه .

ان أبا مسلم هو الذي حمل اعباء الدعوة العباسية على عاتقه . والرشد
نكب البرامكة^١ على بكرة أبيهم ، لما استفعل أمرهم ، وقويت شوكتهم ،
وأحس منهم خطراً على سلطانه .

فخلفاء هذا العصر كانوا شديدي الحرص على ملكهم ، يستحلّون كل
شيء في سبيل تأييده . فقد تجدهم أعدل خلق الله وأعظمه تسامحاً ، ثم تجدهم
أكثره جوراً وتشدداً . وهذه الصفات على تناقضها تجتمع فيهم محافظة على
العرش ، وذوداً عن حياضه . فإذا نظرت إلى تساهلهم الديني ، وأطلاقهم
حرية الفكر ، فلا ينبغي أن تغفل عما كان يعانيه الأفراد والجماعات من
ضغط وتككيل . فالحرية عندهم مكفولة ما دامت بعيدة من سياسة
الأحزاب . والتساهل عندهم مباح ما دام لا يؤثر في الملك .

ويجمل بنا أن نوضح هذه المسألة فنقول : ان الشعب العباسي لم يكن
عربياً خالصاً بل خليط شعوب متعددة . فإن المنصور لما بنى بغداد^٢ سنة
١٤٥ هـ (٧٦٢ م) وجعلها مقر الخلافة ، جمع بين العرب والفرس وأمم
أخرى عجمية كانت تسكن العراق ، وتدين بالنصرانية وغير النصرانية .
ورأى الخلفاء أن العناصر التي تدين بغير الإسلام لم تبرح قوية ، وان عدداً

١ البرامكة : أسرة فارسية كان منها وزراء الدولة العباسية حتى نكبتهم الرشيد . وبرمك
رتبة وراثية حاصه برئيس الكهان بمعبد « نوبهار » ببلخ . وكان البرامكة قبل اسلامهم
يملكون الأراضي التابعة لهذا المعبد ويتولون فيه رئاسة كهان النار .

٢ بنى المنصور بغداد بعد موقعة الهاشمية لما ثار به أهل خراسان على أثر مقتل أبي مسلم .
وكادوا يفتكون به . وكان أهل الكوفة وهم في كثرتهم شيعيون ، يفسدون عليه جنده .
فكره البقاء في الهاشمية . وهي غير أمينة لقربها من الكوفة ، ثم لانفتاحها لبلاد الفرس .
وبنى بغداد وجعلها وسطاً بين العرب والعجم . ولم يكن بوسعه أن يعيد مقر الخلافة إلى
دمشق لأنها أموية ، ولأنه لا يريد ان يعتمد بنظره عن بلاد فارس .

غير قليل من الفرس المسلمين لم يكن لهم نصيب وافر من الايمان ، لحداثة
عهدهم بالإسلام، ولتأثير الدين القديم في نفوسهم. فقصت عليهم مصلحة الدولة
بإطلاق حرية الدين، فأطلقوها محافظة على الأمن واسترضاء للعناصر الغريبة.
وكان أكثر هذه الشعوب التي اختلطت بالعرب على جانب عظيم من
العلم والحضارة. فرأى الخلفاء أن يستغلوا معارفهم ، ويستفيدوا منها .
فأطلقوا لهم حرية الفكر والقلم ، فأكبوا على النقل والتأليف ، وأنحفوا
العربية بكنوز ثمينة كانت العون الأكبر في نهضة العلوم والآداب .
ولئن أفادت حرية الدين والفكر من ناحية لقد أضرت من ناحية أخرى.
فإنها نشرت الخلاعة والسكر والمجون ، وولدت البدع في الإسلام ،
وأورثت الهزء بالأديان ، فكثرت الشك وكثرت الزندقة .
وأما الحرية السياسية فإن الخلفاء رأوا من الحزم أن يخنقوها لئلا
يعرضوا ملكهم للثورات والفتن . فأصبح لا يجرؤ امرؤ على الجهر برأيه
ومذهبه إلا ألقى بنفسه إلى التهلكة . وكثرت الجوايس والوشايات ،
وكثر الحبس والاعتقال. فربّ وزير استمتع في يومه بعطف الخليفة وثقته،
فإذا هو في غده مردول أو مقتول . وربّ شاعر كانت منه فلتة فلاقى في
جزائها حبساً أو ضرباً أو قتلاً إلثم يعاقب بها جميعاً .
ونحسبك أن تنظر إلى فتك الخلفاء بالوزراء والقواد والعمال وسراهم ،
وفتك هؤلاء بمن دونهم ، لتبين ما كان في هذا العصر من عسف واضطهاد
وشايات ودسائس .
وجماع القول ان العصر العباسي الأول يمتاز بالنفوذ الفارسي ، وحرية
الفكر ، والتساهل الديني . ولكن ينبغي أن نضع دون هذه الميزات
مصلحة المملكة ، فعندها يقف كل نفوذ ، وكل حرية وتساهل .

الشعراء المولدون

العصر الأول

ميزة الشعر . التجدد اللفظي . التجدد المعنوي . الدفاع عن القديم . أغراض الشعر وفنونه . منزلة الشاعر المولد .

ميزة الشعر

لم يكن انتقال الشعر من البداوة إلى الحضارة مرهوناً بانتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين . بل أخذ الشعر يتحضر في صدر الإسلام على أثر الفتوح الكثيرة ، وملابسة العرب للأعاجم ، وانتقال الخلافة إلى دمشق ، وفيها القصور والجنائن والأنهار ، وفيها أثر كبير من حضارة البيزنطيين . ولكن العصر الأموي كان عصر حروب وفتن ، فلم يبدأ هادئاً ، ولم يطل عهده ، فيبلغ أهله غايتهم من الترف وال عمران . أضف إلى ذلك أن خلفاء بني أمية كانوا على تحضرهم ، ينزعون إلى الحياة البدوية . ويؤثرون العرب الخلتص على غيرهم من الشعوب . ويرتاحون إلى أساليب الجاهليين وطرقهم . فما أتبع الشعر أن يبلغ الطور الذي بلغه بعد أن أديب العباسيون من الأمويين ، وبنيت بغداد وجعلت عاصمة الخلافة ، واشتد اختلاط العرب

١ المولدون : الذين جاؤوا بعد الاسلاميين ، ويقال لهم المحدثون . والمولد : العجمي المولود بين العرب ، ويطلق على الشعراء المحدثين دون تخصيص . والمحدث : المتأخر . وقد أطلقنا لفظ المولدين على شعراء العصر العباسية الأربعة وأطلقنا لفظ المحدثين على من جاء بعدهم في عصري الانحطاط والانبعث .

بالأعاجم ، وساد النفوذ الفارسي ، وامتلات خزائن الدولة بما أفاء الله على المسلمين من أموال الفرس والروم ، فانهل من فيضها على الناس ، فوفرت لهم أسباب الرزق ، فانبسطت حياتهم فأتروا وأمعنوا في الترف .
 وكان للشعراء القسط الأوفر من هذا العيش الحُضيل . فإن الخلفاء بعد أن استتب لهم الأمر ، ودانت لهم الأعداء ، وخضدوا شوكة الأحزاب ، انصرفوا إلى الحياة يتذوقون نعيمها ، والشعر من نعيم الحياة ، فغربوا الشعراء وجعلوهم ندماءهم . فأيسر الشعراء واتسعت ذات يدهم ، فرفهوا وأسرفوا في اللذة ، فرقت طباعهم ، ولانت نفوسهم ، ورقّ شعرهم ولانت ألفاظه وقلّ استعمال الغريب فيه . والشعر مرآة النفس ، فإذا كانت النفس قاسية خشنة خرجت الألفاظ وحشية صلبة . وإذا كانت لطيفة ناعمة خرجت الألفاظ سهلة لينة .

ولم يكن للشعراء الموالي حظ في صدر الإسلام ، فلم يرتفع شأنهم ولم يكثر عددهم . وأما في هذا العصر فقد تكاثروا ونموا ، واشتدّ خطرهم ونبتت منهم طائفة تقلدت زعامة الشعر واعترف لها الشعراء .
 وقد علمنا أنهم يكرهون العرب ، فأنفوا أن يتشبهوا بهم ، ويقلدوهم في أساليبهم ، وكان لهم من حضارتهم ومن عنصرهم العجبي ما يبعدهم من وحشي اللفظ وبدوي المعنى ، فكان لهم الفضل في تجدد الألفاظ ، وفي تجدد المعاني .

التجديد اللفظي

فأما التجديد اللفظي فلم يقتصر على تسهيل الألفاظ وتليينها ، بل تعداها إلى تزيينها وتنميقها . فقد عني الشاعر العباسي بتوشيتها كما عني بتوشية ثوبه وداره وماعونه . فأكثر من الاستعارات والتشبيه والتزمها التزاماً .

وافتن^١ في أنواع البديع وتعده تعمداً . وأول من تكلفه وخرج به عن عفو الحاطر بشار بن برد ، فمسلم بن الوليد ، فأبو نواس ، فأبو تمام . والحياة العباسية كانت تدعو إلى هذا الوشي والتنسيق من جميع نواحيها . فمن انغماس في الرخاء والترف ، إلى تخلق بأخلاق فارسية يلائمها الافتتان والتصنع لبعدها من السذاجة والفطرة .

ودخل على لغة الشعر ألفاظ غريبة دعت إليها الحاجة ، كالألفاظ العلمية والفلسفية وغيرها مما يدل على أشياء حديثة العهد عند العرب . ودخل عليها أيضاً ألفاظ استعيرت من صلب اللغة لمعانٍ مستحدثة خلقتها الحضارة الجديدة . وأما أوزان الشعر وقوافيه فلم تتجدد تجدداً يذكر . ولكن الشعراء أخذوا يُعَنون بالنظم على الأوزان الرشيقة التي تصلح للغناء . وأكثر ما كانوا يصطنعونها في الغزل والمجون والحمريات .

وأصبحوا يتحامون أو يتحامى أكثرهم ما كان يستهدف إليه الأقدمون من إشباع^١ وخرم^٢ وإقواء^٣ وإكفاء^٤ وغير ذلك من عيوب الوزن والقافية .

وعلى الجملة فإن التجدد اللفظي ظهر ظهوراً جلياً في شعر العباسيين ، ولم يكن دونه التجدد المعنوي .

١ الإشباع في الوزن : تلبيح الحركة حتى يتولد منها حرف لين .

٢ الحرم : حذف أول الوند المحموم من أول البيت كحذف فاء فعولن في الطويل فيبقى عولن فينقل إلى فعلن .

٣ الإقواء : اختلاف حركة الروي ، كأن تكون قافية البيت الواحد مكسورة ، وقافية الآخر مضمومة .

٤ الإكفاء : اختلاف حرف الروي ، بحيث يقترب بما يقاربه في المخرج كأن يكون روي البيت الواحد نوناً وروي الآخر لاماً .

التجديد المعنوي

كان من أثر اختلاط العرب بالأعاجم في السكنى والزواج ، ان نشأ جيل عباسي له ثقافة وتفكير جديد . وله حضارة فارسية تميل به عن بداوة الأعراب ، لذلك أخذ الشعراء يتعدون عن المواضيع الجاهلية إلى معاني طريفة يستمدونها من روح العصر ومشاهد البيئة . وقد تصرفوا في هذه المعاني تصرفاً لم يبلغه المتقدمون وأبدعوا في التوليد^١ والاختراع .

واتسع عليهم باب الخيال لاتساع سبل اللّهُ ، ووسائل العبران . فمن قصور شواقي ، وحدائق نواضر ، إلى نهور دواقي ، وسفائن مواخير . فأصبحوا إذا عبدوا إلى التشبيه استمدوا أكثره من البساتين والحلى والرياش والطيوب . فذاع عندهم تشبيه الحدّ بالتفاح والورد والياسين . والبنان بالعناب . والعيون بالنرجس . والحمر بالياقوت والذهب . والكأس بالؤلؤ . وقوس السحاب بأذيال مصبغة . والمهلال بين الغيوم بزورق من فضة عليه حمولة من عنبر . وغير ذلك من ألوان الحضارة الجديدة .

على أن هذا الخيال كان يرافقه العقل ، فما يدعه ينطلق على هواء ، كما كان ينطلق خيال الشاعر الجاهلي والإسلامي ، بل عُنِيَ بتهديبه وتنظيمه . فنشأ عن ذلك انساق في الأفكار ، فأصبح الشاعر إذا تغزل وأراد الانتقال إلى المدح لا يشب إليه وثباً ، بل يمد جسراً يعبر عليه ، وهذا ما يسمونه حسن التخلص .

ولا ريب في أن نقل الفلسفة والمنطق كان أثره بليغاً في تثقيف أفكار الشعراء وتنسيق خيالاتهم . وأثر فيهم نقل العلوم فاستعملوا الأغراض العلمية في شعرهم ، ولم تكن معروفة من قبل . كقصيدة صفوان الانصاري

١ التوليد : هو ان يولد الشاعر معنى جديداً من معنى مبتذل .

التي يصف بها معادن الأرض راذآ على بشار بعد أن مدح بشار إبليس ،
وزعم أن النار خير من الأرض . وحسبك أن تقرأ منها هذين البيتين لتعلم
مبلغ تأثير العلوم الدخيلة في الشعر العباسي فال :

وفيها ضُرُوبُ القارِ والشَّبِ والنَّهْيِ ،
وأصنافُ كِبَرِثٍ مُطَاوِلَةُ الرَّقْدِ^١
ومِنْ إِتْسَادِ جَوْنٍ ، وَكِلْسٍ وَفَضَّةٍ ،
وَمِنْ ثُرَيْبَاءٍ فِي مَعَادِنِهِ هِنْدِي^٢

ولكن هذا التجدد في اللفظ والمعنى لم يشل أبناء العصر كلهم بل كان
هناك جماعة المحافظين على القديم، يدافعون عنه دفاع المستميت، ويناهضون
الجديد بجميع قواهم . حتى ان الشعراء المجددين كانوا يتكلفون الأساليب
القديمة بعض الأحيان ارضاء لهؤلاء .

الدفاع عن القديم

وغير طبعي أن يحدث شيء جديد مكان شيء قديم ، دون أن يدافع
هذا القديم عن نفسه . سَنُتَسَارِعُ البقاء . ويستوي في ذلك الممالك
والقبائل والأديان والمعايش والأخلاق والعادات والأزياء والعلم والأدب :
شعره ونثره . فقد أثار الأدب الجديد على الأدب القديم في العصر العباسي
الأول . فثبت له هذا، وأعد ما لديه من قوى الدفاع ليرد عنه غائلة غازيه .

- ١ وفيها : الصمير يعود على الأرض . ضروب : جمع ضرب وهو النوع . القار : الزفت .
الشب : ملح معدني يعرف عند العامة بالشبة . النهى : الزجاج وحجر أبيض أرغى من
الرحام مطاولة الرقد : مطاطة في الاشتغال .
- ٢ إتمد جون : كحل أسود التوثياء . حجر يكتحل به .

ومن المعقول أن يكون للأدب القديم أنصار واتباع ، يقاومون دعاة المذهب الجديد . فإن جماعة العلماء والرواة وذوي السلطان كانوا يستغربون هذا الجديد ، وينعرونه على أصحابه ، وربما أنف الرواة من روايته ، والاستشهاد به ، ولو جاء آية في الابداع .

وقد أخذ يظهر كره الجديد والدفاع عن القديم في الصدر الثاني للإسلام . فإن بعض الرواة كانوا يعدون شعراء بني أمية مولدين ، بالإضافة إلى شعراء الجاهلية والصدر الأول ، ويرفضون الاحتجاج بأقوالهم . وأقدم أصحاب هذا المذهب أبو عمرو بن العلاء ، وكان لا يرى خيراً إلا في الشعر الجاهلي والمخضرم . فإذا سئل عن المولدين قال : « ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم . » وربما أعجبه شعر جرير والفرزدق فيقول : « لقد حسن هذا المولّد حتى هممت ان آمر صبياننا بروايته . »

فيستدل من ذلك أن العلماء كانوا لا ينكرون الجمال على الشعر المولد ، ولكن يعتقدون انه مستمد من الشعر القديم ، ويأبون الاستشهاد به لقلة ثقتهم بلغة المولدين من أهل عصرهم .

وقد يستشهد بعضهم مكرهاً بشعر مولّد كما فعل سيبويه والأخفش ، فإنهما لم يحتجا بشعر بشار إلا بعد أن هدهما بالهجاء .

ولأبي نواس مداعبات كثيرة مع أنصار القديم . فقد كان يستهزئ منهم وهم ينكرون عليه شذوذه عن مذهبهم .

ولطالما تعرض الشعراء المجددون للضرب والطرْد والحبس ، لأن الخلفاء العباسيين كانوا يؤثرون مسايرة المحافظين على القديم ، لما يتعلق بهذا القديم من تقاليد دينية ، وروابط عصبية . وربما اتهم الشاعر المجدد بالزندقة فلا

ينجو من العقاب لذلك كان يعتصم بالتقية بعض الأحيان فيتحدى مذهب
الأقدمين ولا سيما في المدح والثناء . فيقف على الطلول ويبكي الدمن ،
ويصف ناقته ، ويكثر من الغريب ، ليرضي بمدوحه أو أهل مَرثيته ،
ول يظهر لأصحاب اللغة انه خالط العرب الصرخاء ، وأخذ عنهم لغاتهم
واصطلاحاتهم حتى استوى لسانه وسليم من العثار .

فإذا أنت درست شعر هذا العصر ، وأيته يختلف في تجده ، ومحافظته ،
باختلاف فنونه وأغراضه . وأكثر ما يظهر لك الجديد من الشعر في الغزل ،
والمجون ، والحرر واللهو ، ووصف القصور والحداثق ، والطبيعة والرياض .
لأن الشعراء كانوا يصورون في هذه الفنون عواطفهم وأخلاقهم ، ويصورون
عادات عصرهم وأخلاق أبنائه ، وما فيه من ترف وخلاعة ، وما تقع عليه
عيونهم من جمال مطبوع وجمال مصنوع . وأما في وصفهم القفار والطلول
والإبل فيصورون عصرآ يختلف كثيراً عن عصرهم . فهم في تجددهم
صادقون ينطقون بما يرون ويحسون ، وهم في تقليدهم كاذبون مسيرون .

أغراض الشعر وفنونه

تعددت أغراض الشعر في هذا العصر وتنوعت بتنوع أسباب الحضارة
ولكنها لم تكن كلها في مستوى واحد . فمنها ما كان قوياً وضعف ،
ومنها ما كان ضعيفاً فقوي . وأهمل بعض الفنون ، وبقي بعضها على حاله .
واستحدثت فنون أخرى لم تكن معروفة في الشعر القديم . ولضعف هذه
الأغراض وقوتها وإهمالها واستنباطها أسباب تأتي على ذكرها :

١ الشعر السياسي

شاع هذا الفن في الصدر الأول للإسلام بين شعراء النبي وشعراء
المشركين . ثم ازدهر في الصدر الثاني يوم كانت الأحزاب السياسية تتطاحن ،

وبنو أمية يصطنعون الشعراء للدفاع عن حقوقهم . ولكنه لم يلبث أن أخذ يتضاءل بعد قيام الدولة العباسية ، واعتمادها على السيف في قهر أعدائها . فتفككت عرى الأحزاب ، فتلاشى بعضها ، وضعف خطر الآخر منها ، كالعلويين والحوارج لانقسامهم ، وكثرة ما نالهم من التقتيل .

وكان أكثر الشعراء الناهين من الموالي . وهؤلاء لا عصبية لهم في القبائل العربية فيكون لشعرهم السياسي تأثير بليغ كتأثير شعراء الجاهلية والاسلام . لأن أولئك كان لهم منزلة رفيعة في نفوس القبائل التي ينتسبون إليها ، وفي نفوس القبائل التي تناصبهم العدا . فبنو أمية لم يصطنعوا الأخطل شاعراً سياسياً إلا لأن بني تغلب كانت تقوم وتقعده لشعره ، ولأن القبائل المعادية كانت تتصور من هجائه المقذع الألم . فهيات أن يكون لشاعر من الموالي مثل هذا التأثير مهما علا قدره في دولة القريض .

ولولا ملاحظات الشعوبية والعرب ، وبقيّة نضال بين العباسيين والطالبين^١ لاضمحلت الشعر السياسي . ولكنه على ضعف خطره لم يخل من شر وافذاع . وخصوصاً ما كان من الشعراء الموالي بعد أن قويت شوكة الشعوبيين ، فلمهم أخذوا يعيرون العرب وينشرون مثالهم . وفي شعر أبي نواس أبلغ شاهد على ذلك . ثم ما كان من شعراء الشيعة ، فإن بعضهم أسرف في هجاء بني العباس ، وأفحش القول في خلفائهم . على حين أن شعراء العباسيين كانوا يتورعون من هجاء العلويين ، ذلك بأنهم أبناء بنت الرسول . وأشهر شعراء القصر العباسي : مروان بن أبي حَفْصَة ، وأبو العتاهية ، وأبو نواس ، وأبو تمام . وأشهر شعراء الشيعة : السيد الحِمَيْرِي ، ودِغْبِيل ، وديك الجِن .

١ الطالبين : العلويين نسبة إلى أبي طالب والد علي .

٢ الغزل والمجون

رأينا في الكتاب الأول كيف نهض الغزل في صدر الإسلام بنوعيه البدوي العفيف ، والحضري المتهتك . فأما الأول فلم يبقَ له حظ كبير في هذا العصر لشيوع الحلاعة والفسق في جميع الحواضر والأمصار . ولأن شعراء البادية كانوا يتهافتون على بغداد متكسبين ، فتستهوهم حضارتها ، ورخاء عيشها ، فتطيب لهم السكنى فيها ، فما يلبثون أن يدب فيهم الفساد ، فيتخلقوا بأخلاق أهلها .

وأما الثاني فقد ازداد شيوعاً وكثر أتباعه ، وولدوا منه نوعاً جديداً صوروا به مبلغ ما انتهى إليه الفساد عندهم ، وهذا النوع هو الذي يسمونه غزل المذكر . وكان سبب ظهوره اختلاط العرب بالأعاجم المترفين وكثرة الرقيق من غلمان الترك والديلم والروم . وربما اصطنع الشعراء غزل المذكر في الإناث تلطفاً وتكنية أو مجارة للوزن والقافية .

وكان للمرأة العجمية البيضاء نصيب من الرق ، وكانت على جانب من العلم والأدب ، تقرض الشعر وتحسن الغناء ، ولا تتخرج من مجالسة الرجال ومناذمتهم ، فتحول الغزل إليها بعد أن كان محصوراً في المرأة العربية . وكثرت مجالس اللهو ، فكانت تعقد في دور الخلفاء والأمراء كما تعقد في الحوانيت والمنازل الخاصة .

وأفرط الشعراء في المجون لاتساع رزقهم ، وفيرة أسباب لهوهم ، فخلعوا رداء الحياء . وأرادوا التغزل فتعهرؤا ، واسرفوا في تعهرهم ، فكان شعرهم صورة لتلك البيئة المريضة الأخلاق .

وكان الغزل في الجاهلية والإسلام تمازجه الأنفة والرصانة ، فاكتسى في العباسيين ثوب العبودية والمذلة . فصار الشاعر لا يطيب له إلا أن يفرش

خديه موطئاً لقدمي حبيبه ، وإلا أن يدعوه مولاه وسيده ومالك رقه .
والاسراف في اللذة يولد الذلّ والعبودية في نفس طالبيها ، لأن النزول
بالحب من الدرج الأعلى إلى الدرك الأسفل يمت الأنفة ، ويبعث الخنوع .
ولا نرى حاجة إلى التبسط في الكلام على الغزل الذي كانوا يوطئون به
قصائد المدح ، فالتكلف ظاهر على أكثره ، لأن أصحابه كانوا ينظمونه
ترسماً للأقدمين ، لا اندفاعاً مع الشعور الصادق .

٣ الشعر الحمري

ولا غرو أن يكون للخمرة سهم وافر من هذه الحياة الأثيمة، وهي آلة
الإثم، فتذيع بين الناس ويذيع معها الشعر الحمري، بعد أن كاد يتلاشى في صدر
الإسلام. ولولا الأخطل والوليد بن يزيد وبعض الشعراء المغمورين لما كان له شأن.
وزاد الناس إقبالاً عليها إقدام بعض الخلفاء على شربها ، فقد كانوا
يقيمون مجالس اللهو في قصورهم ، فتغني القيان لهم ، ويدور الغلمان عليهم
بالكؤوس ، فيشربون ويلهون ويعبثون . وكانت بغداد وما جاورها من
القرى حافلة بالخوانيت والداكر، فكان الشعراء يقصدونها للسكر واللهو،
فاقتنوا في وصف الخمرة وكؤوسها ، وتأثيرها في نفس شاربها ، ووصف
السكرى وعربدتهم، والساقى والساقية والقينة والنديم، فأبدعوا في هذا الفن
أبداً إبداعاً وأحدثوا فيه أشياء جديدة لم يسبقوا إليها. ونستطيع القول ان الشعر
الحمري بلغ غاية الجمال في هذا العصر لو لم يشبه شيء كثير من التعهر والمجون.

٤ المدح

كانت بغداد مورداً عذبا لطوائف الشعراء ، فأقبلوا عليها ينهلون من
فيضها ، فما ينضب معينه ولا يرتوون . فتكاثر عددهم ، واخذوا يتنافسون

في مدح الخلفاء والأمراء مستدرين أكفهم ، مبالغين في مدحهم ، والزلفى إليهم . فأصبح الغلو ميزة خاصة لهذا النوع من الشعر ، لأنه جعل آلة للتكسب . ولأن أولي الأمر تبدلت أذواقهم بتبدل البيئة ، فخرجوا عن السذاجة الفطرية التي كان يتحلى بها الأوائل ، واستهوتهم ابهة الملك وعزة السلطان ، وهزتهم الحضارة الفارسية بما فيها من صور وألوان . فأصبحوا وفي نفوسهم من الكبر والعتو ، ما يجيب إليهم مغالاة الشعراء في مدحهم . وصاروا يرتاحون إلى كاذب الأقوال ، كما كان أسلافهم يطمثون إلى صادقها . ولم يربوا الشعراء بأنفسهم عن الكذب والتملق فماتت أنفقتهم ، وأراقوا ماء وجوههم ، وغفروا جباههم على الأعتاب . وقل من صان نفسه عن الزلفى والتذلل .

• الهجاء

ظلّ الهجاء على ما كان عليه في صدر الإسلام من فحش وإقذاع . وكثرت مهاجمة الشعراء بعضهم لبعض . ولم يتنكبوا عن هجاء الخلفاء فعلّ بشار ودعبل . وجعلوا الهجو كالمدح آلة للتكسب ، يهددون به من يمدحونه ، إذا أخلفهم غيبه ، أو أقل درّه . فعرضوا أنفسهم للحبس والضرب والنفي ، وللموت أحياناً .

٦ الرثاء

اكتسب الرثاء العاطفي رقة وسهولة ، فزاد تأثيره في النفوس . وأما الرثاء المتكلف فكان كالمدح مشحوناً بالغلو والكذب . وبما ينبغي ذكره أن الشعراء أكثروا من توطئة مرثيتهم بالزهد والمواعظ ، وذم الدنيا والتذمر على الدهر .

٧ الفخر والحماسة

من المعقول أن يضعف هذا النوع بعد أن انصرف الشاعر إلى اللهو والمجون والتزلف ، وبعد أن فقد عصبيته وسيادته ونخوته وفروسيته .
وخصوصاً أن أكثر الشعراء من الموالي ، وهم في جبلتهم فرسان قصف لا فرسان حروب .

٨ الزهد

لم يُعرف الزهد على حقيقته إلا في هذا العصر بعد أن ترجعت الحكمة الفارسية الهندية ، واطلع عليها الكتّاب والشعراء . وكان أبو العتاهية أول شاعر تأثر بها فأظهرها في شعره . وافتن في الزهد فأبدع بعد حياة قضاها بالعبث والمجون . وجاراه كثير من الشعراء فأجادوا ، ولكنهم لم يبلغوا غايته .

٩ الحكم

والحكم أيضاً كان لها شأن يذكر ، وارتفعت بعد نقل الفلسفة اليونانية ، فاصطنعها الشعراء ومنهم من أكثر منها ، وطبع بها شعره كأبي تمام .
وتختلف الحكم في هذا العصر عنها في الجاهلية والإسلام أنها أصبحت قائمة على مذاهب فلسفية ، وأدلة عقلية ، وتفكير صحيح ، ولم تبقى محصورة في ما توجيه للشعراء تجارب الأيام وحوادثها .
وإليك مطلع قصيدة أنشدها محمد بن عبد الملك في حضرة المأمون ، يحرضه على قتل إبراهيم بن المهدي^١ حين ظفر به ، فتجد الفلسفة اليونانية
١ إبراهيم بن المهدي هو عم المأمون ، ادعى الخلافة وخرج على ابن أخيه ، فطارده المأمون حتى ظفر به فمعا عنه .

ظاهرة كل الظهور :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّيْءَ لِلشَّيْءِ عِلَّةٌ ، يكون له كالتأثير يُقدَحُ بالزَّندِ ؟

١٠ الطوديات

وعني الشعراء بوصف الصيد والكلاب والجوارح ، واتخذوا لذلك بحر الرجز لسهولة ولينه وحسن مؤاثاته في الوصف . وكان هذا الفن قد ضعف في صدر الإسلام لاستغال الناس بالحروب عن الصيد واللهو . فلما قامت الدولة العباسية وتوطدت أركانها ، واطمأن الخلفاء إلى ملكهم ، ووفرت لهم أسباب اللهو والترف ، أولعوا بالصيد ، فصرفوا له وقتاً غير قليل من حياتهم الخاصة . وأولع الناس به اقتداء بملوكهم فأولع الشعراء بوصفه . فاستعاد هذا الفن سابق عزه في الجاهلية . ولكن الشعراء العباسيين كانوا متأثرين بجسارة الفرس وما فيها من جديد فأمعنوا في وصف الكلاب والجوارح والديك والفهد بخلاف الشاعر الجاهلي فإنه كان يجعل همته في وصف جواده الذي ينطلق به في أثر الحمر الوحشية .

١١ الفن التعليمي

لن نجد في هذا الشعر ما يروقك لأنه غث بارد ، اصطنعه أصحابه لنظم أنواع شتى من العلوم ، تسهلاً لحفظها بعد أن أصبح الإقبال على العلم عظيماً . والناظم في هذا الفن لا يسمو بنفسه إلى الخلق والابداع ، فالأفكار ماثلة أمامه ، فما عليه إلا أن يجمعها في كلام موزون مقفى ، خالٍ من الروعة والرونق ، وليس في هذا كبير أمر على من يحسن النظم . وأول من طلب هذا الفن ، أبو الفضل سهل بن ثوبخت من خدم المنصور والمهدي ، فإنه نظم كتاب كليله ودمنة . ثم تلاه أبان بن عبد

الحميد اللاحققي شاعر البرامكة ، فنظم فنوناً مختلفة من العلوم ، منها كتاب كليله ودمنة ، قدمه لآل برمك ليحفظوه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار . وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف دينار . ولم يعطه جعفر شيئاً وقال له : « يكفيك أن أحفظه فأكون راويتك . » قال في مستهله :

هَذَا كِتَابُ كَذِبٍ وَمِخْنَةٍ ، وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى كَلِيلَةَ دِمْنَةٍ
فِيهِ دَلَالَاتٌ وَفِيهِ رُشْدٌ ، وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعْتَهُ الْهِنْدُ
فَوَصَّفُوا آدَابَ كُلِّ عَالِمٍ ، حِكَايَةً عَنْ أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ
فَالْحُكَمَاءُ يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ ، وَالسُّخَفَاءُ يَشْتَهُونَ هَزْلَهُ

وعلى الجملة فقد تعددت أغراض الشعر المولد ، وخصبت الأفكار بالمعاني الطريفة ، واتسع باب الوصف وتعددت سبله . فبالغ الشعراء في التشبيب ووصف الحمرة والصيد والأخلاق والحصال والعادات . وهم ، وإن اقتصدوا في وصف القفار والطلول والإبل والوحش ، بعامل التطور الاجتماعي ، لقد استعاضوا عنها وصف القصور وزخرفها ، والبساتين ومياها ، والطبيعة ورياضها .

وبما ينبغي ذكره أن هذا الشعر على تعدد أغراضه لم يجاوز النوع الغنائي . ونصرف النظر عن الفن التعليمي لأنه خارج عن صفة الشعر الحقيقية ، فما نعد نظم كليله ودمنة وغيرها من النوع القصصي لضعف الميزة الأدبية فيها ، وخلوها من الروعة والطلاوة . ولا نعد الحوادث الصغيرة التي يرويها الشاعر بقلب قصصي ، لأننا نريد الملاحم الطويلة التامة كالإلياذة والاولديسه وسواها .

ونرى أن خلو الشعر من هذا النوع يرجع أولاً إلى جهل العرب للأدب اليوناني لأنهم لم ينقلوه كما نقلوا العلوم والفلسفة . ثانياً إلى أن الشعراء لم يهتموا بنظم قصص طويلة ، لانصرافهم إلى التكسب من أقرب الطرق والملاحم تقتضي وقتاً طويلاً ، وربما كان كسبها قليلاً ، لأن الأمراء تعودوا ألا يجيزوا الشعراء إلا على المدح .

وكذلك النوع التشبيلي ظل مفقوداً بتأثير هذين العاملين ثم لأن المجتمع الإسلامي في العصر العباسي ، على تمتعه بجرية الفكر والدين ، ما كان يسمح للمرأة بأن تمثل مع الرجل في ملأ من الناس ، والمرأة عضو لا غنى عنه لانتشار هذا الفن . أضف إلى ذلك أن التشبيل لا يظهر إلا بعد أن ينضج النوع الغنائي ، وتتقدم الفلسفة والعلوم ، وتوضع النظم السياسية والاجتماعية . وهو ينتشر غالباً في الحكومات الديمقراطية أكثر مما ينتشر في حكومة الفرد التي تبسط يدها عليه وتقيد به بشيئها المطلقة ، لأنه يتناول العبر التاريخية والمسائل الاجتماعية ، ويبين مغبة الإثم ونتيجة الخير ، مما لا يخلو من أذاعة ذوي السلطان المستبدين بأموال الشعب وأعناقهم . ولو قدر له الظهور في بني العباس ، لما كان الحكم الإسلامي المصطبغ بالدين ، ليرضى عنه ، وهو عندهم تزوير للأشخاص .

منزلة الشاعر المولد

لم تكن للشاعر المولد تلك المنزلة التي تبوأها زميله في الجاهلية وصدر الاسلام يوم كان يدافع عن قبيلته ، وينشر مخازي أعدائها . أو يخفض بيت من الشعر شأن قبيلة ناهية ، ويرفع بيت قدر قبيلة خاملة . أو يؤيد حزبه السياسي بالرد على خصومه . وكان السبب في تجرده عن هذه الخصائص ضعف العصبية في القبائل لنفوذ الموالي ، واختلاط العرب بهم ، ونشوء

شعب جديد غير صافي العروبة ، وتلاشي الأحزاب وانحلالها . ثم ان الخلفاء العباسيين اعتمدوا في تأييد سلطانهم على السيف دون الشعر . على ان الشاعر المولد استبدل من المنزلة السابقة منزلة أخرى ، وهي انه صار نديم الخليفة على طعامه وشرابه ، وسميره في لياليه الساهرة ، ورفيقه في ملاحيه ومنتزهاته . فأصبح الشعر للتفكهة واللذة ، يرغب فيه أولو الأمر كلفاً بالأدب أو حباً للهو والعبث .

لذلك انحطت منزلة الشعراء عن ذي قبل ، وفقدوا سيادتهم ، وشيئاً كثيراً من نفوذهم وتأثيرهم . وأصبحوا كأداة اللهو ، يُقبل عليها المتلهي مدة ، ثم يضجر منها فيهبها أو يحطمها . فرب شاعر كان ذا حظوة عند الخليفة ، ثم أمسى طريداً مجفوفاً . أو شاعر بات ليلته يسامر الأمير ، فما طلع عليه الصباح إلا كان السجن مأواً .

ولكن بقي للشعراء دالة على الملوك أكثر من غيرهم ، لما للشعر من التأثير في النفوس ، ثم لما للمدح خصوصاً من سحر يفتن ألباب الأمراء . على ان أجمل شيء كان الشعراء يتمتعون به هو الثروة ، فإن الخلفاء والأمراء بسطوا لهم الأكف ، وأعطوهم بغير حساب ، حتى لقد تبلغ جائزة الشاعر مائة ألف درهم^١ ، وربما وهبوه الضياع ، والجواري ، والغلمان ، وما إلى ذلك من متاع .

وليس في هذه الهبات السنية ما يحملنا على الشك في صحتها ، لأن خزائن المملكة كانت تفص بأموال الفيء والخراج . ونجبرنا ابن خلدون في تاريخه أن جباية الخراج السنوية بلغت عهد المأمون ٨٥٥ ، ٨٥٥ ، ٣٩٠

١ أي نحو ثلاثة آلاف وثلاث مائة جنيه مصري ذهباً ، عل تعديل أن الدينار يساوي خمسة عشر درهماً ، أو نصف جنيه مصري من الذهب .

درهم^١ ، لذلك استطاع الشعراء أن يعيشوا ناعمين متوفين ، وجميع بعضهم أموالاً طائلة . ذكروا ان سلماً الخاسر^٢ ترك ثروة مقدارها خمسون الف دينار ، ومليون وخمس مائة الف درهم ، ما عدا الضياع . فغير عجيب ان يكثر عددهم ، ما دام الشعر يدر لهم هذا الدر الغزير !
ونحن نشرع الآن بدرس أشهرهم مبتدئين بالمخضرمين منهم ، وهم الذين أدركوا الدولتين : الأموية والعباسية . ثم ننتقل إلى من جاء بعدهم . ونفتتح الكلام ببشار .

١ أي نحو ٥٠٠ ، ٠٢٨ ، ١٣ جنيه مصري ذهباً .
٢ شاعر ماجن تلمذ لبشار وروى له ، وأخذ عنه . توفي سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م) .

بشار بن برد

٧١٤ - ٧٨٤ م و٩٦ - ١٦٨ هـ (؟)

حياته : بشار في صباه . في العصر الأموي . في العصر العباسي . بشار والمهدي . صفاته وأخلاقه . علومه . آثاره .

ميزته : الطبع والفن . الهجاء . المدح : مدحه وتهديده . الغزل . الخمر . الفخر والحماسة . فلسفته وآراؤه . حشوه وتخليطه . منزلته . صلة بين عصرين .

حياته

هو بَشَّار بن بُرْد بن يَرْجُوخ ، فارسي الأصل ، ينتهي نسبه إلى يُسْتَأْسَب بن لهراسف الملك . وكان يرجوخ من طُغْخَارُستان^١ فِساب . المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة^٢ ، وجاء به إلى البصرة ، وجعله من قِن امرأته خيرة القُشَيْرِيَّة فولد عندها ابنه برداً . فلما كبر برد ، زوجته خيرة ، ووهبته لامرأة من بني عُقَيْل من قيس عَيْلان ، كانت متصلة بها ، فولدت له امرأته بشاراً ، فأعتقته العقيلية ، فانتسب إلى بني عقيل بالولاء^٣ . وكان يكنى أبا مُعَاذٍ ويُلقَّبُ بالمرعَث^٤ لأنه كان في أذنه وهو صغير رِعات شَان غلمان الفرس ، وهي عادة قديمة عندهم .

١ هكذا ضبطها ابن خلكان ، وهي ناحية كبيرة مشتملة على بلدان وراء نهر بلخ على جيحون .

٢ عامل لبني أمية حارب عنهم الحوارج . ثم تولى خراسان من قبل الحجاج وظل عليها حتى توفي سنة ٨٣ هـ (٧٠٢ م) .

٣ الولاء : الملك ومنه المولى أي المملوك .

٤ المعاذ : المدعو له بالحفظ من اعاذ الصبي دعا له بالحفظ ورقاه .

٥ المرعث : المحل بالرعاث وهي الحل التي تعلق بالآذان . واحداثها رئة .

بشار في صباه

نشأ بشار في بني عقيل نشأة عربية خالصة ، فاستوى لسانه على الكلام الفصيح ، لا تشوبه لكنة ، ولا طُمُطُبانِيَّة ، ولما أيقع أبدى فسلم من الخطأ . وكان برد والده طيَّاناً ، وولد بشار مكفوفاً ، فكان برد يقول : « ما رأيت مولوداً أعظم بركة منه . ولقد ولد لي وما عندي درهم ، فما حال الحَوَلُ حتى جمعت مائتي درهم . »

وقال بشار الشعر وهو ابن عشر سنين . ونزعت نفسه إلى الهجاء ، فلقبي الناس منه شرّاً ، ولم يُحجِّم عن التعرض لجرير ، فاستصغره جرير ولم يردّ عليه .

وكان إذا هجا قوماً ، جاؤوا إلى أبيه فشكوه ، فيضربه ضرباً شديداً ، فكانت أمه تقول : « كم تضرب هذا الصبي الضرير ، اما ترحمه ! . . » فيقول : « بلى والله إني لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إليّ . » فسمعه بشار قطع فيه ، فقال له : « يا أبتِ إن هذا الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر . واني إن أملت عليه ، أغنيتك وسائر أهلي ، فإن شكوني إليك ، فقل لهم : أليس الله يقول : ليس على الأعمى حَرَجٌ . » فلما عاودوه شكواه ، قال لهم برد ما قاله بشار ، فانصرفوا وهم يقولون : « فِقَه بُرْدٍ أَعْيَظُ لَنَا مِنْ شَعْرِ بَشَارٍ . »

فيتبين لنا من ذلك أن بشاراً طبع على الشعر منذ حداثة ، وطبع معه على الهجاء والشر وحب التكسب والسخر بالدين والناس . فقد عرّف بذكائه الفطري أن والده ساذج جاهل ، فعبت به لينجو من عقابه . ولم يتحوب من العبت بآية القرآن ، فأولمها إلى غير معناها ، وجعل الأعمى

١ حال : مضى وتم . الحول : السنة .

بريثاً من الإثم إذا اقترفه . والآية لا تقصد إلا إعفاءه من التكاليف التي لا
قبيل له بها كالجهاد .

بشار في العصر الأموي

أدرك بشار بني أمية وبني العباس ، فهو من مخضرمي شعراء الدولتين .
ويقول صاحب الأغاني : « إنه شهر في العصرين ، ومدح وهجاء ، وأخذ سنيّ
الجوائز . » ولكن لم يصل إلينا من شعره ما يدلنا على اتصاله بالخلفاء
الأمويين ، ولو اتصل بهم ومدحهم لذكر ذلك أبو الفرج ، وغيره من مؤرخي
الأدب الأقدمين . ولا نخالهم يُغفلون هذا الأمر ، وقد عُتوا بتدوين أفعه
الأخبار عنه .

وروي أن الوليد بن يزيد كان يطرب لشعر قاله بشار متغزلاً ، ويرويه
ويبكي . وهو الذي أوله « أيها الساقيان صبا شرابي » ولكن بشاراً لم
يتصل بالوليد بل لبث في البصرة لا يبرحها .

ولعل أول رحلة نجشها كانت إلى حران ، فوفد إلى سليمان بن هشام
ابن عبد الملك ، فمدحه بقصيدة بائية . وكان سليمان بخيلاً ، فلم يعطه شيئاً ،
وقيل بل أعطاه خمسة آلاف درهم . فاستقلها ، وردّها عليه . وخرج من
عنده ساخطاً وهجاء . وربما كانت له وفادة على مروان بن محمد ، فلم يعطه .
أو ان مروان وعده بشيء ، وأخلف وعده . فهجاء بأبيات لم يصل إلينا منها
غير بيت واحد يقول فيه :

لِمَرْوانٍ مَواعِدُ كاذِبَاتٌ ، كما بَرَقَ الحَياءُ وما استهلا

١ الحياء : المطر . استهلا : أطر .

وجملة القول ان بشاراً لم يحظ عند خلفاء بني أمية ، ولم يحشم نفسه دليج السرى إليهم ، وإنما لبث في البصرة يمدح الولاة والقواد ، ويشبب بالنساء . وله فيهن عدة صواحب أشهرهن عبدة أو عبدة .

وكان إلى ذلك شديد الاتصال برجال العلم والدين . وكانت البصرة حافلة بهم في ذلك العهد . فصاحب واصل بن عطاء شيخ المعتزلة ، وصالح ابن عبد القدوس ، وعمرو بن عبّيد وغيرهم من أصحاب الكلام ، ولكن واصلًا لم يلبث أن جافاه وهتف به^١ لما بلغه من إلحاده ، وحرص الناس على قتله . فهجاه بقوله :

مَا لِي أَشَايِعُ غَزَا لَهُ عُتُقٌ ، كَنَقِيقِ الدَّوْ إِنْ وَلَّى وَإِنْ مَثَلًا
عُنُقَ الزَّرَاقَةِ مَا بَالِي وَبَالِكُمْ ، أَتُكْفِرُونَ رَجُلًا كَفَّرَ وَارْجُلًا؟^٢

وجافاه أيضاً عمرو بن عبّيد ، فناصر واصلًا على الهتف به والتشنيع عليه . وشدّ أزرهما جلة من علماء الدين كالحسن البصري قاضي البصرة وكبير فقهائها ، ومالك بن دينار العالم الزاهد . فما زالوا حتى نفوه من البصرة حوالي سنة ١٢٧ هـ (٧٤٤ م) فقصد إلى مدينة حرّان وافداً على سليمان بن هشام بن عبد الملك ، ولكنه انصرف من عنده مغاضباً كما مرّ بنا . فاستدعاه أمير العراقيين يزيد بن عمر بن هُبيرة الفزاري . فأقام في

١ هتف به : فضحه وشهره في المحامع .

٢ أشايح : أوالي . غزالا : لقب واصل بن عطاء سمي به لكثرة جلوسه في سوق الغزالين .
النقنق : الظليم وهو ذكر النعام . الدو : القلاة . وكان واصل طويل العنق . وقوله :
إِنْ وَلَّى وَإِنْ مَثَلًا : أي ان أدبر أو أقبل .

٣ ما بالي وبالكم : أي ما شأني وشأنكم واحد . وقوله أتكفرون رجلاً : خطاب لواصل الذي كان يكفر الخوارج لتكفيرهم علي بن أبي طالب .

الكوفة يمدحه ؛ ويمدح قيس عيلان حتى سقطت الدولة الأموية ، وقتل يزيد بواسط سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) فرجع إلى البصرة ، وقد مات واصل بن عطاء . على ان عمرو بن عبيد لم يتركه يطمئن في أرضه بل سعى في نفيه ثانية . فظل ينتقل من بلد إلى بلد حتى توفي عمرو بن عبيد سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) فأفرخ روعه^١ وأنست به البصرة زمناً . فأقام بها يمدح ولاتها حتى ارتحل إلى بغداد واتصل بالعباسيين .

بشار في العصر العباسي

كان بشار مبعداً عن البصرة لما انتقلت الخلافة إلى بني العباس . ومات السفاح ولم يتصل به شاعرنا ، ولا تمكن من العودة إلى البصرة . وما كاد يُستخلف أبو جعفر المنصور حتى هبّ الحزب العلوي من رقدته يطالب بالإمامة بعد أن رضي بالصمت على عهد السفاح لأن السفاح قرب الطالبين ، وأنعم عليهم ، وأحسن مصانعتهم . وأما أبو جعفر فكان بخيلاً لا يدرّ درّه ، وعاتياً ظلاماً يضطهدهم ويسيء معاملتهم . فخرج عليه الأخوان محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي ، فثار محمد في المدينة ، فبايعه أهلها ، وأفتى ببيعة البيعة الإمام مالك بن أنس . وثار إبراهيم بالبصرة ، وكان بشار منفياً عنها . فأرسل إليه من الكوفة بقصيدته الميمية الشهيرة ، يحرضه بها على المنصور ، ويمدحه ويشير عليه . ولكن الأخوين لم يوفقا في ثورتها ، وظفر بهما المنصور وقتلها .

وأبى الله أن تصل قصيدة الشاعر الضريح إلى إبراهيم ، أو أنها وصلت إليه وضاعت ، فلم يروها راوية . لأن المنصور لم يطلع عليها إلا بعد أن قلبها

١ الروع : القلب . وأفرخ روعه : ذهب فزعه وسكن جأشه .

بشار وجعل التحريض فيها على أبي مسلم الحراساني، والمدح والنصح للمنصور .
ولو رويت لأبي جعفر على حالها الأول لما سلمت عنق بشار . ولعل هذه
القصيدة بعد تغييرها ، كانت السبب في اتصال الشاعر بالمنصور والحظوة
عنده ، على أننا لا نعتقد أنه عاش منعماً في كنفه ، أو أنه أكثر من مدحه .
وقد عُرف هذا الخليفة ببخله وجفاف يده حتى لُقّب بالدوانيقي^١ لإخافه في
محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق .

بشار والمهدي

ولما ولي المهدي^٢ الخلافة اتصل به بشار اتصالاً وثيقاً ، وأخذ يفد إليه
ويأخذ جوائزه . وكان شعره قد طار وتناقله الناس . وكان المهدي شديد
الحب للنساء ، غيوراً عليهن ، فبلغته أبيات لبشار فيها بجون وتعبر . فلما
قدم عليه استنشد الشعر ، فأنشده إياه . فغضب الخليفة وقال : « ويلك
أتحُضّ الناس على الفجور ، وتقذف المُحْصَنَات المُخْبَآت ! والله لئن قلت
بعد هذا بيتاً واحداً في نسيب لآتين على روحك . »

فلما أُلح على بشار في ترك الغزل ، شرع يمدحه ويقول انه قد ترك
الغزل ، وودع الغواني ، ثم يأخذ في قص حوادثه الماضية ، فيتأسف عليها
ويصف النساء اللواتي صاحبنه فلا يخلو كلامه من الغزل . ولم يكن خبئه
في هذا الأسلوب ليخفى على المهدي ، فأظهر له جفوة ، وحبس عنه عطاياه .
فكان يمدحه فلا يحظى منه بشيء ، ولو جعل مدحه بغير تشبيب .

وحاول أن يتقرب من وزيره يعقوب بن داود فلم يحفل به ولا أذن
له ولا أعطاه . فرحل إلى البصرة غاضباً وأخذ يهجو المهدي ووزيره ،

١ الدوانيقي : نسبة إلى الدوايق جمع الدائق وهو سدس الدرهم بوزن الحبة من الحنطة .

ويوَجع فيها ، فكان طول لسانه سبباً في هلاكه ، لأن الخليفة سخط عليه وأراد أذيتَه . فاتفق أن رآه مرة في البصرة يؤذن وهو سكران في غير وقت صلاة ، فنسبه إلى الزندقة ، وأمر بضربه ف ضرب سبعين سوطاً حتى مات . ولما نعي إلى أهل البصرة ، تباشروا وتصدقوا لما كانوا مُنُوا به من لسانه . وجاء في معاهد التنصيص أنه دفن مع حماد عجرد الشاعر الخليع . فكان الأقدار شاءت أن تجمع هذين الشاعرين في قبر واحد ، بعد أن تنافرا شطراً من حياتهما وتقارضا أقذع الهجاء^١ .

صفاته وأخلاقه

قال الأصمعي : « كان بشار ضخماً عظيم الخلق والوجه مجدوراً ، طويلاً جاحظ المقلتين ، قد تغشأهما لحم أحمر . فكان أقبح الناس عى وأفظعه منظراً . وكان إذا أراد أن ينشد صفق بيديه ، وتنحى وبصق عن يمينه

١ روى أبو الفرج : « ان بشاراً مات سنة ثمان وستين ومائة وقد بلغ نيفاً وسبعين سنة . » وذكر في معاهد التنصيص ووفيات الأعيان انه نيف على التسعين . ونحن نرجح رواية صاحب الأغاني مستندياً إلى ما رواه أبو عبيدة من أن بشاراً هجا جريراً وهو حدث فاستصغره جرير ، ولم يحبه . وليس هناك رواية تدلنا على انه ادرك جريراً وهو كبير . ولو أخذنا برواية ابن خلكان ، وصاحب معاهد التنصيص ، لأصبح مولد بشار حوالي السنة السادسة والسبعين للهجرة ، ولكان بوسعه ان يعاصر جريراً وهو يناهز الأربعين من عمره . ولما كان لجرير ان يستصغره ، ويستخف به فلا يجيبه على هجائه . وكان بشار يقول : « هجوت جريراً فأعرض عني واستصغرتني ، ولو اجابني لكنت اشعر الناس . » ثم إذا تقصينا ما وصل إلينا من اخبار بشار واشعاره لا نرى له خبراً او شعراً أبعد من خلافة الوليد بن يزيد أي من سنة ١٢٥ - ١٢٦ هـ و ٧٤٢ - ٧٤٣ م . وهذا مما يرجح ان ولادته لم تتقدم خلافة سليمان بن عبد الملك أي قبل وفاة جرير بنحو ثمانين عشرة سنة . وخلافة سليمان من سنة ٩٦ - ٩٩ هـ و ٧١٤ - ٧١٧ م .

وشاله . وكان أشد الناس تبرماً بالناس . وكان يقول : الحمد لله الذي ذهب ببصري لئلا أرى من أبغض . اه
 وكان فاسقاً شديداً التعهر ، محبباً للهوى ، مدمناً للخمرة ، يلتبس اللذة ويجد في طلبها ، ويهوى النساء لأجلها ، لا شغفاً بالجمال وهو لا يراه . ولم يخلص في حبه لمرأة لأن عاطفته الحيوانية كانت تحمله على الاسراف في الاستمتاع ، وطلب الجديد منه ، فيستخدم شعره في افساد النساء ، وحضن على الفحش ، ليتاح له التنقل من صاحبة إلى صاحبة .
 وكان متكبراً كثير الاعتداد بنفسه ، لا يرى فوقه شاعراً ولا عالماً . وتكبره جعله شديد الافتخار بنسبه حتى لا يجد له معادلاً غير قریش وكسرى ، وجعله يشب بجمال صورته على ما فيها من دمامة وقبح فيقول :

وإني لأغني مقامَ الفتى ، وأصني الفتاة ، فما تَعْتَصِم^١

ويرد على أي دلالة الشاعر عندما عيره القبح ، فيقول في وصف نفسه :
 « اني لطويل القامة ، عظيم الهامة ، تام الألواح ، أسجع الجدين^٢ . »
 وهذا الكبر ولد فيه احتقاراً للناس ، كما ولد فيه العى كرهاً لهم . فكان شديد النعمة عليهم لتستعهم بالنظر دونه وهو يرى انه خيرهم ، وكل ذي عاهة جبار . وبغضه للناس واحتقاره لهم جعله كثير التهكم بهم ، قليل الأدب في مجالستهم .

١ أغني مقام الفتى : أي اقوم مقامه وافعل فعله . الفتى : السخي الكريم . أصبى : افتن . تمتصم : تمتنع .
 ٢ سجع الخلد : لان وسهل .

والسخرية صفة لازمة لبشار ، فإنه يستهزئ بكل شيء ويسخر من كل شيء. وتمككه جارج مؤلم وقد يبلغ به حد القحة فما يستحي ان يتنادر على خال الخليفة ، وهو في حضرته . قال أبو الفرج : دخل يزيد بن منصور الحميري على المهدي ، وبشار بين يديه ينشده قصيدة امتدحه بها . فلما فرغ منها أقبل عليه يزيد بن منصور الحميري ؛ وكانت فيه غفلة ، فقال له : « يا شيخ ما صناعتك ؟ » فقال : « أتقب اللؤلؤ . » فضحك المهدي ثم قال لبشار : « اعزب وبلك ! أتبتادرو على خالي ! » فقال له : « وما أصنع به ، يرى شيخاً أعشى ينشد الخليفة شعراً ، ويسأله عن صناعته ! » فهذا التهم وان يكن مضحكاً فهو حاد جارج لما فيه من لؤم ونكاية ، ولا يخلو من وقاحة لصدوره عن شاعر جاء يمدح الخليفة متكسباً فشرع يهزأ بخاله في حضرته .

وكان إعجابه بنفسه يدفعه إلى أن يربأ بها عن مهاجمة سقطة الناس لئلا يجعل منزلته في منزلتهم ، وكثيراً ما أعرض عن جواب لثيم تحرش به . وكان يقطع لسان أبي الشمقشوق الشاعر بمائتي درهم في كل سنة مخافة أن يهجوّه . وهو لا يستطيع الرد عليه لأنه شاعر سخيّ يروي شعره الصبيان . وكان كريماً متلاًفاً يكسب كثيراً وينفق كثيراً . شديد الفخر بكرمه فما يأنف أن يشكو ضيق ذات يده لكثرة الانفاق . وإذا شكاً وسأل ألح في المسألة ، ولكن على كبر وعتو وتهديد .

وهو على بغضه للناس يحب أبناءه ويرأف بهم . وقد مات له ولد فجزع عليه جزعاً شديداً . ويجب إخوته ويعطف عليهم . وكان له أخوان قصّابان ، أحدهما يقال له بشر والآخر بشير . فكانا يستعيران ثيابه فيوسفانها ، ويتنّان ريجها . فأراد منعها فلم يمتنعاً ، فإذا أعياء الأمر خرج إلى الناس في

تلك الثياب على تنهها ووسعها فيقال له : « ما هذا يا أبا مُعاذ ؟ » فيقول :
« هذه ثمرة صلة الرحم . »

ويحب أصدقاءه الخلقاء ويبرهم ، ويحفظ لهم الوداد بعد موتهم فيرثيهم ،
ويتلف عليهم . ولعله لم يخلص في حبه إلا لأبنائه وإخوته وندمائه .
وكان إلى ذلك حادّ الذهن ، شديد الذكاء ، نير البصيرة ، سريع التنبه ،
دقيق الحس ، ذرب اللسان ، حاضر البديهة .

تلونه في نسبه

كان بشار شعوبياً متعصباً للفرس ، ينكر الولاء ويتبرأ منه ، ويحضّ
الموالي على رفضه . ولكنه كان مع ذلك يفتخر ببني عُقيل وبقيس عيلان
ويدافع عنهم ويهجو أعداءهم . فإذا انتسب إلى الفرس جعل أسرته في
مستوى أسرة كسرى :

ورُبّ ذي تاجٍ كريم الجَدِّ كآلِ كِسْرَى أو كآلِ بُرْدِ

وإذا انتسب إلى عُقيل جعل أصله في الرأس منهم :

لِنِ مِّنْ بَنِي عُقَيْلٍ بَنِ كَعْبٍ مَوْضِعَ السِّيفِ مِنْ طُلَى الْأَعْنَاقِ^١

وسأله المهدي يوماً : « فيمن تعتدّ يا بشار ؟ » فقال : « أما اللسان
والزيّ فغريبان ، وأما الأصل فعجمي . » وأنشد :

أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِي جَاهِدْ ، لِيَعْرِفَنِي ، أَنَا أَنْفُ الْكَرَمِ^٢

١ الطلّ : اصول الاعناق واحدها طلية او طلاة . يقول : ان اصله ثابت فيهم ، وقائم
منهم موضع الرأس من الجسد .

٢ جاهداً : اي جاداً مجتهداً .

نَمَتَ فِي الْكِرَامِ بَنِي عَامِرٍ فُرُوعِي، وَأَصْلِي قُرَيْشُ الْعَجَمِ^١

علومه

كان بشار عالماً بفتحها متكلماً، ولولا زندقته لعد من كبار أئمة الدين . وعرف بطول بابه في معرفة الغريب والوقوف على أساليب العرب الصحاء . وبنقد الشعر وتمييز صحيحه من منحوله ، وصدق ظنه في تقدير جوائزه . فقد كان يزنه بمعيار تأثيره في نفس الممدوح ، وموقعه من سياسته وهواه .

آثاره

قيل : إن أكثر الناس شعراً في الجاهلية والإسلام ثلاثة : بشار وأبو العتاهية والسيد الحنيري . وتحدث بشار عن نفسه فقال : « إن لي اثني عشر ألف قصيدة . » ولكن لم يبق لنا من هذا القدر الكبير إلا نزر يسير متفرق في كتب الأدب .

وظل شعر بشار متداولاً إلى عهد ابن خلكان ، فقد جاء في كتابه وفيات الأعيان في الكلام على بشار : « وشعر بشار كثير سائر فنقتصر منه على هذا القدر . » وأورد بعض مقطعات منه .

على أن هذا الشعر قد ضاع أكثره ، ولم يخلص إلينا إلا أقله ، ولولا صاحب الأغاني ، وما دون من أشعار بشار وأخباره لما وصل إلينا منها ما يستحق الذكر .

وفي سنة ١٩٣٤ عثر محمد بدر الدين العلوي أحد معلمي اللغة العربية في الجامعة الإسلامية بعلبك في الهند على مخطوط قديم في المكتبة الآصفية بجيدر اباد من كتاب « المختار من شعر بشار » للخالدين شاعري

١ يقول إن أسرته اشرف أسر الفرس وكان لها الملك دوفهم فهي بمثابة قریش في العرب .

سيف الدولة وخازني دار كتبه ، وشرحه لاسماعيل بن أحمد التّجيبى من أدياء القرن الخامس للهجرة. فعني بنسخه وتصحيحه، وطبعه. على أن هذا المختار لا يشتمل على كثير من شعر بشار لما فيه من المقارنات بين كلامه وكلام القدماء والمحدثين ، وإنما فيه أبيات للشاعر لا توجد في غيره من الكتب . ونشر محمد الطاهر ابن عاشور شيخ جامع الزيتونة الأعظم في تونس جزئين من شعر بشار عن مخطوطة في خزانة كتبه مرتبة أبياتها على الحروف. وينتهي الجزء الأول بقافية « الباء » والثاني بقافية « الدال » . وطبع الجزء الثاني في مصر سنة ١٩٥٠ و ١٩٥٤. وينتظر أن يظهر الجزء الثالث لأن المخطوطة تشتمل على نصف الديوان كما يقول الناشر ، وفيها معظم قافية « الراء » . وجمع ما وجدته في كتب الأدب بما نسب إلى بشار ما يقارب ألف بيت . وأما عدد أبيات المخطوطة فستة آلاف وستمئة وثمانية وعشرون بيتاً باعتبار أبيات الرجز مشطورة .

ميزته

أُتيح لبشار أن يملك الشعر من ناحيته العبقرية والفنّ . فهو من حيث الأولى شاعر قويّ الطبع متوقد النفس يدعو القوافي فتستكين إليه سلسلة القياد . ومن حيث الثانية شاعر مرهف الاحساس بالجمال الفني يتصرف في الألفاظ والتعابير فيأتي بها طريقة دقيقة المدلول مردانة منتقاة . وسنحاول أن ندرس في هذا البحث خصائصه في مختلف الأنواع الشعرية على قدر ما تبيح لنا آثاره الباقية .

الهجاء

لم يكن في أخلاق بشار وصفاته ما يجيب الناس إليه ، فيصون لسانه عن ثلبهم وتشهيرهم . ولا بدّ لمثله أن يكون بغيضاً مقبهاً ، وأن يكثر أعداؤه فيتناولوه بالسننهم ، وإن يقوم فيهم شعراء يقارضونه الهجاء . وغير عجيب أن يكون هذا الهجاء فاحشاً مقذعاً ، فإن أخلاق بشار لا تستنكره ، وأخلاق عصره لا تتأباه . وقد ترك جرير والفرزدق من إقذاعهما إراثاً عظيماً لمن جاء بعدهما من الشعراء فانفقوا منه عن سعة . وكان بشار شديد الإعجاب بجرير فلا بدع أن يتعهر مثله في الهجاء ، ويزيد عليه تفتناً في استنباط المعاني الفاحشة ، يستمدّها من الحضارة الجديدة وتبدل المكان والزمان .

على أن غاية جرير من الهجاء تختلف عن غاية بشار . فجرير كان يصطنعه ليرد على خصومه الشعراء . وأما بشار فإنه مال إليه بطبعه الفاسق الفاجر ، ثم بكرهه للناس واحتقاره لإيهم ، ثم بحبه للتكسب فعمل الخطيئة قبله . وهو في هجوه صادق لا يتكلفه تكلفاً ، وإن تأجر به وتكسب ، فمأطفة البغض مسيطرة عليه في كل حال . وقد سئل : « انك لكثير الهجاء ! » فقال : « إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع . ومن أراد من الشعراء أن يكرم في دهر اللثام على المديح فليستعدّ للفقر ، وإلا فليبالغ في الهجاء ليخاف فيعطى . » وكان يصبّ هجاءه على كرام الناس الذين يظنون بأعراضهم أن فخرهم ، فنشترونها منه بالمال ، فيسكت عنهم أو يمدحهم إذا أجزلوا له العطاء .

الضيق : المضد .

وكان أشد الهجاء لذعاً بينه وبين حماد عجرد . وتنبب تهاجيهما ان حماداً كان نديماً لنافع بن عتبة الأزدي والي البصرة . فسأله بشار تنجيز حاجة له من نافع ، فأبطأ حماد عنها فغمزه بشار بشعره فغضب حماد وأخبر نافعاً فبغضه عن بشار . فلحم الهجاء بينهما نحواً من خمس عشرة سنة حتى مات حماد .

على أن حماداً لم يستطع أن يسقط بشاراً بشعره ، ولكنه هنكه بالزندقة . وأما بشار فقد أسقط حماداً ببلاغته وفضحه ، ولم يقصّر في رميه بالثنوية^١ والكفر . قيل : اجمع علماء البصرة انه ليس في هجاء حماد عجرد لبشار إلا أربعون بيتاً معدودة ، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت . ولكن لم يصل إلينا من تهاجيهما إلا شيء قليل لا يعتد به .

وهذا الهجاء على نزارته يبين لنا شيئاً من أسلوب الشاعر في هذا الفن ، وما فيه من كبرياء ومضاضة وإيلام . فبشار إذا هجى رعى خصمه بالكفر والزندقة، مع أنه كان في طليعة الزناديق . فقد كفر حماد عجرد والمهدي وواصل بن عطاء وسواهم، وهو إلى ذلك لا يعف عن الاعراض بل يشتمها شتماً قبيحاً . وربما استخدم شعره للتكسب الأدبي ، فإن سيبويه عاب قوله في وصف السفينة : « تلاعبُ نينان البحارِ . » وانكر جمع نون على نينان^٢ . فغضب بشار ، وهجا سيبويه ، فتوقاه سيبويه بعد ذلك ، وصار إذا

١ الثنوية : مذهب المانوية نسبة إلى مؤسسه ماني وهو مذهب فارسي اتى مصدقاً لما بين يديه من المذهب الزرادشتي متفقاً معه على ان في الكون إلهين اثنين احدهما إله النور والخير وهو النهار والثاني إله الظلام والشر وهو الليل .

٢ ورد هذا الجمع في كتب اللغة ، فقد جاء في لسان العرب والقاموس وغيرهما : النون : الحوت والجمع أنوان ونينان . وسيبويه نفسه ذكر في كتابه ان النون يجمع على نينان . فلعله يوم انتقد بشاراً كان شاكاً في جمع النون على نينان ، ثم عثر عليه في أقوال العرب فصحيح خطأه وذكره في كتابه . وقد غير بشار البيت بعد ان عابه سيبويه فقال : تلاعب تيار البحار .

سئل عن شيء فأجاب عنه ، ووجد له شاهداً من شعر بشار احتج به
استكفاً لشره .

وكذلك الأخفش الأوسط^١ عاب عليه جمع النون على نينان ، واستعمال
الوَجَلَى والغَزَلَى موضع الوَجَل والغَزَل ، فهدده بالهجاء فجزع وصار يحتج
بشعره في كتبه .

وهجاء بشار يجري بين الجزالة والسهولة ، وأفخمه ما جاء في الأمراء
والقبائل . وفيه من وضوح الألفاظ والتعابير ما يجعله يسير بين الناس هين
الحفظ ، فيتم للشاعر ما يريد من تشهير المهجو وترك اسمه مضغة في
الأفواه .

المدح

كان بشار يتخذ المدح آلة للتكسب ، لا شغفاً بمناقب المدح أو كلفاً
به . فلم تكن مناقب الناس ، مهما حسنت ، لتملك عاطفته أو لتهمز
فؤاده وهو يبغيض الناس ويرى نفسه فوقهم جميعاً . لذلك لم يخلص في
مدحه لأحد ، وإنما كان يتقرب غيث بمدوحه ، فإذا اخلف أو ابطأ
استمطره بالهجاء . فقد مدح سليمان بن هشام ، فلما استقل عطاءه هجاء .
ومدح المهدي ، فلما أعرض عنه لم يحجم عن هجوه والقول فيه : « كذّاب
ألمي لأنني كذّبت في قولي . » فهو يعترف بأنه مدحه كاذباً .

وتظاهر بالتشيع للعلويين شأن أبناء الفرس ، فلما ثار إبراهيم بن الحسن
على المنصور أرسل إليه قصيدة يمدحه بها ويهدد الخليفة . فلما علم ان إبراهيم
قتل لم يأنف من إنكار تشيعه فغيّر القصيدة ، وجعلها في مدح المنصور

١ الأخفش الأوسط : أحد أئمة اللغة . أخذ النحو عن سيبويه مع انه كان أكبر منه . وهو
الذي زاد في العروض بحر الخبيب .

وتهديد أبي مسلم .

وله أسلوب في المدح يطلعنا على حقيقة نفسه الطمّاعة المتعجرفة ، فهو يمدح الشخص ويهدده إلّثم يُحسن صلتَه . وقد يتوسل بالوعظ والإرشاد . ولا يخلو مدحه من قحة في السؤال على تدمير لقلة العطاء فيحض بمدوحه على الجود والسخاء .

ومدح بشار عُقبة بن سَلَم أمير البصرة فأحسن عطاءه فزاده مدحاً حتى قيل إن مدائحه فيه فوق كل مدائحه . وحدث أن وكيل عقبة أخّر الجائزة عن بشار ثلاثة أيام ، فأمر بشار غلامه بأن يكتب على باب عقبة أبياتاً فيها يقول : « إن لم تُرِد حمدي فراقب ذمي . » فخاف عقبة وضاعف الجائزة وعجل بإرسالها إليه .

ففي هذا كله ما يدلنا على كذب بشار وعدم إخلاصه لمدوحيه، ولكنه كان يجيد المدح كما يجيد الهجاء ، فهو شاعر مبدع صادق الشعور الفني وإن لم يكن صادق العاطفة . وأسلوبه في المدح عليه مسحة البداوة في استهلااته وتعابيره ، ولكنه يحليه بالمعاني الدقيقة الطريفة ، ويرصعه بالاستعارات السائغة اللطيفة فيخرج به عن خشونة البدو إلى نعومة الحضرة . فإذا هو بين يديه وعليه جدّة ريّة زاهية .

الغزل

لم يعرف بشار للحب معنى صحيحاً ، ولا اختلج فؤاده لمرأى الجمال وهو لا يراه . وإنما كان في نفسه حس دقيق ضاعف العمى قوته ، فإذا به شديد الولوع باللذة ، يسمي إليها ويتطلبها بإلحاف . وكان^١ ثارت نفسه لحديث

١ وكان : وكم

سمعه ، أو كف لمسها ، أو طيب امتنشق . فهو فاسق القلب ، شهواني الحب ، لا يفهم منه غير اللذة الحيوانية ، ولا غرو أن يخرج شعره صورة لنفسه الفاجرة فيظهر حافلاً بالفحش والتعهر .

وقد أجاد بشار الغزل كما أجاد غيره من الفنون . وكأنه شعر بعجزه عن تصبي النساء بجماله وحسن روائه ، فاتخذ من براعة فنه وسيلة لاغرائهن ، فنظم فيهن الغزل الرقيق الناعم فأقبلن عليه يزرنه في منزله ، ويجالسنه في البردان أو الرقيق^١ ليستمعن إلى شعره . حتى لم تبق غزلة في البصرة إلا كانت له راوية .

وغزل بشار شديد الخطر على العفاف ، لأن صاحبه تعبد فيه إغراء النساء ، وحضن على الفجور ، فكان ذلك سبباً لحمل المهدي على منعه من التشبيب . وقد جعل الحبيث غزله بلغة سهلة لينة ، وأوزان خفيفة رشيقة ، ليهون حفظه وفهمه على النساء ، ولا سيما الجواري العجيبات وأكثرهن فيهن ، فلا يستصعبن روايته . واعتمد على الصراحة ، فروى حوادثه معهن بقلب قصي . وقد يعنى بتذليل الصعاب للمرأة التي تتجنب الفضيحة وتخشاها .

وهو إلى ذلك يصنع مثلما يصنع الشعراء المتيمون ، فيكثر من الأنين واللوعة ، ووصف سقامه وسهره وحزنه . فيخيل إليك أنك تقرأ شعر رجل أضر به الحب حتى أدنفه . مع أنه لم يقف قلبه على امرأة واحدة ليتألم ويسقم إذا ابتعد عنها . وثرى أنه لم يصدق في وصف حبه إلا من تلك الناحية التي ذكر بها اللذة وتهالكه على طلبها ، وان آثر عبدة وأحبها أكثر من غيرها .

١ البردان والرقيق : حجرتان في منزل بشار . وكان البردان مجلس الصباح ، والرقيق مجلس العشاء .

وقد أكثر شاعرنا من وصف نحوه على ضخامة جثته حتى أخذ الناس
يضحكون منه ، ويعابثونه نكابة له . قيل مرّ به بعض أهل الكوفة، وهو
منبطح في دهليزه كأنه جاموس . فقال : « يا أبا معاذ من القائل ؟ » :
في حلّتي جِسمُ فتى ناهلٍ ، لو هبّت الرّيحُ بهِ طاحاً

قال : « أنا . » قال : « ما حملك على هذا الكذب ؟ والله إني لأرى
ان لو بعث الله الرياح التي أهلكت الأمم الخالية ما حرّكتك من موضعك ! »
وسنحت لبشار معانٍ يرجع الفضل بها إلى عماء كقوله :

يا قَوْمُ أَذِنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةً ،
وَالْأَذُنُ تَعَشَّقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أحياناً

وكان إذا غنته القيان في مجلس لهو ، وصف مجلسه وتغزل وضمّن
الآبيات التي غنته القيان بها . وقد شاعت هذه الطريقة بين شعراء عصره
لكثرة مجالس اللهو والطرب .

الحمر

لم يبق لنا من خبريات بشار إلا نزر يسير ليس فيه غناء . ولا ريب
ان الشاعر وصف الحمر في أوقات لهو ، وأكثر من وصفها ، ولكن لم
يُشهر بها كما شهر أبو نواس بعده ، ولا تفنن في معانيها تفننه . وان ما وصل
إلينا من شعره الحمرى يكاد لا يخرج عن الدائرة التي طوّف فيها الأعشى
ثم الأنخل . فهو يتوكأ عليهما في النعوت التي نعنا بها الحمره ، والأوصاف
التي وصفها بها السكران .

١ حلّتي : ثوبي . طاح : ذهب وهلك .

ومها يكن من شيء فإن بشاراً تغزل بالحبرة ، وأحسن التشبيب بها .
ولكنه لم يطبع أوصافها بطابعه الخاص ، وإنما جاء مقلداً لسواه . على أنه
لو وصل إلينا من خبرياته شيء يذكر لكان بوسعنا أن نحكم عليه حكماً
أصح وأعدل .

الفخر والحماسة

عرفنا أن ولاء بشار في بني عُقيل ، وعُقيل من عامر ، وعامر من قيس
عيلان بن مضر ، فكان بشار يتعصب لبني عُقيل خاصة ، وللقيسية أو
المضرية عامة . وكان يفتخر بهم كما يفتخر بالفرس أجداده الاول ، وقد
استحق لقب شاعر قيس في دفاعه عنهم ، ومهاجاته خصومهم .

وله قصيدة قالها في ابن هُبَيْرَة عامل العراق عند مسيره إلى محاربة
الحرارج ، فأثار بها الحماسة في صدور الرجال . وقد استلها بالفزل على
الطريقة القديمة ، وأخرجها جزلة الألفاظ قوية التعبير على تصوير بليغ لزحف
الجيش ، ووقع السيوف ، وانكسار العدو . وحسبك منها تشبيه السيوف تحت
الغبار بالشهب الساقطة في الظلام . ثم ذلك التقسيم البديع في تصوير الجيش
المنهزم ، فقد جمع فيه ما يلقاه المغلوب من نتائج الحرب ، ووخيم مغباتها :
« فريق في الاسار ، ومثله قتيل ، ومثل لاذ بالبحر هاربه . » ويجمل بنا
أن لا تغفل عن حسن الصنعة في استعارته العتاب للقتال في قوله : « مشينا
إليه بالسيوف نعابه . » وكان بوسعنا أن يقول نضاربه أو نخاربه . ولكن
الاستعارة هنا أبلغ وأوقع في النفس ، وفيها من دقة المعنى ، وبراعة المدلول
شيء كثير . وأي عتاب أشد من عتاب تنتضى فيه الصوارم بدلاً من
الأسنة ؟

الرثاء

لم يصل إلينا من رثاء بشار إلا شيء قليل . ونحسب أن الشاعر لم يحفل بهذا الفن لقلة الانتفاع به . فهو إنما كان يعنى بإرضاء بمدوحه حيثما ليكتسب منه . ولم يكن يهمه أن يمدحه مبتأئاً لئلا يتوقع خيراً من بعد ذلك . وكان بغضه للناس أمات فيه عاطفة الحزن واللوعة ، فما كان يجزع على فقيد حتى يرثيه رثاء صادقاً ، فنفس بشار أصلب من أن تروى لمصائب الناس . وقد رثى عمر بن حفص العتكي^١ وكان محسناً إليه ، فوفّق بعض التوفيق . وأصيب بولده ، فجزع لموته ، ولكن نفسه أبت عليه التفجع والارثان ، فلم يستطع رثاءه بأحسن مما رثى به العتكي . وكان له عصة من الأصدقاء الخلاء يصاحبونه في مجالس لهو ، فلما نزلت بهم صروف الدهر ، شعر بفراغ حوله ، فشجّاه فراقهم ، فراثم بقصيدة يقول فيها :

كَيْفَ يَصْفُو لِي النِّعَمُ وَحَيْدًا ، وَالْأَخْلَاءُ فِي الْمَقَابِرِ هَامٌ^٢

آراءه وعقائده

كانت لبشار آراء وعقائد أورثه إياها أصله الفارسي ، وعصره الذي تفتت به المذاهب والبدع ، بعد أن خرج العرب من جمودهم العقلي ، وأخلدوا إلى التأمل والتفكير .

ولعل الحيرة أظهر شيء في آراء بشار ، فتراه على شعوبيته ، وكرهه

١ قائد شجاع قاتل الخوارج من قبل المنصور في القيروان فقتلوه سنة ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) .

٢ هـام : أموات ، يقال : أصبح فلان هامة أي مات ، وهذا هامة لليوم أو غد أي مشف على الموت .

للعرب ، لا يستنكف من الافتخار بمصريته . وعلى ثقفه بالدين ، وتضلعه من علم الكلام ، لا يصلي ولا يأبه للفروض والانفال . وقد يدين بالجبرية^١ ثم لا يلبث أن ينقضها فيقر بالبعث والحساب . وربما حنّ إلى أصله المجوسي^٢ ففضل النار على جميع العناصر ، وفضل إبليس على آدم وبنه :

الأرضُ مظلمةٌ ، والنارُ مشرقةٌ ، والنارُ معبودةٌ منذ كانت النارُ وكان سيء الظن بالناس لا يركن إلى صداقتهم ، وإنما يراهم جميعاً مخادعين غيابين ، على أنه يوصي بمدارة الصديق والتغاضي عن هفواته ، والاقتصاد في معاتبته .

حشوه وتخليطه

وبشار على جلالتة لم يخلُ شعره من الحشو والتخليط ، فروي له شيء غث لا يليق بشاعريته . وهذا ما جعل اسحق الموصلي لا يعتد به ، ويفضل عليه مروان بن أبي حفصة . وكان يقول فيه : « هو كثير التخليط في شعره ، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً . أليس هو القائل :

لَمَّا عَظُمُ سُلَيْمَى حَبِيبِي قَصَبَ الشُّكْرِ لِعَظَمِ الْجَمَلِ^٣ ،
وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلاً ، غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ

لو قال كل شيء جيد ثم اضيف إلى هذا الزيفه . ،

١ الجبرية : مذهب طائفة تقول بأن الانسان مسير غير مخير مجبر على كل ما يفعله بقوة خفية قاهرة فلا يصح عقابه .

٢ المجوسي : نسبة إلى المجوسية وهي عبادة النار وبها كان يدين الفرس قبل اسلامهم .

٣ حبيبي : حبيبتي .

على أنه مهما يكن من تخليط بشار فإن اسحق الموصلي قد جار بحكمه عليه . فقد يسف الشاعر الفعل ، و يروى له الغث البارد ، ولكن ذلك لا يحط من قدره ، ولا يضير شاعريته ، ولا يضيع ما له من الحسنات . وبشار نفسه كان يعتذر من هذا التخليط بقوله : « هذه أشياء كنا نعبث بها في الحداثة . »

وقد يخلط بشار متعمداً لحاجة في النفس ، او مراعاة لمقتضى الحال ، فيسف غير حافل بالتعير ، كما في قوله لجاريته ربابة :

رَبَابَةٌ رَبَّةُ الْبَيْتِ ، تَصُبُّ الْحَلَّ فِي الزَّيْتِ
لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ ، وَدَيْكَ حَسَنُ الصَّوْتِ

وقد سئل عن ذلك فقال : « لكل وجه وموضع » . وهذا قلته في ربابة جلديتي ، وأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهي تجمع لي البيض . وهذا عندها أحسن من « قفا نَبْكَ » عندك . ومن عبث بشار قوله على لسان حمار له مات ، وزعم أنه رآه في النوم فقال له : « لِمَ مِتَ ، أَلَمْ أَكُنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ ؟ » فقال الحمار :

سَيِّدِي خُذْ بِي أَتَانًا عِنْدَ بَابِ الْأَصْبَهَانِي ،^١
تَيِّمْتَنِي بِنَّانٍ ، وَبَدَلْ قَدْ شَجَانِي ،^٢
تَيِّمْتَنِي يَوْمَ رُحْنَا ، بِثَنَائِهَا الْحِسَانِ ،^٣

١ خذ بي : أي طالب بدمي . الأتان : انثى الحمار .

٢ تيممتني : استعبدتني بجها . البنان : الأصابع مفردتها بنانة . الدل : اجترأ وتيه بنفج . شجاني : أحزنني .

٣ الثنايا : أربع أسنان في مقدم الفم ثنتان من فوق ، وثنتان من تحت ، واحدها الثنية .

وَبِغْنَجٍ وَدَلَالٍ ، سَلَّ جِسْمِي وَبَرَّانِي^١
ولما خَدَّ أُسَيْلُ^٢ مِثْلُ خَدِّ الشَّيْفَرَانِ^٣
فَلِذَا مِتْ وَلَوْ عِشْتُ لَمَّا طَالَ هَوَانِي

فقال له أحدم : « ما الشيفران ؟ » قال : « وما يدربني اهذا من
غريب الحمار ، فإذا لقيتَه فاسأله . »

منزلته

اجمع الرواة ، أو كادوا ، على أن بشاراً زعيم الشعراء المحدثين . وكان
الأصمعي شديد الإعجاب به ، فإذا سئل عنه قال : « بشار خاتمة الشعراء ،
والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم . » وقد فهم بشار عقلية
النقاد في عصره فقال : « ازرى بشعري الأذان . »
وقال ابن شرف القيرواني : « شعره يَنْفَقُ عند ربّات الحِجَال^٣ ،
وعند فحول الرجال ، فهو يلين حتى يستعطف ، ويقوى حتى يستنكف^٤ . »
وسئل بشار : « بَمَ فُتُّ أَهْلُ دَهْرِكَ ، وسبقت رجال عصركَ ؟ »
فقال : « لأنّي لم أقبل كل ما تورده عليّ قريحتي ، ويناجينني به طبعي . »
ولكنه على عنايته بتنخل شعره لم يخرج به عن طبعه ، ولما أضاف إليه
براعة الفن فصقله وهذا به وتصرف فيه تصرف المالك في ملكه . فجاء

١ سل جسمي : أي افتزع صحتي . براني : اهزلني .

٢ أسيل : لين طويل .

٣ الحجال : جمع حجلة وهي موضع كالقبة يزين للعروس بالثياب والاسرة والستور .
وربات الحجال كناية عن النساء .

٤ يستنكف : يستكبر .

وهزل ، ورصن وخفّ ، فإذا هو على حالتيه دقيق المعاني يحسن توليدها ،
 طلي الالفاظ يجيد انتقاءها . وكان لأصله الفارسي أثر في شاعريته فغنت له
 أغراض لم تخطر لشعراء العرب الخلتص .
 ولعماء تأثير عظيم في اذكاء قريحته ، وتقوية حسه ، إلا أنه أضعف
 صورته وألوانه فكان يتوكأ بها على غيره متفنناً في تأليفها وإخراجها
 كقوله :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّعْرِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ
 وجيلة القول ان بشاراً شاعر ساهر ، لعبوب بالمعاني والألفاظ ، يحسن
 البديع والاستعارة والتشبيه ، ويتفنن في جميع أبواب الشعر . وهو إلى
 ذلك شاعر مطبوع ، غزير المادة ، لا يتكلف النظم تكلفاً . ويعد خير صلة
 بين العصرين الأموي والعباسي . فقد خلع الفن على شعره روعة القديم
 وجلاله ، ورقة الجديد وجماله . وغير عجيب أن يتبوأ كرسي الرئاسة
 ويستقر عليه سعيداً إلى أن يخليه بعد موته لأبي نواس .

ابو نواس

٧٦٢ - ٨١٤ م. ١٤٥ - ١٩٩ هـ (?)

حياته : نسبه . أبو نواس في صباه . في بغداد . في مصر . اتصاله بالأميين .
توبته وموته . صفاته وأخلاقه . تلوته في نسبه . أساتذته وعلومه .
نظمه الشعر . آثاره .

ميزته : ينفرد بالخمير والمجون . يجاري غيره في المدح والهجو والطرود والزهد .
يقصر في الرثاء والغزل البريء ولا سيما غزل المؤنث . الخمير والمجون .
خروجه على القديم . شعوبيته . تجده . آراؤه وعقائده . غزله .
مدحه . هجوه . طرده . زهده . ما أدرك عليه . منزلته . تمثيله
عصره .

حياته

ليس في ما جاءنا عن نسب أبي نواس ما يصح الاقتناع به والاطمئنان
إليه ، فالأقوال فيه متضاربة ، والاختلاف غير قليل . على أن المشهور عنه
أنه الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح ؛ وأن جده كان مولى
الجرّاح بن عبد الله الحكمي^١ والي خراسان ، فنسب إليه ؛ وأن أباه كان
من جند مروان بن محمد ، وهو من أهل الشام ؛ وأن أمه فارسية من
الأهواز ، واسمها جُلْبَان^٢ .

- ١ الحكمي : نسبة إلى حكم وهي قبيلة كبيرة في اليمن .
- ٢ جلبان : كلمة فارسية . ذكر ابن منظور في أخبار-أبي نواس أن معناها وردة على أذن .
وجاء في هامش الكتاب بقلم المصحح : « لعلها وردة على غصن . » وقد راجعنا بعض
المصادر الفارسية فوجدنا أن الكلمة مركبة من جل وهو الورد ، وبان وهو البستان
الصغير ، فيكون معناها وردة البستان .

وكان يكنى في أول أمره أبا علي ثم تكنى بأبي نواس^١ لذوَابَتَيْن^٢ كانتا تنوسان على عاتقه وهو صبي . وقيل إن أستاذة خلفاً الأحمر كان له ولاء في اليمن ، فقال له يوماً : « أنت من اليمن فتكن باسم ملك من ملوكهم الأذواء^٣ » ، فاختار ذا نواس ، فكناه أبا نواس بمحذف صدره ، فغلبت عليه .

وكانت ولادته في الأهواز من فارس ، ذلك ان أباه هائثاً انتقل إليها مع الجيش للرباط ، فتزوج فيها جُلثبان ، فولدت له عدة أولاد منهم الحسن . ومات أبوه وهو طفل ، فانتقلت به أمه إلى البصرة وله من العمر سنتان . فنشأ هناك ، ولما شب أسلمته إلى عطار يبري عود البخور .

أبو نواس في صباه

ولكن نفسه ما كانت لترضى هذه الصنعة ، وبها نزوع شديد إلى الأدب ، فكان لا يفتر عن مخالطة أهل المسجد ، والأدباء المجان ، وأخذ يتردد على باب أبي عمرو بن العلاء . وكان الرواة والشعراء يجتمعون عنده ، فاتصل بهم ، وهو في العقد الأول من عمره ، فاكسب منهم أدباً وعلماً ، ولكنهم أضروا بأخلاقه ، فتهتك صبيّاً .

ولم يكن له من بسطة العيش ما يقيه الحاجة فيصون ماء وجهه . فكان أصحاب المجون إذا أرادوا الخروج إلى نزهة ، استأجروه بدينار ، فيحمل لهم أدواتهم ويبقى معهم حتى يعودوا .

١ النواس : اسم من ناس الشيء ينوس اذا تدلى وتحرك . واسم جبل لأحد ملوك حمير المعروف بذي نواس .

٢ الذوابة : الضفيرة من الشعر اذا كانت غير ملوية . واذا التوت فهي عقيمة .

٣ ملوك حمير يعرفون بالأذواء ، لأنهم يلقبون بذي يزن وذو نواس وهلم جراً .

وكان الأقدار أبت إلا أن تذيبه كأس الادناس حتى الثمالة ، فأرسلت إليه والبة بن الحُباب الأسدي الشاعر الكوفي الخليل ، فلقبه عند العطار ييري العود ، فافتقن به ، وأعجبه ذكاؤه وأدبه ، فعلمه إلى الكوفة ، وعُني بتغريجه في الشعر ، فأدبه بأدبه ، وخلقه بأخلاقه ، وعرفه بأصحابه المجان . فأصبح لا يطيب له إلا الاجتماع بهم ، وفيهم أمثال مطيع بن مياس ، وحباد عجرد ، ويحيى بن زياد ، وحسبك بهم من عصابة سوء . ولم يشأ أبو نواس أن يُعرف بالشعر قبل أن يخالط العرب الخلتص ، ويأخذ عنهم الغريب ، ويستوي لسانه على الكلام الفصيح ، شأن كل شاعر يريد أن ينه في ذاك العصر . فسأل أستاذه والبة أن يسع له بالخروج إلى البادية مع وفد بني أسد ، فأخرجه مع قوم منهم . فأقام في البادية سنة ، ثم قدم الكوفة ، فلبث فيها مدة قليلة ، ثم فارق والبة ورجع إلى البصرة ، فاختلف إلى كبار أئمتها ، فأخذ عنهم شيئاً كثيراً ثم شفع إلى بغداد .

في بغداد

قدم أبو نواس بغداد وسنّه أربت على الثلاثين ؛ ومقاليد الخلافة في يدي هارون الرشيد . فأتبع له أن يتصل به ، فقربه الرشيد ، وأحبه وأنعم عليه . وتغاضى عن فسقه وسكره واستهزائه بأحكام الدين . وعفا عنه مراراً وأطلقه من سجنه ، على أنه لم يخصه بذاته ، فلقد كان الرشيد شديد الحرص على وقار الخلافة ، شديد الحفاظ على تقاليد الدين ، ولا سيما أمام الرعية ، فلم يرَ من الحكمة أن يجعل الشاعر الخليل مختصاً بقصره . لذلك لم يحظَ أبو نواس الخطوة التي كان يأملها عند الرشيد ، فتفرغ لمصاحبة المجان ، فكانوا يجتمعون على الصُراة أو في سوق الكرخ أو في روضة أو في منزل ،

١ نهر في العراق .

فيتذاكرون الشعر ويشربون الخمر ، ويستمتعون بأنواع الملهيات التي ألفتها أذواقهم ، فما يتركون محرماً إلا اتفقوا على اتبانه غير متورعين ولا مستحيين . وأشهر أصدقائه الخلاء في بغداد : داود بن رزين الواسطي ، والحسين بن الضحّاك الأشقر الخليع ، والفضل الرقاشي ، وعمرو الوراق ، والحسين الحياط ، وعنان جارية الناطقي ، واسماعيل القراطيسي ، ورزين الكاتب أخو دعبل . وربما تولى أحدهم دعوة رفاهه ، فبهه لهم مجلساً في بيته ، أو في غير بيته ، فيكونون في ضيافته . وقد تكون هذه الدعوات بأن يقول كل واحد منهم شعراً يصف به ما عنده من أسباب اللهو والملاذات ، فمن افقت فيها أكثر من غيره قبلوا دعوته وصاروا إليه . فهذه الحياة المباحة المسرفة كانت تدفع شاعرنا إلى التبذير في نفقاته وهو مشهور بسخائه ، فلم تكفه عطايا الرشيد على جزالتها . فكان يشكو ويتذمر حتى اضطر إلى أن يقصد مصر ويمدح الحبيب أميرها ، ولولا حاجته لما ترك بغداد وما فيها من أصعاب وملاهي وحانات .

في مصر

انتجع الشاعر مصر صفر الدين متأماً من كساد سوقه ، وفي ذلك يقول :

لَمِني لَأَمْلُ يا خَصِيبُ على يَدِكَ اليَسَّارَةُ آخِرَ الدَّهْرِ
وكذاك نِعَمَ السُّوقِ أَنْتَ لِمَنْ كَسَدَتْ عليه تِجَارَةُ الشُّعْرِ

ومدح الحبيب بعدة قصائد جياذ ، فأحسن الحبيب صلته ، وأخذ أبو نواس يناديه على الشراب ويلهو وإياه ، ويعبثان معاً حتى أصبحت للشاعر دالة عليه ، ويسرت حاله بعد عسر ، فتفرغ للهو والمجون فعمله في بغداد . على أن عطايا الحبيب لم تكن لتغني أبا نواس أو تنسيه ملاهي بغداد

وقصر الخليفة العباسي . فنوابغ الشعراء لم يكن لهم غير دار السلام حاضرة تستثير قرائحهم ، وتذكي عبقريتهم ، وتشبع مطامعهم . ولعلّ الحُصيب ضاق ذرعاً بروغبات الشاعر ، فإن بعض الرواة يتحدثون بأنه بعد أن أعطاه ثلاث جوائز كل جائزة بألف دينار قال له : « ارتحل فما لك مقام عندنا . » ويؤيد هذه الرواية ما نعلمه من أن أبا نواس ترك الحُصيب غير راضٍ عنه وعن عطاياه ، فكان إذا سئل : « كم وهب لك الحُصيب مع مدائحك فيه ، وقصدك من العراق إليه ؟ » قال : « لا والله ، لم يهب لي إلا مائة دينار ، والناس يُكثرون في ذلك . » وقد هجاء بعد مفارقه إياه ورماء بالتقدير على بنيه .

ولكنه لم يوفق في الرجوع إلى بغداد ، فإنه شرع يهجو القبائل النزارية لما اشتدت صولة الشعوبيين ، ولم يعفّ عن قريش وفيها الخلافة وقبلها النبوة ، فحبس وطال حبسه حتى مات الرشيد واستخلف الأمين .

اتصاله بالأمين

عرف أبو نواس أولاد الخلفاء منذ قدومه بغداد وهو شاب . فنادم أولاً ولد المهدي ولازمهم ، فلم يلتقَ مع أحد من الناس غيرهم . ثم نادى القاسم بن الرشيد ، ولكنه لم يلبث أن فارقه ، وتقرب من أخيه الأمين ، وكان يومئذ صبيّاً يدرس النحو واللغة على الكسائي . وزاده اتصالاً بولي العهد ان الرشيد أمر الكسائي أن يحضر أبا نواس لينشد الأمين الشعر النادر ، ويعلمه الغريب . فلزمه شاعرنا ولم يفارقه ، وراقت الأمين صحبة أبي نواس ؛ فاتخذته نديماً ، وشاطره اللهو والمجون ، فانحطت أخلاقه في صباه ، وكان انغماسه في العيب والفسوق من الأسباب التي أضاعت ملكه .

ولما بويع بالخلافة بعد أبيه ، جعل الشاعر في بطانته ، فكان ألزم له من ظله . ولا ريب ان خلافة الأمين كانت أسعد أيام أبي نواس ، وإن لم يطل عهدها أكثر من خمس سنوات . وخمس سنوات شيء يذكر في عمر الشاعر المتنعم . على أنها لم تخلُ بعض الأحيان من تنغيص إذ كان الخليفة يضطر إلى حبسه على أعين الناس حين يتهم لديه بالكفر والفجور والمجاهرة بشرب الخمر . وألحف عليه بالتشديد يوم اعصوب الشر بينه وبين أخيه المأمون . وكان ذو الرئاستين^١ في خراسان يخطب بمساوىء الأمين ، وقد أعد رجلاً يحفظ شعر أبي نواس ، فإذا انعقد المجلس قام فذكر الأمين وقال : « ومن جلسائه رجل ماجن ، كافر مستهزئ ، متهم يقول كذا وكذا . » وينشد من قبائح شعره . ويذكر أهل العراق فيقول : « أهل فسق وفجور ، وخمور وماخور . » ويلعنهم من يحضر من أهل خراسان .

كان للأمين عيون في خراسان ، فكتبوا إليه يخبرونه بالأمر . فجزع له وتوعد أبا نواس ، وحرّم عليه شرب الخمر ، وذكرها في شعره . فكان صاحبنا يتألم لهذا المنع ، فيطبع مكرهاً ، لا خوفاً من غضب الأمين وبطشه ، وإنما حباً له وحفاظاً على سمعته . وربما مرّت به ساعات فما يستطيع عن الخمر صبراً ، فيشربها غير مبالٍ ، ويسبّ الأمين ويهزأ به ، والأمين يتغاضى عنه ، ولا يطيق أن يؤذيه . ورمي مرة بالثنوية وشهد عليه عدة نفر ، فأمر به الأمين إلى السجن ، فتذمر أبو نواس وشكا واستنجد بالمأمون إذ يقول :

أَمَّا الْأَمِينُ فَلَسْتُ أَرْجُو دَفْعَهُ عَنِّي ، فَمَنْ لِي الْيَوْمَ بِالْمَأْمُونِ !

١ ذو الرئاستين : هو الفضل بن سهل وزير المأمون في خراسان . ولقب بذي الرئاستين لأنه تقلد الوزارة والسيف .

وكان المأمون يودّ أن يرى عنده شاعراً كأيّ نواس ، فلما بلغه استنجاهه به قال : « والله لئن لحقته لأغنيته غنى لا يؤمله . » على ان الشاعر لم يشأ أن يترك الأمين مع ما لقي منه في آخر عهده . وكان من حقه أن يناصر المأمون لو جارى نزعة الشعوبية ، وميله إلى الفرس . والشعوبية والفرس منهم ، يظاهرون المأمون . ولكنه آثر البقاء مع الأمين لأسباب منها انه كان يحبه وتلذّ له معاشرته ومناذمته ، فلا طاقة له بالابتعاد عنه . ومنها ان له من الدالة عليه ما لا يأمل أن ينال مثله عند المأمون . ومنها ان أهل خراسان شيعيون يشددون في أمر الغفران كآصحاب الاعتزال ، وكان أبو نواس عظيم الاتكال على عفو الله ، ففضل عليهم أهل السنة لأنهم لا يحظرون العفو على مسلم ارتكب الكبيرة ، إذا خرج من الدنيا على غير توبة ، بل يجعلون حكمه عند الله ، فإما أن يغفر له برحمته ؛ وإما أن يشفع به النبي إذ قال : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » ؛ وإما أن يعذبه بمقدار جرمه ثم يدخله الجنة برحمته ، ولا يجوز أن يخلد في النار مع الكفار .

فهذه الأسباب كانت تدفع الشاعر إلى ايثار الأمين على أخيه ، مع ما رأى فيه من ضعف وخمول وتقلب آراء .

توبته وموته

ولما قتل الأمين وظفر المأمون بالخلافة ، أصاب أبا نواس شيء من الجزع والقنوط ، وتنكر له الدهر فتبرم بالحياة وسمّ ملاذّها وغرورها ، وأبى أن يتقرب من المأمون أو يمدحه . وكان المأمون قد جعل مقر الخلافة في خراسان ، ولبت هناك نحواً من ست سنوات حتى استتبّ له الأمر في بغداد فانتقل إليها .

وكان بوسع الشاعر أن يتصل به ويستميله بالمديح ، ولكن اليأس الذي ساوره بعد مقتل الأمين ، جعله يزهد في الحياة الدنيا . وتراءى له شبح الموت فراعه ، وأحس أن قواه تحطمت من كثرة فسوقه واستهواره ، ففزع إلى ربه يستغفره ، واقلع عن المجون وشرب الخمر وتنسك حتى هلك وهو على أشد ما يكون من الندم . وكانت وفاته في بغداد وله من العمر نحو من أربع وخمسين سنة ، ودفن في مقابر الشونيزي .

صفاته وأخلاقه

وصفه ابن منظور فقال : « كان حسن الوجه ، رقيق اللون ، حلو الشائل^١ ، ناعم الجسم ، عظيم الرأس . شعره منسدل على وجهه وبقاه دائماً . وكان أثلغ بالراء يجعلها غيناً . وكان نحيفاً وفي حلقه بحة لا تفارقه . » اهـ . وكان إلى ذلك رقيق الطبع ، ظريف النكتة ، خفيف الظل^٢ ، شديد السخر والاستهزاء ، ماجناً لا يبالي ما يقول وما يفعل . وقد يتزيتا بزيت الزهاد ليتوصل إلى فاحشة يرتكبها ، أو معصية يقتربها . وكان يؤثر المجاهرة بفجوره وسكره ، ويكره التستر والمتسترين ، وصراحته جعلته لا يحفل بأقوال الناس فيه ولا يحجل من التحدث بتعهره .

وكان كريماً متلاًفاً لا يذخر للغد ما يكسبه في يومه :

واشرب وجُدْ بالذي تحوي يدَاكَ لها ،

لا تذخرِ اليومَ شيئاً خَزَفَ فقْرَ غَدٍ^٢

وكان يحتقر الأغنياء الذين يستعبدون الناس بأموالهم ، فإذا ضمه وإياهم

١ الشائل : جمع الشمال وهو الخلق والطبع .

٢ لها : أي للخمرة .

مجلس تكبر عليهم . وكان يكره الاحاح في المسألة ، ويرعى عهد أصحابه
فما يغتابهم ، ويريد منهم أن يحفظوا مغيبه .

على انه لم تسلم طباعه من التبرم بالناس ، واليأس من صدق مودتهم .
ويبدو ذلك منه عند ضيقه في حبسه أو افلاسه . وكثيراً ما لازم الافلاس
شاعراً لعظم سخائه ، فتراه متشائماً ، شاكياً متبرماً يقول :

عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ الْغِنَى وَيُنْحَكَ فِي الْيَأْسِ

فهذا الشاعر السمع الطروب ، السادر في فتكه وغلوائه ، لم يخلُ عيشه
من ساعات سود تجده فيها عابساً قنوطاً .

تلونه في نسبه

سأله الحبيب في مصر عن نسبه فأجاب : « أغناني أدبي عن نسي . »
وقيل انه كان ينجبل به فيخفيه ، ويخفي اسم أمه لثلاث هجى . وقيل أيضاً
إنه كان يجهله . فلذلك كثر تلونه فيه ، وتنقله في القبائل . فزعم في أول
دعوته انه من ولد عبّيد الله بن زياد بن ظبيان من تيم اللات من بكر
واثل . ف قيل له : « ان الرجل الذي تدعي إليه لا عقب له ، لأنه فليج ومات
ولا ولد له ، فلو أنك قلت من ولد أبان بن زياد أخي عبّيد الله قلنا معك . »
فاستحيا أبو نواس وهرب من تيم اللات ، وادعى انه تميمي من ولد
الفرزدق ، وتكنى بأبي فراس وهي كنية الفرزدق . وأخذ يتعصب
للزارية ، ويهجو اليمن حتى وقع بينه وبين الحكم بن قنبر التميمي ملاحاة
فهجاه الحكم ودفعه عن تيم ، وعيره نسبه وذكر بربه العود ، فافتضح أبو
نواس ، فانقلب على الزارية وادعى اليمنية ، وانتسب إلى قبيلتي حاء وحكم .
فزجره يزيد بن منصور الحميري خال المهدي ، وقال له : « أنت خوزي^١

١ خوزي : نسبة إلى خوزستان وهي الأهواز .

فما لك ولحاء وحكم . ، فقال : « أنا مولى لهم . » فتركته البانية ، وقال بعضهم لبعض : « انه لطريف اللسان ، غزير العلوم فدعوه ، وبهذا الولاء يتعصب لنا ، ويكيد عنا ويهجو النزارية . » فكان كما قالوا ، فانقلب إلى اليمن ، وعدل عن كنيته بأبي فراس ، واكتنى بأبي نواس . وتقدم على هجاء اليمن ، وكان قد هجا معها هاشم بن حُدَيج الكندي ، فاعتذر له ومدح اليمن .

فيتين من ذلك ان شاعرنا لم يكن ذا عصبية عربية ، وإنما انتسب إلى نزار ليعتز بها . فلما دفعته نزار ، وهجاه أحد أبنائها ، لجأ إلى اليمن . ومع أن اليمن رضية به مولى لها ، فقد كان يؤثر التعاجم ، ويفضل الفرس على العرب ، ويشايح الشعوبية ، وقد أفضى به تعاجبه إلى السجن ، كما مر بنا .

أساتذته وعلومه

رغب أبو نواس في العلم والأدب منذ صباه ، فقرأ القرآن على يعقوب الحَضْرَمي ، حتى حذقه . فقال له يعقوب : « اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة . » وجلس إلى الناشئ الراوية فقرأ عليه شعر ذي الرمة .

واختلف إلى كثير من العلماء والأدباء ، وكان والبة بن الحباب أكثر أستاذيه تحريماً له . وجلس في البصرة بعد تبديته إلى أبي عُبَيْدة يأخذ عنه أخبار العرب وأيامها . وإلى خلف الأحمر يسأله عن الشعر ومعانيه . وإلى أبي زيد الانصاري يكتب عنه الغريب من الألفاظ . ثم نظر في نحو سيبويه . ثم طلب الحديث ، فأخذه عن عبد الواحد بن زياد العبدي ، ويحيى القطان ، وأزهر السَّمان وغيرهم من كبار محدثي البصرة . ولم يتخلف عن أحد منهم حتى برع في كل علم طلبه . فإذا هو راوية للشعر

واسع الرواية، يحفظ الأحاديث بالاسناد، يحكم القول؛ عالم باللغة لا بخطى، مطلع على الحكمة الهندية واليونانية، حتى قال فيه بعض من شاهدوه: « كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر . » يريدون بذلك تفوقه في علوم عصره .

قال اسماعيل بن ثوبخت : « ما رأيت أوسع علماً من أبي نواس ولا أحفظ منه مع قلة كتبه . ولقد فتشنا منزله بعد موته فما وجدنا له إلا قِطْراً^١ فيه كتاب مشتمل على نحو وغريب لا غير . »

نظمه الشعر

ظهرت النجابة على أبي نواس، وهو صغير السن طري العود، لم يطرّ شارب بعد . فنظم الشعر، وعرف بفصاحة اللسان . وأشهر شعره في صباه قوله :

حَامِلُ الْهَوَى تَعِيبُ يَسْتَخِفُّهُ الطَّرَبُ

وقيل له : « كيف عملك حين تريد أن تصنع الشعر ؟ » قال : « أشرب حتى إذا كنت أطيّب ما أكون نفساً بين الصاحي والسكران ، صنعت الشعر وقد داخلني النشاط ، وهزّني الأريحية^٢ . » وقال أيضاً : « لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسي طيبة ، وأكون في بستان مؤنق^٣ ، وعلى حال ارتضيتها من صلة أوصل بها ، أو وعد بصلة . وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعواؤاً لا أرضاها . »

١ القمطر : ما يسان فيه الكتاب ، يذكر ويؤنث .

٢ الأريحية : الارتياح المعروف .

٣ مؤنق : معجب .

وكان يعمل القصيدة ثم يتوكلها أياماً ، ثم يعرضها على نفسه ، فيسقط كثيراً منها ، ويترك صافياً ، ولا يسره كل ما يقذف به خاطره . ولكن هذا التنخل لم يتناول جميع شعره . فروي له شيء من الساقط المردول . وكان همه الشعر في الحر ، فلا يعمله إلا في وقت نشاطه . ولم يكن في النظم بالبطيء ولا بالسريع ، بل كان في المنزلة الوسطى .

آثاره

ديوان شعر مختلف لاختلاف جامعيه ، فإنه عني بجمعه رهط من الأدباء منهم أبو بكر الصولي ، وعلي بن حمزة الأصبهاني . وطبع غير مرة في فينّا ومصر وبيروت . وفي صدر الطبعة المصرية فصل لجامعه الأصبهاني في منزلة شعر أبي نواس ونقده . وهذه المجموعة تتضمن أكثر من ثلاثة عشر ألف بيت ، رتبت على اثني عشر باباً : فالأول في نقائضه مع الشعراء ، وأخباره معهم ومع القيان . والثاني في المديح . والثالث في المراثي . والرابع في العتاب . والخامس في الهجاء . والسادس في الزهد . والسابع في الطرد . والثامن في الحر . والتاسع في ما جاء بين الحر والمجون . والعاشر في غزل المؤنث . والحادي عشر في غزل المذكر . والثاني عشر في المجون . وقد أهمل الناشر الباب الأخير ، فلم يثبت في الطبعة لأنه رأى فيه ما يسم الآداب ، وحسناً فعل . ولكننا لا ندري بأي عين نظر إلى الباب التاسع فإن فيه من التعهر ما لا يقل عما ورد في الباب الثاني عشر .

وجمع ابن منظور صاحب لسان العرب تاريخ أبي نواس ونوادره وشعره ومجونه في كتاب سماه أخبار أبي نواس . وقد طبع الجزء الأول

منه في مصر سنة ١٩٢٤ مضبوطاً بالشكل ، مشروحاً بعض الشرح ، ولكن الحكومة المصرية منعت متابعة نشره لما فيه من فحش مضر بالأخلاق .

وكتب الأدب حافلة بأخبار أبي نواس وأشعاره لشدة اهتمام الناس برواية شعره ، فإنهم كانوا يتفكهون به ، ويؤثرونه على أشعار القدماء ، فسار على الأفواه كل مسير ، فروي له في مصر أشعار لم يعرفها أهل العراق ، وضاعت له قصائد لم يبق منها شيء ، أو بقي بيت أو بيتان . ونُحِلَّ شعراً كثيراً لم ينحل مثله أحد ، ذلك انه سلك طريقاً جديداً في الشعر ، فإِنْ أَكْثَرَ أشعاره في اللهو والتشبيب والمجون . وكان في عصره طائفة من المُجَنِّان يذهبون مذهبه ، وليس لهم حظ من الشاعرية والشهرة مثله ، فأصبح الناس يلحقون به كل شعر في الحمر والمجون لم يعرف صاحبه ، ولم يُعَنَّ الرواة بشعره .

وأضيف إليه من النوادر والأخبار كما أُضيف إليه من الأشعار ، فقد وضع عليه ابن الداية ، وكان مشهوراً بصحبته ، روايات لا صحة لها . وفي أخبار أبي نواس لابن منظور المصري نوادر أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة ، بما يدل على ان أهل مصر شغفوا بالشاعر كأهل العراق ، فراحوا يتفننون في اصطناع الأخبار الغريبة عنه ، فحملوه أحمالاً ثقيلة زادت سمعته تشويهاً . ونحن ، وإن كنا لا نخامرنا ريب في خلاعته وحوادثه المجونية ، لا يسعنا إلا أن نشكّ في بعض نوادره التي يظهر عليها التفنن وحبّ التفكّه والإغراب . وسنعمد في درس شعره على المشهور منه الذي لا يشك في نسبته إليه .

ميزته

ما ترك أبو نواس غرضاً من الشعر إلا خاض فيه ، ونال قسطاً منه ، فقد أوتي شاعرية جواده يفيض بها الطبع السمع الطرب ، ويثقفها الفن الدقيق البازع . فإذا هي تنطق بشعر كالماء سلاسة وعذوبة وكالرياض قطعاً وألواناً ، تختلف باختلاف أشكالها وأنواعها . فمنها ما ينقرد به صاحبنا فما يجاريه متقدم ولا متأخر ، وذلك في الحمر والعبث والمجون . ومنها ما يجيده ولا يقصر به ، وذلك في المدح والهجو والطرّد والزهد . ومنها ما يقصر به ولا يجيده ، وذلك في الرثاء والغزل البريء ، ولا سيما المؤنث منه . فشعر أبي نواس كما يظهر لنا ، على ثلاثة أقسام : قسم يطبعه بطابعه الخاص ، ومجتكره احتكاراً لا ينزاعه فيه أحد . وقسم يشارك فيه غيره من الشعراء . وقسم يجري به وراء المجتئين فما يشق لهم عباراً . وسنحاول تحليل هذه الأقسام الثلاثة لنظهر ميزتها واضحة فيبدو ما لشاعرنا من خصائص جعلته مثلاً صادقاً اعصره من ناحيتي الجدّ والعبث ، وبوأتة منزلة لا يسمو إلى مثلها غير عباقره الشعراء

ونشرع أولاً في درس خمرياته وما يبعثها من لهو ومجون وآراء وعقائد . ثم ندرس غزله ، فمدحه ، مرثاه ، فمجهوه ، فطرده ، فزهده ، حتى نتبين ذاتيته ومنزله ، وما كان له من أثر بليغ في عصره .

الحمر والمجون

إذا أردت أن تغوص في أعماق نفس أبي نواس ، وتبين حقيقته فما تستطيع ذلك في شعره الجدي ، وإنما تستطيعه في عبثه ولهوه ، في خمرياته ومجونه . فهي مرآة صافية تنعكس عليها ذاتية الشاعر الماهجن . وأبو نواس يشرب الحمر ويتعبد لها ، فإذا ذكرها افتنّ في وصفها ،

وسبب بها تشيبيه بأحب الناس إليه . وقد صنعت له معانٍ في وصفها لم
يفتضها سواه ، فعُرف بها ، وعُرفت به ، وجعلته في هذا الفن نسج وحده .
وإذا وصف الخمرة صورها أحسن الصور ، وأحاطها بالطف التشاييه
والاستعارات . ووصف معها الكؤوس والنديم والساقى والخمار ومجلس
لهوه . وقص أخباره الفاحشة لا متكتماً ولا مستعياً . فهو صريح يؤثر
المجاهرة ، ويكره التستر ، ويود لو يستوعب اللذة من جميع نواحيها ،
لثلا يفوته طرف منها ، فتسمعه يقول :

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ
وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكَّنَ الْجَهْرُ

فكأنه أراد أن يلتذ سبعة بذكرها ، كما التذت العين برؤيتها ، واليد
بلمسها ، والفم بذوقها ، والأنف بشمها . أو لعله أراد المجاهرة بذكرها ،
فأمر الساقى أن ينادي باسمها .

فاشعاره تطلعا على صراحته ، فنراه مجاهراً بتعبده للخمر ، وسكره
المتواصل ، مجاهراً بفنكه ومجونه . وقد يستوقفنا قوله :

فَعَيْشُ الْفَتَى فِي سَكْرَةٍ بَعْدَ سَكْرَةٍ فَإِنْ طَالَ هَذَا عِنْدَهُ قَصُرَ الدَّهْرُ

فكأنه يريد أن يقصر أيام حياته بالسكرات المتواصلة ، لا يعقبها صحو .
وهذا شأن رجل لا يخلو عيشه من شقاء ويأس وحب انتعار . وأبو نواس
لم يكن بنجوة من مراوة العيش ، فقد ذاق طعم الحاجة ، وحُبس وقهر
مراواً وانتقص من قدره أحياناً . وكانت علته ترافقه وهو في ميعه شبابه .
فلا غرو أن يبدو عليه شيء من التطير والقنوط ، فيؤثر ساعة السكر على
ساعة الصحو لكي لا يشعر بشقاء نفسه .

وقد يظل في شرب متواصل حتى يفلس ويرهن ثيابه أو يبيعها لشرب
بها :

فَبِعْتُ قَمِيصًا سَابِرِيًّا وَجَبَّةً ۖ وَبِعْتُ إِزَارًا مَّعْلَمَ الطَّرْفَيْنِ^١

ويؤثر اصطباحها عند صياح الديك ولذلك كثر اسراؤه ليلاً إلى بيوت
الحمارين . وشعره أوعب معجم لأسماء الحانات والملاهي في بغداد وغير
بغداد ، فلا يتروك موضعاً تنسب إليه الحمر الطيبة إلا ذكره ووصف خمرة .
فإذا تم له خمرة يصطبجها في أحد هذه المواضع ، فتلك لذة العيش
عنده . كيف لا والخمرة شقيقة نفسه ، يتعبد لها ويؤثرها على الصلاة ،
ويسبها أحسن الأسماء ، ويصفها ألطف الأوصاف ، ويبكي عليها لأن
القرآن حرّمها وهو يريد تحليلها . ولكنه يشربها وإن حرّمته :

وَلَكِنِّي أَبْكِي عَلَى الرَّاحِ أَنَّهَا حَرَامٌ عَلَيْنَا فِي الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ
سَاءَ شَرَبُهَا صِرْفًا ، وَإِنْ هِيَ حُرِّمَتْ ، فَقَدْ طَالَمَا وَقَعْتُ غَيْرَ مُحَلَّلٍ^٢

ولذلك يؤثرها مطبوخة بالشمس لا بالنار لثلاث تصير نبيذاً محللاً :

فَاطْبُخِ الرَّاحَ بِشَمْسٍ ، فَكُفَى بِالشَّمْسِ نَارًا

وما ينتهي من التشبيب بها إلا ليصف مجالس لهوه ، ويتحدث بما يأتي
من الأعمال الشائنة . فيشتد حينئذ مجونه ، ويكثر فحشه واستهزائه ،
وتبدو أخلاقه بما فيها من مرض وفساد . وأحسن المجالس عنده في الرياض

١ السابري : ثوب رقيق منسوب إلى سابور ، وهي كورة في فارس ، ونسبته شاذة . الإزار :
ما يستتر به . معلّم : موشى بالذهب .

٢ وقعت : خالطت .

والبساتين، بين الأزهار والرياحين وعلى الأنخس إذا جاء فصل الربيع. ويطيب له الشراب على آلات الطرب وأصوات المغنين ، يحفُّ به الساقى والنديم . وتراه شديد الاهتمام بهما ، يصفهما وصفاً دقيقاً ، وقد يفضلهما على الحبرة التي يتعبد لها . وأكثر ما يكون ساقيه من الغلمان ، فإذا وصفه شبه بأبناء الخلفاء والملوك من عباسيين وغساسنة . وربما دارت عليه بالكأس جارية ، ولكنها تكون غالباً غلامية مطبومة الشعر^١ .

وإذا وصف النديم لست في شعره عاطفة الاعظام له ، والعطف عليه ، والعناية بمصاحبه ومداراته . فيطلعنا على أدبه معه ، ثم على خير الندامى عنده ، وعلى آداب المنادمة عموماً، فيضع لأصحاب اللهو والشراب قوانين ليسيروا عليها . وغنايته باختيار النديم ثم اعظامه للخمر جعله يحرم شربها على اللثام ، وعلى الذين ليسوا باكفائها .

ولا يغفل عن وصف الكؤوس ، فيقف إزاءها موقف مصور بارع ، فيرسم ما عليها من التصاوير والخطوط . فيعطينا فوائد جلية في حسن صناعتها عند الشعوب التي خالطت العرب، وفيما كان ينقش عليها من الصور التاريخية .

ثورته على القديم

وخبرياته تطلعنا على تجده وثورته على القديم . فهو كما عرفنا ، شعوبي النزعة يؤثر الفرس على العرب ، وينفر خصوصاً من الحياة البدوية ، ولا يأنس بأساليب الأعراب ، من وقوف على الاطلال وبكاء على الدمن . ولا يلذ له وصف النوق والشياه ، والرحش والقفار . وإنما يطيب له أن يصف

١ مطبومة الشعر : مقصوده ذى هماً بالغلمان .

ملاهيته ومجالس لذته . فكان يهزأ بالشعراء الذين يقفون على الديار ، ويبكون
الاطلال البالية ، ويستنطقون آثارها ، ويسألونها عن ليلي وهند وسواهما
من عرائس الشعر ، ويدعوهم إلى اتباع مذهبه :

لَا تَبْكُ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبُ إِلَى هِنْدٍ
وَأَثْرَبُ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءِ كَالْوَرْدِ

آراؤه وعقائده

لم يكن لشاعرنا مذهب يعتمد إلا اللذة ، فعليها وحدها بنى آراؤه
وعقائده . وفي خبرياته ومجونه يظهر لنا مذهبه هذا ، مستخراً له احكام
الدين وشرائعه ، قانعاً من دنياه بكأس وحيب :

رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا بِكَأْسٍ وَشَادِنٍ ،
تَحَيَّرُ فِي تَفْصِيلِهِ فِطْنُ الْفِكْرِ

وإذا لامه في ذلك لاثم صاح به :

يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى حَمْرَاءَ صَافِيَةٍ ،
صِرَ فِي الْجِنَانِ وَدَعْنِي أَسْكُنِ النَّارَ

وأبو نواس مسلم يؤمن بالله وبالرسول ، ولكنه مستهزئ فاتك ،
حريص على لذته ، فإذا عرضت له تناولها من أية ناحية بدت ، ولو خالف
فيها شرائع الإسلام . وإذا طُلب إليه أن يحج ، ويتوب إلى ربه قال :

وَقَائِلٍ : هَلْ تُرِيدُ الْحَجَّ ؟ قُلْتُ لَهُ :
نَعَمْ إِذَا فَنَيْتُ لَذَاتُ بَغْذَاذٍ

١ بغذاذ : لفة في بغداد .

وحجّ لما حجت صاحبه جنان ولولاها لما حجّ . وكان يضمن بوقته أن يضيعه في الصلاة وهو على شرابه ، فإذا سمع نداء المؤذن قال لساقه :

عاطيني كأسَ سَلَوَةٍ عَنْ أَذَانِ الْمُؤَذِّنِ

ويصوم رمضان مكرهاً ، فمنا يفتأ يتذمر عليه . فإذا ضاق به ذرعاً هجاه وأفطر وشرب وتعمّر . وكان شديد الاتكال على عفو الله ، وله في ذلك نظر فلسفي :

خُلِقَ الْغُفْرَانُ إِلَّا لِأَمْرٍ فِي النَّاسِ خَاطِي^١

ويريد انه لولا الخطيئة لما كان الغفران ، والغفران بلا خطيئة لا معنى له . وقد يلتبس العفو بطريقة مجونية ظريفة ، فيقول :

وَضَعَ الزَّقَّ جَانِباً ، وَمَعَ الزَّقَّ مُصْحَفًا ،

وَاحْسُ مِنْ ذَاتِ ثَلَاثَةٍ ، وَاتْلُ مِنْ ذَاكَ أَحْرُفًا^٢

خَيْرُ هَذَا وَشَرُّ ذَا ، فَإِذَا اللَّهُ قَدَّ عَفَا ،

فَلَقَدْ فَازَ مَنْ سَحَا ذَا بِذَا عَنْهُ^٣ وَاسْتَفَى

واتكاله على عفو الله جعله ينكر على النظام شيخ المعتزلة تشدده في أمر الغفران ، ويرميه بالكفر ، والازراء بالدين . فيقول :

فَقُلْ لِمَنْ يَدْعِي فِي الْعِلْمِ فَلَسَفَةٌ :

حَفِظْتُ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ !

وجملة ما يقال في أبي نواس والحمر انه أحبها حتى العبادة ، فافتن في

١ خلق : أي أخلق . حذف أداة الاستفهام .

٢ احس : اشرب . ثلاثة : ثلاثة أروطال أو أقداح .

وصفها افتناناً لم يجارِه أحد فيه ، حتى قيل : « لقد وصف أبو نواس الخمر
وصفاً لو سعه الحسان^١ لهاجرا إليه ، ولعكفا عليه . » وحتى ان أصحابه
سجدوا لشعره عندما أنشدهم : لا تَبْكِ ليلى ، ولا تَطْرَبِ إلى هِنْدِ .
وخبرياته أصدق صورة لنفسه الخالعة الرمن ، وللروح البغدادية المالجنة
في عصره .

غزله

لأبي نواس غزل كثير، فيه من المجون والصراحة ما يصور حقيقة هذا
الشاعر المتهتك ، وكان أصدق عاطفة في غزل المذكر منه في غزل المؤنث
لقلّة اعتداده بالنساء . وقد حاول بعض أهله أن يزوجه ليردّه عن غوايته
فأبى . وقيل انه تزوج جارية من اهل بيته ، ولكنه ما أمسى حتى طلقها .
ومن كانت هذه حاله ، فلا بدع ان تضعف فيه عاطفة الغزل في النساء .
ولكنه عاشر بعض الإماء ، وشبّه بهن لا لأنه أحبّ واحدةً منهنّ
حبّاً صادقاً ، بل لأنهنّ كنّ غير مصونات لا يتحرجن من مجالسة الخلّعاء
على الشراب . وكنّ إلى ذلك يصلحن للمنادمة ، لبراعتهن في الشعر
والرواية والغناء . فأبو نواس لم يعرف من الحبّ غير اشباع شهواته ،
فصدف عن الحرائر المتحصنات ، وقنع منهنّ بالمتبدلات . وكان يؤثر
الغلاميات على غيرهن ، وهنّ الجوّاري اللواتي كنّ يتزيّنن بزيّ الغلمان ،
وكثيراً ما ذكرهنّ في شعره ، ووصف أشكالهن وازيادهن .
وقيل انه أحبّ جنان جارية آل عبد الوهّاب الثقفى . وكانت جميلة
المنظر ، أدبية ظريفة ، تعرف الأخبار ، وتروي الاشعار . ولما حجت حجج

١ الحسان : الحسن البصري وابن سيرين .

معها ليجمعه وإياها المسير . واشتهر شعره بها ، فعرفت مولاتها فبعثت إليه :
 « إن أردت وهبتها لك . » فأخبرت جنان بذلك ، فرضيت ، ولكنها
 اشتطت عليه ان يقلع عن فجوره وقبح سيرته ، فأبى ولم يضمن لها هذا
 الشرط . فحرم محبتها كما حرم محبة عِنان جارية الناطقي وغيرهما من
 ظرائف الإماء . وهذا يدلنا على ان حبه لجنان لم يكن صادقاً وقويّاً كما
 تصوره بعض الرواة ، وإنما كان يؤثرها على غيرها من الولائد ، حتى إذا
 هجرته لم يؤلمه هجرها . ورجت منه مرة أن ينقطع عن زيارتها لتكف ألسنة
 الناس عنها ، فعمد إلى نكايته وتشيرها فقال :

يَا مَعْشَرَ النَّاسِ فَاسْمَعُوهُ وَعَوَا : إِنْ جِنَانًا صَدِيقَةُ الْحَسَنِ

وروى صاحب الأغاني ان أبا نواس رآها مرة في ديار ثقيف فحببته بما
 كره فغضب وهجرها مدة ، فأرسلت إليه رسولا تصالحه فردده ولم يصالحها .
 فلو صدق حبه لها لما تأبى مصالحتها وأعرض عنها .
 ورووا انه رآها مرة في مأتم تندب وتلطم فقال :

لَا زَالَ مَوْتًا دَابُّ أَصْحَابِهِ ، وَذَاكَ أَنْ أَبْصِرَهُ دَابِي

فلو كان يحبها حقيقة لما نغى تتابع الوفيات في أهلها واصحابها ، ليراها
 أبداً سافرة لاطمة نادية . فهذا حب وحشي يجعل صاحبه يتلذذ بألم محبوبه
 ولم يكن أبو نواس كذلك مع من يحب .

وفي الأغاني رواية عن بعض آل ثقيف يكذب فيها حب أبي نواس
 لجنان فيقول : « ان ذلك لم يكن إلا عبثاً خرج منه . » وهذا ما نعتقده ،
 فإن الشاعر لم يخلص في حبه لجارية ثقيف ، لأن نفسه الفاسقة صرفته عن

١ الداب : العادة والشأن ، وهو مسهل الداب .

الحب الصحيح . ولم يصاحب الإمام والجواري إلا للهو والعبث ، فلم يحظ
عندهن "لعلمهن" بأمره . وقد تغزل بهن كثيراً ، فكان هذا الغزل ضعيف
العاطفة متكلفاً في أكثره ، ولا سيما العفيف منه .
والغزل العفيف قليل في شعر أبي نواس ، وبعضه جميل لبراعة فنه ،
وبعضه الآخر ضعيف ظاهر التكلف .

مدحه

لأبي نواس في المدح لغة غير اللغة التي يتحدث بها إلى العلماء والاماء في
الحمر والمجون والغزل . فإذا رأيت الطبع والسهولة والرقّة في تلك ،
فستلقى الرصانة وتخير الألفاظ ، وتكلف الغريب في هذه . فهو في عبثه
يحادث الطبقة العامة على الأخص ، فيفرغ بمعانيه في قالب لطيف لا يعسر
فهمه ، فيحفظه الناس ، ويتغنى به القبان والمغنون . وأما في مدحه فيتحدث
إلى طبقة خاصة تتألف من الخلفاء والأمراء وهؤلاء يؤثرون اللغة الشريفة
بلفظها الرصين ، واسلوبها القديم . فكان شاعرنا يجاري اهواءهم ، ويغتنم
من ذلك فرصة ليري أصحاب اللغة براعته في معرفة الغريب ، وإطلاعه على
مذاهب العرب العرباء . فإذا هو كالشاعر الجاهلي ، يقف على الديار ،
ويذكر الأحبة ، ويصف ناقته حتى يتخلص إلى بمدوحه فيسبغ عليه حلال
الثناء .

فإذا أنت قرأت هذا الشعر ، ورأيت ما فيه من جزالة وشدة أسر ،
أنكرت أن يكون أبو نواس صاحبه بعد أن عرفت الرقة والسهولة في
خمرياته وغزله . فأبو نواس في مدحه محافظ أكثر منه مجدداً ، متكلف
مقلد على كره منه ، مغالٍ أحياناً حتى يبلغ حدّ الاحالة . وتكاد شخصيته
لا تبين في بعض مدائحه لولا خاطرات منشورة يلمحها الناقد البصير .

ولعلّ شخصيته تذوب في أكثرها عندما يمدح الرشيد والبرامكة لأن الرشيد كان مهيباً ، فيترصّن في مدحه أكثر مما يترصّن في مدح غيره من الأمراء الذين تقرّب إليهم ونادهم فأصبح له دالة عليهم . وهكذا كان شأنه في مدح البرامكة لأن هؤلاء لم يقرّبوه كثيراً ، فتوسل إليهم بالمديح خشية منهم ، وطمعاً في نوالهم .

وكان في مدح الأمين أصدق عاطفة منه في مدح غيره . ولا غرو فإنه أحبّ الأمين ، وكان له خلاّ ونديماً . وأكثر ما ينعت به بالشباب والجمال ، وشرف الأخلاق ، وسخاء الكف ، وحسن التدين ، وغير ذلك من النعوت الحسنة . وله قصيدة قالها في العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور هي من أطيب شعره وأروع ، تمثل أبلغ تمثيل لغة الشاعر وأسلوبه في المدح . وقد استهلها بخطاب صاحب له ، خانه في مودته ، ومال إلى غيره ، فتخلّى أبو نواس منه ، وطرده عنه ، وافتخر عليه بأصحابه ووفائه لهم ، وبسعة صدره وطول أناته في مداراة الحلان ، وإن كانوا ينطوون على حقد وبغضاء .

ثم ينتقل انتقالاً بديعاً إلى وصف بعيده الذي قطع به القفار إلى ممدوحه فيتخلص بذلك إلى المدح .

فهذه القصيدة من أبلغ شعره الجدي وأشرفه لفظاً ومعنى ، وأوقعه رنة ونغماً . فقد ارتفع بها الشاعر ارتقاءً أدهش الرواة وعلباء اللغة ، ففضلها أبو عبيدة على قصيدة امرئ القيس التي أولها : رُبّ رامٍ مِن بني ثعلبة . ولما سمعها ابن الاعرابي قال : « احسن والله ، لو تقدم هذا الشعر في صدر الاسلام ، لكان في صدر الأمثال السائرة . » وكان أبو نواس يقول : « إذا أردت الجِدّ قلت مثل قولي : أيها المنتاب عن عُفْرِه . »

رثاؤه

ليس في رثاء أبي نواس كبير غناء ، فكأن نفسه في تطلبها السرور ،
ونفورها من الأشجان ، أبت عليه أن يعرف الحزن الصحيح فيجيد الرثاء ،
ولم يكن له أسرة يهيم أمرها فيعزن إذا أصيب أحدها بمكروه .
وروي له بيتان في رثاء ابن له ، ولا ندري كيف جاءه هذا الولد ، لأن
رواة أخباره يؤكدون أنه أعرض عن عرسه وطلقها يوم زواجه بها ، فلم
تبت ليلة عنده ، ومنهم من يزعم أنه لم يتزوجها . وهبه رزق ولدأ منها أو
من غيرها ، فليس في رثائه لهذا الولد شيء من الحنو الأبوي . وإليك ما
يقول فيه :

لَعَمْرُكَ مَا أَبْقَى لَنَا الْمَوْتُ بَاقِيَا
نَقْرُ بِهِ عَيْنَا غَدَاةَ نَوُوبٍ^١
كَأَنِّي وَرَثْتُ الْمَوْتَ بَابِي أَفَادَةٍ^٢ ،
عَلَى حِينَ حَانَتْ كِبَرَةٌ^٣ وَمَشِيبٌ^٤

وكان كثير الأصدقاء ، وأكثرهم من المُجَّان ، ولكن ليس له في رثاء
أحدهم شيء يعتد به . فقد كان يريد لهم للهو والعبث لا للحزن والبكاء . ورثي
أستاذة والبة ، فجاء رثاؤه ضعيف العاطفة ، مع ما كان بينهما من مودة
قديمة ، ولا عجب فالمودات لا يطول لها عمر بل تخف وتزول بالافتراق
والتباعد ، وكرور الأيام والسنين . ومات الرشيد فلم يجزع عليه لأنه لم

١ نَوُوب : ترجع أي نرجع إلى بيتنا أو إلى اسرتنا .

٢ وَرَثْتُ أي أصبته بوتر أي ثار أي قتلت حميماً له . أَفَادَةٍ : أخذه . يقول : كأني قتلت
للموت ابناً فأخذ ثأره وقتل ابني .

يمدحه عن حب و اخلاص ، ولم يستطع رثاءه بأكثر من بيتين جافين باردتين .
ولعل نفسه لم تشعر بفراغ حولها إلا يوم مصرع الأمين فقد استولى على
أبي نواس يأس وقنوط ، وآلمه فقد خليله ، ومورده العذب ، وأحس
الحسارة الجسيمة التي لا تعوّض ، فبكى صديقه ورثاه ، وكان صادق البكاء ،
عاطفي الرثاء ، ومع ذلك فقد ضاقت ذراعاه عن رثائه بأكثر من بضع
مقطعات لا تزيد واحدها على أربعة أبيات منها قوله :

طوى الموت ما بيني وبين محمد ، وليس لما تطوي المنية ناشر ،
فلا وصل إلا عبوة تستنديمها أحاديث نفس ، ما لها الدهر ذاكر^١
وكننت عليه أخطر الموت وحده ، فلكم يبق لي شيء عليه أخطر^٢
لئن عمّرت دوروبن لا أودّه ، لقد عمّرت بمن أحب المقابر^٣

وكان صاحبنا يشعر بعجزه في هذا الفن ، فإذا رثى أحداً وتعهد
الاطالة ، ستر عجزه بوصف الطيور والوحوش ، فيذكر مناعتها في الجو
والآكام والجمال ، ثم يستفيض في اظهار قوتها ونشاطها وشدة فتكها ،
ليستخلص من جميع ذلك حكمة ساذجة وهي ان هذه السباع المنيعه لا
تتجو من الموت ، ولو نجّاهي من الموت لكانت أولى من غيرها بالنجاة .
ثم ينتقل إلى مرثيه فيزوده ببضعة أبيات ليس فيها ما يحزنك أو يرضيك .
وفي هذا النوع يكثر تكلفه وغريبه بحيث تشعر انه يعتمد الاغراب
تعمداً ليستر ضعفه وقصر يده . ولنا في رثائه لأستاذه خلف الاحمر أصدق

١ عبوة : دعة . يقول : لم يبق لي بعد موته إلا البكاء تديمه ذكريات نفسي للأيام الماضية ،

ولكنها تبقى مكتومة في سري فليس لها ذاكر ابد الدهر .

٢ عمّرت : سكنت وأهلت .

شاهد على ذلك ، فقد جاء به وحشي الألفاظ غليظاً ، يشغل القسم الأكبر منه ذكر الجوارح والوحوش .

هجو

المهجو في شعر أبي نواس على ثلاثة أقسام: سياسي شعوبي قبلي، وتكسي، وشخصي ومنه العبثي . فالسياسي ما ظهرت به شعوبيته في هجو القبائل العربية ولا سيما التزارية بعد انتسابه إلى اليمن ، وإن تكن حياته المأجنة لم تجعل منه شعوبياً جدياً. وكان هجاؤه شديد الوطأة فاحشاً مؤلماً، فلم يدع قبيلة إلا مزق أعراضها ، حتى أنه لم يعف عن قريش بل تهكم بها ، وعيها التجارة . ولكنه كان أرفق بها من غيرها لأن النبوة والخلافة فيها .

وكان شديد الإعجاب بجرير ، وبهارته في الهجاء ، فلذلك يجذو جذوه في اللذع والتعير ، ثم في رصانة العبارة ، وجزالة اللفظ . فكأنه أراد أن يجعل هجاءه لقبائل الأعراب صورة عن المهجو الذي تعودوه من شعراء صدر الإسلام فخطبهم باللغة التي يألون . ويبدو لنا في هذا القسم من الهجاء اطلاع الشاعر على أحوال العرب وعاداتهم وأخبارهم ، ومثالبهم وأيامهم .

وأما هجاؤه التكسي فلم يكن يصطنعه للالاحاح في السؤال ، أو لتهديد المدح ان لم يحسن صلتَه فعَلْ بشار . فأبو نواس لم يكن على شيء من هذه الغلاظة ، وإنما كان معجباً بشاعريته ، عارفاً قدر نفسه ، شديد الحرص على منزلته الأدبية ، فإذا بنحسه أحد حقه نقم عليه وهجاه . وكان إلى ذلك شديد التبذير لا يغبنيه القليل من العطاء ، فإذا قتر عليه المدح أو ظهرت له منه جفوة، رحل عنه وهجاه . فقد حقد على البرامكة وهجاهم أخبت هجاء لأنهم استهانوا بمكانته ، وقدموا عليه أبان بن عبد الحميد اللاحقي ، وما كان

أبان ليستحق هذه التقدمة . وهجا الحصيب بعد أن مدحه ، لأنه لم يلق منه ما كان يتوقعه ، أو لأن الحصيب ضاق ذرعاً بتبذيره ، فطلب منه أن يرسل عنه . وهجا الميثم بن عديّ لأن الميثم لم يقرّب مجلسه لما دخل عليه ، وكان لا يعرفه . وهجا أبان بن عبد الحميد لأن أباناً حسده فلم يضعه في المرتبة التي يستحقها لما عهد إليه البرامكة في تفريق الجوائز على الشعراء .

وأما هجاؤه الشخصي العبتي فكان يتناول به العلماء والشعراء ، والبخلاء والثقلاء وسواهم . فمنه ما يقصد به إلى المنافسة ، ومنه ما يقصد به إلى الدعاب ، وأكثره خالٍ من الضغينة والكراهة ، ولكنه حافل بالفحش والريذيلة كهجائه النظام وأبا عبيدة وعنان والرقاشي وغيرهم .

وبما ينبغي ذكره أن لغته في هجوه السياسي أجزل وأحكم من لغته في سائر هجائه ، ولا سيما ما كان منه دعاباً فإنه لا يخلو من لين واسفاف وتكلف الصنعة .

طرده

يكاد أبو نواس يُعنى بطردياته عنايته بخمرياته ، فإن الصيد كان من أسباب ملاحيه ، وملاهي الأمراء الذين نادهم ، فوصفه وصفاً دقيقاً ، وأجاد في بعضه كل الاجادة ، وأكثر طردياته أراجيز ، فقد ذكر الرواة انه لم يقل في الطرد إلا تسعاً وعشرين أرجوزة ، وأربع قصائد ، فما كان زائداً على ذلك فهو منحول .

وأراجيزه تعتمد على قافية واحدة . ولغته في وصف الصيد شديدة الأسر كثيرة الغريب كلفته في مدائحه . فهذا الفن وان يكن من ملاهي الشاعر ، فإن صاحبنا حباه من قوة الاحكام بشيء كثير . ولا يخفى ان الغريب من ميزات الأراجيز ، فلم يشأ أبو نواس أن يجاوز هذا التقليد

الموروث ، فسار على خطة رؤبة بن العجاج وأبيه^١ . ولكنه وثى شعره
بالصناعة الجميلة وحلاه بالمعاني الحضرية الجديدة .

وأكثر طردياته في وصف الكلاب ، وأقلها في الفهد والبازي والصقر
والفرس والديك الهندي وسواها . وإذا نعت الكلب وصف لونه وأذنيه
وقوائمه ، وأظافره وذنبه وقده . ووصف حركاته ونشاطه ، ووثباته عندما
يقوده الكلاب . ثم انطلقه وراء الصيد وغير ذلك حتى يصوره تصويراً
دقيقاً متناهِياً .

ويبدأ أرجوزته على الغالب بقوله : « انعت كلباً ، ... انعت ديكاً . »
أو يستهلها ذاكراً هبوبة في الصباح وإيقاظه الكلب للصيد .

زهده

لم يكن أبو نواس زنديقاً ملحدآ ، وإنما كان مستهزئاً ، مسرفاً في
الحلاعة والمجون ، شديد الاتكال على عفو الله . فغير عجيب أن يتزهد في
آخر حياته ، بعد أن شبت نفسه من المعاصي ، وبرى الداء جسمه برياً ،
فإذا أنت قرأت زهدياته لمست فيها ندامة صادقة ، وإيماناً بالله كبيراً . وقد
قال بعضها في شبابه يوم كان راكباً رأسه ، مرخياً لعنان شهواته . فكأنه
كانت تمرّ به ساعات خوف وندم ، فتخرج من صدره . أحرّ التآوهات
والزفرات .

ما أدرك عليه

روي لأبي نواس شعر ساقط لا يليق بجلالة قدره في دولة القريض ،
ولعل ذلك مما نخلوه إياه ، أو بما قاله في حال سكره . فإنه كان يكثر

١ العجاج وابنه رؤبة راجزان شهيران في صدر الاسلام ، وأدرك رؤبة بني العباس . وكانا
يكثران من غريب الالفاظ ووحشيتها .

الارتجال والتعابث حين يسكر ، فيجوز ما لا يجوز ، ولم يكن ليرضاه في صحوه . وربما عبث باللغة نكاية بالعلماء المتشددين ، فيشدّ عن القواعد اللغوية غير مبالٍ . وهذا ما يقع له غالباً في شعره المجوني ، وإذا وقع له في شعره الجدّي دافع عنه وأخرجه على وجه يرضاه العلماء ، كما أخرج قوله : « ككمون النار في حجره . » وما يؤخذ عليه قوله :

رَسًا تَوَاصِينَ الْقِيَانُ بِهِ ، حَتَّى عَقَدَنَ بِأَذْنِهِ شُنْفًا^١

فقد جعل فاعلين لفعل واحد وهذا مكروه ، وقال شُنْفًا والصواب شُنْفًا . وقوله :

رَأَيْتُ كُلَّ مَنْ كَانَ أَحْبَقًا مَعْتَوْهَا ،

فِي ذَا الزَّمانِ صَارَ الْمُقَدَّمُ الْوَجِيها ،

يَا رَبُّ نَذَلِ وَضِيعِ نَوَاهُتُهُ تَنْوِيها ،

هَجَوْتُهُ كَيْبًا أَزِيدَهُ تَشْوِيها^٢

فهذان البيتان لا يستقيان على بحر من البحور المعروفة . وشغف أبو نواس بأوجه البيان والبديع فجاء في طلبها حتى أفرط أحياناً وتبعّض كقوله :
لَمَّا بَدَأَ تَعْلَبُ الصُّدُودُ لَنَا ، أَرْسَلْتُ كُلَّ الْوَصَالِ فِي طَلَبِيهِ
فقبّح أن تدخل الثعالب والكلاب في غزل يشكو به المحب هجر حبيبته .

١ رَسًا : ولد الفلية . وهو هنا مستعار . القيان : المغنيات . الشنف : القرط الاعلى وهو حلي يعلق في شحمة الأذن .

٢ نَوَاهُتُهُ : رفعت ذكره ومدحته . يقول : أنه يهجوّه في مدحه ليزيده تشويهاً .

وأدرك عليه سرقات توكتا فيها على معاني سبق إليها ولكنه كساها
حللاً جميلة ، فسارت بين الناس وعرفت له . وأكثر ما عيب عليه تصرفه
في قواعد الصرف والنحو والعروض ، وجنوحه إلى الغلو حتى الإحالة كقول
في مدح الرشيد :

حتى الذي في الرحم لم يك صورة ، ليفؤاده من خوفه خفقان
فهذا محال لأن ما لا صورة له لا وجود له ، فكيف يشعر بالخوف من
لا وجود له ، وكيف يكون له فؤاد ؟

منزله

قال أبو عبيدة : « أبو نواس في المحدثين مثل امرئ القيس في المتقدمين .
فتح لهم هذه الفطن ، ودلهم على المعاني ، وأرشدهم إلى طريق الأدب ،
والتصرف في فنونه . » وقال ابن عائشة : « من طلب الأدب فلم يرو شعر
أبي نواس ، فليس بتمام الأدب . » وقال أبو حاتم : « كانت المعاني مدفونة
حتى أثارها أبو نواس . » وقال أبو عمر الشيباني : « لولا ما اخذ فيه أبو
نواس من الأرفاق^١ لاحتجبنا بشعره ، لأنه كان يحكم القول ولا يخلطه . »
فيتضح من هذه الأقوال على تباين نزعاتها ما كان لشاعرنا من المنزلة
السامية عند الأدباء الأقدمين . وكان أشدهم محافظة على القديم كابن الأعرابي
وأبي عبيدة والأصمعي يقبلون على رواية شعره ، ولا سيما الحميري مع ما
فيه من مجون وأرفاق وخروج على القديم . وما ذلك إلا لأنهم كانوا
يشعرون بلذة هذا الجديد ، وما فيه من لطف وظرف ، وإن كانوا يقدسون
القديم وينزهونه .

١ الأرفاق : أي بذيء القول ودنسه .

وقد أوتي أبو نواس من سيرورة الشعر ما جعله يغير على معاني غيره ،
فياخذها ويحسبها فتروى له ولا تروى لأصحابها . وأقبل الناس على رواية
شعره لسهولة معانيه وألفاظه . ثم لأنهم رأوا فيه صورة صادقة
لعصرهم ، وراقهم ما به من ظرف ومجون فأحبوه وحفظوه .

وأبو نواس في تصويره عصره يتناول ناحيتي الجد والعبث ، فيجمع بشعره
ما في عصره من خلعة وقتك ومجون ، وما فيه من ثقافة وعلم وفنون .
فشعره يحمل لغة الجوارى والغلمان بتخشنا وظرفها ؛ ولغة الحمامين والمُجَّان
وأخبارهم ومعابثهم ؛ وكثيراً من الألفاظ المولدة التي لم يعرفها المتقدمون ،
كاستعمال باس بمعنى قبل ، ونعت الحبيب بالمولى والسيد . ويصور مشاهد
الحضارة الجديدة بصناعتها وفنونها ، وحدائقها وملاهيها ، ومواخيرها
وحوانيتها ، وأزيائها وأشكالها . وفيه نتعرف الزيّ الغلامي الذي شاع في
صدر الدولة العباسية ، حين أخذ الجوارى يقصن شعورهن تشبهاً بالغلام
الرومي أو التركي أو الديلمي ، فأطلق أبو نواس وعصبته لفظة الغلامية على
كل جارية مقصوفة الشعر . وهذه اللفظة تناسب لفظة (La garçonne) التي
يطلقها الفرنجة اليوم على الفتيات المتشبهات بالغلمان .

وأبو نواس يطلعنا في شعره على مبلغ ما وصل إليه مجتمعه من استهتار
بالمعاصي ، واستهزاء من الدين بسبب انتشار البدع . وفي اعتماده على الله
يطلعنا على اختلاف آراء السنة والمعتزلة في شأن الغفران . وفي هجائه
العرب وتفضيله الحضارة الفارسية ، يمثل إلى حد ما تلك الجماعة الشعبية
التي كانت تكره العرب وتساوئهم . وفي عبثه ومجونه يرفع لواء التجديد
والمجددين ، وفي جده ورصانته يصور طبقة المحافظين خير تصوير .
ويرينا من علوم عصره واختلاط الثقافات فيه ، لغة العرب ومذاهب

الكلام عندهم ، وحضارة الفرس وأوصافهم ، ومنطق اليونان ودقة معانيهم ،
واصطلاحات أصحاب الكلام في مجادلاتهم . فمن أي ناحية أثبتت تجده شاعر
الشخصية وشاعر العصر معاً .

وكان أثره بليغاً في الآداب لأنه بثّ روح التجدد في الشعراء ، وفتح
لهم كنوز المعاني الحديثة ، فاقتفروا معالمة ، ونجداه بعضهم في انكار القديم ،
واستكراه أساليب الأعراب . وحضهم بمجونه وصراحتة على الاسترسال
في العبث والتهتك فاسترسلوا وراءه ، وعبثوا وتهتكوا ، وفتحوا باب
الحلاعة على مصراعيه .

ابو تمام

٧٨٨ - ٨٤٥ م و ١٧٢ - ٢٣١ هـ (?)

حياته : نسبته . اتصاله بالأمراء . موته . صفاته وأخلاقه . آثاره .
ميزته : مدحه . رثاؤه . عتابه . وصفه . غزله . فخره . الوعظ والزهد .
هجوه . حكمه وآراؤه . ما أدرك عليه . منزلته . انقسام الناس فيه .
جعل الشعر صنعة . نظمه الحكمة . تعقد شعره . توحش ألفاظه .
اشتهار بجيده . أول شاعر مؤلف .

حياته

هو حبيب بن أوس الطائي ، منسوب إلى طيء القبيلة العربية المشهورة ،
وكنيته أبو تمام وبها عُرف . ومنهم من يدفع نسبته إلى طيء ، ويؤمن
ان والده نصراني من أهل جاميم^١ يقال له تدؤوس^٢ العطار فلما اسلم غيّر
اسمه فصار أوساً .

ولد أبو تمام في القرية المذكورة ، فحمله والده إلى مصر وهو طفل ،
فنشأ فيها حتى إذا ترعرع أخذ يسقي الماء في الجامع . وقيل بل كان يخدم
حائكاً ، ويعمل عنده .

ثم اختلف إلى مجالس الأدباء وأهل العلم ، فأخذ عنهم . وكان ذكياً
فطناً يحب الشعر ، فلم يزل يعانيه حتى برع فيه ونبه ذكره ، فاتصل
بالأمراء ، ومدحهم فأجازوه ورفعوا قدره .

١ جاسم : قرية من قرى الجلودور وهو اقليم من دمشق .

٢ تدؤوس : أي تيودوس .

ويتبين من شعره انه وفد على المأمون في خلافته فمدحه ، ولكنه لم يتصل به كما اتصل بأخيه المعتصم من بعده . فإن المعتصم أعجب بشعره ، وقدمه على شعراء زمانه . فبعد صيته ، واتسعت ذات يده . وكان كولوفاً بالأسفار ، فطفق يتنقل في الولايات ويمدح أمراءها ، وهؤلاء يسبقون عليه نعمهم . ولما مات المعتصم واستخلف بعده ابنه الواثق ، مدحه أبو تمام ولكنه لم يتصل به اتصاله بأبيه ، لذلك قلَّت مدائحه فيه .

وكان الحسن بن وهب قد ولاه بريد الموصل ، فأقام أقل من سنتين ومات بها . فبنى عليه أبو نهشل بن حميد الطوسي قبة خارج باب الميدان على حافة الحندق ، وأراد بذلك أن يبالغ في اكرامه بعد وفاته لما له من المراتي البليغة في أبيه^١ .

١ اختلف في تاريخ وفاته ، فجعلها بعضهم تراوح بين سنة ٢٣٠ وسنة ٢٥٠ هـ . وهذه مسافة طويلة لا ينبغي لنا المرور بها دون أن نحاول تقصيرها . فرأينا أن نرجح سنة ٢٣١ هـ أي أواخر خلافة الواثق ، لأن أكثر المؤرخين خصوها بالتقدمة على سواها . ثم لأن الشاعر لم يمدح خليفة بعد الواثق ، ولو أدرك المتوكل لما توانى عن مدحه ، والواثق مات سنة ٢٣٢ هـ .

وذكر ابن خلكان وغيره ان الوزير ابن الزيات وديك الجن شاعر الشيعة رثيا أبا تمام . وابن الزيات قتله المتوكل سنة ٢٣٣ هـ ، وديك الجن لم تمتد حياته إلى أبعد من سنة ٢٣٥ هـ ، فبوسعنا إذًا أن نحد وفاة الشاعر بين سنة ٢٣٠ وسنة ٢٣٢ هـ ، والذهاب إلى أبعد من ذلك ليس له من مسوغ

ولم يكن الخلاف على وفاته بأكثر من الخلاف على مولده . فقد جعله بعضهم سنة ١٧٢ هـ ، وجعله غيرهم سنة ١٨٨ ، وجعله آخرون سنة ١٩٢ ، عل ان أكثر المؤرخين رجحوا سنة ١٩٠ ، وقالوا انه ولد في أواخر خلافة الرشيد ، ولكن لم نطمئن إلى هذا الترجيح لأن في ديوان الشاعر قصيدتين يمدح بهما الحسن بن سهل ، ويذكر في احدهما انه كان في السادسة والعشرين من عمره . قال :

ست وعشرون تدعوني ، فأتبعهم^٢ ، إلى المشيب ، ولم تظلم ، ولم تحب ❦

صفاته وأخلاقه

كان مديداً ، أسير اللون ، يتم إذا تكلم لحبة في لسانه ، ولا يحسن الانشاد . فكان غلامه الفتح ينشد شعره عنه . وكان قوي الحافظة . قيل انه حفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير المقاطيع والقصائد .
وبما يروى عنه انه كان يوماً في مجلس أبي سعيد الطائي^١ . فدخل البحتري وهو فتى وامتدح أبا سعيد بقصيدة . فحفظ أبو تمام أكثرها وادّعاها وقال ان البحتري انتحلها . فصدق أبو سعيد كلامه لمكانته في الشعر ، ووبّخ البحتري لمدحه إياه بشعر مسروق ، فخبجل البحتري . فلما رأى أبو تمام ذلك قال : « الشعر لك يا بني » ، والله ما قُلتُه قط ، ولا سمعت به إلا منك . ولكنني ظننت انك تهاونت بموضعي ، فأقدمت على الانشاد بحضرتي ، من غير معرفة كانت بيننا ، تريد مضاهاتي ، ومكاثرتي ، حتى عرفني الأمير نسبك ، وموضعك ، ولوددت أن لا تلد طائفة^٢ إلا مثلك^٣ .
وهذه الرواية لا تقتصر على إظهار قوة الحافظة في الشاعر ، بل تظهر

فإذا كان مدح الحسن وهو وزير عند المأمون في خراسان ، أي من سنة ٢٠٢ إلى سنة ٢٠٣ هـ ، فان ميلاده يقع حوالي سنة ١٧٦ ، هذا على اعتبار أنه كان في السادسة والعشرين يوم مدح الحسن . ولكن ليس في القصيدتين اللتين مدحه بهما ما يدل على أنه قالهما فيه وهو وزير . لذلك نرجح أنه اتصل به ومدحه قبل أن يتولى الوزارة وهذا ما يجعلنا نرجح رواية من جعلوا ولادته سنة ١٧٢ هـ . ولا مجال للظن أنه مدحه بعد أن ترك الوزارة لأن الحسن لم يخلع عنها إلا وقد غلبت عليه السوداء ، وتغير عقله ، فشذ في الحديد ، وحبس في بيت حتى مات .

١ هو محمد بن يوسف الثوري الطائي من مشاهير قواد المعتصم توفي في خلافة المتوكل سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ م) .
٢ لأن البحتري طائي .

أيضاً عصيته في بني طيء ، واعتداده بشاعريته . وهذا الاعتداد جعله يتحامى الدنيا ، ويأبى التذلل إذا مدح . ويحدثنا صاحب الأغاني أن أبا تمام مدح عبد الله بن طاهر وهو على خراسان فنثر عليه ألف دينار ، فلم يمسه بيده ترفعاً عنها ، فالتقطها الغلمان .

وكان فطناً حاضراً البديهة ، كريم الأخلاق كثير المروءة . ولطالما استخدم نفوذه وشعره لمساعدة من يلوذ به ، ويعتمد عليه .

وعاش في بيئة رفيعة ، فلم يصعب غير الخلفاء والأمراء . لذلك قلّ تبذله واستتر في معاصيه ، ولم يمعن في شرب الخمر . على أنه تسرّى بالجواري والغلمان كغيره من أهل عصره ، وشبب بهم ، ولكنه لم يتعهر في شعره كأبي نواس ، بل صانه عن المجون ، فلم يرو له من فاحش القول غير شيء قليل .

وكان إلى ذلك حسن الاسلام ، قوي عاطفة الدين ، وإن لم يحافظ جد المحافظة على شرائعه وأحكامه .

آثاره

لم يجمع شعر أبي تمام حتى جاء الصولي فرتبته على الحروف . ثم رتبته علي ابن حمزة الاصبهاني على الأنواع . وشرحه الصولي وغيره ، ولكنهم لم يتوسعوا في شرحه ، فبقي أكثره غامضاً ، فقلّ الاقبال عليه . وطبع ديوانه في بيروت سنة ١٨٨٩ مشتملاً على ٤٦٣ صفحة قطعها متوسط ، مرتباً على ثمانية أبواب أولها في المدح ، ويستغرق ثلثي الديوان . والثاني في الرثاء . والثالث في المعائب . والرابع في الأوصاف . والخامس في الغزل . والسادس في الفخر . والسابع في الوعظ والزهد . والثامن في الهجاء .

وأبو تمام أول شاعر عني بالتأليف ، فاشتهر باختياراته ، منها مختار

كتاب الحماسة وهو أشهر مختاراته ، وقد وصل إلينا ويعرف بحماسة أبي تمام تمييزاً له عن حماسة البحري. وفيه طائفة من الشعراء المقلتين، والشعراء المغمورين غير المشهورين . بوجه عشرة أبواب : الأول في الحماسة ، وهو أطول الأبواب ، لذلك سمي الكتاب به من باب تسمية الكل باسم الجزء. والثاني في المراثي . والثالث في الأدب . والرابع في النسب . والخامس في الهجاء . والسادس في الاضياف والمدح . والسابع في الصفات . والثامن في السب والشتم . والتاسع في المثلح . والعاشر في مذمة النساء . وقد شرحه كثيرون وطبع غير مرة . ومنها نقائض جرير والأخطل ، صدرها بكلمة في حرب قيس وتغلب . ونشرت في بيروت ، نشرها الأب صالحاني اليسوعي .

ميزته

لم يترك أبو تمام باباً من الشعر إلا ولجه ، وكان له حظ فيه . ولكن شهرته قامت على مدحه وراثته ، فرأينا ان نخصصها بالدرس والتحليل لنبين فيها ميزته . على ان نلم بعد ذلك بسائر الأبواب إماماً فنحيط بشعره من جميع أطرافه ، ونستجلي خصائص هذا الشاعر الذي شغل الناس في عصره ، وبعد عصره ، زمناً طويلاً .

مدحه

وقف أبو تمام معظم شعره على المدح ، فلم يدع خليفة ولا أميراً عاصره إلا رحل إليه ومدحه وتكسب منه واتصل به . ولكنه قلما تذلل في استجدائه بل تغلب عليه الأنفة والرصانة ، وأكثر مدائحه فخمة جليلة . منها في الخلفاء كالمأمون والمعتصم والواثق ، ومنها في الأمراء ، والقواد

والوزراء ، كنسيه أبي سعيد الطائي ، وأبي دُلَف العجّلي من قواد
المأمون والمعتم ، ومالك بن طَوّوق التغلي صاحب الجزيرة ، والوزير ابن
الزيات ، وآل وهب من وزراء الدولة ، والقاضي أحمد بن أبي دؤاد
الإبادي وسواهم .

ومدائح أبي تمام على ثلاثة أنواع من حيث الاستهلال ، فمنها ما يتعدى
به الأقدمين ، فيبتدئ بوصف الديار الحالية ، وذكر الأحبة ، والنياق
والقفار ، ثم ينتقل إلى المدح وربما كان انتقاله اقتضاباً فعلَ الشاعر الجاهلي .
ومنها ما يبتدئ فيه بالحكم ، أو بوصف الطبيعة ، أو بوصف الحمر ، وفيه
يكثر حسن تخلصه لأنه يبتعد به عن الأسلوب القديم . ومنها ما يتناول به
الغرض ابتداءً دون توطئة واستطراد .

ويمتاز مدحه بفرقة فوائده التاريخية ، فإنه يحمل إلينا فيه أخبار الحروب
التي جرت بين المسلمين وأعدائهم ، وعلى الاخص بينهم وبين الروم ، أو بينهم
وبين الحرّمية . ويصف انتصارات العرب ، وهزائم العداة ، وخراب
ديارهم . ويذكر أسماء القواد والفرسان ، وأسماء الأماكن التي جرت فيها
الحروب ، وقد يطلعنا على عادات أهل العصر ، وأخلاقهم واعتقاداتهم .
وتغمر العاطفة الدينية مدائحهم وخصوصاً ما كان منها في المعتم ، فإنه يحسن
كل عمل يأتيه ، ويجعله من الله ، ولو نتج عن هذا العمل خراب بلد
بأسره .

ومن ميزاته الغلو ، وهو ميزة عصره . ولكنه قليل الافراط فيه ،
وإذا أفرط جعل الشرط مانعاً مثل قوله :

لو أن طولَ قناتِهِ يَوْمَ الوَغَى مِيلٌ إِذَا نَظَمَ القَوَارِسَ مِيلًا

نظم القوارس : أي جمعهم في قناته كما يجمع اللؤلؤ في السلك .

ويمتاز أيضاً بما في مدحه من منطق وانساق أفكار ، وحكم وأمثال
سائرة ، مبثوثة في تضاعيف أبياته ؛ وبما فيه من عصبية عربية تحمل على
الاسراف في ذكر مناقب العرب ، وتزيين الحياة البدوية ، ومساكن
الأعراب ، وقبائلهم وشعرائهم .

وكان أصدق لهجة في مدح انسابه منه في غيرهم . ولعل مدحه للخلفاء
أضعف عاطفة من غيره إلا ما كان منه في ذكر حروب الروم والخارجين
على الخلافة ، وبطش المسلمين بهم . ويعود ذلك على ان الشاعر كان يتشيع
للعلويين مع تقربه من العباسيين . وأكثر الناس في ذاك العهد كانوا يعطفون
على أبناء علي ، ويحبونهم ويؤثرونهم على سواهم ، ويرون فيهم ضحايا بريئة
على مذابح السياسة . ولكن فيهم فئة معتدلة لم تتر الحروج على السلطان ،
ولم تستنكر الأمر في العباسيين ، لأنهم هاشميون لهم الحق في الخلافة
كالطالبيين . ومن هذه الفئة كان شاعرنا ، فإنه لم يستنكف من مدح
العباسيين وموالياتهم ، والدفاع عن حقوقهم في الخلافة ، غير انه لم يستطع
كتبتان حبه لأبناء فاطمة فمدحهم مندداً بمن ناوهم واضطهدهم ، ونكل بهم :
فَعَلَّسْتُمْ بِأَبْنَاءِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ ، أَفَاعِيلَ أَدْنَاهَا الْحَيَاةُ وَالْعَدْرُ
ثم يقول :

جَعَلْتُ هَوَايَ الْفَاطِمِيَّينَ زُلفَةً

إلى خَالِقِي ، مَا دَمْتُ ، أَوْ دَامَ لِي عُمرُ

وهذا التنديد يتناول العباسيين والأمويين على السواء ، ولكنه لم يحمل
خلفاء بني العباس على اقضاء الشاعر والانتقام منه ، لأنه خصهم بأحسن

١ أدناها : أي أقلها وأحقرها

مدائحهم ، ودافع عن حقهم في الخلافة خير دفاع .
وينبغي ان نعلم ان أبا تمام لم يمدح العلويين إلا يوم كان فتى دون السابعة
عشرة من عمره ، يدل على ذلك قوله في الرائية نفسها :

وإن الذي أحذاني الشيبَ للذي
رأيت ، ولم تكمل لي السبع والعشر^١

وكان يومئذ في مصر كما يستفاد من قصيدته هذه . فلما اتصل بالعباسيين
أفاض عليهم مدائحهم ، واعتصم بالتقية ، فسكت عن مدح العلويين ، فلم
يحقد عليه بنو العباس .

وأبو تمام شديد الإعجاب بشعره ، فإذا تم له ما أراد من اطراء
بمدوحه ، وذكر مآثره ، ووصف غاراته وانتصاراته ، استطرد على الغالب
فختم قصيدته بأهدائها إلى بمدوحه كما تهدى العروس إلى خاطبها ، فيصف
فضائلها ، وما فيها من جدة وحسن لا تبليها الأيام ، ويغلب استطراده
بقوله : خذها ، أو ما أشبه ذلك :

خذها ابنة الفكر المهدب في الدجى ،
والليل أسود رفعة الجلباب^٢

١ أحذاني : أعطاني . الخطاب لامرأة تلومه على مغامرته سعيًا للمال . يقول : ان الذي
رأيت في من مساع ومغالبات لحوادث الدهر هو الذي أعطاني الشيب وأنا دون السابعة عشرة
من عمري .

٢ الجلباب : الثوب الواسع . يقول : انه سهر على قصيدته هذه الليالي المظلمة الطويلة حتى
أحسن نظمها وتهذيبها .

بِكراً ثَوْرَتْ في الحياةِ وتَنَشَّى في السَّلمِ ، وَهِيَ كَثِيرَةُ الْأَسْلَابِ^١
 وَيَزِيدُهَا مَرَّةً الْإِيَّالِي جِدَّةً ، وَتَقَادُمُ الْأَيَّامِ حُسْنُ سَبَابِ^٢
 وَمِنْ أُرُوعِ شَعْرِهِ بَائِيتهِ الَّتِي مَدَحَ بِهَا الْمُعْتَصِمَ بَعْدَ فَتْحِهِ عَمُورِيَّةَ^٣
 سَنَةِ ٢٢٣ هـ (٨٣٧ م) وَكَانَ الشَّاعِرُ فِي صَحْبَتِهِ ، وَشَهِدَ الْوَاقِعَةَ بِنَفْسِهِ ،
 فَوَصَفَهَا أَبَدَعَ وَصَفٍ . وَقَدْ اسْتَهْلَهَا بِتَكْذِيبِ الْمُنْجَبِينَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ
 الزَّمَانَ غَيْرَ مُوَافِقٍ لِلْفَتْحِ ، فَتَدَّ بِهِمْ وَبَكَّتْهُمْ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنْ الْكُتُبِ ،
 فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ^٤

رثاؤه

شَمْسٌ كَاسِفَةٌ ، وَنُجُومٌ غَائِرَةٌ ، وَظِلَامٌ يَطْبُقُ الْآفَاقَ .
 عَيُونَ ذَارِفَةٌ ، وَنَفُوسٌ حَائِرَةٌ ، وَغَصَصٌ آخِذَةٌ بِالْحَنَاقِ .
 خُطْبٌ يَنْتَظِمُ الْعَالَمَ بِشَجْنِهِ ، وَعَالَمٌ مُتَفَجِّعٌ بِطَوْلِهِ وَعَرَضُهُ .
 الْفُضْلُ لُفٌّ فِي كَفْتِهِ ، وَالْبَاسُ غُيْبٌ فِي أَرْضِهِ .
 تِلْكَ أَظْهَرَ خِصَائِصِ الطَّائِفِي فِي الرِّثَاءِ . مُتَلَهِّفٌ كَثِيرُ التَّفَجُّعِ ، جِيَّاشٌ

١ بَكَرًا : بَدَلَ مِنْ ابْنَةٍ ، شَبَّهَ قَصِيدَتَهُ بِابْنَةِ بَكَرٍ زَوْجَهَا بِمَدُوحِهِ ، وَهَذِهِ الْبَكَرُ تَسْتَحِقُّ أَنْ
 يُوْرَثَهَا زَوْجَهَا فِي حَيَاتِهِ لَمَّا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَمَالِ السَّاحِرِ . وَإِذَا كَانَتِ الْأَسْلَابُ لَا تُؤْخَذُ إِلَّا
 فِي الْحُرُوبِ ، فَهَذِهِ الْبَكَرُ تَعُودُ فِي السَّلَامِ وَيَدُهَا مَمْلُوءَةٌ بِالْأَسْلَابِ . وَيُرِيدُ بِالْإِرْثِ وَالْأَسْلَابِ
 الْجَوَائِزَ وَالْهَبَاتِ الَّتِي سَتَنَالُهَا قَصِيدَتُهُ مِنَ الْمَدُوحِ .

٢ الْجِدَّةُ : حَالَةُ الشَّيْءِ الْجَدِيدِ .

٣ عَمُورِيَّةُ : مَدِينَةُ مِنْ أَعْظَمِ بِلَادِ الرُّومِ فِي آسِيَا الصُّغْرَى .

٤ أَنْبَاءُ : أَخْبَارٌ . الْكُتُبُ : أَيُّ كُتُبِ السَّجَرِ وَالْمِرَاقَةِ . حَدُّهُ : أَيُّ حَدِّ السَّيْفِ وَهُوَ مَقْطَعُهُ .
 الْحَدُّ : الْحَاجِزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ . الْجِدُّ : ضِدُّ الْهَزْلِ . وَقَدْ ذَهَبَ الصَّدْرُ مِثْلًا .

العاطفة صادق اللمجة ولا سيما رثاؤه لأنسابه ؛ فإن فيه الشعور القوي بالحسرة ، والمباهاة بالميت ، والمغالاة في ذكر صفاته . هو رثاء مدح وفخر وتعظيم وإكبار للخطب الشامل ، لا رثاء ضعف عاطفي ، وبكاء أليم . وليس له رثاء تظهر فيه نفسه متألة حزينة ضعيفة إلا ما قاله في أخيه وابنه . وعلى الجملة فإن أحسن مرثيه ما جاء في أهله وأقربائه ، فجعل له منزلة تعادل منزلته في مدحه على قلة مرثيه ، وفرة مدائحه .

ومع اتصاله بالعباسيين لم يحسن رثاء واحد منهم ، فقد مدح المأمون ولم يرثه . وبالغ في مدح المعتصم يوم كان متصلاً به ، فلما مات المعتصم لم يخصه بمرثية بل جعل رثاءه في قصيدة هنا فيها الواثق بالخلافة ، فغلبت عليها صفة المدح ، لأن الشاعر لم يقصد إلى الرثاء إلا على سبيل تعزية الابن بأبيه ، أو لياخذ بنوع طريف من البديع وهو الافتنان ، أي أن يؤتى بفنّين متضادين في قصيدة واحدة ، كالتهنئة والتعزية ، أو كالمدح والهجاء .

ومن ذلك نفهم ان الشاعر لم يكن شديد الاخلاص لبني العباس ، وإنما توسل إليهم بمدائحه ليفيد منهم ، ولا ينبغي أن ننسى تشيعه ، وإن كان في تشيعه معتدلاً حكيماً .

وأكثر ما يستهل مرثيه بنعي الميت إلى أحياء العرب ، أو بشكوى الدهر ، أو بدعوة الناس إلى العويل . وإذا جاشت عاطفته ، واندفعت في حماسها تضائل عندها العقل فما نجد منه واعظاً أو حكيماً ، بل ملتاعاً متفجعاً ، وقد يرسل المثل السائر ، ولكنه مثل عاطفي أكثر مما هو عقلي كقوله في نسيبه محمد بن حُمَيْد الطوسي الطائي^١ :

١ ولي محمد بن حميد الموصل في عهد المأمون ، فلما ظهر بابك الحارثي واستفحل أمره قصده محمد بجيش ، فخرجت عليهم الكمان في الجبل ، فانهزم رجال محمد ، وثبت محمد وبعض أنصاره ، حتى إذا لم يبق معه إلا رجل واحد ، أراد النجاة فأدركه بابك وقتله سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) .

هَيْهَاتِ ، لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلٌ
فَعَمِلَ الْعَقْلُ فِي رِثَاءِ أَبِي تَمَامٍ وَسَطٌ ، وَمَا الْعَمَلُ الْأَكْبَرُ إِلَّا لِلْإِنْدِفَاعِ
الْعَاطِفِي . وَأَحْسَنُ مَرَاتِيهِ فِي مُحَمَّدِ بْنِ حُسَيْنٍ هَذَا ثُمَّ فِي خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ الشَّيْبَانِيِّ^١ .
هَتَابُهُ

كَانَ أَبُو تَمَامٍ يَضُنُّ بِشَعْرِهِ أَنْ يَذْهَبَ ضِيَاعاً فَمَا يَنَالُ بِهِ جَائِزَةٌ . فَكَانَ
إِذَا أَبْطَأَ عَلَيْهِ مَدْوَحُهُ ، عَاتَبَهُ مُتَلَطِّفاً ، وَذَكَرَهُ الْقَصَائِدَ الَّتِي مَدَحَهُ بِهَا ،
وَلَكِنَّهُ لَا يُلْحَفُ فِي عِتَابِهِ وَلَا يَهْدِدُ بَلْ يُوْنِبُ مَدْوَحُهُ تَأْنِيْباً لَطِيفاً ،
وَيُظْهِرُ لَهُ مَنْزِلَةَ شَعْرِهِ فِي شَيْءٍ مِنَ التَّرْفَعِ وَالْإِبَاءِ . وَيُطْعِنُ فِي شَعْرِ غَيْرِهِ
فَيَجْعَلُهُ خَسِيساً مُرْذُولاً .

وصفه

الوصف في شعر الطائي : منه مستقلٌ بقصائد وأراجيز ومقطعات ،
ومنه مبعوث في مدائحه وسواها من الأغراض . وقد وصف شاعرنا الحرب
والحيل والإبل والنساء والغلمان ، والشيب ، واحتضار الميت ، والطبيعة
والشراب ، فأفاض في ذكرها جميعاً . ولكن وصفه يبدو عليه أحياناً
شيء من الجمود والانتقاض ، فما تدفعك صورة إلى الانجذاب معها في
الخيال الفسيع . ويعود ذلك على أن الشاعر يغوص في عباب معقوله أكثر
بما يطير في سماوات خيلته . ويسرف على الغالب في استعمال الغريب
وأوجه البديع ، حتى تجفّ صورته وتجفو ، وتفقد كل حركة وحياة .

١ تولى خالد بن يزيد الموصل وديار ربيعة كلها من قبل المأمون ، ولما انتفض أمر أرمينية في
أيام الواثق جهز إليها خالد بن يزيد المذكور في جيش عظيم ، فاعتل في الطريق ومات سنة
٨٢٣ (٨٤٤ م) .

غزله

قد يطول تعبك ، ويعز طلبك إذا حاولت أن تلمس العاطفة الصادقة في الغزل الذي كان أبو تمام يوطىء به مدائح وتهانيه . فهذا الغزل لم يأت به الشاعر تلبية لهمسات فؤاده ، وإنما جاء به إرضاء لنزعات نفسه إلى التقليد . فإذا هو يقف على الطلول ، ويسلم على الديار ، ويبكي على الرسوم ، ويستنطق الآثار ، ويذكر عرائس الشعر اللائي شيب بهن المتقدمون . وهذا الغزل جاف في أكثره ، جاف في معانيه . وإذا عثرت فيه على تشبيب حسن يرضيك ، فما تعثر على شعور رقيق يؤثر فيك . وقد تُلقي فيه الصنعة على غرابة لفظه وبداعة معانيه ، ولكنك لا تتبين نفسية صاحبه في قوافيه . فهو غزل كاذب لا يصور عاطفة العاشق المحب ، بل يمثل كلف الشاعر بتقليد المتقدمين ، وإعجابه بمذاهب أهل الحيام ، وعرائس الشعر عندهم .

على أن لأبي تمام غزلاً غير هذا يصور عاطفته أصدق تصوير ، وهو الذي تجده في ديوانه مقطعات صغيرة ، منها بيتان ومنها أربعة ، وقلما زادت كبراً على ستة . فهذه المقطعات إن هي إلا زفرات مشتعلة تنقد بها نفس الشاعر المستهام ، فترى منه حباً شديداً الغيرة على محبوبه ، يتلظى غيظاً إذا زاحمه فيه مزاحم .

وفي هذا النوع من الشعر ترقى ألفاظه ، وتلطف معانيه ، ويقل تكلفه لاقتصاده في طلب الصنعة .

ولم يتعثر في هذا الغزل إلا قليلاً . ذلك بأن أخلاق الطائي تأبى المجاهرة بالحلاعة وتؤثر الترسن والوقار . غير أنه لم يشذ عن خطة معاصريه في التذلل للمحبيب ، وإظهار العبودية له .

وأضيفت إليه أبيات رويت لأبي نواس ، ومن الصعب تحقيق نسبتها إلى أحدهما . على أن في بعضها من النكتة والظرف ما يدفعنا إلى أن نرده على شاعر الأمين .

فخره

كان أبو تمام عربياً في نزعتة ينتمي إلى طيء بالولاء على الأرجح ، فافتخر بعروبته ، وافتخر بقومه . وذكر أجوادهم وفرسانهم ، وفيهم أمثال حاتم وزيد الحيل . وكان شديد الإعجاب بشعره ، فافتخر به وفاخر الشعراء . ونزل المشيب برأسه ، وهو في السابعة عشرة من عمره ، فجعل منه موضوعاً لفخره . كيف لا والشيب عنده عنوان الكمال !

الوعظ والزهد

لم يتنسك أبو تمام ، كما تنسك غيره من الشعراء ، ولا عرف الزهد إلى نفسه سيلاً ، بل ظل يجني من الحياة أحلى ثمارها ، ويستنشق أطيب أزهارها . لا يتورع من إثم يرتكبه ، ومحرم لا يجتنبه . فقد كان من طلاب اللذة ولكنه أثرها مستورة .

وكان ككل خاطيء ابتلي بالمعاصي ، تمر به ساعات خوف وندم ، فتتمثل له الآخرة وعذابها ، فتطير نفسه شعاعاً ، فيفرز إلى ربه مستغفراً متندماً ، ويقف من نفسه موقف الواعظ الحكيم ، فيؤنبها على استهتارها وغفلتها ، ويدكرها الموت والفناء والعذاب .

وليس له شعر كثير في الزهد ، لأن هذا النوع لم يكن من طلباته ، وإنما كان يعرض له على كره منه ، فينظمه خاضعاً لتأثير نفساني طارئ لا يلبث أن يزول . ويبدو هذا التأثير عظيماً عندما تسمعه يتنى أن يصبح

بعد موته رفاتاً محضاً ، لا نفس له خالدة في نعيم او جحيم :
 فَبِالْبَيْتَيْنِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِي وَمَبْعَتِي ، أَكُونُ رُفَاتًا لَا عَلَيَّ وَلَا لِيَا
 ولكنه حسن الإيمان بالله ، شديد الانكال عليه . فإذا الخوف والرجاء
 يعتلجان في صدره :
 أَخَافُ إِلَهِي ثُمَّ أَرْجُو نَوَالَهُ ، وَلَكِنْ خَوْفِي قَاهِرٌ لِرَجَائِيَا
 ويقول أيضاً :
 وَإِنِّي جَدِيرٌ أَنْ أَخَافَ وَأَتَّقِي ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أُشْرِكْ بِذِي الْعَرْشِ ثَانِيَا
 وهذا البيت يظهر لنا الشاعر كبير الذنب ، ولكنه صادق في عقيدته ،
 مخلص لاسلامه .

هجو

لم يُعْنَ أَبُو تمام بالهجو السياسي ، لأنه كان علوي النزعة ، مقرباً من
 العباسيين ، فلم يتأت له أن يهجو الشيعة ولا بني العباس . وكان عظيم
 الخطوة عند الأمراء وأكثرهم من الموالي ، فأقصر عن هجاء الشعوية ، والرد
 على شعرائها الذين افحشوا في تعيير العرب . واقتصر على هجاء الشعراء الذين
 تعرضوا له حسداً ، فعابوا شعره ورموه بالسرقة والانتحال . واقتصر أيضاً
 على هجاء طائفة من الفتيان الذين صحبوه ثم ملّوا صحبته ، فندّد بهم ونشر
 مخازيهم وجاء هجوه لهم مفعماً بالغيرة الخائفة ، وحب الاستثثار . وهجاؤه
 في جبلته غير بريء من التعهر وانتهاك الحرمات ، وهو إلى ذلك سهل
 الألفاظ ، قليل التكلف ، عاطفي يجري مع الطبع .

١ نواله : عطاءه .

حكمه وآراؤه

ليس لأيّ تمام شعر خاص بالحكمة ، وإنما كان يبت حِكْمَه في قصائده على اختلاف أغراضها . وكانت كتب الفلسفة والمنطق قد نقلت عن اليونانية ، واطلع عليها الناس فشغفوا بها ، فسبق أبو تمام الشعراء إلى الاستفادة منها . فغاص على معانيها الدقيقة ، واستخرجها من أبعاد أغوارها . وجعل المنطق له إماماً ، فأكثر من الأخذ بالأدلة العقلية ، وأرسلها حِكْماً وأمثالاً ، حتى روي له منها ما يُربي على مائتي بيت .

فالحكمة في شعر أبي تمام لا تقتصر على اختباراته لحوادث الأيام وتجاربها شأن الشاعر الجاهلي بل تتعداها إلى التفكير الصحيح ، لأنه كان بتطلبها بإلحاف ، ويتعمدها أكثر مما يأتي بها عفواً .

وحكم الطائي في جبلتها قائمة على المواعظ الأدبية ، والنظر في أخلاق الناس ، وتعظيم العقل . وذم الزمان لأنه يشقى به العاقل وينعم الجاهل . وإذا شئت أن تستخلص لشاعرنا رأياً خاصاً بالحياة ، فبوسعك أن تحصره في دائرة صغيرة ألا وهي الصبر ، ومصانعة الأيام ومداورتها ، والاعتراب طلباً للرزق ، ومحاربة للفقر . فمن ذلك قوله :

ما يَحْسِمُ الْعَقْلُ ، والدُّنْيَا تُسَاسُ به ،

ما يَحْسِمُ الصَّبْرُ في الْأَحْدَاثِ والنُّوَبِ

الصَّبْرُ كَاسٍ وَبَطْنُ الْكَفِّ عَارِيَّةٌ ،

وَالْعَقْلُ عَارٍ إِذَا لَمْ يُكْسَ بالنَّشَبِ ١

١ النشَب : المال . يقول : الصبر يكسو المرء إذا كان فقيراً صفر الكف ، والعقل تظهر عورته إذا لم يكس بالمال .

وهذان البيتان يظهران اعتماد الشاعر على الصبر في مصانعة الأيام ،
ويظهران حبه للمال وتعظيمه له . فإنه على شدة اجلاله للعقل يراه عارياً
ضائعاً لئلم يكسبه المال ويحفظه من الضياع . وحبّ المال جعل الشاعر
يؤثر الاغتراب في طلبه . فتنتقل بين الولايات ، وتكسب من مدح
الأمرء .

ما أدرك عليه

أفرط أبو تمام في استعمال البديع ، فجره تعدد التحنس والطباق
والارصاد إلى سقطات كان غنياً عنها . فمن ذلك قوله :

فَاسْلَمْتُ سَلِمْتَ مِنْ الْآفَاتِ مَا سَلِمْتَ
سِلَامُ سَلَمَى ، وَمَهْمَا أَوْزَقَ السَّلَمُ^١

فهذا على لغة الآمدي^٢ من كلام المبرسمين^٣ .
وأفرط في استعمال الاستعارات ، فلم يسلم من العثار . ورويت له
استعارات مضحكة لا تليق بشاعريته كقوله :

فِي كُمَاةٍ يُكْسَوْنَ نَسَجَ السَّلُوقِي . وَتَعْدُو بِهِمْ كِلَابُ سَلُوقٍ^٤
فقد أراد التجنيس والارصاد بين السلوقي وسلوق فجعل خيول الفرسان

١ السلام : الحجارة ، واحدها سلمة . سلمى : اسم جبل . السلم : شجر يدبغ بورقه .
٢ المبرسمين : المصابين بالبرسام وهو التهاب بين الكبد والقلب ، ويريد بكلام المبرسمين
هذيان المحمومين .

٣ الكماة : الشجعان . السلوقي : نسبة إلى سلوق وهي قرية في اليمن أو بطرف أرمينية
تنسب إليها الدروع والكلاب . أو نسبة إلى سلقية على غير قياس ، وهي مدينة في بلاد
الروم . وقوله نسج السلوقي : أي الدروع .

كلاباً . وإسرافه في طلب هذه الأشياء ورطه في مضادات جمة لأصول
الفصاحة ، وجعل في شعره غبوضاً لا تحلّ رموزه إلا بشق النفس .
وزاده إيهاماً بإثارة الألفاظ الحوشية بل الوحشية . مثال ذلك قوله :

أَهْيَسُ أَلَيْسُ لَجَاءُ إِلَى هِمَمٍ يُغَرِّقُ الْأَسَدَ فِي آذِنِهَا اللَّيْسُ

فالأهيس والأليس والليس ثقيلة على السماع ، ثم استئنشت لاجتماعها
في بيت واحد . وقد فصل الشاعر بين النعت والمنعوت بغريب في قوله :
يغرق الأسد في آذنها اللبس . وأشبع حركة الياء في أهيس وأليس تشبهاً
بالمقدمين مع ان المولدين أخذوا يتحامون أمثال هذا الزحاف بعد وضع
العروض . والزحاف في شعر أبي تمام جد كثير ، قلما خلت منه قصيدة ،
وربما نواطأت عدة زحافات على بيت واحد فحطمته تحطيماً .

ولم يقتصر على الاسراف في البديع ، والخروج على قواعد العروض ،
بل استباح قواعد النحو فلم يرع لها ذمة . وأدركت عليه سرقات كثيرة
جرم إليها جميعه لأشعار المتقدمين ، وسعة روايته . فكان يسلب المعاني
الحسان ويدخلها في شعره . ولكن خصومه بالغوا في تسريقه ، فزعم دعبل
ان أبا تمام أغار على قصيدة لمكثف بن أبي سلمى من ولد زهير بن أبي
سلمى فسرق أكثرها ، وأدخله في قصيدته ، كذا فليجل الخطب ، .
يروى صاحب الأغاني أبياتاً منها جاء في أواخرها :

كَأَنَّ بَنِي الْقَعْقَاعِ يَوْمَ مُصَابِهِ نَجُومُ سَمَاءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِهَا الْبَدْرُ

١ الأهيس : الشجاع . الأليس : البطل الناية في الشجاعة . لجاء : فعال من لجأ . آذنها :
موجها ، والضمير يعود على الهم . اللبس : جمع أليس ، وهي نعت للأسد . يقول :
ان مدحوه صاحب هم عظيمة كالبحار تفرق الأسد في أمواجه مع ما في الأسد من هم
عالية مشهورة .

تَوُفِّيَتْ الآمالُ يَوْمَ وَفَاتِهِ ، وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السَّفَرُ

وهذان البيتان تجدهما في رائية أبي تمام مع بعض التغيير . على اننا نشك في صحة ما زعم دعبل لأن الأبيات التي ذكرها بيّنة التوليد لا تشبه أشعار المتقدمين . والأرجح أن دعبلاً نظمها ونحلها ابن أبي سلمى بغية إسقاط أبي تمام .

وأورد الآمدي في موازنته بين الطائيين^١ طائفة كبيرة من مرقاة أبي تمام ، وذكر معها الموارد التي استقى الشاعر منها . فأصاب في بعضها ، وأخطأ في بعضها الآخر لأنه لم يبرأ من التعامل على أبي تمام والميل إلى البحرّي . فقد روى له أبياتاً ، وزعم انها مسروقة ، مع أن السرقة فيها ضعيفة غير ظاهرة . وعاب عليه أبياتاً أخر دون أن يراعي معانيها الشائعة المشتركة التي لا ينفرد بها شاعر عن شاعر .

منزله

شغل أبو تمام الناس بشعره ، فانقسموا حزبين : حزباً يفرط في التعصب له ويقدمه على كل سالف ومحدث ؛ وحزباً يفرط في التعصب عليه ، ويتعمد الرديء من شعره ، فيشره ويطوي محاسنه .

وغير عجيب أن يشتد الخلاف في هذا الشاعر ، فقد حمل إلى الشعر أشياء غير مألوفة ، فلم تتفق جميع الأذواق على استيائها ، والارتياح إليها . فإنه جعل الشعر صنعة^٢ ، وبعّد به عن الطبع السمع ، لإسرافه في طلب التجنيس والطباق والاستعارات . قال الآمدي : « حتى صار كثير مما أتى

١ كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحرّي لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي .

به من المعاني لا يُعرف ولا يُعلم غرضه إلا مع الكد والفكر، وطول التأمل . ومنه ما لا يُعرف معناه إلا بالظن والحدس . هـ

وافرط في اتخاذ الأدلة العقلية بعد اطلاعه على كتب يونان ، فازداد شعره إبهاماً وتعمداً ، وأصبح لا يميل إليه إلا من آثر الصنعة والمعاني الغامضة التي تُستخرج بالغوص والفكرة . وكان لمختراته التي جمع فيها أشعار العرب المتقدمين اليد الطولى في تضليعه من غريب اللفظ ووحشية ، فشغف به وافرط في استعماله ، حتى تأبّد أكثر شعره واخشوشن ، وسبح وقعه في الآذان ، فضاعت فيه معانيه الحسان فما تعثر على واحد منها إلا كما تعثر على لؤلؤة وضاعة في أكوام من الفحم . فأعرض سواد الرواة عن حفظه ، وكان ابن الاعرابي يقول : « إن كان هذا شعراً ، فكلام العرب باطل . » وابن الاعرابي من أولئك العلماء الذين وقفوا على لغات العرب ومذاهبهم ، وآثروا الأسلوب القديم والغريب من اللفظ ، على الأسلوب الجديد واللفظ الرقيق . ولكنه أنكر على أبي تمام تأبده وغموضه ، وتعسقه في طلب البديع والأدلة العقلية وبُعده عن الطبع . مع أن أبا تمام كان يحب الغريب مثله ، ويتوهم البدو في أساليبهم ، غير أنه أفسد شعره بكثرة التصنع والابهام .

وكان إذا قيل له : « لِمَ تقول ما لا يُفهم ؟ » قال : « لِمَ لا تفهمون ما يقال ؟ » وفي هذا الجواب من المكابرة ما يدل على اعتداد الشاعر بنفسه وارتضائه بجميع ما تفيض به قريحته ، حتى أنه ليبخل بيت ظاهر عيبه فما يسقطه من قصيدته ، وكان يرد على لائمه بقوله : « أنا والله أعلم منه مثلما تعلم ، ولكنّ مثلَ شعرِ الرجلِ عنده مثلُ أولاده ، فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلّو في نفسه ، فهو وإن أحبّ الفاضل لم

يبغض الناقص ، وان هوي بقاء المتقدم لم يهوَ موت المتأخر . «
 وإسراف أبي تمام في الصنعة والغريب ، وبخله بشعره ، من الاسباب
 التي كان لها الأولية في الاكثار من رديئه ، فاشتهر جيده لقلته . والجيد
 في شعره ما اجتمع فيه حسن اللفظ والمعنى ، فجاء آية في الابداع . لذلك
 كان البحتري يقول : « جيده أحسن من جيدي ووسطي ورديئي خير من
 وسطه ورديئه . »

ولو وفق أبو تمام لتجويل ديباجته كما وفق في تصيّد المعاني لما بلغ شأوه
 بالغ . لأنه أوتي من جودة القريحة ، وسعة الخيال ، وتنبه الذهن ما يجعل
 منه شاعراً لا يجارى . ولو عمل بوصيته للبحتري إذ قال له : « وتقاضَ
 المعاني ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزريرة ،
 وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام . » لوقى شعره
 سقطات كثيرة . ولكن جعل همته في الغوص على المعاني ولم يُعنَ بتقويم
 ألفاظه . فكان إذا لاح له المعنى أخرجه بأي لفظ اتفق له من ضعيف أو
 قوي ، لا يعنيه منه إلا أن يدخل فيه طباقاً أو جناساً ، أو استعارة أو
 ارصاداً . فنتج عن ذلك أن سقط معظم معانيه فجاء بعده من أخذها عنه ،
 وأفرغها في قالب حسن فنسبت إليه .

وعلى الجملة فإن أبا تمام شاعر عبقرى يجارى أحياناً الطبقة الأولى من
 الشعراء المولدين ، ولكنه شاعر ضلّ طريقه فما يلبث أن يتقهقر فتتخط
 منزلته عن منزلة المبرزين منهم ، ولولا تعسفه وصنعتة لما فضله مولد . وهو
 أول شاعر انكشفت له الحكمة اليونانية فاغترف من بحرها ، ومهدّ السبيل
 من بعده للمتنبى وأضرابه . وأول شاعر عمد إلى التأليف ، فسخر له
 اختياره لأشعار المتقدمين من المعاني ما لم يسخر لسواه . ويمتاز شعره بطول

النفس ، وفخامة الابتداء ، وبعْد مرامي التفكير ، على اندفاع عاطفي .
وله المكانة العالية في الرثاء ثم في المدح ، ويُعدّ من المجددين في عصره
من حيث التزام البديع ، ونظم الأدلة المنطقية ، والآراء الفلسفية . وقد
أغنى اللغة بمعانٍ لم تُعرف قبله ، كما أغناها بأنواع الاستعارة والتجنيس
والطباق .

دعبل

٧٦٥ - ٨٦٠ م و ١٤٨ - ٢٤٦ هـ .

حياته : تشطره . اتصاله بالرشيد . موته . صفاته وأخلاقه . آثاره .
ميزته : هجوه وتكسبه . عصبية القحطانية . تشيعه للعلويين . منزلته . رشاقة
شعره . طلاوته . هجاء مسافه . شاعر قومي . محام حزبي .

حياته

هو دعبل^١ بن علي بن رزّين الحزاعي ينتهي نسبه إلى قحطان . وكنيته أبو علي ، وقيل ان دعبلأ لقب له ، وان اسمه الحسن أو عبد الرحمن أو محمد ، وكنيته أبو جعفر . وذكر ابن خلكان ان جده رزينا كان مولى عبد الله بن خلف الحزاعي ، ولم يذكر ذلك غيره بل انفقوا على صحة عروبه ، ونسبته في خزاعة .

وكانت ولادته في الكوفة ، وبها نشأ . فلما ترعرع جعله مسلم بن الوليد^٢ في كنفه ، فتخرج عليه في الشعر . ولم يأذن له باظهار شعره إلا بعد أن استوسقت ملكته وسمع منه قوله : « أين الشبابُ وأيّّةٌ سلكا . »
وكان دعبل في صباه يلعب ببياس لتخنه وسوء ميوته . ولما اشتدت

١ الدعبل : البعير المسن والشيء القديم .

٢ مسلم بن الوليد ينتمي إلى الأنصار بالولاء ويلقب بصريع الغواني ، مولده ومنشؤه الكوفة ، شاعر محسن ماجن ، وهو أول من تكلف البديع بعد بشار ، ولكنه كان متصرفاً في شعره لا يجري فيه على مذهب واحد بخلاف أبي تمام الذي التزم البديع التزاماً فأصبح له مذهباً .

قواه أخذ يصعب الشطار^١ والصعاليك ، فحبس وضرب وهو غلام لجناية جناها ولكنه لم يرتدع بل ظل يَصْلُت^٢ على الناس في الليل حتى خرج مرة هو ورجل من أشجع^٣ فيما بين العشاء والعَتَمَة ، فجلسا على طريق رجل من الصيارفة ، وكان يروح كل ليلة بكسبه إلى منزله . فلما طلع مقبلاً عليهما ، وثبا إليه فجرحاه ، وأخذ ما في كفه ، فإذا هي ثلاث رمانات في خرقه ، ولم يكن كيسه ليلتذ معه . ومات الرجل مكانه ، واستتر دعبل وصاحبه . وجد^٤ أولياء الرجل في طلبهما ، وجد^٥ السلطان في ذلك . فطال على دعبل الاستتار ، فاضطر^٦ إلى الهرب من الكوفة ، ولم يرجع إليها إلا بعد أن علم انه لم يبق من أولياء الرجل أحد .

واتصل الشاعر بالرشيد وهو شاب لم ينبه ذكره بعد . وسبب اتصاله به ان بعض المغنين غنى في قوله : « لا تعجبي يا سلم من رجل . » فقضى به بين يدي الرشيد ، فطرب له ، وسأل عن قائله ، فقيل له : « دعبل بن علي ، وهو غلام نشأ من خزاعة . » فأمر بإحضاره ، وخلع عليه وأجازته ، وأجرى عليه رزقاً سنياً ، فكان أول من حرصه على قول الشعر حتى نبغ واشتهر اسمه .

ولم يتصل بعد موت الرشيد بغيره من الخلفاء ، لأنه كان متعصباً للعلويين ، يريد الامامة فيهم ، ويؤله ما نالهم من التقتيل . فنقم على بني العباس ، وهجاءهم ، وأقذع فيهم القول . فبقي دهره كله خائفاً ، هارباً متوارياً . وكان يقول : « أنا أحمل خشيتي على كتفي منذ

١ الشطار : جمع شاطر وهو العيار الذي أعيا أهله خبثاً .

٢ يصلت : يأتي عليهم في حوائجه . ومنه قولهم : رجل صلت ، أي ماخذ في الحوائج .

٣ أشجع : اسم قبيلة .

أربعين سنة^١ ولست أجد أحداً يصلبني عليها . ،
 وظلّ ينتقل من بلد إلى آخر مستخفياً عن أعين الخلفاء حتى مات .
 وكان الشّراة^٢ والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ، ويؤاكلونه ، ويشاربونه
 ويبرّونه . وكان إذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ، ودعاهم إليه ، ودعا
 بعلاميه نَقَنَفَ وشَعَفَ ، وكانا مغنيين ، فأقعدهما يغنيان ، وسقام
 وشرب معهم ، وأنشدهم .

موته

يحدثنا الرواة أن دعبلاً قصد مالك بن طوق أمير الجزيرة ، ومدحه
 فلم يرضَ ثوابه ، فخرج عنه غاضباً ، وهجاء فأفحش فيه القول . فطلبه
 مالك فهرب فأقَى البصرة ، وعليها اسحق بن العباس بن محمد العباسي ،
 وكان قد بلغه هجاء دعبل للتزارية تعصباً للقحطانية . فقبض عليه ، ودعا
 بالتطّوع والسيف ليضرب عنقه . فحلف بالأيمان المحرّجة انه لم يقلها ، وان
 عدواً له قالها ونسبها إليه ليُعْزِي بدمه . وجعل يتضرع إليه ، ويقبل
 الأرض ويبكي بين يديه . فرق له وقال : « أما إذا أعفيتك من القتل ،
 فلا بدّ من أن أشهرك . » ثم دعا له بالعِصِيّ ، فضربه حتى سلخ . وأمر
 به فألقي على قفاه ، وفتح فيه فردّ سلحه فيه ، والمقارعُ تأخذ رجله ،
 فما رُفعت عنه حتى بلع سلحه كله . ثم خلّاه فهرب إلى الأهواز .

وبعث مالك بن طوق رجلاً حصيماً مقداماً ، وأعطاه سباً وأمره أن
 يغتاله كيف شاء ، وأعطاه عشرة آلاف درهم . فلم يزل يطلبه حتى وجده
 في قرية من نواحي السوس فاغتاله في وقت من الأوقات بعد صلاة العتمة ،

١ أي منذ هجاء الرشيد وذلك سنة ٢٠٣ هـ يوم مات علي الرضا ، ودفن في طوس عند قبر الرشيد .

٢ الشراة : الخوارج .

فضرب ظهر قدمه بعكاز لها زُج^١ مسموم . فمات من الغد ، ودفن
بتلك القرية ، وقيل بل حُمل إلى السوس فدفن فيها . وكانت وفاته في
أواخر خلافة المتوكل^٢ .

صفاته وأخلاقه

كان في صباه على شيء من الملاحه والهيف فلقب ببياس كما مرّ بنا .
ولعله أصيب بالصمم بعد أن تقدمت سنه فأصبح أطروشاً . وكان في قفاه^٣
سلعة^٤ وقيل بل في عنقه^٥ وبما حباه بها تشطره ولصوصيته .
ولم يكن على شيء من كرم الخلق ، فقد عرف باللؤم ، ونخبث
اللسان ، والحسد والغدر واللصوصية والدناءة ، وغمط النعمة ، وكره
الناس . وسمعه بعضهم يقول : « ما كانت لأحد قط عندي منةٌ إلا تمنيت
موته . » وله رأي في مصاحبة الناس ومخالقتهم ، لا يختلف في شيء عن رأي
بشار . فإنه كان يقول لمن يلومه على كثرة هجائه للخلفاء والأمراء :
« ويحك ! اني تأملت ما تقول ، فوجدت أكثر الناس لا يُنتفع بهم إلا
على الرهبة ، ولا يبالي الشاعر ، وإن كان مجيداً ، إذا لم يخف شره .
ولمن يتقيك على عرضه أكثر من يرغب إليك في تشريفه . وعيوب الناس
أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته
بالجود والمجد والشجاعة ، ولم يكن ذلك فيه ، انتفع بقولك . فإذا رآك

١ الزج : الحديدة التي في أسفل العكاز .

٢ خلافة المتوكل من سنة ٨٤٧ - ٨٦١ م و ٢٢٢ - ٢٤٧ هـ .

٣ قفاه : مؤخر رأسه .

٤ سلعة : شجة .

٥ العنقة : ما نبت على الشفة السفلى من الشعر .

أوجعت عرض غيره، وفضحته اتقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر .
 ويحك ! ان الهجاء المقذع آخَذُ بَضْعُ^١ الشاعر من المديح المَضْرَعُ^٢ .
 فدعبل كبشار يكره الناس ، ويجب التكسب ، ويؤثر أن يطلبه
 بالهجاء بدلاً من المديح . وهو كبشار سيء الظن في أبناء عصره ، فعيوب
 الناس عنده أكثر من محاسنهم . غير انه يختلف عن بشار في انه صاحب
 عصبية عربية ، ويختلف عنه أيضاً في انه كان دونه انفة وكبراً . فقد ضُرب
 بشار حتى مات ، ولم تذلل نفسه ، ولم يتضرع . وهدد دعبل بالموت ،
 فبكى وتذلل ، ثم ضُرب فسلح وبلع سلحه .

ولم يبرأ أحداً إلا أبناء علي ، فقد كان صادق التشيع لهم ، يرجو بهم
 الشفاعة في الآخرة . ولكن تشيعه لا يعني انه كان حسن التدين ، يحافظ
 على شعائر الإسلام . فدعبل لم يتحوب من القتل والسلب ، وتمزيق
 الاعراض ، والتخنث والفجور ، وشرب الخمر . ولكنه كان أقل فجوراً
 وسكراً من بشار .

وعلى الجملة فليس في أخلاق دعبل ما يستحق الحمد والثناء ، فهو
 عصابة اللؤم المصفى .

آثاره

لم يُشهر دعبل في الشعر إلا بعد ان اكتمل شبابه ، واتصل بالرشيد ،
 فأجازه وحرّضه على القول . وأما الشعر الذي نظمه في صباه فإن أستاذه
 مسلم بن الوليد لم ير فيه خيراً ، فأمره بكتمه ، فكتمه ولم يظهره .

١ الضبع : المضد .

٢ المضرع : المذل .

ولكنّ دعبلاً عُمّر طويلاً ، ونظم شعراً كثيراً . فقد روى الجاحظ انه سمعه يقول : « مكثت نحو ستين سنة ، ليس من يوم ذرّ شارقه إلا وأنا أقول فيه شعراً . » غير أن هذا الشعر ضاع ولم يبق منه إلا بعض قصائد ومقطعات مبثوثة في كتب الأدب ، وأكثرها في الهجاء ، ومدح آل البيت . ولعلّ اقتدائه في هجو الخلفاء العباسيين كان السبب في ضياع شعره ، واحتمال ذكره . لأن الناس أهملوه بعد موته تهرباً لبني العباس ، فلم يرووا شعره ولم يجمعوه .

ميزته

لا نبتغي دراسة عامة لشعر دعبل وقد ضاع أكثره ، على ان ما بقي منه كافٍ لأن يظهر لنا الخصائص التي اشتهر بها هذا الشاعر ألا وهي الهجاء المقذع والمتاجرة به ، والعصية القبطانية ، والتشيع لأبناء علي .

هجوه وتكسبه

كان دعبل يحب التكسب كغيره من شعراء العصر العباسي . واتي من خبث اللسان ، ولؤم الطباع ما جعله عند الناس بغيضاً مقيتاً . فابتعدوا عنه ، ونفروا منه ، وتمنوا هلاكه ، حتى ان ممدوحيه كانوا يجيزونه قطعاً للسانه لا حباً له . فلم يسبقوا عليه وافر النعم ، ولا اغنوه من فقر ، فانقلب عليهم وهجاءهم . وقدّر له أن يعيش هارباً خائفاً متوارياً لافراطه في هجاء الخلفاء والأمراء ، فلم يطمن به مضجع ، ولا رحب به مصر . فاشتدت نقمته على الناس ، وازداد كرهاً لهم . وابت نفسه الحيثية ان تأنس برؤية من يضع المعروف معها ، فتمنت هلاكه لئلا تضطر إلى مجاملته والتودد إليه . ووافق هواها شتم الناس ، فرأت ان الهجاء المقذع آخذٌ بضبع

الشاعر من المديح المضرع . وهذه النظرية سبق بشار إليها فاخطتها دعبل من بعده . وكان مسلم بن الوليد يقول بها ، ولكنه لم يؤيدها كما أيدها تلميذه ، لأنه لم يكن مثله لثيباً دينياً ، ولم يكن يكره الناس .

واعتماد دعبل على الهجاء في التكسب جعله يبيته قبل ان يجد المهجو ، فإذا استحقه أحد اتخفه به ، وذكر اسمه وشهره . وأكثر الذين هجاهم من امراء ووزراء وقواد كابن الزيات ، ومالك بن طوق ، والفضل بن مروان ، وغيرهم ، كانوا من ممدوحيه ، فلم يرضه عطاؤهم فنقم عليهم .

ولم يسلم من شره أنسابؤه وأصدقائه ، والمتشيعون مثله . فقد هجا آل طاهر بن الحسين الحزاعي مع شدة ميله إليهم ، وكثرة اقتخاره بهم . وقصد مصر ، فمدح اميرها المطّلب بن عبد الله بن مالك ، وهو قريب له ، فأجازه ، وولاه اسوان . وحدث ان رجلاً من العلويين كان قد تحرك بطنجة ، وأخذ يبيت دعائه إلى مصر . فخافه المطّلب ، فوكل بالابواب من يمنع الغرباء دخولها ، فجاء دعبل فنبع ، فاغلظ للذي منعه ، فقتله هذا بالسوط وحبيه . ثم عرف المطّلب بالامر فاطلقه وخلع عليه . فقال له : « لا ارضى او تقتل الموكّل بالباب . » فقال له : « هذا لا يمكن لانه قائد من قواد السلطان . » فغضب دعبل وهجاه جاحداً قرابته وفضله عليه .

وبلغ المطّلب هجاءه إياه فعزله عن اسوان فراح يفحش فيه القول ويوجع عرضه .

وبلغ به لؤمه ، وحبه للكسب ، ان مكر بأستاذه مسلم بن الوليد ، عندما ولاه الفضل بن سهل^١ البريد بجرجان^٢ . فصار إلى مرو قاعدة

١ هو ذو الرئاستين ، الوزارة والسيف ، وهو الذي أيد بيعة المأمون في خراسان ، ثم اشتدت صولته في خراسان فخشى المأمون تشييعه فدس إليه من قتله وهو في الحمام .

٢ جرجان : من أعمال خراسان .

خُرَاسان، وكتب إلى الفضل يبتين يحرضه بها على إقصاء مسلم لأنه لا يحفظ مودة . فبلغا مسلماً ، ابلغه إياهما الفضل ، فهجا دعبلاً ، وهجاء دعبل ، ثم تهاجرا فما التقيا .

وحسبك من ذلك شاهد على لؤم دعبل ، وخبث لسانه ، ودناءته في طلب الرزق ، وغدره بأقرب الناس إليه .

عصبيته القحطانية

لا نرى بنا حاجة إلى الاستفاضة في أسباب العداء المستحكم بين العدنانية والقحطانية ، فحسبك ان تعلم انه اثر باق من عصية العرب في جاهليتهم ، وتنافس قبائلهم من نزارية وحِمْيَرِيَّة . وجاء الاسلام فزيدت قريش شرفاً بالنبوة ، ثم استقلت بالخلافة . فدلّت قبائل معدّ على قبائل اليمن ، فاشتدتّ الخصومة بينهم ، وعظم التنافس . فكانت شعراء نزار تهجو اليمانية ، وشعراء اليمن تهجو النزارية ، ولا تعفّ عن قريش .

وكان دعبل من خُزاعة ، وخزاعة قبيلة قحطانية لها شرف عاديّ تكثّفها في الجاهلية والإسلام . فغير عجيب أن تثور عصبيتها فتدفع شاعرها إلى مفاخرة العدنانية ومنافستها . وبلغ التعصب بدعبل ان هجا الكُمَيْت ابن زيد الأسدي^١ وناقضه في قصيدته التي هجا بها قبائل اليمن ، وأولها : « أَلَا حُيَيْتٍ عَنَّا يَا مَرِينَا^٢ . » وكان الكميت قد مات ، فلم يرع حرمة الميت فيه . وكان الكميت شيعياً مثله فلم يرع حرمة تشيعه . ولم يعفّ عن قريش في نقيضته بل هجاها بقوله :

١ الكميت : شاعر اسلامي متشيع .

٢ مرينا : اسم صاحبه .

مِنْ أَيِّ ثَنِيَّةٍ طَلَعَتْ قُرَيْشٌ^١ ، وَكَانُوا مَعَشَرًا مُتَنَبِّطِينَ^٢

وَكَانَ الشَّاعِرُ خَشْيَ شَرِّ هَذَا الْبَيْتِ ، فَكَانَ إِذَا سَتَلَ عَنْهُ تَبَرُّأَ مِنْهُ ،
وَقَالَ إِنَّ خَصْمَهُ أَبَا سَعْدٍ الْمَخْزُومِي دَسَّ عَلَيْهِ فِي نَقِيضَتِهِ .

وَأَبُو سَعْدٍ هَذَا شَاعِرٌ مِنْ مَوَالِي قُرَيْشٍ اسْمُهُ عَيْسَى بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ،
انْبَرَى لِدَعْبَلِ يَهَاجِيهِ ، وَيَنْقُضُ أَقْوَالَهُ بَعْدَ أَنْ رَدَّ عَلَى الْكَمِيتِ وَهَجَا
النَّزَارِيَةَ . فَاسْتَطَالَ عَلَيْهِ دَعْبَلٌ ، فَيَخَافُ بَنُو مَخْزُومٍ أَنْ يَعْثُمَ الْهَجَاءُ ،
فَنَفَوْا أَبَا سَعْدٍ عَنْ نَسَبِهِمْ ، وَكَتَبُوا بِذَلِكَ صَكًّا . فَقَالَ دَعْبَلٌ يَهْجُوهُ :

كَتَبُوا الصَّكَّ عَلَيْهِ ، فَهَوَّ بَيْنَ النَّاسِ آيَةً

فَإِذَا أَقْبَلَ يَوْمًا ، قِيلَ : قَدْ جَاءَ النُّفَايَةُ^٣

وَلَحِمَ الْهَجَاءُ بَيْنَهُمَا ، هَجَاءُ فَاحِشٍ فَاجِرٍ . وَكَانَ شَعْرُ دَعْبَلٍ أَسْوَدَ مِنْ
شَعْرِ أَبِي سَعْدٍ لِسَهْوَلَتِهِ وَخَفَتِهِ ، فَسَارَ عَلَى أَفْوَاهِ الصَّبِيَّانِ ، وَعَابَرِي السَّبِيلِ .
وَكَانَ أَبُو سَعْدٍ يَتَضَوَّرُ مِنْهُ وَيَقُولُ : « مَا أَجْتَازَ بِمَوْضِعٍ إِلَّا سَمِعْتُهُ مِنْ سَفَلَةٍ
يَهْدُرُونَ بِهِ . » وَقِيلَ : إِنَّ دَعْبَلًا كَانَ إِذَا هَجَا أَبَا سَعْدٍ دَعَا الصَّبِيَّانِ ،
وَأَعْطَاهُم جُوزًا لِيَصِيحُوا بِشَعْرِهِ . فَدَعْبَلٌ كَمَا تَرَى شَاعِرٌ عَصَبِيَّةٌ مَتَحَمَّسٌ^٤
لِقَحْطَانِيَّتِهِ .

١ الثنية : العقبة أو الجبل . يقال فلان طلاع الثنايا إذا كان ساميًا لمعالي الأمور . فقولُه :
« مِنْ أَيِّ ثَنِيَّةٍ طَلَعَتْ قُرَيْشٌ » أَيُّ مِنْ أَيِّ أَصْلٍ عَالٍ أَتَتْ وَهِيَ مَفْمُوزَةٌ فِي نَسَبِهَا الْعَرَبِيِّ
تَنْتَمِي إِلَى النَّبَطِ ، وَهُمْ جِيلٌ خَلِيطٌ مِنَ الْآرَامِيِّينَ وَالْعَرَبِ .
٢ النفاية من الشيء : رديته وبقيته .

تشيعه العلويين

إذا سئلت أن تتبين مبلغ تعصب دعبل لأبناء علي ، فعليك بشعره الذي هجا به الخلفاء العباسيين ، فهو أصدق شاهد على تشيع هذا الشاعر ، وكرهه لبني العباس الذين استأثروا بالملك دون أبناء عمهم من هاشم .

وكان الرشيد أول خليفة سلط دعبل لسانه عليه ، ولكن بعد موته . ولم يهجه في حياته لأسباب : منها أن الرشيد كان مرهوب الجانب . ومنها أن دعبلاً كان محظوظاً عنده ، فأشفق من أن تزول عنه هذه النعمة فكظم تعصبه في صدره ، ورضي بالصمت على أمل أن تتبدل الأحوال بتبدل الأزمان . ومات الرشيد ، واستخلف الأمين من بعده ، وشاعرنا لا ينبس ببنت شفة . ثم وقعت الفتنة بين الأخوين الأمين والمأمون ، فانتصر الفرس للمأمون لأن أمه فارسية . وكان المأمون ذا دهاء ، فرأى من الحكمة أن يتوحد إلى العلويين استكفافاً لسخطهم ، واسترضاء للفرس أنصاره ، وإشباعهم . فلما تم له الأمر بعد مقتل أخيه ، عهد في الخلافة من بعده إلى علي بن موسى الرضا من ولد علي بن أبي طالب ، فاغتبطت الشيعة وارتضت . ولكن العباسيين سخطوا فبايعوا إبراهيم بن المهدي في بغداد . فخشي المأمون أن يفلت الأمر من يده بخروج العباسيين عليه ، وميلهم إلى عمه إبراهيم ، فودّ لو يتخلص من هذه الورطة ليصفو له الجو . فلم يلبث أن تحققت أمنيته ، فتوفي علي الرضا فجأة ، وزعموا أنه أكثر من أكل العنب فمات ، وقال آخرون : بل دس المأمون له السم فقضى عليه . وكتب المأمون إلى أهل بغداد يعلمهم بموته ، فخلعوا إبراهيم ، ودعوا للمأمون بالخلافة .

وأثار موت علي الرضا بهذا الشكل ظنون العلويين ، فهاج بعصيتهم ، وأيقظ النعمة في صدورهم . غير أن المأمون استطاع أن يخمد شوكتهم

بدهائه ، فقر بهم إليه ، وشغلهم بالخطط العالية ، ولم يحجم عن اغتيال من يخشى شره منهم ، فعُله بوزيره الفضل بن سهل ، وبقائده طاهر بن الحسين . وكان دعبل في جملة الناقمين . وساءه أن يغدر المأمون بعلي الرضا ، ثم يدفنه عند قبر أبيه الرشيد في طوس ، فهجا الرشيد والعباسيين ، وبكى على العلويين ضحايا أبناء عمهم . وفي ذلك يقول :

قبران في طوس خير الناس كلهم ، وقبر شرهم ، هذا من العبر !
وبوسعنا أن نتبين هنا خطأ الرواية التي أثبتتها أبو الفرج في أغانيه ، وتناقلتها كتب الأدب من بعده ، وهي قولهم : « ما بلغ دعبلاً أن الرشيد مات حتى كافأه على ما فعله من العطاء السني ، والغنى بعد الفقر ، والرفعة بعد الخمول » ، بأقبح مكافأة . وقال فيه من قصيدة مدح بها أهل البيت ، عليهم السلام ، وهجا الرشيد . « ثم يروون قوله : « قبران في طوس » . ولا يروون له غير ذلك في الرشيد .

فهذه القصيدة لم تُنظم إلا بعد وفاة علي الرضا أي سنة ٢٠٣هـ (٨١٨م) والرشيد مات سنة ١٩٣هـ (٨٠٩م) . وقد أخطأ صاحب معاهد التنصيص في زعمه أن الشاعر أراد في قوله : « لإربع بطوس على القبر الزكي » قبر موسى الكاظم اي والد علي الرضا . فموسى الكاظم لم يدفن في طوس بل في مقابر الشونيزي في بغداد .

فيتضح بما تقدم أن الشاعر بقي نحو عشر سنوات بعد الرشيد لم يقل هُجراً في العباسيين . وانقضت خلافة الأمين دون أن يهجو أحداً منهم .

١ قوله : خير الناس : أي قبر خير الناس ، حذف المضاف واستغنى عنه بالمضاف إليه ، ويريد به قبر علي . قبر شرهم : أي قبر الرشيد .

حتى مات علي الرضا ، فاستيقظت عصيته فهجا الرشيد ثم هجا المأمون
إبراهيم بن المهدي والمعتمد والوائق والمتوكل .

وكان المأمون أرحبهم صدرآ في استماع هجائه ؛ ذلك انه كان يزن الأمور
بمقياس فطنته ، فلم يجد بأساً على الخلافة من هجاء دعبل فلم يعبا به . ولم
يشأ أن يسيء إلى الشيعة بقتل محازبيهم ، ولا ان يرزأ بني خزاعة بشاعرهم ،
وهم أنصاره في ثورته على أخيه .

وسأله أبو سعد المخزومي أن يأذن له بقتله فأبى وقال : « هذا رجل
فخر علينا فافخر عليه كما فخر علينا ، فأما قتله بلا حجة فلا . »

ولطالما حاول أن يقربه ويصطنعه ، فكان يأخذ عطاياه ثم يعود إلى
هجائه ، والمأمون يتحلم عنه وقد يميزه إذا سمع منه هجاء في عمه إبراهيم ،
لأن إبراهيم طبع في الخلافة ، وأرادها لنفسه دونه ، فكان المأمون يتعمد
نكايته ، والتشفي منه . قيل إنه لما سمع قول دعبل فيه :

إِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُضْطَلِعاً بِهَا ، فَلَتَصْلَحَنَّ مِنْ بَعْدِهِ الْمُخَارِقُ ١

ضحك ، وقال : « قد صفحت عن كل ما هجانا به إذ قرن إبراهيم
بمخارق في الخلافة ، وولاه عهده . »

منزلته .

قال البحتري : « دعبل بن علي أشعر عندي من مسلم بن الوليد ، لأن
كلام دعبل ادخل في كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذهبهم . »

١ مضطلماً بها : ناهضاً بمبئها . مخارق : أحد المغنين في صدر الدولة العباسية ، وكان
إبراهيم بن المهدي مشهوراً في الفناء وضرب العود ، فالشاعر يتهمهم به ويقول : اذا
صلحت الخلافة له ، وهو مثنى عواد ، فاجدر بها ان تصلح لغيره من المغنين فيكون مخارق
ولي عهده .

والبحثوي ينظر في ذلك إلى طبع دعبل ، وصناعة أستاذة . فمذهب مسلم في الشعر مختلف ، فحيناً يسهل فيسيل عذوبة وطبعاً ، وحيناً يحزن فيُغرب ، ويتكلف البديع فيُفسد شعره ، ويبعد به عن مذاهب الأعراب . وغريب أن دعبلاً لم يتأثر أستاذة إلا من الناحية السهلة المطبوعة فلفتها فيها أشبه من الماء بالماء . وأما الناحية الثانية فقلما سلك دعبل إليها ، ولا نعرف له فيها غير قصيدة مدح بها الفضل بن مروان وزير المعتمد ، والتزم في جميع قوافيها لفظة الفضل فجاءت غير مألوقة في عصرها ، وإن يكن التكلف أخذ يفسو فيه . ودعبل نفسه استغربها ، فقال فيها :

وَلَمْ أَرَ أَيْبَاتاً مِّنَ الشَّعْرِ قَبْلَهَا ، جَمِيعُ قَوَافِيهَا عَلَى الْفَضْلِ وَالْفَضْلِ

ولا غرو أن يتعد دعبل عن التصنع ، ويأنس بكلام العرب الخُلّص ، فهو عربي النبعة لا أعجبها كأستاذة ، بدويّ النزعة لا حضريّ . وقضى حياته هارباً من وجه السلطان ، مستخفياً في الجبال والقفار ، فلم تملك نفسه زخارف الحضارة ومباهجها ، فظلّ شعره أقرب إلى الطبع من شعر مسلم ؛ وأدخل منه في كلام العرب الصرحاء .

ويمتاز شعره في رشايقته ، وحسن انسجامه ، وطلاوته ، ووقع أنغامه . فهو لطيف على غير ضعف ، قوي على غير خشونة . ولولا إيمانه في هجاء الحلفاء وإمرافه في سفاسف القول ، لكان من أسير الشعراء شعراً ، لسهولة ألفاظه ووضوح معانيه . ولكنه أفسد هذا الشعر بالفحش والافذاع ، وشمّ الملوك والأمراء ، فأهمله الرواة بعد موته وأخجلوا ذكره .

على أنه كان في حياته من أعظم الشعراء خطراً ، وأخوفهم جانباً . فكان الناس يخشون شره ، ويتحامون إغضابه ، ويقطعون لسانه بالصلوات

استكفافاً لبلائه . روى أبو الفرج أن ديكاً لدعل طار من داره إلى دار جارٍ له فاصطاده جاره وطعمه . فعرف دعل فهجاه ، فذاع الهجاء ، فخاف الجار ، فلم يدع ديكاً ولا دجاجة قدر عليه إلا اشتراه ، وبعث به إلى دعل لبسكت عنه . وقيل لابن الكلبي : « لو أخبرت الناس أن دعبلاً ليس من خزاعة . » فقال : « يا هذا أمثل دعل تنفيه خزاعة ! والله لو كان من غيرها لرغبت فيه حتى تدعيه . دعل ، والله يا أخي ، خزاعة كلها . » فهذه الروايات على علامتها تشهد لدعل بما كان له من مكانة في عصره . فخبث لسانه ، وعصيته القحطانية ، وتشيعه لأهل البيت ، جعل منه هجاءً مسافهاً ، وشاعراً قوميّاً ، ومحامياً حزبيّاً . فمنازلته إذا قائمة على شعره الهجائي ، ولا سيما السياسي منه . وهو يشبه بشاراً باقذاعه وفحشه ، وسلطته على الأعراض ، ولكنه يفوقه خطراً لنسبته في خزاعة ، وتشيعه للعلويين .

الكتاب المولدون

العصر الأول

ميزة النثر : تجدد النثر لفظاً ومعنى . التزيين . تنوع العبارة . الإيجاز والاطناب . الفارسية واليونانية .
 لغة التخاطب : دب فيها الفساد . ظهور اللهجات العامية .
 أنواع النثر : تعدد أغراض الرسائل . ظهور الكتب المصنفة . ضعف الخطابة .
 انشاء المترسلين . الاخوانيات . انشاء المصنفين .

ميزة النثر

لم يكن أثر امتزاج العرب بالأعاجم مقصوراً على لغة الشعر وحدها ، بل تعداها إلى لغة النثر ، فجدّد في ألفاظها ومعانيها ، ونوّع في فنونها وأغراضها ، وذلك أوضاعها لمباحث ليس لها عهد بها . فبلغ الإنشاء العربي أرقى درجات الفن والبلاغة ، وامتاز في سهولة العبارة ، ووضوح المعنى ، وحسن تخير الألفاظ وتزيينها . وذاع التسجيع القصير الفقرات ، فتكلفه المترسلون تكلفاً ، وقصدوا إليه قصداً ، ولكنهم لم يلتزموه التزاماً ، ولا أنزلوه منزل السخف والاسفاف .

وليس تزيين اللفظ من مواليد هذا العصر ، بل هو خدن الآداب العربية من أبعد عصورها . ولنا في إنشاء القرآن شاهد على ذلك ، والقرآن أصدق صورة نتعرف بها طراز الإنشاء القديم . ولكن التزيين في القرآن وفي رسائل الإسلاميين وخطبهم ، خالٍ من التصنع ، جاري مع الطبع . فقد

تجد السجع والموازنة ، وضروب الاستعارات والتشابه ، وأنواع البديع دون أن تشعر بالتكلف لها ، والتعمل في اصطناعها ، وإنما تبدو لك نازلة في منازلها ، ملبية داعي الحاجة إليها ، لا مضطربة ولا متقلقلة .

وعلى الجملة فإن كتاب العصر الأول العباسي وما يليه كانوا جدّ مقتصدين في تنميق ألفاظهم وتحسينها ، يتعمدونه ولا يرون إلى الإسراف فيه سبيلاً . وإنما هم يريدون تأدية المعنى الجميل في قالب الجميل ، فإذا نغقوا ، فخدمة وإيضاحاً للمعنى الذي يقصدون . لذلك لم تكن المحسنات اللفظية من لزومياتهم بل كانت أكثر شيوعاً في الشعر منها في النثر . فعرفوا بتنويع العبارة وتشكيلها ، فمنها المسجعة ، ومنها المرسلة . ومنها الحالية ، ومنها العارية . ومنها الطويلة ، ومنها القصيرة . ومنها المردفة ، ومنها المفردة . وغلب عليهم الاطناب ، فأمعنوا فيه ، ولم يسلموا من الاملال . وجعلوا للايجاز مقاماً ، ولكنهم لم يسلموا من الاختلال .

وأكثروا من استعمال الألفاظ الدخيلة فغلبت الفارسية على الأشياء المادية من أسباب العمران ، كأدوات المنزل وأثاثه ، والملابس والرياش ، والحلى والأطعمة ، والأشجار والأزهار ، والصيد والقنص ، وآلات الغناء والطرب وغير ذلك . وغلبت اليونانية على العلوم العقلية كالفلسفة والطب والرياضيات وعلم الفلك ونحوها .

لغة التخاطب

هذا في النثر الفني ، وأما لغة التخاطب فإنه أخذ يدب فيها الفساد منذ العصر الأموي ، بسبب اختلاط العرب بالأعاجم وتزاوجهم ونشوء جيل جديد غير صافي العروبة . ففسد اللحن على أفواه العامة ، وفسدت مخارج الحروف ، وذاعت اللكنة والرطانة ، فأصبح زياد ابن أبيه ، وهو من

علمت فصاحته ، يستمع إلى مولى له يخاطبه بقوله : « أهدي إلينا همار وهش » يريد حمار وحش . ولم يقتصر فساد اللفظ على العامة بل تعداها إلى الخاصة ، فأبو عطاء السندي كان من مجيدي الشعراء ، ولكنه لا يحسن إخراج الحروف . فإذا سئل : « كيف بصرك باللغز يا أبا عطاف ؟ » قال : « حسن . » وإذا ألغزوا له بجرادة وزُجّ وشيطانٍ ، حلّ ألغازهم ، ولكنه يقول : « زrada ، وززّ ، وسيتان . » ورووا عن بشر بن مروان أنه قال ، وعنده عمر بن عبد العزيز ، لغلام له : « ادعُ لي صالحاً . » فقال الغلام : « يا صالحاً . » فقال له بشر : « ألقِ منها ألف . » فقال له عمر : « وأنت زد في ألفك ألفاً . » ورووا أن أول لحن سمع بالبادية : « هذه عصاي^١ . » وأول لحن سمع بالعراق : « حيّ على الفلاح^٢ . » وكان الأمويون يستنكرون اللحن ويهتئون به ، وينعون على أصحابه . قال عبد الملك بن مروان : « اللحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في الوجه . »

فلما جاء العصر العباسي ، طمأ سبل الأعاجم واندس بهم العرب ، فازدادت لغة التخاطب فساداً ، وتفاقم فيها اللحن ، وظهرت اللهجات العامية خليطة من العربية المشوهة ، والأعجمية الدخيلة ، فغلبت على الكلام الفصيح . ولم يسلم منها إلا أهل الحيام من جزيرة العرب ، فقد لبثوا يتخاطبون باللغة الفصحى إلى أواسط القرن الرابع للهجرة . فكان إذا أراد كاتب أو شاعر حضري تقويم اعوجاج لسانه ، تبدّئ وخالطهم مدة ، حتى يقف على أساليبهم ومذاهبهم في الكلام . ثم غزتهم العامية كما غزت سائر

١ صوابها عصاي .

٢ صوابها حيّ بالبناء على الفتح .

الممالك العربية، فأصبح لكل بلد لهجة خاصة يتعادنون بها، ولكنهم ترفعوا عنها في كتاباتهم فلم يدونوا آثارهم إلا باللسان الفصيح .

أنواع النثر

كان الإنشاء في العصر الإسلامي مقصوراً على الخطب ورسائل الدواوين. وإذا تعداها فإلى بعض المصنفات ، ولكنها لم تصل إلينا. فلما قامت الدولة العباسية ، وقامت معها الحضارة الجديدة ، وانتشرت الكتابة والقراءة ، وارتقى المستوى العقلي في المسلمين ، تنوعت أساليب الإنشاء بتنوع العلوم والفنون . فتعددت أغراض الرسائل وطرائقها ، وظهرت الكتب المصنفة على مباحث شتى من علم وأدب. ولكن الخطابة استولى عليها الضعف شيئاً فشيئاً ، وما زالت تتضاءل حتى تلاشت في أواسط العصر الثاني .

أسباب ضعف الخطابة

عرفنا كيف ازدهرت الخطابة في صدر الاسلام ، وما كان لها من منزلة سامية ، ومقام رفيع . على ان العوامل التي وفرت يومئذ لتقدم هذا الفن لم تتغير له في عصر المولدين لأن الشعب العباسي الخليط لم يكن له ما كان للعرب العرباء من فصاحة فطرية، وبراعة التصرف في ضروب الكلام. فشيوع اللحن واللهجات العامية بينهم جعل حظهم قليلاً من سهولة النطق بالكلام الفصيح . ثم ان العنصر العربي الخالص أخذ يعود إلى مواطنه الاولى بعد ما رأى من نفاذ العنصر الأعجمي وتسلطه عليه . وأبى أن يخضع لقواد من الفرس ، فنفر من التجند، وأصبح معظم الجيش من الموالي، فاضمحلت الخطب العسكرية ، وبات الاقناع للسيف لا للسان. ولم تكن الخطب السياسية أوفر حظاً من الخطب العسكرية ، لأن

الأحزاب أضعف شأنها ، وخضدت شوكتها بالحروب والتقتيل . وضرب العباسيون بأيديهم على حرية الأفراد والجماعات ، فجعلوا بينها وبين سياسة العرش حدّاً مصوناً . وصار الولاة والأمرء إذا عصاهم بلد ، أو فتن بينهم خارجي ، أوقعوا به ولم يعتمدوا على البيان في قمع شره .

وأما الخطب الدينية فلا غنية عنها في الجُمع والأعياد ، ولكن قلّ فيها الارتجال . ثم جعل لها صور خاصة لا تتبدل ، فأصبحت نحفظ وتردّد في كل موسم وحفل .

على انه عرف في هذا العصر جماعة من الخطباء المحسنين ، وأخطبهم مخضرمو الدولتين كخالد بن صفوان خطيب بني تميم ، وشيب بن شَيْبَة المِنْقَرِي خطيب البصرة . واشتهر من الخلفاء المنصور والمأمون .

انشاء المترسلين

كان عبد الحميد بن يحيى أول من وضع للرسائل أصولها ، وميز فصولها ، واطلب في بعض شؤونها واسهب ، واجمل في بعضها الآخر وأوجز ، وأطال التعميدات في صدورها ، وجعل لها استهلالات يفتتحها بها ، وذيولاً يختتمها بها . فترسم الكتاب خطاه ، واقتفروا معاملة . حتى إذا اطمأن الملك في بني العباس ، وأنشئت له الدواوين ووضعت له الأنظمة ، تعددت أغراض الرسائل بتعدد الأعمال . وقامت معها الاخوانيات على أنواع مختلفة ؛ فمن عتاب وشكوى ، إلى تهنئة وشكر ، إلى تعزية ورتاء ، إلى استغاثة واستعطاف ، إلى ذم ووعيد . فافتنّ المترسلون فيها وأبدعوا ، ونفقوا عباراتها وزخرفوا ، وأطالوا فيها وأوجزوا . وغلب الإطناب عليهم في العهود السياسية ، والمناظرات ، ووصف الانتصارات وغير ذلك بما ينبغي إيضاحه وتقريره في أذهان العوام . ولك مثال على هذا ، عهد طاهر

ابن الحسين إلى ابنه عبد الله، ورسالة الحميس من الخليفة المأمون إلى مبايعيه أهل خراسان، ففيهما من الإطناب شيء كثير. وغلب الإيجاز عليهم في الاخوانيات، وبلغوا به حد السرف في التوقيعات^١ فوقعوا أحياناً في الغموض.

ويبدأون رسائلهم غالباً بقولهم: « الحمد لله ». أو « اما بعد فالحمد لله ». وهذه طريقة عبد الحميد. وربما ابتدأوا بالبسملة واردفوها بالدعاء كقول سهل بن هرون في رسالة البخل: « بسم الله الرحمن الرحيم، اضلح الله أمركم وجمع شملكم ». ومن ابتداءاتهم قولهم: « اما بعد ». دون أن يعقبها دعاء أو حمدة. وقولهم: « كتابي إليك ». ويتبعونها الدعاء أو لا يتبعونها إياه.

وإذا استهلوا بالحمدة تابعوا التحميد، فيطيلونه أو يقصرونه. فمن تحميداتهم قول المأمون في رسالة الحميس: « اما بعد فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذي العز والسلطان، والنور والبرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمتقدم بالمن والطول على أهلها، قبل استحقاقهم لمثوبته، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذي جعل ما اودع عباده من نعمته دليلاً هادياً لهم إلى معرفته الخ. »

ويكثر في رسائلهم، الاستشهاد بآيات القرآن، ثم بالأحاديث والأمثال، وأقوال الحكماء والعظماء. وربما تخللها الدعاء في جمل اعتراضية، كقول أحمد بن يوسف وزير المأمون: « ونحن نسأل الله عز وجل الذي جمع بأمير المؤمنين - مد الله في عمره - ألفتنا ... الخ. »

١ هي ما يجيب به الخليفة أو الأمير على الكتب التي ترفع إليه، فيكتبه في أسفلها بعبارة موجزة تؤثر عنه. والتواقيع تكون غالباً اقتباساً من آية أو حديث أو حكمة أو مثل، وشاعت عند العرب في أيام الخلفاء الراشدين.

ويختصمون غالباً بقولهم : « والسلام » . او « والسلام هليلك ورحمة الله وبركاته » . او « إن شاء الله » . وقد يطول الدعاء في الختام إذا كان الكتاب إلى خليفة او أمير ، او من خليفة او أمير إلى رعيته ، فلا يلتزم في نهايته ما يلتزم في غيره من السلام . وربما ختم بآية كقول احمد بن يوسف : « ونحن نسأل الله عز وجل الذي جمع بأمر المؤمنين — مد الله في عمره — ألفتنا ، وعلى طاعته أهواءنا وضماثرنا ، وأناثنا من الغبطة في دولته وسلطانه ، ما لم تحوه شيعة إمام ، ولا أنصار خليفة ، ان يتم نور أمير المؤمنين ، ويعلي كعبه ، ويمتعا ببقائه ، حتى يبلغه سؤله وهمة في الاستكثار من البرِّ وادّخار الاجر ، واستيجاب الحمد والشكر . وان يلمّ به الشعث ، ويرأب به الصدع ، ويصلح على يديه الفساد ، ويرتق به فتوق هذه الأمة ، ويثخن بسياسته وسكايته في عدوها ، ويتابع الفتوح في بلدانهم حتى يؤتية من ثجج السعي ، ورغائب الحظ في الدنيا ، ما يجيزل عليه ثوابه في الآخرة . وأرشد نجباءه وأصفياه الذين يقول لهم : فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن الآخرة ، والله يحبُّ المحسنين . »

وتمتاز رسائلهم في حسن اتساقها ، وترتيب أفكارها ، وشرف ألفاظها ومعانيها . وهي في أكثرها إنشائية خطابية ، لا خبرية قصصية .

والمترسلون كثير عددهم ، منهم الملوك والأمراء والوزراء والمتصلون بهم . فمن الملوك المنصور والمأمون وابراهيم بن المهدي . ومن الأمراء طاهر بن الحسين وأبو دلف . ومن الوزراء يحيى البرمكي وابنه جعفر ، وذو الرئاسين الفضل بن سهل ، وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة^١ وان الزيّات . ومن المتصلين بالأمراء عبد الله بن المقفع . وإليك مثلاً من اخوانياتهم :

١ كاتب يضرب به ويعجفر البرمكي المثل في الإيجاز ، وكان وزيراً للمأمون

كتب عمرو بن مسعدة إلى الحسن بن سهل يهنئه بمولود : « أما بعد ، فإن هبة الله لك هبة لأمير المؤمنين ، وزيادته إليك في عدده ، لمحللك عنده ، ومكانك في دولتك من دولته . وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاماً سرياً فبارك الله لك فيه ، وجعله بارئاً تقيّاً ، مباركاً سعيداً زكياً . »

وكتب ابن المقفع إلى صديق له ولدت له جارية : « بارك الله لك في الابنة المستفادة ، وجعلها لكم زينة ، وأجرى لكم بها خيراً . فلا تكرهها ، فإنهن الأمهات والأخوات ، والعمات والحالات ، ومنهن الباقيات الصالحات . ورُبُّ غلام ساء أهله بعد مسرتهم ، ورُبُّ جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم . »

ودونك شيئاً من توقيعات الملوك والأمراء :

رفع إلى جعفر البرمكي غلمانه ورقة يستزيدونه في رواتبهم^٢ . وكان عمرو بن مسعدة يوقع بين يديه ، فرمى بها إليه وقال : « أجب عنها . » فكتب : « قليل دائم خير من كثير منقطع . » فضرب جعفر على ظهر عمرو وقال : « أيّ وزير في جلدك ! » وشكا أهل الكوفة إلى أبي جعفر المنصور سوء معاملة عاملهم فوقع في كتابهم : « كما تكونون يؤمّر عليكم . » ووقع هرون الرشيد إلى عامل مصر في خراسان : « داو جرحك لا يتسع . » ووقع جعفر البرمكي في كتاب جاءه في شكوى بعض عماله : « لقد كثّر شاكروك ، وقلّ شاكروك . فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت . » ووقع إلى محبوس يسأله العفو : « ولكل أجل كتاب . »

١ سرياً : سيداً شريفاً .

٢ رواتبهم : وظائفهم وهي ما يقدر من عمل وطعام ورزق ، مفردها راتب وراتبة .

انشاء المصنفين

ان هذا العصر ، لا جَرَمَ ، يعتبر مثالا للنشاط الفكري ، فقد عمّ فيه التدوين والتأليف والجمع والنقل ، فتكاثر الكتب المصنفة ، واختلفت أساليبها باختلاف موضوعاتها . وكان إنشاء الكتب الأدبية على الإجمال بليغاً فنياً ، واضحاً طليئاً . وكان إنشاء الكتب العلمية والفلسفية معقداً لا يخلو من ضعف ، جافاً لا يخلو من غموض . وهذا لا نعول عليه في دراستنا للنثر العباسي ، وإنما معوّلنا على الأول ذاك الذي ظهر فيه أسلوب ابن المقفع وسهل بن هرون^١ والجاحظ .

ونحن نجتزئ الآن بدرس ابن المقفع لأنه أقدم كاتب بليغ وصلت إلينا مؤلفاته ، فكانت في أسلوبها قدوة للمنشئين من بعده . ونرجى دراسة الجاحظ إلى العصر التالي متبعين حياته فيه ، وإن يكن عاش أكثر عمره في هذا العصر . وأما سهل بن هرون فلم يصل إلينا شيء من كتبه التي اشتهر بها ، فنستطيع الكلام عليه .

١ سهل بن هرون ، من أبناء الفرس ، وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب والترجمة) في عهد المأمون . ويقال ان طريقته في الكتابة طريقة علي بن ابي طالب لا يتكلف لكلامه ، فلا يشاهد فيه الناقد اثر العمل ، فهو وابن المقفع والجاحظ على غرار واحد . وعده الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل القصار والطوال ، والكتب الكبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والاخبار المدونة . وذكره ابن النديم في البلغاء وقال : « انه شاعر مقل . » وعده في الشعراء الكتاب ، وقال : « انه كان ممن يعمل الاسمار والخرافات على أسنة الناس والطير والبهايم هو وعبد الله بن المقفع وعلي بن داود كاتب زبيدة . » وله آثار كثيرة بين شعر ونثر ، واهمها مؤلفاته النفيسة ككتاب ثلعة وعفرة على مثال كتاب كليلة ودمنة ، قلده في ابوابه وامثاله . قال المسعودي : « انه يزيد على كتاب كليلة ودمنة بحسن نظمه . » وقد صنّفه للمأمون . وله كتاب النمر والعلب ، وكتاب اسد ابن اسد ، وكتاب سحرة العقل ، وكتاب اسباسيوس في اتخاذ الاخوان ، وكتاب البخلاء حسن فيه البخل وبين فوائده ، وكان سهل مبطلا . وله غير ذلك من المصنفات المدهشة التي لم تبق لنا الايام منها الا اسماءها .

ابن المقفع

٧٢٤ - ٧٥٩ م و ١٠٦ - ١٤٢ هـ

حياته : نشأته . اتصاله بالعباسيين . موته . صفاته وأخلاقه . زندقته . أساتذته وعلومه . آثاره : كليله ودمنة . الادب الصغير . الادب الكبير . فقر حكيمه ورسائل وتحميدات وشعر قليل .
ميزته : كليله ودمنة . أبوابه وأغراضه : تهذيب النفس والإرشاد إلى حسن السياسة ، وحسن اختيار الاصحاب . الروح الاسلامية ، أسلوبه الانشائي : سرد الحكايات على أفواه الحيوانات . ضرب الأمثال . أقوال حكيمه ونصائح ومواعظ . الحلاصة الرياضية الفيتاغورية . القياسات . الادب الصغير : دروس خلقية اجتماعية . الادب الكبير : قسمان ، الأول في الولاة والمتصلين بهم . الثاني في الصديق . منزلته : مسهب . السهل الممتنع . يجري مع الطمع . متنوع العبارة . قوي المنطق . أعجمي التفكير .

حياته

هو في مجوسيته رُوْزْبَةَ بن دَاوَيْهِ المُقَفَّع ، وكنيته ابو عمرو . وفي إسلامه عبد الله ، وكنيته ابو محمد . ولقب والده بالمقفع لأنه كان يتولى خراج فارس ؛ فاختلف من مال الدولة ، فضربه امير العراقيين على

١ ذكر ابن النديم أن الأمير الذي ولاه الخراج وعذبه هو الحجاج بن يوسف . وذكر ذلك ابن خلكان ثم قال : « وقيل بل ولاه خالد بن عبد الله القسري ، وعذبه يوسف بن عمر الثقفي لما تولى العراق بعد خالد . » وكلاهما تولى العراقيين من قبل هشام بن عبد الملك . وخلافته من سنة ١٠٥ - ١٢٥ هـ والحجاج توفي سنة ٩٥ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك .

يده حتى تقفعت يده .

والمقفع فارسي الاصل نشأ نشأة عربية في الاهواز^٢ ، ولكنه لم يُسلم بل مات على مجوسيته . وكان له ولاء في آل الاهتم ، وهم أهل فصاحة وبيان. وولد ابنه رُوْزَبَة، ونشأ في البصرة مجوسياً مستغرباً مثله. والبصرة يومئذ كعبة العلم والادب ، وفيها المِرْبَد عكاظ الاسلام . فلما مات المقفع اخذ الولد يتكسب بصناعة والده ، فكتب وهو في العشرين من سنه ، او نيف عليها ، لداود بن هُبَيْرَة . وابو داود هو يزيد بن عمر ابن هُبيرة والي العراقين من قبل مروان بن محمد آخر خلفاء امية .

ولما انتقل الملك إلى العباسيين، اتصل ابن المقفع بسليمان وعيسى واسماعيل ابناء علي بن عبد الله بن عباس، واعمام السفاح والمنصور. فكتب لعيسى ايام ولايته على كِرمَان؛ وجعله اسماعيل والي الاهواز ثم الموصل مؤدباً لبعض بنيهِ . ثم كتب لسليمان وهو أمير على البصرة؛ وترجم للمنصور في اثناء ذلك عدة كتب ، ولكنه لم يتصل به ، بل لبث منقطعاً الى اعمامه حتى مات .

موته

كان عبد الله بن علي عم المنصور والياً على الشام ، فخرج على ابن اخيه سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤ م) وطلب الخلافة لنفسه . فأرسل عليه المنصور جيشاً مقدّمه ابو مسلم الخراساني ، فانتصر ابو مسلم. وهرب عبد الله الى البصرة ، ونزل على أخيه سليمان ، واستتر عنده . ثم ان المنصور عزل سليمان عن

١ تقفعت : تشنجت .

٢ الاهواز ويقال لها خوزستان: ولاية فارسية أقبل عليها العرب فاستوطنوها لخصب أرضها وقربها من البصرة ، ولا تزال العناصر العربية غالبية على أهلها .

البصرة سنة ١٣٩ هـ (٧٥٦ م) ، وولى مكانه سُفيان بن معاوية من آل المهلب .

ولبت عبد الله مستخفياً عند أخويه سليمان وعيسى . فطلبه المنصور منهما ، فأبيا تسليسه إلا بأمان يُمليان شروطه ، فرضي المنصور بذلك . فتقدما إلى كاتبهما ابن المقفع بأن يكتب الأمان ، ويبالغ فيه كي لا يغدر المنصور بعه . فكتبه ابن المقفع ، وشدد فيه حتى قال في جملة فصوله : « ومتى غدر أمير المؤمنين بعه عبد الله بن علي ، فنساؤه طوالق ، ودوابه حُبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون في حِلٍّ من بيعته » .

فعظم ذلك على المنصور ، ولا سيما أمر البيعة ، وغضب على ابن المقفع ، فأوعز بقتله إلى سُفيان بن معاوية والي البصرة .

وكان سُفيان شديد الحنق على ابن المقفع لأن كاتبنا غيظ من توليه البصرة مكان سليمان بن علي ، فراح يستخف به ، ويتنادر عليه ، وينال من أمه . فقد سمعه مرة يقول : « ما ندمتُ على سكوتي قط . » فقال له : « الحرسُ زينٌ لك ، فكيف تندم عليه ! » وكان أنف سُفيان كبيراً ، فكان ابن المقفع إذا دخل عليه قال : « السلام عليكما . » يعني سُفيان وأنفه .

فلما جاءه كتاب المنصور يأمر بقتله تربص به حتى دخل عليه يوماً ، فأمسكه وأمر به فقتل . واختلف في طريقة قتله فقيل انه ألقي في بئر ، وردمت عليه الحجارة . وقيل أُدخل حمّاماً وأُغلق عليه بابه فاختنق .

١ حبس : موقوفة في سبيل الله لا يحق له استعمالها لمنفعته .

٢ لم يحل الأمان دون غدر المنصور بعه ، فقد قتله شر قتلة . قيل جعله في بيت أساسه ملح . وأجرى عليه الماء فسقط عليه ومات .

وقيل بل قطعت أطرافه عضواً عضواً ، ثم ألقى في تنور وأطبق عليه .
 وكيف كان الأمر فإن ابن المقفع دخل دار سفيان ولم يخرج منها .
 فبلغ الخبر سليمان وعيسى ابني علي ، فخاصا سفيان إلى المنصور ، وأحضراه
 إليه مقيداً . وشهد أناس أن ابن المقفع دخل داره ولم يخرج منها ، فقال
 المنصور للشهود : « أرايتم إن قتلت سفيان به ، ثم خرج ابن المقفع من
 هذا البيت (وأشار إلى باب خلفه) وخاطبكم ، ما تروني صانعاً بكم ،
 أفأقتلكم بسفيان ؟ » فخاف الشهود ورجعوا عن الشهادة ، واضرب عيسى
 وسليان عن ذكره ، وعلموا انه قتل برضى المنصور .
 وذكروا ان من أسباب قتله اتهامه بالزندقة ، ومعارضة القرآن ،
 وترجمة كتب الزنادقة . ومات وله من العمر ست وثلاثون سنة ، وخلف
 ولداً اسمه محمد .

صفاته وأخلاقه

وصفه الجاحظ فقال فيه : « كان جواداً فارساً جميلاً . » وعُرف
 بالروءة وكرم الخلق ، والوفاء للأصحاب . وكان يقول : « ابذل لصديقك
 دمك ومالك . » ولم يحجم عن تحقيق هذا القول يوم طُلب صديقه عبد
 الحميد بن يحيى بعد مقتل مروان بن محمد ، فلبجاً إليه في الجزيرة . وفاجأهما
 الطلب وهما في بيت واحد ، فقال لهما الجند : « أيكما عبد الحميد ؟ »
 فقال ابن المقفع : « أنا . » مؤثراً صاحبه على نفسه . وهم الجند بالقبض
 عليه . فصاح عبد الحميد : « ترفقوا بنا ، فإن كلاً منا له علامات لمن
 فوكلوا بنا بعضكم ، وليبض البعض الآخر ، ويذكر تلك العلامات لمن
 وجّهكم . ففعلوا ، وأخذ عبد الحميد وقُتل ، ونجا ابن المقفع على
 كره منه .

وعرف ايضاً بسهولة الطبع على رصانة ، وبالتعفف والابتعاد من الكذب والحسد . على ان حبه للادب والادباء ونزوعه للزندقة جعلاه لا يستنكف من مصاحبة جماعة من الخلقاء كمطيع بن إياس ، وحماد عجرد ، وبشار بن برد ، والبة بن الحُبَاب وأضرابهم . فكانوا يجتمعون على الشراب وقول الشعر ، وكلهم متهم في دينه . ولكنه إذا لها وشرب لم تكن الحمر لتقوده إلى الإثم ، وتنزل به في المنازل الدنية . وفي ذلك يقول :

سَأَشْرَبُ ، مَا شَرِبْتُ عَلَى طَعَامِي ، ثَلَاثًا ، ثُمَّ أَتْرُكُهُ صَحِيحًا ،^١
فَلَسْتُ بِقَارِفٍ مِنْهُ إِثَامًا ، وَلَسْتُ بِرَاكِبٍ مِنْهُ قَبِيحًا^٢

وكان يحب الغناء ، ويهتز للصوت الحسن . فقد غنّته يوماً جارية وليس لديه دراهم ، فجاء بصك ضيعة له ، وقال : « هذه عهدة ضيعتي خذها ، فأما الدراهم فما عندي منها شيء . »

وكان على سهولة طبعه ورصانته حاد اللسان ، شديد السخر بمن لا يملأ عينه فعله بسفيان بن معاوية .

زندقته

إذا شئت ان تلمس زندقة ابن المقفع في ما خلف لنا من الآثار ، فإنما انت تتعب على غير طائل . لأن آثاره الباقية ليس فيها إلا كل ما يلائم مع الاسلام ، ولا ينافي أحكامه . ولكن ابن المقفع زنديق في حكم المؤرخين المتقدمين ، وهم يروون على ذلك أخباراً مختلفة ، منها انه يوم اراد

١ قوله : ثم أتركه ، أي أترك الشراب ، دل عليه قوله سأشرب . وقوله : صحيحاً ، أي صحيح العقل والعرض .

٢ قارف : مرتكب . الإثم والإثم واحد .

ان يدين بالاسلام جاء الى عيسى بن علي وقال له : « قد دخل الاسلام في قلبي ، واريد ان اسلم على يدك . » فقال له عيسى : « ليكن ذلك بحضور من القواد ووجوه الناس ، فاذا كان الغد فاحضر . » ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم ، فجلس ابن المقفع يأكل وي زمزم^١ على عادة المجوس . فقال له عيسى : « اترزمم وأنت على عزم الاسلام ؟ » فقال : « اكره ان ابيت على غير دين . »

ومنها انه مر ببيت نار للمجوس بعد أن أسلم، فتمثل بقول الأخوَص :

يَا بَيْتَ عَائِكَةَ الَّذِي أَتَعَزَّلُ ،
حَدَرَ الْعِدَى ، وَبَكَ الْفَوَادُ مَوَكَّلُ^٢
إِنِّي لَأَمْنَحُكَ الصُّدُودَ ، وَإِنِّي
قَسَمًا ، إِلَيْكَ ، مَعَ الصُّدُودِ ، لَأُمِيلُ

وروا ان سفيان لما قتله ومثّل به ، قال : « ليس علي في هذه المِثْلَةُ^٣ بك حرج لأنك زنديق ، وقد افسدت الناس . » وان المهدي كان يقول : « ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع . » ودكروا انه عارض القرآن وصاحب المتهمين في دينهم .

فمن هنا يتضح ان زندقة ابن المقفع لا تقوم على دليل من آثاره ، وإنما تقوم على أقوال الرواة والمؤرخين . على انه غير عجيب ان يكون ابن

١ يززمم . يصلي صلاة المجوس على الطعام ، وهي أن يترابطوا على أكلهم وهم صموم لا يستعملون لساناً ولا شفة ، ولكنه صوت يديرونه في خياشيمهم وحلقهم .

٢ اتعزل : أتحنى عنه وابعد . عانكة : علم امرأة .

٣ المثلة : العقوبة والتشكيل .

المقفع زنديقاً وهو حديث العهد بالاسلام ، لم يزل يحن إلى ديانته الاولى ، تلك التي نشأ عليها ، وانتحلها معظم حياته . وهو لم يسلم إلا حفاظاً على كرامته ، وطمعاً في الشهرة والجاه ، وتقرباً إلى مواله العباسيين .

غير ان اعداءه عجزوا عن اثبات زندقته ، لانه اعتصم بالتقية فلم يجاهر بكفره ، ولعله كان يتنصل من الكتب التي بث فيها آراء الزنادقة ، وطُست فلم تصل إلينا . ولو استطاعوا اثبات زندقته لما عمد المنصور الى اغتياله سرّاً بل كان مثل به على رؤوس الأشهاد .

اساتذته وعلومه

لم يعرف من استاذي ابن المقفع الا واحد ذكره ابن النديم ، وهو ابو الجاموس ثور بن يزيد . وكان اعرابياً يفد البصرة على آل سليمان بن علي ، وعنه اخذ ابن المقفع الفصاحة .

ونشأ ابن المقفع في البصرة على ما ينشأ عليه ابناء اليسار ، فعُني والده بتعليمه وتقويم لسانه على الكلام الفصيح . فبرع في العربية والفارسية ، وتضلّع من آدابها . واطلع على حكمة اليونان في الكتب التي ترجمت إلى لغة الفرس زمن كسرى أنوشروان ، فجمع بين ثقافتي العرب والعجم .

واوتي ابن المقفع من الذكاء ما جعله واحد زمانه في بلاغته وعلومه ، وقد قال فيه ابن سلام : « سعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ؛ ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع » . وعدّه ابن النديم أحد بلغاء الناس العشرة ، وذكره في مقدمتهم . وأقر له الجاحظ بالتقدم فقال : « ومن المعلمين ثم البلغاء

١ اجمع اي اجمع للعلوم .

المتقدمين عبد الله بن المقفع ، كان مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة ،
واختراع المعاني ، وابتداع السير . وكان إذا شاء ان يقول الشعر قاله . ،

آثاره

كان عصر ابن المقفع عصر نقل في أكثره لرغبة أولي الأمر في الاطلاع
على علوم الأعاجم والاستفادة منها . وكان ابن المقفع مالكاً ناصيتي العربية
والفارسية فأحب أن يري العرب آداب قومه ، ويتقرب بها إلى ذوي
السلطان ، فأكتب على النقل ، فأتحف العربية بطائفة من الكتب النفيسة ،
ولم يصل إلينا إلا بعضها فكان أعظم شاهد على جلالته .

وليس لابن المقفع من الكتب إلا ما هو منقول من الفارسية ، فله فيه
فضل المترجم البارع ، لا فضل المؤلف المخترع . ولذلك كان الخليل بن
أحمد يقول فيه : « علمه أكثر من عقله . »

على ان هذا القول لا يعني ان ابن المقفع كان ضعيف التوليد ، فهو كما
علمت ، أذكى أعجمي عرفته العرب . ولكنه كان مفتوناً بآداب قومه
وعلوهم ، فصرف همه إلى نقلها ليهرب العرب بها . على انه لم يتقيد بأصول
الكتب التي ترجمها بل تصرف فيها فزاد عليها أشياء وأنقص منها أشياء .
وكان الذي زاده من توليده واختراعه .

وآثاره في الترجمة كثيرة نكتفي بذكر ما وصل إلينا منها ، وهي
كليلة ودمنة ، والأدب الصغير ، والأدب الكبير .

فأما كليلة ودمنة فإنه أقدم كتاب عربي في الأخلاق وتهذيب النفس .
وضعه بيدبا الفيلسوف الهندي لدبشليم ملك الهند منذ عشرين قرناً
وتيفاً . وكان دبشليم قد صعد إلى العرش بعد فتح الاسكندر (٣٢٦ ق.م) ،
فطفى على الرعية ، فأراد بيدبا اصلاحه ، فألف هذا الكتاب واستتمه في

مدة سنة ، وجعل النصح فيه على أفواه البهائم والطيور . ويرى جرجي زيدان أن الداعي إلى ذلك هو أن البراهمة يعتقدون تناسخ الأرواح . هذا وإن إصلاح الملوك البغاة على سبيل الحكايات والاشارات أسلم عقبي من محاولة إصلاحهم بإظهار هفواتهم ، ونهيبهم عن الوقوع بها . لأن فيهم من الكبر والعنوا ما يأبى عليهم أن يُظهر لهم أحد خطأهم وينهاهم عنه . وكتب بيدبا كيلة ودمنة باللغة الهندية السنسكريتية ، وبوّبه أربعة عشر باباً ، أولها باب الأسد والثور . وأصول هذا الكتاب في الهندية تعرف باسم « بَنَجَة تَانْتَرَا » أي الكتب الخمسة .

فلما صار عرش الفرس إلى كسرى انوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) بعث الطبيب بَرَزَوِيَه بن أَزْهَرَ الفارسي إلى بلاد الهند ، فنقل الكتاب من السنسكريتية إلى الفهلوية^١ . ومنها نقله عبد الله بن المقفع إلى العربية . وصُدِّر الأصل الهندي بمقدمات فارسية وعربية ، والحقت به في بعض النسخ أبواب ليست منه .

وشغف العرب به عند ظهوره ، فقام منهم من نقله ثانية من الفارسية ، وهو عبد الله بن هلال الالهوازي ، نقله ليحيى البرمكي في خلافة المهدي ، ولكن ترجمته ضاعت . وعارضه سهل بن هرون أحد كتّاب المأمون بكتاب سماه ثعلّة وعفّرة وضاع أيضاً . وتصدى جماعة من الشعراء لنظمه ، أولهم أبو سهل الفضل بن نوبخت من خدام المنصور والمهدي . ثم أبان بن عبد الحميد اللاحقي نظمته للبرامكة . ثم علي بن داود كاتب زبيدة زوج الرشيد . ونظمه بشر بن المعتمد . وكل هذه المنظومات فقدت إلا منظومة أبان فقد بقي منها قطعة حسنة في كتاب الأوراق للصولي .

الفهلوية : الفارسية القديمة .

ونظمه ابن الهبّارية المتوفى سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠ م) وسماه نتائج
 الفطنة في نظم كليلة ودمنة ، وهو مطبوع . ونظمه ابن بياتي المصري المتوفى
 سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) وضاع نظمه . ثم نظم منه أقساماً عبد المؤمن
 ابن الحسن من رجال القرن السابع للهجرة . ونظمه جلال الدين النقاش من
 أهل القرن التاسع الهجري ، والنظمان غير مطبوعين .
 وأما الأدب الصغير والأدب الكبير فكتابان في الحكمة والأخلاق
 والسياسة والاجتماع والنصائح ، وكلاهما مطبوع^١ .
 ومن آثار ابن المقفع الباقية فقر حكيمة ، ورسائل متفرقة ، وتحميدات
 جميعها محمد كرد علي في كتابه رسائل البلغاء . وله شعر قليل .

ميزته

لم تقم ميزة ابن المقفع إلا على كتابه الخالد كليلة ودمنة ، ففي هذا
 الكتاب يتجلى أسلوبه البديع الذي رفع به مستوى النثر العربي إلى أعلى
 درجات الفن وأشرفها . فعلى هذا الكتاب نعول في درس ابن المقفع ،
 وإظهار أسلوبه . ولكن لا غنية لنا عن أن نلمّ بالاديين الصغير والكبير
 لنتبين خصائص الكاتب في مختلف موضوعاته ومباحثه .

كليلة ودمنة – أبوابه وأغراضه

سمّي هذا الكتاب كليلة ودمنة من باب تسمية الكل باسم الجزء .
 لأن خبر كليلة ودمنة لا يتناول غير بايين من أبوابه ، وهما باب الأسد
 والثور ، وباب الفحص عن أمر دمنة .

١ طبع الادب الكبير خطأ باسم الدرة اليتيمة ، والدرة اليتيمة من آثار ابن المقفع ولكنها
 مفقودة .

وكيلة ودمنة أخوان من بنات آوى، جُعِلت قصتها مثلاً على المتحايين
يقطع بينها الكذوب المحتال . ومدارها ان دمنة سعى بالفتنة بين الأسد
ملك الوحوش ، والثور جليسه وصديقه . فافسد فيما بينهما ولم يصح لنصائح
أخيه كيلة . فقتل الأسد الثور ثم تبين له أنه بريء مما اتهم به ، فأمر
بجس دمنة . وفي باب الفحص عن أمر دمنة يمثلُ المتهم في حضرة القاضي ،
ويرد على أقوال خصومه ، ويدافع عن نفسه وابط الجأش . ثم يثبت عليه
الجرم بشهادة شاهدين فيُقتل ويصلب على رؤوس الأشهاد . وأما كيلة فإنه
يموت من حزنه في أثناء الفحص عن أمر أخيه .

وترى في دمنة مثال الداهية المحتال ، والحسود الطماع الذي يستهين
كل كبيرة لبلوغ ما يشتهيه من الرفعة والمال . وترى في كيلة مثال
المخلص الوفي للأصحاب، والقنوع الرضي الأخلاق، والحكيم البصير بالأمور،
الذي يحب السلامة ، ويخشى مصاحبة السلطان ويجاذر بطشه وصولته .

وأما بقية الأبواب فكل باب منها قائم بنفسه ولكنها ترمي إلى غاية
واحدة وهي تهذيب النفس ، والارشاد إلى حسن السياسة ، وحسن اختيار
الأصحاب . فالباب الأول مقدمة الكتاب لبهنود بن سَحْوان المعروف
بعلي بن الشاه الفارسي ، ذكر فيها السبب الذي من أجله وضع بيدبا هذا
الكتاب لدبشليم الملك . والباب الثاني بعثة برزويه إلى بلاد الهند لنقل
الكتاب . والباب الثالث عرض الكتاب لابن المقفع وبه يشتد في تنبيه قارئه
كتاباه على « ان يديم النظر فيه من غير ضجر ، ويلتمس جواهر معانيه .
ولا يظن أن نتيجته إنما هي الاخبار عن حيلة بهيتمين ، أو محاوره سُبُع
لثور ، فينصرف بذلك عن الغرض المقصود . » فكان الكاتب ، وقد حمل
إلى العرب أدباً جديداً لم يتعودوه ، خشي أن يلهثوا بقشوره دون لبابه ،

فلا يروا فيه غير التفكه بأحاديث البهائم والطيور ، فحضمهم على تفهيمه ، وإدراك معانيه .

وفي هذا الباب يقسم الكتاب إلى أربعة أغراض : « أحدها ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة من مسارعة أهل الهزل من الشبان إلى قراءته ، فتستال به قلوبهم ، لأن هذا هو الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات . والثاني إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الاصباغ والألوان ليكون أنساً لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد ، للزخرفة في تلك الصور . والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذها الملوك والسوقة فيكثر بذلك انتساخه ، ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام . ولينتفع بذلك المصور والناسخ ابداً . والغرض الرابع ، وهو الأقصى ، مخصوص بالفيلسوف خاصة . »

فيتبين من ذلك ان الكتاب كان ذا صور في الاصل ، وان ابن المقفع كان يرجو خلوده في نوادره ، وصوره واصباغه والوانه ، ولم يخطر له يومئذ ان الخلود مكتوب على بلاغة إنشائه .

واما الباب الرابع وهو برزويه الطيب ، لبُرْزُجْمِهَرَ بن البختگان وزير كسرى ، فقد ذكر فيه فضل برزويه ، ونسبه وحسبه وصناعته وأدبه وكيف كان أمره . وذكر بعثته إلى الهند ، وجعله قبل باب الاسد والثور ، وجعل الكلام فيه على لسان برزويه الطيب . وأكثر هذا الباب مباحث وتعايير طيبة ، وهو يدل على حكمة الطيب ، وبصره بالامور ، وخوفه من الدنيا ، وميله الى الزهد فيها . فهذه الأبواب الاربعة هي المقدمات الفارسية والعربية للاصل الهندي . فيكون مجموع الأبواب معها

١ الكلام هنا لابن المقفع .

ثمانية عشر باباً تشتمل على كثير من الحكم والامثال والمواعظ ، ويمكن تلخيصها بأنها تدعو الى النسك والزهد بما فيها من اخبار النساك والامثال عنهم . وتأمّر بالتقوى والنظر الى الآخرة اكثر من النظر الى الاولى . وتوصي بالمشورة وقلة الكلام ، ومداراة السلطان ونصحه وارشاده بضرب الامثال ، وتحديثه بعيوب غيره فيعرف عيبه ، ولا يجد الى الغضب على مؤدبه سبيلاً . وتحث على الشهامة والجلود والرحمة والعفو والحلم . وتغري بالشجاعة والاقدام ، والصدقة والوفاء للاصحاب . وتزين الحزم والصبر والقناعة . وتنبه عن الحسد والاحتيال والنسيمة ، والطمع والشراسة والظلم والبغي وكلام السوء . وتدعو الى الابتعاد عن سماع كلام الساعي والنام . وتبين وخامة عاقبة الاشرار ومنافع الاصحاب ، ومضار الاهمال والغفلة ، وآفة التعجيل وقلة الروية .

والروح الاسلامية مبثوثة في تضاعيف فصولها مما يدل على ان ابن المقفع تصرف في الاصل فجعله ملائماً لاهل عصره . وهذا الذي جعل بعضهم يشكّون في ان الكتاب مترجم ، وزعموا انه من وضع ابن المقفع ، وان الكاتب ادعى ترجمته لما كان للنقل من المنزلة الرفيعة في زمانه . وضاعف شكهم ما رأوا في الكتاب من وحدة التأليف بين الابواب الهندية والفارسية والعربية ، فرجحوا وحدة المؤلف .

ولكن ذلك لا يكفي للدلالة على ان الكتاب موضوع لا منقول ، فآثر الترجمة بيّن في انشائه ، والحكمة الهندية الفارسية ظاهرة فيه كل الظهور بأدائها وامثالها . فمن الراجح ان ابن المقفع نقله وهذّبه وغير فيه وبدّل ، ونصّرّف في جمع ابوابه فظهرت عليه وحدة التأليف . وقد جهد في ان يجعل روحه اسلامية كما يصلح لتأديب الامراء المسلمين ، فوفق في غرضه ،

غير انه ترك اسماء الاعلام فارسية او هندية .
 ووسعك ان تبين الروح الاسلامية في قوله على لسان برزويه : « واضرت »
 في نفسي ان لا أبغي على أحد ولا اكذب بالبعث ولا القيامة ، ولا الثواب
 ولا العقاب ، وان لا اله إلا الله الفرد الصمد . »
 فهذا الايمان وما فيه من التوحيد اسلامي محض لا ينطق به فارسي
 مجوسي كبرزويه . وقد رأيت ان دمنة لم يقتل الا بشهادة شاهدين ، لأن
 شهادة الواحد لا توجب حكماً . زد على ذلك ما في الكتاب من اعتقاد
 عظيم بالقضاء والقدر .

كيلة ودمنة - اسلوبه الانشائي

حمل ابن المقفع الى النثر العربي في كتابه هذا اسلوباً جديداً لم يعرف
 من قبل . وهو سرد الحكايات على أفواه البهائم والسباع والطيور ، تتخللها
 محاورات أدبية لذيذة فإذا هي تبدو في ظاهرها هزلًا وتسلية ، على حين
 أن باطنها جدٌ وحكمة . ويزيد هذه الحكايات رونقاً ان أساسها قائم على
 ضرب الأمثال ، والأمثال كلام الأنبياء ، فكل باب في مجموعه مثل مستقل ،
 ولكنه يشتمل على عدة أمثال يتفرّع بعضها من بعض .
 وأول الكتاب باب الأسد والثور يفتتحه دبشليم بقوله ليديبا : « اضرب
 لي مثلاً لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملها على العداوة
 والبغضاء . » فيورد بيديبا مثلاً ويفرّع منه أمثالا على ألسنة الحيوانات التي
 ذكرها في هذا المثل . حتى إذا انتهى وأراد الانتقال إلى باب آخر قال
 الملك : « قد سمعتُ مثل المتحابين الخ ، فحدثني عن اخوان الصفاء كيف
 يتدبّر توصلهم ويستمتع بعضهم ببعض ؟ » فيوطيء الفيلسوف لغرضه
 بمقدمة تناسب المثل ، يراد منها النصيح أو التحذير أو ما شاكلها كقوله :

« ان العاقل لا يعدل بالإخوان شيئاً ، فالإخوان هم الأعوان على الخير كله ، والمؤاسون عند ما ينوب من المكروه . ومن أمثال ذلك الحمامة المطوقة والجُرْدُ والطبي والغراب والسُّلْحَفَاء . » فيقول له الملك :

« وكيف كان ذلك ؟ » فيستهل المثل بقوله : « زعموا . »

ويختم الباب غالباً بذكر ما ضرب المثل لأجله فيجعله نتيجة لما تقدم ، مثال ذلك : « فهذا مثل اخوان الصفاء واثلافهم في الصعبة . »

ويمهد للأمثال المتفرعة كما يمهد للمثل الأصلي ، ويختتمها على الغالب بقوله :

« وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم . »

والكتاب حافل بالأقوال الحكيمة والمواعظ والنصائح . وربما استرسل الكاتب في فقر حكيمة متساوقة حتى يخرج بها عن الموضوع الذي يتكلم فيه . مثال ذلك انه لما أراد دمنة أن يغري الأسد بالثور ، أخذ يدعوه إلى قبول نصيحته بهذه الأقوال ، وفيها ما يلائم الموضوع وفيها ما لا يلائمه :

« وخيرُ الاخوان والأعوان أقلهم مداهنة في النصيحة ، وخير الأعمال أحمدها عاقبة ، وخير النساء الموافقة لبعلهما ، وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأفضل الملوك من لا يخالطه بطر ولا يستكبر عن قبول النصيحة . »

ولما كانت الحيوانات غير العاقلة عاقلة في كيلة ودمنة ، فالكاتب يتكلم على ذكورها بصيغة المذكر العاقل . فيقول مثلاً : « زعموا أن جماعة من القرود كانوا ساكنين . »

ويمتاز أسلوبه بمخاصته الرياضية التي اختصت بها فلسفة اليونان ، ولا سيما الفلسفة الفيثاغورية^١ وما فيها من عدد وتقسيم . حتى ظن بعض المستشرقين

١ نسبة الى فيثاغورس ، فيلسوف يوناني ٥٦٩ - ٤٧٠ ق.م.

ان لكليلة ودمنة أصلاً يونانياً ، وان ابن المقفع كان عارفاً بلغة اليونان .
 على ان كلا الأمرين لم يثبتا ، وإنما الثابت ان ابن المقفع اطلع على حكمة
 اليونانيين في كتب الفرس التي نقلها ، فراض عقله على هذا الأسلوب
 المنطقي ، وأتحف به لغة العرب ، وكانت لا تعرفه من قبل . ولا تنحصر
 خاصته هذه في كليلة ودمنة بل تجدها في الادب الصغير والادب الكبير .
 ودونك مثلاً عليها قوله في باب الاسد والثور : « يا بُني ان صاحب الدنيا
 يطلب ثلاثة امور لن يدركها الا بأربعة أشياء : اما الثلاثة التي يطلب ،
 فالسعة في الرزق ، والمنزلة في الناس ، والازاد للآخرة . واما الأربعة التي
 يحتاج إليها في درك هذه الثلاثة ، فاكْتساب المال من أحسن وجه يكون ،
 ثم حسن القيام على ما اكتسب منه ، ثم استثماره ثم انفاقه فيما يُصلح
 المعيشة ويرضي الاهل والاخوان ، فيعود نفعه في الآخرة . »

ويكثر في هذا النوع من انشائه استعمال أمّا التفصيلية . وتراه حافلاً
 بالقياسات ، ومنها المدرّجة المتسلسلة كقوله في باب الحمامة المطوقة : « وجدت
 من لا اخوان له لا اهل له . ومن لا ولد له لا ذكر له . ومن لا مال
 له لا عقل له ولا دنيا ولا آخرة . لان من نزل به الفقر لا يجد بداً من ترك
 الحياء . ومن ذهب حياؤه ذهب سروره . ومن ذهب سروره مقت نفسه .
 ومن مقت نفسه كثر حزنه . ومن كثر حزنه قلّ عقله وارْتبك في أمره .
 ومن قلّ عقله كان أكثر قوله وعمله عليه لا له . ومن كان كذلك ،
 فأحر به ان يكون انكد الناس حظاً في الدنيا والآخرة . »

ويختلط الاسلوب القصصي بالاسلوب المنطقي في انشاء كليلة ودمنة ،
 فيدمته ويسهله ، ويزيل عنه الجفاف والتعقيد اللذين يعيّن كتب المنطق
 والفلسفة . وتبدو عبارته واضحة كل الوضوح بريئة من الغموض ، تتناولها

الافهام بجفّة ، فما يصعب عليها تحصيل معانيها .
وعلى الجملة فإن كلفة ودمنة يمتاز بسهولة وانسجامه ووضوحه
وسلاسته ، واتساق افكاره وتساقق امثاله ، واسهابه واسترساله . وهو
اخلد كتاب عرفته اللغة العربية ، فقد نثف على الالف من السنين ،
والايدي تتداوله ، والمدارس حافلة به .

الادب الصغير

لم يكن ابن المقفع مخترعاً في الادب الصغير وانما هو ناقل متصرف في
النقل فعلة في كلفة ودمنة . ولا يرى غضاضة في ذلك بل يحسنه ويزينه
إذ يقول : « ومن اخذ كلاماً حسناً عن غيره فكلم به في موضعه على
وجهه ، فلا يُرين في ذلك عليه ضؤولة » ، فإنه من أعين على حفظ قول
المصبيين ، وهدي للاقتداء بالصالحين ، ووفّق للأخذ عن الحكماء ، فلا
عليه ان لا يزداد فقد بلغ الغاية . وهذا يدل على أن الكاتب يعتقد أن الذين
تقدموه من الحكماء بلغوا الغاية ، فلم يتركوا زيادة لمستزيد ، ويوضح
ذلك في قوله : « وجلّ الادب بالمنطق ، وكل المنطق بالتعلم . ليس حرف
من حروف معجبه ، ولا اسم من أنواع أسمائه إلا وهو مروي متعلّم
مأخوذ عن إمام سابق من كلام أو كتاب . وذلك دليل على أن الناس
لم يبتدعوا أصولها ، ولم يأتهم علمها ، إلا من قبّل العليم الحكيم . اهـ »
فهو يزين العلم ، ولا يشترط الاختراع ، ولذلك يقر بأنّه أخذ كتابه هذا
عن غيره ، فيقول : « وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس
المحفوظ حروفاً ، فيها عون على عبارة القلوب ، وصقّالها وتجليّة أبصارها ،
وإحياء للتفكير ، وإقامة للتدبير . »

والادب الصغير عبارة عن دروس خلقية اجتماعية ، تحث على طلب

العلم ، وتشترط على العالم التواضع وعدم الاعتداد بالنفس ، وتدعو المرء إلى تأديب نفسه ومحاسبتها ، وتحسن له الزهد والتصوف ، وهي مع ذلك تعظم شأن المال وتقده ، ولا تنهى عن جمعه : « ومن لا مال له ، فلا شيء له . والفقر داعية إلى صاحبه مقت الناس . »

على أن الكاتب ينهك عن الاغترار بالمال الكثير ، ويدعوك إلى القناعة بالقليل منه ، لأنه يريد أن ينعاً للفقر ليس غير . وتراه اشتراكياً لا يحب الاحتكار والاستئثار : « لا تعد غنياً من لم يشارك في ماله . » ولا غرو أن يدعو إلى الاشتراك وهو الذي يوصي الإخوان بالتعاون والتعاقد ، ويقدم المودة والوفاء للصديق .

وإذا أوصى بالصديق لا يغفل عن العدو ، بل يحذرك منه ويرشدك إلى سياسته ، وينهك عن استصغار الأمور : « لأن من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً ، فإذا الصغير كبير . » ولا يرى في المشورة غضاظة ، ولوركان الرأي الصائب من شخص حقير .

ويتكلم على سياسة الملوك والولاة ، فيشير عليهم أن يتعهدوا عيالهم : « حتى لا يخفى عليهم إحسان محسن ، ولا إساءة مسيء . »

وله في المرأة ظن سيء لا تحمده النساء عليه ، فإنه يلح في النهي عن عشقهن ، والاطمئنان إليهن ، لأن مودتهن لا تدوم .

وهو على نصائحه الاجتماعية والأدبية لا يغفل عن المواعظ الدينية فيأمر بالتقوى ، والتعبد لله ومعرفة نعبه ، والشكر له لتزداد هذه النعم .

وجماع القول ان الأدب الصغير رسالة نفيسة في سياسة الاجتماع وتهذيب النفس ، ورياضتها على الأعمال الصالحة ، ومعرفة الخالق .

وأما انشاؤه فيختلف بعض الاختلاف عن انشاء كليله ودمنة ، لأن

صاحبنا اتخذ فيه الأسلوب المنطقي الصرف ، فظهر عليه بعض الجفاف ، وتحللت جمل اعتراضية فلم يخلُ من التعقيد . وازدحمت فيه المعاني الفلسفية الدقيقة ، فصعب التماسها ، لأنها أفرغت في قالب انشائي بحت ، كله تحذير وتحريض ، وأقيسة وأعداد وتقاسيم . فلم يتم لها الوضوح الذي تم لها في حكايات كليله ودمنة .

وفي الأدب الصغير أقوال واردة في كليله ودمنة بحروفها . ولكنها مندمجة هناك في القالب القصصي السهل ، وقائمة هنا بنفسها . ولا يخلو الأدب الصغير من ضرب المثل . ولكن أمثاله قصيرة لا تشبه أمثال كليله ودمنة التي ساقها مساق النوادر والأقاصيص .

الأدب الكبير

لا يتناول ابن المقفع موضوع كتابه إلا بعد أن يذكر الأسلاف ، ويعظم ما تركوا للخلف من علوم . ويريد بهؤلاء الأسلاف الأمم الأعجمية . وإليهم يشير بقوله : « ان الرجل منهم كان يفتح له الباب من العلم ، والكلمة من الصواب ، وهو بالبلد غير المأهول ، فيكتبه على الصخور مبادرة منه للأجل ، وكرامية لأن يسقطا ذلك على من بعده . » ثم يعترف انه أخذ لكتابه هذا من أقوال المتقدمين .

والأدب الكبير قسمان ، قسم يتكلم به على السلطان والمتصلين به ، وقسم يتكلم به على الصديق . ويستهل القسم الأول بقوله : « وأنا واعظك في أشياء من الأخلاق اللطيفة الخ . » ثم يأخذ في نصيح السلطان ، فيوصيه وصايا حسنة تتناول سياسته للعمال والرعية ، وما ينبغي له أن يتعلل به من الحصول الحميدة . فمن جملة نصائحه له أن لا يزيد من ساعات شهورته ودعته ،

١ يسقط عليه : يضيع عليه .

وينقص من ساعات عمله وتعبه . وان لا يُعرف بحب المدح . وأن يتحلى بثلاث خصال : رضى ربه ، ورضى سلطانه ان كان فوقه سلطان ، ورضى صالح من يلي عليه . وأن يتخذ بطانته من أهل الدين والمروءة . وان لا يأنف من المشورة لأنه يطلب الرأي للارتفاع به لا للافتخار به .

ويوصيه أن لا يعاجل بالثواب ولا بالعقاب فإن ذلك أدوم لحوف الخائف ورجاء الراجي . وان يصبر على أهل العقل والسنن والمروءة دون غيرهم . وينهاه عن الحسد والغضب والحلف .

ويوصيه بتفقد فاقة الاحرار ليسدها ، وطغيان السفلة ليقمعه . ويريد بذلك أن يكون الوالي يقظاً متنبهاً لجميع أحوال رعيته .

ثم ينتقل إلى الكلام على المتصلين بالسلطان فيعطيه نصائح تتعلق بسياستهم معه . وفيها أشياء كثيرة اعتمد عليها بعده القارابي وابن سينا في كلامهما على سياسة الرؤوس لرؤسائه . فمنها هرب الرؤوس من صحبة والي لا يريد صلاح رعيته لئلا يهلك في دينه إذا صحبه، وفي دنياه إذا صحب الرعية وأغضبه . ومنها مداراة الوالي والنظر إلى ما يحب وما يكره . ومنها تزيين رأي الولاية وقلة استقباح ما يصنعون . وغير ذلك من النصائح التي تختص بمصاحبة الملوك في زمن كان الملك فيه ظل الله على الأرض . فلا بدع أن تصطبغ هذه النصائح بألوان العبودية والخنوع . وان كان ابن المقفع قد أراد بها اظهار استبداد اولي الأمر ، والتنفير من مصاحبتهم . ونعتقد ان ابا جعفر المنصور لم يكن راضياً عنها لما فيها من ذم للسلطان . وأما القسم الثاني فقد خصه بالصديق ، وابن المقفع ، كما علمت ، عظيم المودة والوفاء للأصدقاء . ويستله بقوله : « ابذل لصديقك دمك ومالك » . ومن وصاياه في مخالقة الصديق ان لا ينتحل الانسان رأي صديقه لئلا يثير

سخطه عليه . وان لا يشارك محدثاً في حديث يعرفه فإن في ذلك خفة
وسوء أدب وسخفاً . وان يحسن الاستماع ويخفض الصوت عند الكلام ،
ولا يسفه أقوال جلسائه . وان لا يذمّن اسماً من الأسماء لعله موافق
هوى بعض خلطائه .

وابن المقفع في اثناء كلامه على الصديق ، ينهاك عن أشياء لا يصح
التخلق بها ، وبوصيك ان تحتوز من سكر السلطة ، وسكر العلم ، وسكر
المنزلة ، وسكر الشباب . وهو أبدأ شديد الوطأة على المرأة فما يتركه
التنغير من الولوع بها ، والتحذير من التهافت على الازدياد من النساء .
ويختتم كتابه بذكر الصفات الحسنة التي ينبغي للمرء أن يتحلى بها في
حياته ، وهي خلاصة مباحثه في الأدب الكبير .

وإنشاء الأدب الكبير خطابي محض ، كله أمر ونهي ، وقد خلا من
الأمثال ولم يغلب عليه الأسلوب المنطقي ، فقلّت قياساته ، فجاءت عبارته
أسهل من عبارة الأدب الصغير وأوضح .

منزلته

إذا شئت أن تفسر البلاغة كما فسرهما بعضهم بقوله انها كلام قلّت
ألفاظه وكترت معانيه ، فقد ظلمت ابن المقفع وأخرجته من طبقة البلغاء ،
لأنه كان يجنح إلى الاسهاب أكثر منه إلى الإيجاز .

على ان هذا التفسير فيه نقص بيّن ، إذ لا يصح أن تُحصر البلاغة في
الكلام الموجز المفيد . وللأسهاب إذا خلا من الحشو والتطويل ، نصيب
منها غير يسير . وأحسن من هذا التفسير قول ابن المقفع : « البلاغة هي
التي إذا سمعها الجاهل ظن انه يُحسن مثلها . » والجاهل لا يتفهم الكلام
إلا إذا كان سهلاً واضحاً . فإن فهمه طمعت نفسه في احتدائه ، غير عالم

ان البليغ السهل صعب الرياضة بعيد المثال . ذلك ان تتبّع الالفاظ الفصيحة المأنوسة ، واجتناب الالفاظ الغريبة يجعل نطاق اللغة ضيقاً ، ومادنها قليلة . ولأن يدخل الكاتب على البلاغة من طريقها الوعر ، أيسر له من أن يسلك إليها السهل المستنع . وابن المقفع سلّكه مطمئناً ، ثابت الاقدام ، فقال : « اياك والتبّع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العي الأكبر . »

وهو كغيره من المتقدمين لا يحفل بتسجيع الالفاظ وتزويقها ولا يقصد اليه البتة إلا ما جاء عفواً ، وقضت به الفصاحة في أثناء الكلام . ولم يؤثر أصله الفارسي في صحة طبعه ، مع ان الفرس أهل حضارة قديمة تميل بهم إلى الزخرف والتزيين . وسبب ذلك انه نشأ زمن بني امية نشأة عربية خالصة ، بعيدة من التصنع والتكلف ، نازعة إلى البداوة والفطرة . ثم ان الفرس لم يكن لهم في أيامه الأثر البليغ الذي صار لهم فيما بعد . فانطبع النشأة على بلاغة العرب وفطرتهم ، وخلص من تمويه الحضارة الجديدة وتزويقها ، فجاء متنوع العبارة ، يجري مع الطبع .

على أن بُعد الكاتب من العمل لا يعني انه لم يكن يتخير ألفاظه وينتقيها . فلقد كان كالصائغ الماهر كثوث جواهره ، فأحسن اختيار فرائدها . قال الراغب الاصبهاني : « كان ابن المقفع كثيراً ما يقف إذا كتب . فقليل له في ذلك فقال : ان الكلام يزدهم في صدري فأقف لتخيره . »

وامتاز في حلاوة ألفاظه ورصانتها ، وطول نفسه ، وبعده من الغلو . وفي اتساق أفكاره وحسن تساوقها ، واستيفاء القياس وقوة المنطق ،

والغوص على المعنى الفلسفي الدقيق . قال فيه أبو العيناء : « كلامه صريح ،
ولسانه فصيح ، وطبعه صحيح . كأن بيانه لؤلؤ منشور ، وروض ممتور . »
والأقوال فيه كثيرة ، وكلها تدل على منزلته الرفيعة في دولة النثر ،
وتظهر ما كان لاسلوبه من الاثر الكبير في عصره بما جعل بلغاء الكتاب
يضربون على غراره . وحسبك منهم سهل بن هارون .

وابن المقفع عجمي التفكير في جميع مؤلفاته ، ليس له من العرب الا
اللغة وروح الاسلام ، وقلما استشهد بأشعارهم وأقوالهم . ولكن فضله
على العربية عظيم ، فإنه أول من أدخل اليها الحكمة الفارسية الهندية ،
ومنطق اليونان ، والطريقة الفيشاغورية ، وعلم الاخلاق ، وسياسة الاجتماع .
فذلكل أوضاعها لمباحث عقلية لا عهد لها بها ، ووطئاً السبيل للفارابي وابن
سينا من بعده .

وهو أول كاتب عمد إلى الترجمة والتأليف ووصل اليها بعض آثاره ،
وكان من حظه الخلود . وأول عالم مفكر تناول الموضوعات العقلية بإنشاء
رفع به لغة الادباء ، وبزّ به لغة العلماء ، تلك التي غلب عليها الغموض
وركاكة التعبير . فحسب دراسة الحكمة بجمال اسلوبه ووضوحه ، ولا سيما
اسلوب كليله ودمنة الذي افرغ فيه الجد في قالب الهزل ، فأرضى به
الخاصة والعامة معاً . وكان أول كاتب عربي جعل الكلام على ألسنة
الحيوان ، وجعل تأديب الملوك بالحكايات والاشارات والامثال .

علوم اللغة

الصرف والنحو . البصرة والكوفة . البصريون . سيبويه .
الكوفيون . الكسائي . مناظرات الكوفيين والبصريين .
اللغة . الخليل : آثاره . منزلته .

الصرف والنحو

ذكرنا في الكتاب الأول أن اللحن أخذ يفشو في صدر الإسلام بسبب اختلاط العرب بالأعاجم، وإن أبا الأسود الدؤليّ أول من اشتغل بالنحو ونُسب إليه وضع بعض أبوابه. فلما استشرى الفساد في اللغة أيام الدولة العباسية نشط العلماء إلى وضع قواعد الصرف والنحو، وكانوا يومئذ علماء واحداً غير منقسم. ويرجع الفضل في ضبط الأصول واستقرارها إلى البصرة ثم إلى الكوفة .

البصرة والكوفة

البصرة والكوفة مدينتان بالعراق مُصَّرتا في خلافة عمر بن الخطاب ، فأهلتا بطوائف العرب والموالي . وحفلتا بالشعراء والعلماء . فكان بينهما تنافس في الشعر والرواية ، والنحو واللغة والفقه والحديث وعلم الكلام .

البصريون

وسبق البصريون أهل الكوفة إلى الاشتغال بالنحو ولغات العرب^١ ، فإن

١ تنبيه : كان علماء اللغة المتقدمون يحيطون علماً بأدب اللغة كلها ، فهم رواة يحفظون الاشعار والايخبار والانساب، وهم نحويون يحسنون القياس والتعليل، وهم لغويون بارعون في الغريب ومذاهب الكلام . ولكن تغلب على اقدمهم خاصة اكثر من اخرى فيشتهر بها .

أبا الأسود الدؤلي بصري ، وأخذ عنه من علماء البصرة يحيى بن يعمر ،
وميمون الأقرن ، وعنبسة الفيل ، ونصر بن عاصم الليثي وغيرهم .
ثم كان من بعدهم عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ، وهو على رواية ابن
سلام أول من مد القياس والعلل . وكان معه أبو عمرو بن العلاء . فشر
ابن أبي اسحق بالنحو وتجريد القياس ، وشر أبو عمرو بمعرفة لغات العرب .
وأخذ يونس بن حبيب ، والحليل بن أحمد عن أبي عمرو بن العلاء . وأخذ
عيسى بن عمر الثقفي عن ابن أبي اسحق . وعيسى هذا أول من ألف في
النحو ، فقد ذكر له الحليل كتابي الجامع والإكمال ولكنها فقدت . ثم
كان سيبويه .

سبويه ٧٩٦ م و ١٨٠ هـ

هو أبو بشر عمرو بن عثمان ، مولى بني الحرث بن كعب ، ولقب
بسبويه لجمال وجهه ، ومعناها بالفارسية رائحة التفاح . وكانت ولادته
بفارس ونشأته بالبصرة . وأخذ النحو عن الحليل ويونس وعيسى بن عمر .
وأخذ اللغة عن الأخفش الأكبر ، فأصبح شيخ البصريين غير مدافع .
وزعموا أنه قدم بغداد وافداً على البرامكة ، ف وقعت بينه وبين الكسائي
مناظرة خُذِلَ فيها سبويه ، فخرج من بغداد حزيناً ، وقصد إلى بلاد
فارس ، وتوفي بالبيضاء من قرى شيراز .

وترك من آثاره الكتاب في النحو ، وهو مجلدان كبيران يحتويان على
عشرين فصلاً وثلاثمائة . وقد شرحه أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان
السيرافي ، وله طبعات كثيرة ، ونقل إلى الألمانية .
وكان أثره بليغاً في أيامه حتى انهم اطلقوا عليه اسم الكتاب إجلالاً
لقدره . فإذا قيل بالبصرة : « قرأ فلان الكتاب » ، علموا انه كتاب

سيبويه . وكان المبرود شديد الإعجاب به ، فإذا أراد مريد أن يقرأه عليه يقول له : « هل ركبت البحر ؟ » تعظيماً للكتاب واستصعاباً لما فيه . ومن هذا البحر الفياض اغترف جميع النحاة من متقدمين ومتأخرين ، فكان له الفضل العميم .

الكوفيون

واقتفر الكوفيون معالم أهل البصرة ، وأخذوا عنهم النحو ، وانصرفوا إلى تدارسه والنظر فيه . فبرع منهم مُعَاذُ الهَرَاءِ^١ وهو أقدم نخاتهم وأول من وضع الصرف . وبرع أيضاً ابن أخيه أبو جعفر الرُّوَاسِي ، وهو أول كوفي ألّف في النحو واسم كتابه الفِصْل وقد ضاع . ثم كان الكسائي .

الكسائي ٨٠٤ م و ١٨٩ هـ

هو علي بن حمزة مولى بني أسد وأصله من فارس . ولقب بالكسائي لأنه دخل الكوفة أو أحرم وهو ملتف بكساء ، فنسب إليه . وأخذ النحو عن مُعَاذِ الهَرَاءِ وأبي جعفر الرُّوَاسِي . ثم خرج إلى البصرة ولقي الحليل وأخذ عنه . ثم طاف بالبادية ، وأطلع على لغات العرب ومذاهبهم ، فلما رجع إلى الكوفة استقدمه المهدي إلى بغداد ، وجعله في حاشية ابنه الرشيد . وجعله الرشيد مؤدب ولده الأمين ، فارتفع مقامه وظل وجيهاً مكرماً حتى مات . ودفن بالري^٢ . وهو شيخ الكوفيين وأحد القراء السبعة ، وله كتب كثيرة لم يبق منها سوى رسالة فيما تلحن فيه العوام ، وهي رسالة

١ توفي سنة ١٨٧ هـ (٨٠٢ م) ولقب بالهراء لأنه كان يبيع الثياب الهروية نسبة إلى هراء بلدة بخراسان .

٢ الري : كانت من حواضر فارس ، وبالقرب من أطلالها أنشئت مدينة طهران .

في اللغة . وكان على بصره باللغة والنحو قليل البضاعة في الشعر حتى قيل :
« ليس في علماء العربية أجهل من الكسائي بالشعر . »

مناظرات البصريين والكوفيين

أخذ الكوفيون النحو عن البصريين ، ولكنهم لم يلبثوا ان خالفوه فيه ، وجعلوا لأنفسهم مذهباً غير مذهب أهل البصرة . فاشتد التنافس بين المذهبين ، وكثرت مناظرات أصحابها . وتعصب كل فريق لمذهبه فتشعبت الآراء ، وسادت التمثلات والتعليقات حتى كادوا لا يتفقون على وجه من الوجوه . فإذا قال البصريون : « الفعل مشتق من المصدر . » قال الكوفيون : « المصدر مشتق من الفعل . » وإذا جوّز البصريون تقديم الخبر على المبتدأ ، رفض الكوفيون تجويزه ، لأنه يؤدي إلى تقديم ضمير الاسم على ظاهره نحو : قائم زيد . ففي قائم ضمير زيد ، ورتبة ضمير الاسم بعد ظاهره إلى غير ذلك من المناقضات الكثيرة التي أورثت المتأخرين طوائف من الآراء لا يعدم معها من يلحن وجهاً للصحة يرده إليه كلامه . وجعلت دراسة النحو صعبة المئال لا يضطلع بها إلا كل ذي رغبة وجلّد . زد على ذلك ما أدخل على الشعر من أبيات منحولة اصطنعها العلماء ، وجعلوا منها شواهد على مذاهبهم ، وحججاً لمناظراتهم .

وكان الكوفيون شديدي التعصب للأعراب ، يريدون العصمة فيهم . فإذا سمعوا قولاً من أقوالهم فيه تجوّز يخالف القواعد المقررة ، جعلوه قاعدة غير معتدّين بالشذوذ .

وأما البصريون ، فقد كانوا أصح استنباطاً من أهل الكوفة ، وأكثر اعتدالاً ، وأحفل بالمنطق والقياس . غير أن الكوفيين ظهروا عليهم ، لأنهم

كانوا متصلين بالعباسيين ، وقرَّبهم الخلفاء اكثر نحوِي البصرة فجعلوهم مؤدِّي أولادهم ، فنبه ذكرهم ، ورجعت كفتهم ، وشهر منهم جماعة في بغداد كالفرَّاء ، وابن الاعرابي ، وابن السكيت وغيرهم . وقد يكون لفوز الكسائي على سيبويه أثر في ظهور حجة الكوفة ، وإقبال طلاب العلم عليها ، لان انتصار شيخها على شيخ البصرة عُدَّ انتصاراً لمذهبها في ذلك الحين . غير ان المذهب البصري ما لبث ان تمت له الغلبة ، ورجعت كفته على كفة المذهب الكوفي بعد ما زالت تأثيرات الامراء ، واصبحت السيادة في العصر العباسي لأهل المنطق وعلماء الكلام .

اللغة

ولم يكن حرص العلماء على ضبط القواعد بأشد من حرصهم على ضبط ألفاظ اللغة ، وجمع شتاتها ، والتمييز بين لهجاتها . فكانوا يطوفون بالبادية يأخذون الكلام عن أهلها . وكان الاعراب يأتون أمصار العراق فيسبع العلماء منهم ، ويدونون ما يحفظونه عنهم ، فألفوا في بدء الامر رسائل صغيرة في موضوعات خاصة كأسماء الوحوش والابل ، وخلق الانسان ، والدارات ، والنخل والكرم للاصمعي ، وأسماء البئر وصفاتها والحيل وأنسابها لابن الاعرابي ، وغريب القرآن لمؤرِّج السدومي ، والمثلثات لقُطْرُب . فكانت هذه الرسائل نواة المعاجم اللغوية . على ان هناك كتاباً في اللغة ظهر قبل هذه الرسائل كلها مرتباً على مخارج الحروف ، ومباحث عامة لا خاصة ، وهو كتاب العين للخليل .

الخليل

٧١٨ - ٧٨٦ م ١٠٠ - ١٧٠ هـ ؟

حياته

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي^١ الأزدي. ولد في البصرة وبها نشأ، وتخرج على أئمة زمانه. ذكر منهم ولدا أبي الاسود الدؤلي عطاء وأبو الحرث، ويحيى بن يعمر، وميمون الأقرن، وعنبسة الفيل. وتبدى غير مرة وخالط الاعراب وسمع منهم، وأخذ شيئاً كثيراً عنهم. فنبغ في اللغة والنحو. وكان له براعة في تصحيح القياس، واستخراج المسائل النحوية وتعليلها. وعنه أخذ سيبويه واستمد له كتابه الشهير في النحو. وتخرج عليه كثير غير سيبويه منهم مؤرّج السدوسي، والنضر ابن شميل، والاصمعي.

وكان له معرفة بالنغم والحساب. وذكر بعضهم انه ألمّ باليونانية إلماماً تاماً. ولعله أخذها عن تلميذه حنين بن إسحق العبادي، فإن حنيناً كان يحكم اللسان اليوناني، وقد لزم الخليل مدة حتى برع في لغة العرب، فغير عجيب أن يتعلم الخليل منه اليونانية، وهو الذي عُرف بحب العلم ونادر الذكاء. وظلّ في البصرة يشغل بالتأليف والتعليم حتى مات. وكان زاهداً متعففاً، حليماً وقوراً.

١ الفراهيدي : نسبة إلى الفراهيد وهي بطن من الأزد، ويقال له أيضاً الفرهودي، نسبة إلى الفرهود واحد الفراهيد.

آثاره

وله من الآثار شيء كثير منها في اللغة ، ومنها في الأنعام ، وأشهرها كتاب العين في اللغة والنحو ، دون فيه ما جمعه من الألفاظ والقواعد ، ورتبه على حروف الهجاء ، وقدم الحلقية منها لأنها أبعدا مخرجا . وابتدأ بالعين لأنه أعمق حروف الحلق وهي : ع ح ه خ غ . وجعل بعدها حرفي الهاء وهما : ق ك . ثم الشجرية وهي : ج . ش . ض . ثم النطقية وهي : ط . د . ثاء . ثم اللثوية وهي : ظ . ذال . ثاء . ثم الذوقية وهي : ر . ل . ن . ثم الشفوية وهي : ف . ب . م . ثم حروف العلة وهي : ي . و . ا . وأطلق عليه اسم العين من باب تسمية الكل باسم الجزء . وتسمية الكتاب باسم الباب الأول منه عادة شاعت عند كثير من الأمم . وقد رأينا أبا تمام يفعل مثل ذلك في مختاراته ، فيسميها باسم الباب الأول منها وهو باب الحماسة . وقيل ان الخليل جرى في ترتيب كتاب العين مجرى وضاع المعاجم السنسكريتية ، فإن الهنود يبدأون بأحرف الحلق ، وينتهون بالأحرف الشفوية .

ويقول صاحب وفيات الأعيان : « إن أكثر العلماء العارفين باللغة يقولون إن كتاب العين ليس من تصنيف الخليل . وإنما كان قد شرع فيه ، ورتب أوائله ، وسماه بالعين . ثم توفي فأكملاه تلامذته النضر بن شميل ، ومن في طبقته كمؤرج السدوسي ، ونصر بن علي الجهنصسي وغيرهما . فما جاء عملهم مناسباً لما وضعه الخليل في الأول ، فلهذا وقع فيه خلل كثير يبعد وقوع الخليل في مثله . »

والخلل الذي يشير إليه ابن خلكان ناتج في أكثره عما ورد في كتاب

الشجرية : نسبة إلى الشجر وهو مفرج الفم .

العين من شواهد النحو على المذهب الكوفي مع ان الحليل بصري . فقد ناقض فيه نفسه ، وخالف ما جاء في كتاب سيبويه بما رواه سيبويه عنه . ولا يدفع ذلك قولهم ان الخلاف بين البصرة والكوفة لم يقم إلا بعد الحليل ، لأن الكلام ليس على ذاك الخلاف وإنما هو التناقض في آراء الحليل ، وهذا ما نجله عنه كما نجل سيبويه عن الكذب في روايته عن أستاذه . ولذلك نرجح ما رواه ابن خلكان من أن الحليل مات قبل أن يتم كتابه ، فعانت فيه أيدي تلاميذه ، ومنهم كوفيون ، فأفسدوا فيه ، وأوقعوا كثيراً من الخلل . فشك في بعض العلماء وانتقدوه ، منهم الأزهرى صاحب التهذيب ، وابن سلكة الكوفي ، والسيوطي في كتابه المزهري . وظل كتاب العين معروفاً حتى القرن الرابع عشر للميلاد ثم ضاع . ولم يصل إلينا منه سوى ما أخذه سيبويه لكتابه ، والسيوطي لمزهره . ويقول صاحب الفهرست انه كان في ثمانية وأربعين جزءاً . وقد اختصره أبو بكر الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) فحفل الناس به ، وفضلوه على الأصل لأن الزبيدي حذف منه الشواهد المختلفة ، والحروف المصحفة ، والأبنية المختلة . ومنه نسخ خطية في مكاتب برلين والاسكوريال ومدرید والاستانة .

ومن آثاره الخالدة علم العروض ، فهو الذي استنبطه وابتدعه ، وحصر أقسامه في خمس دوائر يُستخرج منها خمسة عشر مجزاً . وزاد فيه الأخفش الأوسط بحر الحُب ، ويسمى المتدارك لأنه تداركه . وحاول بعضهم أن يزيدوا بحرين آخرين وهما المستطيل ووزنه : مفاعيلن فعولن ، مفاعيلن فعولن مرتين . والممتد ووزنه : فاعلن فاعلاتن ، فاعلن فاعلاتن مرتين . ولكنهما لم يُرزقا الحياة بل وقفت البحور عند الستة عشر ، وحافظ الشعراء

على أجزائها حتى في الموشحات .

ويرى جماعة أن معرفة الخليل بالأنغام نبهته على وضع العروض ، لأن الموسيقى والشعر متقاربان في المأخذ . ويستدلون على ذلك من رواية حمزة ابن الحسن الأصهباني ذكرها ابن خلكان ، وهي ان الخليل فطن لوضع العروض من سماعه وقع مطارق الصفارين^١ على الطسوت بانتظام .

ويرى البستاني صاحب دائرة المعارف ان إلمام الخليل باللغة اليونانية نبهه إلى ذلك لأن علم العروض قديم عند اليونان ، ولأرسطو فيه كتاب جليل . وهذا ما نرجحه نحن . ولا غضاضة فيه على الخليل ، فانما له أبدأ فضل الواضع المبتكر .

منزله

أعظم خاصة يمتاز بها الخليل هي أنه كان ذا عقل مفكّر مولّد . وهذه الخاصة النادرة اشتقت له طريق الابتكار . فكان أول من ضبط البحور ، ووضع أوزانها . وأول من جمع ألفاظ اللغة في كتاب ، ومهّد السبيل لتصنيف المعاجم ، فأخذ عنه من جاء بعده . وله فضل المتقدم في الدراسة الصوتية لمخارج الحروف ، وفي ضبط أصول الغناء وفروعه وأنغامه وآلاته^٢ . وكان سبب موته أنه دخل المسجد وهو يعمل فكره في اختراع نوع من الحساب تمضي به الجارية إلى البيّاع فلا يمكنه ظلمها ، فصدمة سارية^٣ وهو غافل عنها ، فانقلب على ظهره وارتيح دماغه ، واعتل حتى

١ الصفارين : الذين يصنعون الصفر وهو النحاس الأصفر .

٢ قيل ان يونس بن سليمان الفارسي المستعرب أخذ الغناء عن معبد وألف فيه كتاباً وضاع .

وجاء بعده الخليل فألف في الأنغام والآلات .

٣ سارية : عمود .

مات . وروي أنه اخترع للشطرنج جملين في طرفي الرقعة فاستعمل
مدة ثم ترك .

فحسبك من هذه الأشياء وغيرها شواهد تنطق بفضل الخليل، ورُجَّحان
عقله، وقوة استنباطه . وقد شهد له ابن المقفع في ذلك فقال : « عقله أكثر
من علمه . » وقال فيه ابن سلام : « سمعت أسيافنا يقولون : لم يكن
للعرب بعد الصعابة أذكى من الخليل ولا أجمع . »

•

العلوم الدخيلة

الترجمة . طريقة النقل . مصادر النقل . المترجمون والعلوم المنقولة . العلوم الطبيعية . العلوم الرياضية . العلوم الفلسفية . العلوم التي لم تنقل .

الترجمة

ما انتظمت الممالك الاسلامية وامتدت أطرافها ، وتم اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم ، حتى أدرك العرب أن عند الأعاجم علماً غير العلم الذي يعرفون . وانهم لا قبيل لهم بمنافسة الامم المتحضرة التي غلبوها على أمرها ، إلا إذا أخذوا علومها ، وجاروها في المدنية والعرفان . وذلك ما يقضي به الناموس الطبيعي على كل شعب بدوي يفتح بلاداً غريبة في الحضارة .

ورأوا أن لا سبيل إلى إدراك بغيتهم إلا بنقل العلوم الدخيلة إلى العربية ، لان مدارسها باللسان الاعجمي تفضي إلى انحطاط لغة الضاد ، وإعطاء السيادة للغة الأعاجم . وما كانوا ليرضوا بذلك وهم جدّ حراس على لغة قرآتهم وشعرهم وآدابهم ، فعمدوا إلى الترجمة ، وكان بدؤها في العصر الاموي ، غير انه لم يتعظم خطرها إلا في بني العباس لما استخلف ابو جعفر المنصور ، فإنه أمر بنقل طائفة من كتب الطب والهيئة والهندسة . ولكن حركة النقل فترت في عهد المهدي والهادي ، ولم تستأنف سيرها إلا زمن الرشيد فمشت متباطئة حتى كان العصر الذهبي في خلافة المأمون ، فسطعت مشاعل العلوم في ارجاء المملكة العربية ، وأنشأ هذا الخليفة المحب للعلم يرامل ملوك الروم في طلب الكتب وربما جعل اخراجها إليه من شروط

الصلح . فكان الملوك يلبون طلبه راضين او مكروهين . وأرسل بعثة من العلماء إلى البلاد الرومية ، فعادوا بطائفة من المصنفات في مختلف العلوم . ونظّم دواوين الترجمة ، واستحضر لها مشاهير النقلة ، وأفاض عليهم المال الوفير ، وأعطاهم حرية الفكر والقلم . فأكبوا على العمل المتواصل لا يلبسهم نصب ولا سأم ، فأخرجوا من نفائس الاسفار ما غصّ به بيت الحكمة^١ . وأخذ المأمون يحرض الناس على قراءتها وتعليمها ، وحجب إليهم الفلسفة بعد ان احجم آباؤه عنها . وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمنظراتهم ، ويلتذ بمذاكراتهم .

طريقة النقل

سار المترجمون على طريقتين مختلفين في النقل ، ذكرهما صاحب الكشكول عن الصلاح الصفدي . وهذان الطريقتان هما المعول عليها إلى يومنا هذا . ودونك ما جاء في الكشكول : « وللترجمة في النقل طريقتان أحدهما طريق يوحنا بن البطريرق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما . وهو ان يُنظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى . فيأتي الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل إلى الاخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة رديئة لوجهين احدهما انه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية ولهذا وقع في خلال التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حالها . والثاني ان خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائماً ، وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال

١ بيت الحكمة : دار الكتب والترجمة في عهد المأمون .

المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات .

» الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن اسحق والجوهري وغيرهما . وهو أن يأتي بالجملة فيحصل معناها في ذهنه ، ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها ، سواء ساوت الألفاظ أم خالفتها . وهذا الطريق أجود ولهذا لم تحتاج كتب حنين بن اسحق إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن قبيهاً . بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والالهى فإن الذي عرّبه منها لم يحتاج إلى اصلاح . هـ .

مصادر النقل

للكتب المنقولة إلى العربية عدة مراجع أقواها أربعة : اليوناني والسرياني والفارسي والهندي . فاما اليوناني فأعظمها شأنًا وعنه أخذت أكثر العلوم لإعراقه في القدم ، ثم لانتشاره في سوريا ومصر . فكانت مدرسة الاسكندرية تعلم الطب والفلسفة وسائر العلوم اليونانية ، ومثلها مدارس السريان والنساطرة في سوريا ، وأشهرها الرها وقنسرين ونصيبين ، فالمرجع السرياني ، كما يتبين ، يوناني في أصله . وهكذا يصح القول في المرجع الفارسي ، لأن علوم الفرس لم تظهر إلا زمن سابور بن أردشير (٢٤١ - ٢٧٢ م) ، فقد ذكر عنه أبو الفداء انه بعث إلى بلاد اليونان واستجلب كتب الفلسفة ، وأمر بنقلها إلى الفارسية ، واختزنها في مدينته وأخذ الناس في نسخها وتدارسها . ولما اضطهد يوستينانوس (٥٢٧ - ٥٦٥ م) قيصر الروم الفلاسفة الوثنيين ، وأقل هياكلهم ومدارسهم ، هاجر بعضهم فراراً من الضيم ، ووفد سبعة منهم إلى كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) فرحب بهم ، وأنزلهم مكرمين بين ظهرانيه ، فنقلوا إلى الفارسية الفلسفة والمنطق والطب ، وألفوا فيها .

والتحق بهم مهاجرون من النساطرة أمضهم الاضطهاد فلبجأوا إلى فارس وأسسوا في جنديسابور مجتمعاً علمياً راقياً . ثم أنشأ كسرى في جنديسابور مدرسة ومستشفى يعرف بالبيارستان ، فكانت علوم اليونان تُدرّس باللغة السريانية . ثم اختلطت الثقافة الهندية بالثقافة اليونانية الفارسية لما نقل كسرى بعض علوم الهند وآدابهم . وكان لمدرسة جنديسابور فضل كبير لأنها أخرجت أطباء وفلاسفة للفرس والعراق وسوريا ، منهم الحارث بن كلدة الثقفي . ومنهم أبناء بختيشوع أطباء الخلفاء العباسيين . وأما المرجع الهندي فقد تلقى العرب بعضه مع المرجع الفارسي ، وأخذوا بعضه الآخر من علماء الهند الذين استقدمهم خلفاء بني العباس .

الترجمون والعلوم المنقولة

كان النقلة من أهل سوريا والعراق وفارس ومعظمهم من السريان النساطرة لبراعتهم في اليونانية ، وأشهرهم أبناء بختيشوع ، وحُنين بن اسحق شيخ المترجمين ، وولده اسحق ، ويوحنا بن ماسويه ، والحجاج بن مطر ، ويوحنا بن البطريق وغيرهم ، نقلوا من اليوناني الفلسفة والسياسة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم . واشتهر من نقلة الفرس عبد الله بن المقفع وآل نوبخت وغيرهم ، ونقلوا من الفارسي السّير والادب والسياسة والحكم والتاريخ والنجوم . واشتهر من نقلة الهنود منسكه الهندي وابن دهن وسواهما ، نقلوا من الهندي الطب والعقاقير والنجوم والموسيقى والحساب والأرقام . فالكتب التي نُقلت في هذا العصر تشتمل في مجموعها على الطبيعيات والرياضيات والفلسفة .

العلوم الطبيعية

ومنها الكيمياء ، وكانت يومئذ شعوزة يبعث فيها أصحابها عن الحجر الفلسفي الذي يحول كل معدنٍ ذهباً .
ومنها الطب وكان ساذجاً محصوراً ببعض صفات حتى تُرجت كتب ابقرات وجالينوس ، فاعتمد الطب العربي عليهما ، يرفده الطب الهندي من فاحيته . ونبع أطباء كثيرون أشهرهم من النصارى النساطرة كأبناء بجثيشوع ، ويوحنا بن ماسويه ، وحسين بن اسحق . وكان للأطباء عموماً ولهُؤلاء خصوصاً منزلة عالية عند الخلفاء وأصحاب الأمور ، فقرَّبوهم على نصرانيتهم ، وأكرموا جانبهم ، وخصَّوهم بوافر النعم ، ليطنَّوهم إلى اخلاصهم في مداواة أمراضهم ، وتخفيف أوجاعهم .

العلوم الرياضية

ومنها الجبر والحساب ، فإن العرب أخذوا الأرقام عن الهنود ، ودعوها بالأرقام الهندية . أخذها أبو عبيد الله محمد بن موسى الخوارزمي ، وكان في أيام المأمون ، وهو الذي ألَّف كتاب الجبر والمقابلة . ويكاد هذا العلم يكون من وضعه ، لأنَّ الهنات التي استمدَّها من الهند والفرس واليونان لا تفي بالمراد ، ولكنه استخرج منها علم الجبر الحقيقي .
ومنها الهندسة ، فقد ترجم الحجاج بن مطر أصول اقليدس على عهد الرشيد ثم اشتهر أبناء شاكر واستخرجوا مسائل لم يصل إليها متقدموهم ، كقسمة الزاوية إلى ثلاثة أقسام .
ومنها الفلك ، ترجمت له كتب اليونان والفرس والهند والكلدان . ونقل الحجاج بن مطر كتاب المجسطي لبطليموس . وكان العرب كاليونان

معتقدون ان الأرض محور الكون ، ولكنهم اعتقدوا باستدارتها . واشتهر منهم أبو معشر البلكخي وأبناء شاكر ، وهؤلاء بنوا مرصداً على جسر بغداد . ومنها التنجيم ، تفرع من علم الفلك ، وقوامه ادعاء معرفة الغيب بالدلالات النجومية ، ومقتضى أوضاعها في الفلك ، وآثارها في العناصر . وهو قديم عند العرب ، يرجع إلى عهد جاهليتهم . ولكنه أصبح في العصر العباسي علماً متدارساً ، فتمت له السيادة ، ووقف الناس أعمالهم عليه . وأصبح الخلفاء إذا أرادوا حرباً شاوروا المتجيمين قبل مباشرتها ، حتى الأطباء أناطوا إعطاء العلاجات بحركات الكواكب . قال ابن أبي أصيبعة : « ان بجنتيشوع بن جبريل كان يأمر بالحقق والقمر متصل بالذنب^١ فيحل^٢ القولنج^٣ من ساعته . ويأمر بشرب الدواء والقمر على مناظرة الزهرة فيصح العليل من يومه . »

ومنها الموسيقى ، أخذوها عن اليونان والفرس والهنود لانها من لزوميات الغناء ، والغناء قديم عند العرب . وكان على ثلاثة أوجه : النصب والسناد والهزج . فأما النصب فغناء الركبان والفتيان ، وهو الحداء الرقيق ويقال له المراثي . وأما السناد فالثقل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات . وأما الهزج فالخفيف الذي يُرقص عليه ويمشى بالدُفّ والمزمار فيضطرب . قال اسحق الموصلي : « هذا كان غناء العرب حتى جاء الله بالاسلام ، وفتحت العراق ، وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم فغنوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية . وغنوا جميعاً بالعيدان والطناوير

١ نقطة الذنب أبعد نقطة من فلك إلى الشمس .

٢ يحل هنا بمعنى يذهب ، وتأني حل بمعنى عدا .

٣ القولنج : مرض في المعدة مؤلم .

والمعازف والمزامير . » ولما تُرجمت الكتب اليونانية ، أخذوا يبحثون في الموسيقى بحثاً علمياً ، فارتقى فيها ونبع جمهرة من المغنين المتفنين كابن جامع ومخارق وإبراهيم بن المهدي ، وإبراهيم الموصلي وابنه إسحق وتلميذهما زرياب . وقد جمع الاصبهاني أخبارهم وأخبار من تقدمهم في أغانيه .

العلوم الفلسفية

أخذ المسلمون الفلسفة عن اليونان ، واعتمدوا خصوصاً فلسفة أرسطو وأفلاطون ، وأضافوا إليها ما يتناول عقائدهم الدينية . وأكثر الذين تعاطوها كانوا من الأطباء لان الطب كان يومئذ يلازم الحكمة ، ولهذا لقب الطبيب بالحكيم . ويعود فضل النهضة الفلسفية على الأطباء النصارى كحنين بن إسحق مترجم جمهورية افلاطون ومنطق أرسطو ، ويوحنا بن البطريق مترجم سياسة ارسطو ، ويوحنا بن ماسويه الذي نقل كتباً عديدة في الفلسفة .

العلوم التي لم تنقل

ونرى بما تقدم أن العرب نقلوا جميع العلوم اليونانية إلا التاريخ والأدب . مع أنهم نقلوا من الفارسية تواريخ الفرس وأخبار ملوكهم ، ونقلوا في الأدب كليله ودمنة وغيرها . وسبب ذلك أنهم لما أصبحوا دولة منظمة تذهب كل مذهب في الرقي والحضارة ، شعروا بحاجتهم إلى ما ينقصهم من العلوم . فدعاهم نظام المملكة ، وعمران البلاد ، وترف العيش إلى نقل الحساب والهندسة والطب والنجوم ، والجغرافيا والموسيقى . ووجدوا في عصر شاعت به البدع والمذاهب ، وكثر التمهيص في الأديان ، فاضطروا إلى نقل الفلسفة والمنطق للدفاع عن عقائدهم ، والرد على أقوال خصومهم .

١ نقلت الجغرافيا في العصر العباسي الثاني .

وأما التاريخ فقد كان يهمهم أن يعلموا أحوال جيرانهم من أهل الممالك القديمة ، فكانوا يسعون أخبارهم من القصّاصين . ولكن الحاجة لم تمسّهم إلى العناية بنقل تواريخ الأعاجم ، لأنهم كانوا وقتئذٍ منصرفين إلى تحقيق أنسابهم ، وتدوين السيرة النبوية ، وأخبار فتوحهم . ولم يكن بين المترجمين من اللغة اليونانية اروام فيندفعوا بمعامل العصبية إلى نقل تاريخ امتهم وإظهار مناقبها ليفاخروا العرب بها ، كما اندفع إلى ذلك المترجمون من اللغة الفارسية وهم من أبناء الفرس الإقحاح .

وأما الأدب فإن العرب لم يعبأوا بنقله عن الأعاجم لإعجابهم بشعرائهم وخطبائهم ، ولا اعتقادهم أن لا أدب فوق أدبهم . وكانوا في هذا العصر منصرفين إلى جمع شعرهم ، وأخبار شعرائهم يتلقونها على أفواه الرواة . أضف إلى ذلك أن نقلة اليونانية لم يكونوا يحسنون العربية ليصطنعوا بها لغة الشعر والأدب ، بخلاف نقلة الفرس فإنهم كانوا يحسنون لسان العرب كأبنائهم ، وفيهم من بذل أبناءه ببراعة الإنشاء . ثم إن مدارس سوريا والعراق ومصر كانت همتها في تدريس العلوم اليونانية من فلسفة وطب ورياضيات وطبيعات ، ولم تكن بالأدب والتاريخ اليوناني ، لأنهما لم يهاجرا إلى البلاد التي تلمذ لها العرب كما هاجر الطب والفلسفة والهندسة . لذلك لا تجد بين مترجمي السريان والنساطرة إلا كل فيلسوف وطبيب ورياضي ، ولا تجد بينهم شاعراً أو كاتباً أو مؤرخاً .

ورغب العرب عن اقتباس فنون التشريح والتصوير ونحت التماثيل لاعتقادهم أن الإسلام يحرمها . ولكنهم برعوا في البناء والحفر ، وشادوا الأبنية الجميلة على الطراز العربي المأخوذ من الطراز البيزنطي بما فيه من زخرف ونقوش . وكان أشهر البنّائين من السوريين .

العلوم الدينية

التفسير . الحديث . الفقه . أبو حنيفة . مالك .
الشافعي . ابن حنبل . البدع . علم الكلام .

التفسير

شرع المسلمون منذ بداءة عهدهم بالدين يعنون بدراسة القرآن ، وتفهم معانيه ، واستنباط الاحكام منه . فنشأ عن ذلك علم التفسير ، وعُرف من المفسرين المتقدمين عبد الله بن عباس^١ ، وابن سيرين ، والحسن البصري وغيرهم . على أن هذا العلم لم يتم جمعه وتدوينه إلا في الدولة العباسية . وشهر من المفسرين في هذا العصر سُفيان بن عُيينة ، ووَكيع بن الجراح ، واسحق ابن راهويته ، والفرّاء وغيرهم .

الحديث

هو علم تُعرف به أقوال النبي وأفعاله ، وليس منه وحى القرآن . ويكون اما حديث رواية يُبحث فيه عن الأسانيد المتصلة أو المنفصلة حتى يُبلغ بها إلى الرسول . واما حديث دراية يُبحث فيه عن المعنى المفهوم من ألفاظه ، وعن المراد منها مبنياً على قواعد العربية ، وضوابط الشريعة ، ومطابقاً لأحوال النبي . وللحديث أصول وأحكام وقواعد واصطلاحات ، ذكرها العلماء ، وشرحها المحدثون والفقهاء ، منها العلم بصفات الرواة وأخلاقهم ، وأنسابهم وأعمارهم ووقت وفاتهم ، إلى غير ذلك مما يصح أن

١ هو ابن عم النبي وإلى والده ينتسب العباسيون .

يُتخذ مستنداً لقبول روايتهم، والاطمئنان إلى صحة الاحاديث المنقولة عنهم. وقد احتاج المسلمون إلى جمع الحديث ليستعينوا به على تفهم القرآن، وتأويل ما بين أيديهم من آيات يتعذر عليهم إدراك معانيها. وليستندوا إليه في الاحكام والفتاوى التي ليس لها نص صريح في كتابهم. فذلك كان المحدثون والفقهاء يعانون الرحلات الشاقة طلباً للأحاديث الصحيحة، يتلقونها بالاسناد المتسلسل. ولكنهم لم ينهضوا لهذا الأمر إلا في المائة الثانية للهجرة، بعد ان مات الصحابة والتابعون، وهم الذين يرجع إليهم في نقل الحديث. فكان ان تفرقت الأحاديث وتخالفت، واتسع مجال الوضع، فروي من كاذبها مئات وألوف، وضعها الزنادقة وذوو المآرب تنفيذاً لغاياتهم، وتأيداً لمذاهبهم. وربما وضع الحديث لغرض سياسي، فاستند إليه في الافتاء.

وكان الإمام مالك في طليعة من دونوا الأحاديث، فإنه جمع في كتابه الموطأ نحو ثلثمائة حديث. ثم جاء الإمام ابن حنبل فألف كتابه المسند، وضمه نحو خمسين ألف حديث. على ان هذا العلم لم ينضج إلا عند البخاري^١ حجة المحدثين وإمامهم. فإنه غني بجمع الأحاديث وتمحيصها، وطوّف الآفاق يسمع من محدثيها حتى استخرج كتابه صحيح البخاري من ستائة ألف حديث في ست عشرة سنة، جمع فيه تسعة آلاف ومائتي حديث، منها ثلاثة آلاف مكررة بتكرّر وجوها.

وكان مسلم بن الحجاج القشيري^٢ من معاصريه، فعذا خذوه وألف كتابه الجامع الصحيح، ويعرف بصحيح مسلم، وبثاني الصحيحين، وبوّه

١ البخاري: مولده سنة ١٩٤ هـ وموته سنة ٢٥٦ هـ (٨٠٩ - ٨٦٩ م).

٢ مسلم: مولده سنة ٢٠٦ هـ وموته سنة ٢٦١ هـ (٨٢١ - ٨٧٤ م).

على أبواب الفقه ، وحذف منه الأحاديث المكررة .

وجاء بعدها من نهج نهجها ، وزاد عليها ، كابن ماجة ، وأبي داود السجستاني ، وأبي عيسى الترمذي ، وأبي عبد الرحمن النسائي . ومؤلفات هؤلاء الستة هي أصح كتب الحديث وإليها المرجع في هذا العلم ، وتعرف بالسته الصحاح ، وكل ما ألف بعدها كان شرحاً أو تلخيصاً لها . بيد ان الصحيحين الأولين هما خير ما ألف في الحديث إلى اليوم .

الفقه

هو علم تُعرف به الأحكام الشرعية في أفعال المكلفين حلالها وحرامها . وكانوا يستخرجونها قديماً من الكتاب والسنة^١ . فلما عظمت أمصار الإسلام ، واتسع سلطانه في الآفاق ، وتعددت الحوادث واختلقت باختلاف الزمان والمكان ، اضطروا إلى الاجتهاد في الاستنباط ، فاستخرجوا علم الفقه . وسلكوا فيه طريقين : طريق أصحاب الرأي والقياس ، وهم العراقيون . وطريق أصحاب الحديث ، وهم الحجازيون . وكان أهل العراق ذوي علم وبصر ، لأن أكثرهم من الأعاجم المعرقين في الحضارة . فآثروا تحكيم آرائهم ، وضعفت ثقتهم بالأحاديث لما نالها من الاصطناع ، فلم يركنوا إلى سوى القليل منها ، وصاحب هذا المذهب أبو حنيفة وهو فارسي الأصل . وأما أهل الحجاز فإن الحديث كان متوافراً عندهم ، لكثرة الصحابة في المدينة ومكة ، فاعتمدوا عليه في أحكامهم ، ونبذوا الرأي والقياس لأنهم أهل بدواة ليس لهم من العلم والثقافة ما لأهل العراق ، وصاحب هذا المذهب مالك بن أنس الأصبحي . واختص مذهبه بدليل آخر غير الكتاب والسنة ، وهو الاجماع ، ويريد به ما أجمع عليه أهل المدينة من عمل او ترك

١ الستة : الحديث .

باعتبار انهم تابعون لمن قبلهم حتى يبلغوا إلى الجيل الذين عاصروا الرسول وأخذوا عنه .

ونبذ القياس أيضاً طائفة من العلماء وهم الظاهرية ، وإمامهم داود بن علي الأصهباني . وجعلوا محور مباحثهم ظاهر الكلام بمعزل عن كل تأويل . ولكن مذهبهم لم ينتشر ، ولم يعد من المذاهب المقررة في الاسلام ، وهي أربعة عند السنين : مذهب أبي حنيفة ، ومذهب مالك ، ومذهب الشافعي ، ومذهب ابن حنبل .

أبو حنيفة (٦٩٩ - ٧٦٧ م و ٨٠ - ١٥٠ هـ)

هو الثعمان بن ثابت ، فارسي الأصل ، نشأ بالكوفة ، وأخذ عن علمائها ، واستنبط فقهه من القرآن ، وما صح عنده من الحديث ، وعده قليل لا يجاوز السبعة عشر . وكان اعتاده في الغالب على الرأي والقياس ، وتابعه في ذلك أكثر أئمة العراق . واستقدمه المنصور من الكوفة إلى بغداد ، لينافس به مالك بن أنس ، بعد أن أفتى مالك بمخلع بيعته ، وتأييد دعوة محمد بن عبد الله العلوي .

وقضى أبو حنيفة حياته بالزهد والورع . وأريد على القضاء غير مرة ، فرفض مخافة ان يصدر عنه خطأ يحمل وزره . وقيل ان المنصور حبسه لرفضه القضاء وآذاه حتى مات . وقيل بل حبسه لانه رأى منه تشيعاً .

وكانت وفاته في بغداد ، ولم يصل إلينا شيء من آثاره في الفقه . وإنما وصل إلينا كتب تلاميذه وعلى الأخص أبو يوسف الانصاري ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، ويعرفان بالصاحبين اي صاحبي أبي حنيفة .

والمذهب الحنفي أعم المذاهب ، وأبعدها انتشاراً في بلاد الاسلام كالعراق وسوريا وتركيا والعجم والهند وغيرها . ذلك انه في اعتاده على

الرأي والقياس ، يقرب من التساهل ويتعد عن الضغط الشديد ، فيلائم أحوال الشعوب المتحضرة أكثر من سواه .

مالك (٧١٣ - ٧٩٥ م و ٩٥ - ١٧٩ هـ)

هو مالك بن أنس الأصبحي ، عربي الأصل ، ولد بالمدينة ، وأخذ الحديث عن علمائها ، وبرع في علوم الدين . وكانوا يعولون عليه في الفتوى حتى قيل : « لا يُفتى ومالك بالمدينة . » وقد استنبط مذهبه من الكتاب والسنة ، ويختلف عن أبي حنيفة في كثرة اعتماده على الحديث ، وهو أول من الف فيه . وكان يتشيع للعلويين ، حتى انه أفتى بخلع المنصور ، فأمر به والي المدينة ، وكان يومئذ جعفر بن سليمان عم المنصور ، فجرد من ثيابه ، وضرب بالسياط ، ومُدت يده حتى انخلعت كتفه . على أن ذلك لم يضع من شأنه ، بل زيد رفعة وعلاء . وكان الرشيد اذا قدم المدينة حضر مجلسه ، وسمع منه .

وكانت وفاته بالمدينة . وأشهر آثاره الباقية كتاب الموطأ في الحديث والفقه . واختص بالمذهب المالكي أهل الحجاز والمغرب والأندلس .

الشافعي (٧٦٧ - ٨١٩ م و ١٥٠ - ٢٠٤ هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي القرشي ، ولد بمدينة غزة ، وحُبل إلى مكة وهو ابن سنتين ، فنشأ فيها فقيراً . وحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين . ثم رحل إلى البادية ، وطلب الشعر واللغة ، فنال منهما قسطاً حسناً . ثم تفقه وحفظ موطأ مالك ، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة . وجاء بغداد فلقي أصحاب أبي حنيفة فأخذ عنهم . ثم رحل إلى مصر وأقام بالفسطاط وأملى مذهبه في الفقه ، وهو وسط مزج به طريقة أهل

العراق بطريقة أهل الحجاز . وخالف مالكا في كثير من مذهبه ، ولكنه
تشبث بالحديث .

وعُرف الشافعي بالذكاء والحفظ وفصاحة اللسان ، وقوة الحجة . وعُرف
أيضاً بالعدل والأمانة والزهد والعفاف والسخاء . وكانت وفاته في مصر
فدفن بالعراق ومقامه معروف . وله من الآثار رسالة في أصول الفقه ،
والمسند في الحديث . ومقلدو مذهبه هم أهل مصر . وفي سوريا ولبنان
طائفة كبيرة من الشوافعة ولكن المذهب الحنفي هو المتبع في الحكم
والافتاء ، انتقل بالإرث عن الأتراك وهم أحناف .

ابن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥ م و ١٦٤ - ٢٤١ هـ)

هو أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني ، وُلد في بغداد ، وبها نشأ
وتعلّم . وكان من أصحاب الشافعي ، فلما خرج الشافعي إلى مصر قال :
« خرجت من بغداد ، وما خلّفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل . » وفي
أيامه اشتد ساعد المعتزلة ، فدعي إلى القول بخلق القرآن في مجلس المعتصم ،
فلم يفعل . ف ضرب سبعة وعشرين سوطاً ، ضرباً موجعاً حتى سال منه الدم
وأغمي عليه ، ثم حبس وهو مصرّ على الامتناع .

وكان حسن الوجه ربعة يختضب بالحناء ، خضباً ليس بالقاني . وكان
أروى الناس للحديث . قيل انه حفظ منه الف الف . ومذهبه في الفقه بعيد
من الاجتهاد ، ينبذ الرأي والقياس ، ويتشبت بالأحاديث .

وكانت وفاته في بغداد ، وقبره مشهور بها . وذكروا أنه شهد جنازته
ثمان مئة الف من الرجال ، وستون ألفاً من النساء . وله من الآثار كتاب
المسند ضمّنه ما ينيف على أربعين الف حديث . وأتباع المذهب الحنبلي

قليل ، تجد منهم في بعض نواحي الشام والعراق ، وهم أحفظ الناس للسنة .

*

وقد وقف التقليد في الاسلام عند أصحاب المذاهب الأربعة ، وسد باب الاجتهاد باعتبار الكمال فيها . غير ان الشيعة العلوية انفردت بمذهب وفقه خاص بها . وقامت اجتهادات علمائها على أساس سياسة الخلافة ، وما جرى من الخلاف عليها ، والاجتهاد عندهم مفتوح الأبواب . وانفرد بمثل ذلك الحوارج ، وكانت الخلافة أيضاً أساس مذهبهم واجتهاداتهم .

البدع

أُتيح للشرق ان يكون منبت الأديان ومهبط الوحي والالهام . ثم اتاح له ان يصبح أنصب مرتع للبدع^١ وما فيها من مذاهب وطرائق . والبدع في الشرق وليدة العلم والتفكير ، ورביبة الفلسفة والمنطق . فقد انتشرت في النصرانية بعدما استبحر أبنائها في العلوم ، وهكذا كان حظ الاسلام منها ، فإن العرب في بداوتهم وفطرتهم تلقوه بإخبات وخضوع ، ولم يخطر لهم في بال أن يمحّصوه ، ويبحثوا في حقيقته وأحكامه ، وإنما اكتفوا بالنظر إلى اعراض المسائل الدينية من تفسير أو تأويل . على أن ذلك الايمان الساذج إذا اقنع العرب في بدء أمرهم فما كان ليقنع الشعوب العجيبة التي اختلطت بهم ، وتركت عقائدها القديمة ، ووضيت الاسلام ديناً ، ولها من العلم والحضارة ما يخرج بها عن الجمود الفكري . ولكن لم يكن لها يومئذ من الحرية والقوة والنفوذ والعلم بلغة القرآن ما يمكنها من الجدل في الدين . فلم يرتفع لها صوت حتى كان من أثر اختلاطها بالعرب أن نشأ جيل جديد

١ البدع : جمع بدعة وهي كل عقيدة محدثة في الدين تخالف اصوله المقررة .

لغته عربية وتفكيره عجمي . فنبغ منه جلة من العلماء والمفسرين ، والفقهاء والمحدثين . فانصرفوا إلى تقصي معاني القرآن ، والاجتهاد في تفسيرها وتأويلها . فأنكروا ما لا ينطبق على عقولهم ، وابتدعوا أقوالاً وآراء لا عهد للمسلمين بها ، فتعددت فيهم المذاهب ، فكان منها مذهب القدرية ، وهم الذين جحدوا القدر ، وقالوا بأن الانسان خالق لفعله ، وان الكفر والمعاصي ليست بتقدير الله .

ومنها الجبرية ، وهم الذين يجعلون الانسان مسيراً في أعماله لا مختيراً ، وينكرون على الله جميع الصفات معتقدين انها ناقصة فيه تعالى كما هي في الانسان . ومنها المشبهة وهم الذين شبهوا الله بالمخلوقات ، وجعلوا له يداً وقدماً ، ووجهاً . ومنهم الصفاتية ، وهم الذين ذهبوا إلى التشبيه في الصفات ، فأثبتوا لله الجهة والاستواء ، والنزول والصوت . وقد جبرهم إلى ذلك ما ورد في القرآن من آيات توهم التشبيه ففسروها على ظواهرها ، وغلبوها على أدلة التنزيه ، ولكنهم تخلصوا بقولهم : جسم لا كالأجسام وجهة لا كالجهات . ثم كانت المعتزلة ، وهي أعظم البدع في الاسلام ، وأشدّها خطراً ، نشأت في البصرة ، ومؤسسها واصل بن عطاء^١ . وكان يجلس إلى الحسن البصري ، فلما ظهر الاختلاف ، وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر ، وقالت الجماعة بأنه مؤمن وان فسق بالكبيرة ، خرج واصل بن عطاء عن الفريقين ، وقال : « ان الفاسق من هذه الامة لا مؤمن ولا كافر : منزلة بين منزلتين^٢ . » فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه ، وجلس إليه عمرو

١ واصل بن عطاء من الموالي ، ولد بالمدينة سنة ٨٠ هـ وتوفي في البصرة سنة ١٣١ هـ (٦٩٩ - ٧٤٨ م) .

٢ خالفت المعتزلة الخوارج وجماعة السنة في عقاب المؤمن إذا ارتكب الكبيرة ومات عن غير طاعة وتوبة ، فقضت بخلوده في النار ولكن جعلت عقابه أخف من عقاب الكفار . وأما

ابن عبيد فليل لهما ولا تبايعهما معتزلة .

وقد خالفت المعتزلة المشبهة في تجسيم الذات ، ولكنها أسرفت في مذهبها ، فقصت بتزبئة الله عن صفات المعاني كالعلم والقدرة والارادة والكلام ، زاعمة ان اثباتها يقضي بتعدد القديم والاشراك بالخالق الأزلي . وقادها نفي الكلام عن الله إلى مخالفة الجماعة في أزلية القرآن فقالت بأنه مخلوق . وخالفت الجبرية فقالت بأن الله منح الانسان القدرة ، وأعطاء الحرية في استخدامها ، فأصبح الانسان خالقاً لأعماله خيرها وشرها ، والله منزّه أن يضاف إليه شر أو خير ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً ، كما لو خلق العدل كان عادلاً .

ولما قامت الدولة العباسية ونقلت فلسفة اليونان ، وعلم المنطق ، أقبل المعتزلة على دراستها ، واعتمدوا عليها في مباحثهم ومناظراتهم. فتوافرت أدلتهم ، واستحكمت حججهم ، ورجحت كفتهم ، وشالت كفة أهل السنة ، لان العلماء السنيين حسبوا دراسة المنطق كفراً وزندقة ، فنفروا منه وأبوا أن يتخذوه معياراً لأدلتهم العقلية . وكانوا يقولون : « من تمنطق شهراً ، فقد تزندق دهرآ . » فقصروا في مناظرة أصحاب الاعتزال ، وأفحهم هؤلاء مجدلهم وفلسفتهم . وازدادت المعتزلة صولة وانتشاراً في عهد المأمون والمعتمد والواثق ، لأن هؤلاء الخلفاء آثروا الاعتزال ، وجأهروا بخلق القرآن ، واضطهدوا جماعة السنة ، واخفتوا أصوات علمائهم ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ولا سيما المأمون فانه كان أشدهم انتصاراً للفلسفة وأصحابها ،

الحوارج فقصت بأنه كافر لا خلاص له . وأما جماعة اهل السنة فقالت بأنه مؤمن لا يستحق الخلود في النار ، فلما أن يمفو الله عنه برحمته ، أو يعاقبه زمناً على قدر جرمه ، أو يشفع فيه النسي إذ قال . « شفاعتي لأهل الكبائر من أمي . »

والمعتزلة وآرائها . ولا ريب أن تغلب الفلسفة على السنة ، والمعتزلة على الجماعة ، أحدث إثارةً للعديد على القديم ، وتغليباً للعنصر الفارسي على العنصر العربي .

وظل المعتزلة أصحاب الكلمة الراجعة حتى استغلف المتوكل في العصر الثاني فاضطهدهم وقتل منهم ، وانتصر للسنة ، ورفع علماءها رؤوسهم . ثم كان لها من أبي الحسن الأشعري^١ ركن ركين ، قاوم المعتزلة وأضعف نفوذها الأدبي في الملة بعد أن استفحل أمرها .

وليس من شأننا في هذا البحث أن نعدد جميع البدع التي تفشت في الإسلام على أثر نقل العلوم اليونانية . ولكن نختصر فنقول ان هذه العلوم وما صعبها من حضارة جديدة ، وحرية وتساهل في الأمور الدينية ، كان لها أثر عظيم في أفكار المسلمين ، لأنها جعلت الشك يتغلب على اليقين ، فضعف الايمان واجترأ الناس على الدين ، فراحوا يتفلسفون في تأويل شرائعه وأحكامه ، فذهبوا فيه كل مذهب ، وابتعدوا كثيراً عن أسلافهم في فجر الإسلام . ولم تقم بدعة إلا تفرع منها عدة مذاهب وطرائق ، فدخل على الإسلام أشياء كثيرة ليست منه .

على ان هذه البدع وان تكن أضرت بالدين ، فانها أفادت التفكير الإسلامي ، وأعدته اعداداً حسناً لاستنباط الفلسفة العربية .

١ ولد أبو الحسن الأشعري في البصرة سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) وأخذ علم الكلام عن أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة ، وتبعه في الاعتزال أكثر من ثلاثين عاماً ، ثم عاد إلى السنة ، ووضع طريقته الأشعرية في علم الكلام ، وخالف فيها عقائد المعتزلة ، فرد عليه أصحاب الاعتزال ، فما زال يدحض حججهم حتى انقطعوا عن مناظراته ، وتبعه فريق منهم ، ومن غيرهم . وكانت وفاته سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) .

علم الكلام

هو علم يتضمن الحجاج عن عقائد الدين بالأدلة العقلية . وكان ظهوره بعد أن نفشت البدع في الإسلام ، واختلف أصحابها وأهل السنة على تفصيل هذه العقائد ، فدعا ذلك إلى الجدل والتناظر ، والاستدلال بالعقل . فعظمت الفتنة وتمسك كل ذي رأي برأيه ، واشتد الحسام على الأخص بين المعتزلة والسنة ، لأن المعتزلة كانوا أشد المبتدعة خطراً ، ذلك بأن مذهبهم وليد التفكير والفلسفة . وليس كذلك مذهب الشيعة والخوارج ، فانهما قاما على أساس سياسة الخلافة ، وكان احتكامهما إلى السيف أكثر منه إلى اللسان . ولم يكن للمذاهب الأخرى شأن عظيم فيحتفل أهل السنة بأصحابها ، لذلك انصرفوا إلى مناظرة أهل الاعتزال فنهض علم الكلام على أيدي هاتين الفئتين . ثم تم ازدهاره بعد أن نشأت الطريقة الأشعرية ، وأقبل علماء السنة على المنطق يتدارسونه لأنهم فرقوا بينه وبين الفلسفة ، وعرفوا أنه علم القياس والتعليل والاستنتاج .

ولم يشتهر متكلمو السنة قبل الأشعري شهرة متكلمي المعتزلة . فان هؤلاء ظهر منهم جلّة من الفضلاء الأعلام أشباه واصل بن عطاء ، وعبرو ابن عبيد ، وأبي الهذيل العلاف ، والنظام ، والجاحظ ، وأبي علي الجبائي وغيرهم .

الادب والرواة

أبو عبيدة . الاصمعي . محمد بن سلام .
أبو زيد القرشي .

شرع الرواة في العصر الاموي يجمعون أشعار العرب وأفوالهم وأخبارهم . وما اطل العصر العباسي حتى بدأت تظهر المجموعات الادبية ، وتطور النقد بعض التطور ، فأصبح اهل العلم ينظرون في صحيح الشعر ومنحوه ، ويعملون للشعراء طبقات متنايزة ، ويدركون عليهم سرفاتهم ، ومخالفاتهم للقواعد النحوية ، وسقطاتهم في الألفاظ والمعاني . غير انهم لم يخرجوا في أحكامهم عن دائرة من تقدمهم ، فكانوا يفضلون الشاعر بيت من الشعر ، ثم يفضلون غيره بيت آخر . وهكذا كان يفعل أسلافهم ، حين يقولون : « فلان أشعر بني فلان ، او أشعر العرب ، او أشعر الناس . »

ويؤخذ عليهم افراطهم في تقديس القديم ، حتى ضل بهم المنطق في النقد . فكانوا اذا أعجبهم شاعر اسلامي او مولد قالوا : « لو أدرك يوماً من الجاهلية لفضل على كثير منهم ، او لما فضل عليه أحد . » واشتهر في هذا العصر طائفة كبيرة من الرواة نكتفي بذكر أربعة منهم ، وهم ابو عبيدة ، والأصمعي ، ومحمد بن سلام ، وأبو زيد القرشي .

ابو عبيدة

٧٢٨ - ٨٢٤ م و ١١٠ - ٢٠٩ هـ ؟

حياته

هو مَعْمَر بن المُثَنَّى ، ينتسب إلى تَيْم قريش بالولاء . وكنيته أبو عبيدة ، وكان جده يهودياً من أهل باجروان^١ . ونشأ أبو عبيدة في البصرة ، وبها درس على أبي عمرو بن العلاء . فلما هبت ريحه أقبل إليه طلاب العلم يتخرجون عليه . ثم استقدمه الفضل بن الربيع^٢ إلى بغداد سنة ١٨٨ هـ فأقام فيها يؤلف ، ويفيد من يحضر مجلسه . وجرت بينه وبين الأصمعي مناظرات كثيرة . وكان شعوبياً شديداً التعصب على العرب ، فراح يطعن فيهم ، ويمزق أعراضهم ، وينشر مخازيهم في كتابه المثالب . فأوغر عليه صدور الناس ، فدرس له بعضهم سماً في موز وهو في البصرة فمات . وكانت وفاته في خلافة المأمون ، ولم يحضر جنازته أحد لأنه لم يسلم من لسانه انسان شريف او غير شريف .

وكان وسخ الثياب ، رث الهيئة ، سيء المنظر ، غليظ الشفة ، أثلغ ، مدخول النسب ، مدخول الدين ، يميل إلى مذهب الخوارج ، شديد التعصب

١ قال ابن خلكان : « باجروان اسم لقرية من بلاد بلخ من أعمال الرقة . واسم لمدينة بنواحي أرمينية ، وغالب ظني أن أبا عبيدة من هذه المدينة . »

٢ كان الفضل يومئذ وزيراً لهرون الرشيد لا وزيراً للأمين كما وهم جرجي زيدان في كتابه تاريخ الآداب .

بشعوبية ، لا تُقبل شهادته لفساد في أخلاقه .
 وكان إذا تحدث أو قرأ لحن عامداً . وإذا أنشد بيتاً لا يقيم وزنه .
 ومن قوله : « النحر شؤم كله . »

آثاره

تناهز مؤلفاته المائتين وهي في القرآن واللغة والأمثال والفتوح ،
 والأنساب والمثالب ، وبيوتات العرب وأيامهم ، والتراجم وغيرها . ولكن
 لم يبقَ منها إلا أقلها ، ككتاب نقاض جرير والفرزدق ، طبع في ليدن
 بمجلدين كبيرين . وكتاب طبقات الشعراء ، ويسميه الفهرست الشعر
 والشعراء .

منزله

لأبي عبيدة مقام سامٍ في طبقات الأدباء ، فإنه كان أغزرهم مادة ،
 وأوسعهم رواية ، عالماً بأخبار العرب وأيامهم ، وأنسابهم ولغاتهم . يروي
 الشعر ، ولكنه قلما عني بتفسيره ونقده . وله الفضل بأنه مهد الطريق لغيره
 من جامعي الأخبار . فإن الأصفهاني لما وضع أغانيه اعتمد على كتاب أيام
 العرب لأبي عبيدة . وروى عنه كثيرون كالقاسم بن سلام ، وأبي حاتم
 السجستاني ، وعمر بن شبة .

وهو أول من ألّف في علم البيان ، وتأليفه يُعرف بمجاز القرآن . ولا نعي
 انه أوضح طرق ذلك العلم في كتابه هذا ، فإنه كان يكتفي بأن يجمع
 الألفاظ التي استعملت في غير معناها الحقيقي ، دون أن يفرق بين أنواع
 المجاز ، ويفصل حدوده وأصوله .

واجمع أكثر العلماء على صحة روايته فقالوا: انه لم يكن يحكي عن العرب

إلا الشيء الصحيح ، ولا سيما كلامه على مفاخرهم ، فإنه لم يبالغ فيها فعلًا
 غيره من الرواة المتعصبين للعرب بل نقلها على حقائقها . ويؤخذ عليه شيء
 من الصعف في عبارته . وكان أبو نواس يتلمذ له ، فإذا سئل عنه قال :
 « أديم طوي على علم . » أي ان ظاهر كلامه جاف ، وباطنه خصب .
 وفاضل بعضهم بينه وبين الأصمعي فقالوا : « إنه كان كثير الفوائد ، جم
 العلوم مع سوء عبارة ، والأصمعي قليل الفائدة مع حسن انشاء وزخرفة . »
 وأبو عبيدة اجمع الرواة بلا خلاف .

الأصمعي

٧٣٩ - ٨٣١ م و ١٢٢ - ٢١٦ هـ ؟

حياته

هو عبد الملك بن قُرَيب ، ينتهي نسبه إلى مضر . ويلقب بالأصمعي نسبة إلى أحد جدوده أصمع ، ويكنى أبا سعيد . ولد في البصرة ودرس على أبي عمرو بن العلاء ، والحليل ، وخلف الأحمر ، وغيرهم من أئمة عصره . وأكثر الخروج إلى البادية ، واختلط بالأعراب وساكنهم ، وأخذ عنهم ، حتى اجتمع له من الأخبار والأشعار والنوادر والغريب شيء كثير . واتصل بالرشيد واختص به ، فأجزل له العطاء ، وبالف في إكرامه ، وكانت وفاته بالبصرة أيام المأمون . وعرف بالتقوى والتدين ، وقوة الحافظة والظرف ، ولكنه كان بخیلاً .

آثاره

ذكر له ابن النديم نحو أربعين كتاباً أكثرها في اللغة ، ثم في الشعر . ولم يصل إلينا إلا بعضها . منها في الشعر : الاصمعيّات وهي مجموعة اختارها من شعر الشعراء المتقدمين ، وضمتها شيئاً من النقد . ورجز العجّاج وهو مجموع ما رواه الأصمعي للعجاج من الأراجيز . ومنها في اللغة كتاب أسماء الوحوش ، وكتاب أسماء الإبل ، وكتاب الحيل ، وكتاب الدارات ، وكتاب النبات والشجر ، وكتاب النخل والكرم وغير ذلك .

منزله

للأصمعي منزلة جليلة في اللغة والرواية والأدب حتى أصبح اسمه بعد موته صفة تدل على سعة الاطلاع ، فيقال هذا رجل أصمعي . وتعود هذه الشهرة في كثرتها على ما اسند إليه من أقاصيص وسير تداولها الناس كقصة غنوة وغيرها ، فشهر عند العامة فضلاً عن الخاصة .

وكانت تأليفه في اللغة مستنداً وثيقاً للمعاجم الكبرى . وامتناز الأصمعي في فصاحته وبيانه ، وحسن إنشاده الشعر حتى ليضيع عنده الرديء والجيد . وقد فاضل أبو نواس بينه وبين أبي عبيدة فقال : « ان أبا عبيدة لو أمكنوه لقرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمعي فلبيل يطربهم بنغماته . »

واشتهر بقوة الذاكرة ؛ قيل إنه كان يحفظ اثني عشر ألف أرجوزة ، منها ما يبلغ مائة بيت أو مائتين . ومما يروى عن قوة ذاكرته خبر انتصاره على أبي عبيدة في حضرة الفضل بن الربيع حينما وقف يسمي أعضاء الفرس عضواً عضواً وينشد ما قالت الشعراء فيه . ولم يستطع ذلك أبو عبيدة على سعة تأليفه في الحيل .

وعرف الأصمعي بمهارته في نقد الشعر ، أخذ ذلك عن أستاذه خلف الأحمر .. وله في الشعر والشعراء آراء يعوّل على كثير منها .

محمد بن سلام

٨٤٦ م و ٢٣٢ هـ

حياته

ليس لدينا عن حياته شيء نذكره ، فكل ما نعلم عنه انه يكنى أبا عبد الله ، وان نسبه ينتهي إلى بني جُمَح وهم بطن من قريش . وانه نشأ في البصرة ، وأخذ عن الحليل وحماد بن سلمة وغيرهما . وروى عنه كثيرون ، منهم الامام احمد بن حنبل وثلعب وابو حاتم وسواهم . وكانت وفاته في السنة التي مات فيها الواثق وبويع للستوكل بن المعتصم .

آثاره

ذكر له صاحب الفهرست كتاباً في بيوتات العرب ، وآخر في ملاح الشعر ولكنهما مفقودان . ولم يصل إلينا إلا كتابه طبقات الشعراء ، صدره بمقدمة في نقد الشعر ، فتكلم أولاً على علماء البصرة ، وظهر النحو عندهم ، وأول من وضعه منهم ، وعدّهم واحداً بعد واحد ، ذاكراً من أخذ منهم عن الآخر . وهو يستند إليهم في روايته ، ولا يرى من علماء الكوفة من يستحق الذكر إلا المفضل الضبي . ولا غرو في ذلك ، فابن سلام بصري يتعصب لبلده . وأكثر رواياته عن خلف الاحمر وأبي عمرو بن العلاء ويونس وأبي عبيدة والأصمعي . وعلى الغالب يشاركه فيها نسيبه ابو خليفة

١ جعل صاحب الوسيط وفاته سنة ٤٣١ ، وهذا خطأ بين لأن الأشخاص الذين روى عنهم والأشخاص الذين روى عنه يتقدمون كثيراً هذا التاريخ .

الفضل بن الحُبَاب الجُمَحِي ، فتسمعه يقول : « أخبرنا ابو خليفة اخبرنا ابن سلام . » او « انا ابو خليفة انا ابن سلام . »

وفي كلامه على الشعر وأقوال العلماء فيه يشير إلى ما ادخل الرواة من الشعر المصنوع ، ومن ذلك الأقوال التي أضافوها إلى عاد وشمود .

وجعل كتابه في جزئين . فالجزء الأول يختص بالشعراء الجاهليين والمخضرمين . والجزء الثاني يختص بالشعراء الاسلاميين . وهو يستفيض في أخبار الاسلاميين وأشعارهم أكثر مما يستفيض في أخبار الجاهليين . ولماذا ذكر الشاعر ذكر نسبه وأقوال العلماء فيه ، وأورد شيئاً من شعره وأخباره . وربما أبدى رأيه الخاص وعارض به آراء غيره من العلماء والرواة .

وجعل الجاهليين والمخضرمين عشر طبقات ، في كل طبقة أربعة فحول . وألحق بهم طبقة لأصحاب المراثي . ثم أضاف إليهم شعراء القرى وهي المدينة وأكنافها ، ومكة والطائف والبحرين ، وأما اليامة فلم يعرف بها شاعراً مشهوراً .

وجعل الاسلاميين عشر طبقات ايضاً ، وفي كل طبقة أربعة شعراء :

الجاهليون والمخضرمون

الطبقة الاولى : امرؤ القيس ، ونابغة بني ذبيان ، وزهير بن أبي سلمى ، والأعشى .

الطبقة الثانية : سقط منها شاعران في النسخ ، وبقي كعب بن زهير ، والخطيئة . وهي متصلة بالطبقة الأولى كأنها منها لسقوط مقدمتها مع سقوط خبر الشاعرين اللذين ذكرهما قبل كعب والخطيئة .

- الطبقة الثالثة : نابقة بني جَعْدَة ، وأبو دُؤَيْب المَذَلِّي ، والشَّامُخ
ابن ضِرَار ، وليد بن ربيعة .
- الطبقة الرابعة : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعَلَقْمَة
الفحل ، وعَدِيّ بن زيد .
- الطبقة الخامسة : خِدَاش بن زهير ، والاسود بن يَعْفُر ، والمُخَبِّل
ابن ربيعة ، وتميم بن مُقْبِل .
- الطبقة السادسة : عمرو بن كلثوم ، والحارس بن حِلْزَة ، وعنترة بن
شداد ، وسُوَيْد بن أَبِي كَاهِل .
- الطبقة السابعة : سلامة بن جندل ، والحُصَيْن بن الحُمام المُرِّي ،
والمُتَلَمِّس ، والمُسَيَّب بن عَلس .
- الطبقة الثامنة : عمرو بن قُصَيْمَة ، والنَّمِر بن تَوَلَب ، وأونس بن
غلفاء ، وعَوَف بن عَطِيَّة .
- الطبقة التاسعة : ضابئ بن الحرث ، وسُوَيْد بن كُرَاع ، والحُوَيْدرة
الذبياني ، وسُحَيْم عبد بني الحَسَنِيَّات .
- الطبقة العاشرة : أُمِيَّة بن حَرَّثَان ، وحُرَيْث بن مُحَفِّض ، والكُثَيْب
ابن معروف الأسدي ، وعمرو بن شاس .
- طبقة أصحاب المراثي : مُتَمِّم بن نُؤَيْرَة ، والحُناص ، وأعشى باهلة ،
وكعب بن سعد الغَنَوِي .

شعراء القوي

- المدينة : من الحُزْرَج : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد
الله بن رواحة . ومن الأوس : قيس بن الخطيم ، وأبو
قيس بن الأسلت .

مكة : عبد الله بن الزبَعْرَى ، وأبو طالب بن عبد المطلب ، وأبو
سُفْيَان بن الحارث ، ومسافر بن أبي عمرو ، وضِرَار بن
الحطّاب .

الطائف : أبو الصلت بن أبي ربيعة ، وابنه أُمَيَّة بن أبي الصلت ،
وأبو مَحْجَن ، وغَيْلان بن سَلَمَة ، وكِنانة بن عبد ياليل .
البحرين : المثقّب العبدي ، والمزقّ العبدي ، والمفضل بن معشر .

شعراء اليهود

المدينة واكنافها: السموأل بن عادياء ، والربيع بن أبي الحقيق ،
وكعب بن الأشرف ، وشُرَيْح بن عمران ،
وشُعْبَة بن غريض ، وأبو قيس بن رِفاعة ، وأبو
الذِّبَال ، ودرهم بن زيد .

الشعراء الاسلاميون

الطبقة الأولى : الفرزدق ، وجريز ، والأخطل ، وراعي الإبل .
الطبقة الثانية : البَعِيث ، والقُطاميّ ، وكُثَيِّر ، وذو الرُّمَّة .
الطبقة الثالثة : كعب بن جُعَيْل ، وعمرو بن أحمر ، وسُحَيْم بن
وَيْل ، وأوس بن مَعْرَاء .
الطبقة الرابعة : نَهْشَل بن حَرِيّ ، وحُصَيْد بن ثور ، والأشهب بن
رُمَيْلَة ، وعمر بن لَجَأ التَّيْمِيّ .
الطبقة الخامسة : أبو زُبَيْد الطائي ، والمُعْجِر السلولي ، وعبد الله بن
هَمَام السلولي ، ونُفَيْع بن لَقِيط الأسديّ^١ .

١ رويت أيضاً بويّع ، نافع

- الطبقة السادسة : (حجازية) : عبيد الله بن قيس الرقيّات ، والأحوص الأنصاري ، وجبيل بن معمر ، ونصيب بن رباح .
- الطبقة السابعة : المتوكل اللبني ، ويزيد بن ربيعة ، وزباد الأعجم ، وعدي بن الرقاع .
- الطبقة الثامنة : عقيل بن علفه المرّي ، وبشامة بن الندير ، وشبيب بن البرصاء ، وقتراد بن حنش .
- الطبقة التاسعة : (رُجَاز) : الأغلب العجلي ، وأبو النجم العجلي ، والعجاج ، وابنه رُوْبَة .
- الطبقة العاشرة : مزاحم بن الحارث العقيلي ، ويزيد بن الطنثريّة ، وأبو دؤاد الرُّؤاسي ، والقُصيف بن سلّيم العقيلي .

منزله

يمتاز ابن سلام بأنّه أول من ألّف في طبقات الشعراء ، وقلّده غيره ، فكان كتابه قدوة لسواه . وقد زاد في قيمته ان صاحبه لم يعتمد كل الاعتماد على أقوال الرواة في نقد الشعر والشعراء ، بل قابل بعضها ببعض ، وانتقدها وأبدى رأيه فيها . وتكلم على صريح الشعر ومنحوله ، وأشار إلى تعصب العشائر في تفضيل الشعراء ، وأنهى باللائمة على الرواة الذين أفسدوا الشعر ، وخلطوا برواياتهم . فانكر رواية ابن اسحق في كثير من العنف ، وطعن على حماد وشهره ، وما سلم منه خلف والمفضل .

ولم تؤثر أساطير الأقدمين وخرافاتهم في صحة بصره بالشعر ، فرفض ان يكون ثمة شعر لعاد وثمود وسواهما من العرب البائدة . ولم يسخف كغيره فيروي شعراً للجن وآدم وابليس والملائكة .

١ بشامة بن الندير وقتراد بن حنش شاعران جاهليان ، وذكر ذلك ابن سلام في كلامه عليهما ، فوجودهما مع الشعراء الاسلاميين خطأ بين .

وقد راعى في تمييز طبقة الشاعر كثرة آثاره وقلتها . فجعل طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل ، وعدي بن زيد في الطبقة الرابعة لقلة شعرهم على أفواه الرواة ، ولولا ذلك لوضعهم مع الأوائل . وهو شديد الاحتياط في المفاضلة بين شعراء كل طبقة ، فتراه يذكر الحجة لكل واحد منهم ، ثم يذكر الحجة عليه . وحيناً يروى أقوال الرواة في تقديم الشاعر أو تأخيرها ، وحيناً يتركها على علاتها ، فكأنه يجعل العهدة عليهم في ذلك . وقد استدرك في أول المقدمة ، فصرح بأن ذكر الواحد قبل الآخر في كل طبقة لا يدل على الحكم له إذ لا بد من مبتدأ . ويخلو نقده في الغالب من التعليل والفن ، وربما جارى غيره من الأدباء الأقدمين فحكم للشاعر بيت من الشعر ثم حكم لغيره بمثل ذلك . واما لغة الكتاب فيغلب عليها الإيجاز البليغ ، ولكن لا تخلو بعض عباراتها من غموض واختلاط .

وأما الأسلوب فانه خالٍ من الروعة والفن ، ضعيف التنسيق والتأليف . يرينا صورة صادقة عن انشاء الكتب عند العرب في أول عهدهم بالتصنيف . وتظهر السذاجة الفنية في جعل الشعراء طبقات ، في كل طبقة أربعة لهم منزلة واحدة . فمثل هذا الاتفاق في العدد لا يصح ان يعتمد عليه ، ولا يمكن التسليم بصحته لأنه يضيّق المجال على الناقد الأديب ، وهيات ان يسلم صاحبه من العثار .

على اننا لا نحاول ان نغيط فضل المؤلف ، فان كتابه كان قدوة صالحة لمن جاء بعده من مؤرخي الآداب فاستندوا إليه ، واثموا به . فقد رجع إليه صاحب الأغاني في ذكر طبقات الشعراء ، وكذلك فعل القالي والزجاج في أماليهما ، والسيوطي في كتابه المزهري .

أبو زيد القرشي

حياته

هو محمد بن أبي الخطاب القرشي ، وكنيته أبو زيد . لم نقف له على ترجمة في الكتب التي بين أيدينا . وذكره جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ، وجعله من رجال القرن الثالث للهجرة أي العصر العباسي الثاني . وذكره سليمان البستاني في مقدمة الإلياذة ، وجعل وفاته سنة ١٧٠ للهجرة أي أواسط العصر الأول . ونحن نرى ان أبا زيد أولى بأن يكون من أهل العصر الأول من أن يكون من أهل العصر الثاني لأنه أورد في كتابه جمهرة أشعار العرب روايات سمعها من المفضل الضبي ، والمفضل توفي سنة ١٧١ هـ . أو نحو ذلك . وهذا يدل على انه عاصره وأخذ عنه .

آثاره

لم يصل إلينا من آثاره سوى كتاب جمهرة أشعار العرب ، جمع فيه ما اختاره العلماء من محاسن الشعر الجاهلي والاسلامي . وجعله في سبع طبقات في كل طبقة سبع قصائد ، واعتمد في هذا التقسيم على أبي عبيدة والمفضل .

الطبقة الأولى : أصحاب المعلقة وهم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابعة ، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة .

الطبقة الثانية : أصحاب المُجَمَّهَرَات^١ وهم : عبيد بن الأبرص ،
وعنترة ، وعدي بن زيد ، وبِشْر بن أبي خازم ،
وأمية بن أبي الصلت ، وخِداش بن زهير ، والنمر
ابن تَوَلب . ويظهر ان النساخ خالفوا في ترتيب
الكتاب عمداً أو سهواً ، فجعلوا عنترة ثامن أصحاب
المعلقات مع ان أبا زيد ذكره في مقدمته بين أصحاب
المجمرات ، فغير معقول أن يضعه في كتابه مع
أصحاب المعلقة ، وهو إنما التزم تقسيم الطبقات سبعة
سبعة ، وأعلن أسماء كل طبقة في المقدمة .

الطبقة الثالثة : أصحاب المنتقيات وهم : المسيّب بن علس ،
والمرقش الأصغر ، والمتلمس ، وعروة بن الورد ،
والهليل بن ربيعة ، وذُرَيْد بن الصّّة ، والمتنخل
ابن عُوَيْسِر الهذلي .

الطبقة الرابعة : أصحاب المذهّبات وهم : حسان بن ثابت ، وعبد الله
ابن رواحة ، ومالك بن العجلان ، وقيس بن الخطيم ،
وأحينة بن الجلاح ، وأبو قيس بن الأسلت ، وعمرو
ابن امرئ القيس . جميعهم من الأوس والحزرج .

الطبقة الخامسة : أصحاب المراثي وهم : أبو ذؤيب الهذلي ، وعلقمة
ابن ذي جَدَن الحِمْيَري^٢ ، ومحمد بن كعب الغنوي ،

١ المجمرات : أي المحكمة السبك ، مأخوذة من الناقة المجمهرة وهي المتداخلة الخلق كأنها
جمهور الرمل .

٢ جمل علقمة في الكتاب رابعاً بعد محمد بن كعب الغنوي ، وأعشى باهلة

وأعشى باهلة ، وأبو زُبَيْد الطائي ، ومالك بن الرّيب ،
ومُتَمِّم بن نُؤَيْرَة^١ .

الطبقة السادسة : أصحاب المشوّبات^٢ وهم : نابغة بني جَعْدَة ، وكعب
ابن زهير ، والقُطاميّ ، والحُطَيْطة ، والشّمّاخ ،
وعمر بن أحمر ، وتميم بن أبي مُقبل .

الطبقة السابعة : أصحاب الملحمات^٣ وهم : الفرزدق ، وجريّر ،
والأخطل ، وعُبَيْد الراعي ، وذو الرُّمّة ، والكُمَيْت ،
والطرّ مّا ح .

وصدّر أبو زيد هذا الكتاب بمقدمة انتقادية جعلها على ثلاثة أقسام .
فقابل في القسم الأول لغة الشعر بلغة القرآن ، ومجازه بمجازه ، وغريبه
بغريبه . وأظهر أن القرآن لم يأتِ العربَ بلغة جديدة ، فكل ما فيه من
مجاز وغريب استعمله العرب في شعرهم وقصدوا به إلى المعنى الذي قصّد
إليه القرآن .

وذكر في القسم الثاني أول من قال الشعر فروى أشعاراً للملائكة
وإبليس وآدم والعمالقة وعاد وثمود والحن . ثم انتقل إلى رأي النبي وأصحابه
في الشعر ، فذكر أن النبي كان يسمعه ويميز عليه ، وأنه لم يكن يستنكره
كما زعم بعضهم . وأورد أشعاراً للخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة .
وأما القسم الثالث فقد خصّه بتعيين طبقات الشعراء وذكر أسمائهم .
وأورد طرفاً من أخبارهم وأقوال العلماء والرواة فيهم .

١ جعل متمم في الكتاب سادساً أي قل مالك بن الرّيب

٢ المشوّبات : أي التي شأها الكفر والاسلام .

٣ أي الملحمات النظم .

منزله

تقوم منزلة أبي زيد على كتابه جبهة أشعار العرب ، فانه جمع فيه تسعاً وأربعين قصيدة من أنفس الشعر الجاهلي والاسلامي . وقدّم لها مقدمة حسنة في نقد الشعر ومقابلة لغته بلغة القرآن ، وذكر أقوال الأدباء في الشعراء وطبقاتهم . ولولا سخفه في القسم الثاني من المقدمة ، لصان كتابه من الترهات . ولكن تعصبه الأعمى لدينه ولغته جعله يقبل الأساطير والخرافات على علاتها ، فجعل الشعر العربي يرجع إلى عهد آدم ، ويشترك في نظمه الانس والجن وسكان الأرض والسماء وجهم . فأسمنا أشعاراً لابليس وآدم والملائكة ، واسمنا أيضاً لطائفة من الجن كانت تنتظر بعثة محمد فاسلمت وقالت فيه شعراً قبل ان يظهر الاسلام .

ومن تعصبه انه انكر وجود ألفاظ عجمية في القرآن مستنداً إلى قول منسوب إلى ابن عباس وهو : « من زعم ان في القرآن غير العربية فقد افترى . » ولذلك جعل كل لفظ دخيل في القرآن عربي الأصل ولكن له في اللغة العجمية أشباه تقاربه أو توافقه .

ويؤخذ عليه في نقد الشعر انه أورد أقوال غيره واستند إليها ، دون أن يعللها ويمحصها ، ويستخرج منها أحكاماً يظهر فيها رأيه في الشعر والشعراء.

العصر العباسي الثاني

٨٤٦ - ٩٤٦ م . ٢٣٢ - ٣٣٥ هـ .

يبتدىء بخلافة المتوكل على الله
وينتهي بقيام الدولة البويهية واستقلالها بالسلطان

ملحة تاريخية

ضعف الخلافة العباسية

نفوذ الأتراك . نفوذ الخدم . نظام ولاية العهد . أمهات
الأمراء . نظام الاقطاع . ثورات العلويين . ميزة العصر .

كانت خلافة المتوكل أشبه ببرزخ عثرت عليه الدولة العباسية من طور
القوة والسلطان إلى طور الضعف والانحلال . وقد اجتمعت عدّة أسباب
على ثلّ هذا العرش المورق الأعواد ، فلم تزل به حتى قوّضته تقويضاً .
وهذه الأسباب ترجع في أكثرها إلى نفوذ الأتراك والخدم . وإلى نظام
ولاية العهد ، واختلاف أجناس الجوّاري امهات الأمراء . ثم إلى اتساع
المملكة العباسية ونظام الاقطاع فيها . ثم إلى ثورات العلويين ، ونفور
العرب من بني العباس . وإليك بيان ذلك :

٦ نفوذ الأتراك

ابتدأ نفوذ الأتراك يذّرّ قرنه في خلافة المعتصم . فإنه أخذ يقربهم ويعلي شأنهم بعد أن ضعفت ثقته بأهل بغداد وأهل فارس ، لأنّ فيهم من كان يتشيع للعلويين . وفيهم من يريد الخلافة للعباس بن المأمون . وفيهم فئة عربية ناقبة على العباسيين لاعتمادهم على الفرس دون العرب . وكانت أم المعتصم تركية ، فأثر الأتراك على غيرهم من الموالي ، وبالغ في اقتناء الغلمان منهم . فكانوا يركضون الدواب في الطرق ، فيصدمون النساء والصبيان ، فيتأذى العامة ، ويتذمرون ، حتى إذا انفردوا بواحد منهم اغتالوه . فرأى المعتصم ان الابتعاد عن بغداد خير له وأبقى . فجعل مقر الخلافة في سامراء^١ بعد أن جدد بناءها .

فاعتزّ الأتراك بنفوذهم ، وتولوا الخطط العالية ، فكان منهم الوزراء والقواد والولاة ، وظهر فيهم أمثال وصيف وأشناس وايتاخ وبُغا الكبير والافشين وسواهم .

وبلغ من تقديم المعتصم لهم انه كان إذا ترك العاصمة استخلف أشناس ، وأجلسه على كرسي ، وتوّجه ووشحه . ولما مات المعتصم تولى أشناس تتويج الواصل من بعده . وفعل الواصل فعل أبيه فتوّج أشناس ، وألبسه وشاحين مجوهرين . ومات أشناس فتوّج بعده وصيف ووشح ، ثم مات وصيف فانتقل التاج والوشاحان لبُغا^٢ .

١ سامراء : مدينة آرامية صغيرة على دجلة ، شمالي بغداد ، بينهما مسافة قليلة ، أطلق عليها العرب اسم سر من رأى تظرفاً .

٢ كانت وفاة أشناس في خلافة الواصل . وقتل وصيف في خلافة المعتز ، قتله الحند الأتراك لأنه لم يعطهم أرزاقهم لأربعة أشهر معتذراً بعدم وجود المال . ثم اغتال المعتز بغا لخوفه منه حتى كان لا ينام إلا بسلاحه .

ولما بويع للمتوكل بعد الواثق توجه ايتاخ ووصيف . واراد استمالة الأتراك، فأمر لهم برزق ثمانية أشهر، ولم يأمر للمغاربة الا برزق ثلاثة فأبوا قبولها . فتاه الأتراك واستكبروا حتى تضايق المتوكل منهم ، وساءه ان يزحم سلطانهم سلطانه . وكان ايتاخ اكثرهم نفوذاً لأن المتوكل ربي في حجره فولاه الحجابة والبريد والجليش وبيت المال . فاستطال ايتاخ وغلب الخليفة على امره، فسمى المتوكل في ابعاده، فـدس عليه من زيتن له الحج، فاستأذن الخليفة في ذلك ، فأذن له وخلع عليه ، وجعله امير كل بلد يمر به . فسار ايتاخ وسار العسكر بين يديه ، وجعلت الحجابة إلى وصيف . ولما عاد ايتاخ قبض عليه المتوكل غيلة وحبسه ، ومنع عنه الماء حتى مات .

ولم يشأ المتوكل ان يقدم الفرس على الاتراك مع ان أمه فارسية ، لأنهم كانوا يشايعون العلويين . وراعه أن يغلب نفوذ الأتراك على سلطانه، وهو لا قبل له بهم لأن الجند في أيديهم ، فأثر الابتعاد عنهم فبنى مدينة المتوكليّة على قرب من سامراء ، ونقل إليها الخلافة . وراح يتودد إلى السنين ، على امل ان يسترضي العرب بعد نفورهم من العباسيين لتقديمهم الموالي . فبالغ في التعصب للدين ، وشدد في إقامة أحكام السنة . وجاهر العلويين البغض والعداء ، فاضطهدهم وجار عليهم ، وهدم قبر الحسين في كربلاء ، وأذن للناس ان يلعنوا عليّاً في حضرته . واضطهد النصارى ، وهدم كنائسهم وقبورهم ، ومنعهم من الخروج بصلبانهم في اعيادهم ، وجعل على ابواب دورهم صور شياطين . ولكن هذا التعصب المقيت لم يفده شيئاً لأن الأتراك ائتمروا به وقتلوه . وكان مقتله سبباً لتضاعف شوكتهم ، فازدادوا جراءة واستقلوا بشؤون الدولة ، فأصبحت حياة الخلفاء والامراء في ايديهم ، ينصبون من شاؤوا ، ويخلعونونه متى شاؤوا ،

ويقتلون او يجبسون من يُخشى شره ولا يرون به خيراً لهم . فقتلوا المستعين ، والمعتز ، والمهتدي . وحبسوا القاهر ، وسملوا عين المتقي ، والمستكفي . فسقطت هيبة العباسيين من النفوس ، ونشبت الثورات الداخلية ، واخذت الولايات البعيدة تستقل بعد ان رأت الضعف مستحكماً في قلب المملكة . وهي إنما كانت تخضع كارهة ، ولا سيما الفرس الذين كان لهم ملك ضخم فأدبل منه ، فما انفكوا من الحنين إليه ، والتربص لاستعادة سابق عزه .

٢ نفوذ الخدم

وكان للخدم نفوذ في قصور الخلفاء ، ذلك بأن الأتراك كانوا يجبسون ولاية العهد ، ويجعلونهم في عهدة الخدم لتضعف نفوسهم بمعاشرة الحُصيان . وكان الخلفاء يرتاحون إلى عزلة اولادهم وانسابهم ، مخافة ان يواطئوا الأتراك عليهم . فكان ولي العهد اذا استُخلف لا يجد غير الخدم اصدقاء له لأنه صاحبهم مدة طويلة ، وتخلّق بأخلاقهم . فيكثر منهم في قصره ، ويجزل لهم العطاء ليردوا عنه كيد الأتراك إذا ثاروا به ، وارادوا اغتياله . وروي ان المقتدر بالله اتخذ نحواً من احد عشر الف خادماً من الروم والسودان وسواهم ، وولاهم قيادة الجند ، فأتيح له ان يحكم بهم خمساً وعشرين سنة . وفي ايامه ظهر مؤنس الخادم ، فقبض على زمام المملكة ، وتصرف فيها على هواه . وكانت له قيادة الجيش ، وإمارة الأمراء ، ووزارة بيت المال ، وحدث خلاف بينه وبين المقتدر ، فما انتهى الأمر الا والحليفة مقتول . ولم يكن نفوذ الخدم في قصور الخلفاء إلا ليزيد في انقاص هيبتهم ، وبيالغ في تنفير الناس من ولايتهم .

٣٠ نظام ولاية العهد

لم يكن نظام ولاية العهد في خلافة الامويين أشد تأثيراً منه في خلافة العباسيين . فان فتنة الأمين والمأمون من اجل الخلافة ، جعلت العرب يناصرون الأمين لأن أمه عربية . وجعلت الفرس يناصرون المأمون لأن أمه فارسية . فلما قُتل الأمين واستخلف المأمون اعتز الفرس ، وازدادوا رفعة ونفوذاً . وهان العرب وتضاءل سوادهم ، وغلبوا على أمرهم . فنفروا من العباسيين ونقموا عليهم ، وأبوا أن ينخرطوا في الجند لأن قواده من الفرس . فأصبح الجيش العباسي عجمياً ، ينضم إليه الفارسي والديلمي ، والتركي والمغربي وهلم جرّاً . فباتت الدولة في استنادها إليه تحت رحمة الأعاجم . ولكن الفرس كانوا يشدون ازر المأمون ، وكان المأمون صلباً حزمياً ، داهية ذكياً ، فقبض على الملك بيد فراسة فاقام عبوده ، ووطد أركانه .

وأثر أيضاً نظام ولاية العهد في خلافة المتوكل ، فان المتوكل ساء ظنه بالمنتصر ابنه البكر ، وانهمه بأنه يريد الأمر لنفسه في حياته ، وكان يلقيه بالمستعجل والمنتظر . فعزم على خلعه ونقل الوصية إلى ابنه المعتز أحد صغار أولاده . فحقدها عليه المنتصر ، وواطأ الاتراك على قتله ، فما ان قُتل حتى صار الامراء العباسيون يشور بعضهم على بعض .

٣١ أمهات الامراء

وكان من إسراف الخلفاء في الاستمتاع ان بالغوا في اقتناء الجواري الاعجميات والتسري بهن ، فنجلوا أولاداً من أمهات مختلفات الاجناس . فرأينا الامين يعتمد على العرب لأن أمه عربية ، والمأمون على الفرس لأن

أُمه فارسية ، والمعتمض على الترك لأن أُمه تركية . فنتج من ذلك ان
اختلفت أجناس الجند في الدولة ، فحفل الجيش بمخيلط من العناصر ، أضعفها
عنصر العرب .

واختلف أجناس النساء في قصور الخلفاء جعل تلك القصور موطناً
للدسائس والشايات والمؤامرات ، يشترك فيها الملوك والامراء والقواد
والحاسية رجالها ونساؤها . فانتهى الأمر إلى ان شغب الجند على القادة ،
وتنازع القادة السيادة فيما بينهم ، فسادت الفوضى ، وعمت أنحاء المملكة .

٥ نظام الاقطاع

ولنظام الاقطاع أثر سيء في وحدة الممالك العباسية . فان اتساع أراضي
الدولة وتراخي أطرافها جعل مسافات شاسعة بين العاصمة وأكثر الولايات .
ولكن الخلفاء في الصدر العباسي كانوا أشداء حزمّة ، فاستطاعوا ان يلموا
شعث هذا السلطان الضخم . فلما غلبوا على أمرهم ، وفست طاعة الجند ،
شعر الولاة بضعف ملوكهم ، فاهملوا رعاية أعمالهم ، وانصرفوا إلى المال
يجمعونه . وجبسوا رزق العمال عن أصحابه ، فما يدفعون لهم إلا بعد أن
يقطعوا نصيباً يأخذونه . فضجت البلاد ، واشتد السخط ، فعبد الخلفاء إلى
اغتيال الولاة والكتّاب استكفافاً لشرم . فكثرت العصيان والحروج ،
واضطربت أحوال المملكة ، وفقد الأمن وقامت الثورات من كل ناحية ،
فلا ترى حيث التفت إلا جماعة خارجة على السلطان .

٦ ثورات العلويين

وأشد الثورات ما قام به العلويون ، فانهم لما رأوا بني العباس استقلوا
بالأمر دونهم ، نفروا منهم كما نفروا من بني أمية ، وراحوا يبشون دعوتهم ،

على تعدد فرقهم . فظهر دعائهم في المغرب والعراق ، واستولوا على النواحي القاصية وأسسوا لهم بمالك فيها . فكان منهم الادارسة في المغرب الأقصى ، والعبيدوني^١ بالقيروان ثم في مصر ، والقرامطة بالبحرين ، والدواعي بطبرستان ثم فيها من بعدهم الديلم والأطروش . فخرج العلويين المتواصل ، وانتشار دعائهم في جميع الامصار ، وإقبال الناس على دعوتهم ، مكن لهم في كثير من الولايات . فما جاء العصر العباسي الثالث إلا والمملكة العباسية أجزاء مستقلة ، وأعظم هذه الأجزاء يسيطر عليه دويلات العلويين .

ميزة العصر

فلا عجب أن يمتاز هذا العصر بالنفوذ التركي ، وقد رأيت ما كان للأتراك من تأثير في مجرى الخلافة العباسية ، إذ جعلوا المملكة العوبة في أيديهم . فكان عصرهم معقلاً للذعر والارهاب والاضطهاد، وموطناً للتشيل والتقتيل والاغتيال ، وملعباً للدسائس والرشى والاختلاسات . وأصبحت حرية الفكر والدين في الصميم ، فخرست ألسنة الفلاسفة ، وعلماء الكلام من أهل الاعتزال، وخصوصاً في أوائل العصر. وحُرِّم عليهم البحث في مسألة خلق القرآن، ولم يسلموا من الحبس والتنكيل. واضطهدت الشيعة العلوية ، واضطهد النصارى فكان الاستبداد والجور من أظهر ميزات العصر .

١ العبيديون : هم الفاطميون . ينتسبون الى اول خلفائهم وهو عبيد الله المهدي .

الشعراء المولدون

العصر الثاني

ميزة الشعر

لم يكن الأتراك أهل حضارة وعرفان ، ليحملوا إلى العربية علومهم وآدابهم فيجعلوا فيها أثراً يئنساً كما جعل الفرس من قبلهم . ولم يُغنوا بدراسة لغة العرب وأدبهم عناية أهل فارس ، فيخرج منهم شعراء وكتاب يحدّثون في الأدب أحداثاً طريفة بليغة . لذلك بقيت ميزة الشعر على حالها ولم يتغير شيء من تلك الحضارة الجديدة التي زفها الفرس والروم إلى العرب . ولا عبوة في التبدل السياسي ، وقيام نفوذ الأتراك على انقراض نفوذ الفرس ، لأن البحث يدور على التاريخ الأدبي لا على التاريخ السياسي . والحوادث السياسية لا تكون سبباً دائماً لتطور الآداب . ولكن الذين وضعوا نظام البكالوريا اللبنانية حاولوا أن يجدوا فرقاً بين العصر الأول والثاني ، فاختلف عليهم الأمر ، فتكلفوا للعصر الثاني خصائص تكاد لا تختلف عن خصائص العصر الأول . فجعلوا ميزة الشعر : « المدح والهجاء والوصف » ، مع أن هذه الأنواع اشترك فيها العصران فلم يختلف فيها أحدهما عن الآخر . وليس في زعمهم أن في العصر الأول شعر القصور أو الشعر المتوف ، ما يدعو إلى تمييز العصر الفارسي من العصر التركي . ففي شعر ابن المعتز والبحثري وابن الرومي من الترف ومدح أصحاب القصور ما في شعر بشار وأبي نواس وأبي تمام .

لذلك نرى أن فصل العصر الثاني عن الأول لا مسوّغ له . ونحن لم نجعلها عصرين إلا مجازة لنظام البكالوريا ، ثم لأننا أفردنا لكل عصر لمحة تاريخية خاصة به .

البصري

٨٢٠ - ٨٩٧ م و ٢٠٥ - ٢٨٤ هـ

حياته : عربي من طيء . ولد في بادية منبج . اتصاله بأبي تمام . اتصاله بالمتوكل . صفاته وأخلاقه . آثاره .
ميزته : الطبيعة وال عمران . قوة الخيال ودقة الوصف والتصوير . مدحه : ديني أكثره . وصفه : وصف الايوان . غزله . رثاؤه . عتابه .
فخره . حكمه . هجاؤه . ما أدرك عليه .
منزله : ديباجته . الطريقة الشامية .

حياته

هو الوليد بن عبَّيد^١ ، عربي صريح ينتهي بأبيه إلى طيء ، وبأُمه إلى شيان^٢ ، ويلقب بالبُصري نسبة إلى 'بُحتر أحد أجداده . ويكنى بأبي عبادة وأبي الحسن ، والاولى أشهر .
وكانت ولادته في بادية مَنبِج^٣ وبها نشأ نشأة عربية خالصة . ونظم الشعر وهو حدث . وكان يمدح في أول أمره أصحاب البصل والباذنجان .

١ هذه رواية الديوان وابن خلكان . وأما رواية الاغانى فهي ان اسمه الوليد بن عبيد الله ، والاولى اشهر . والبصري قصيدة يفتخر فيها بأبائه ويذكر معهم عبيداً ولا يذكر عبيد الله اذ يقول :

وعبيداً ، ومسهرأ ، وجدياً ، وتدولا ، وبُحترأ ، وعتودا

٢ يدل على ذلك قوله :

أعمرو بن شيان ، وشييانكم أبي ، اذا نسبت أُمي ، وعمركم عمري

٣ منبج : بلدة بين حلب والفرات .

ثم أحب علوة بنت زريقة الحلبية فشذب بها ، وشهرها بشعره .
على أن نباهته لم تبتدىء إلا بعد اتصاله بأبي تمام ، ونخرجه عليه .
واختلفت الروايات في حقيقة هذا الاتصال فقليل ان البحري صار إلى حبيب
وهو بمحص فعرض عليه شعره فاحتفل به أبو تمام ، وسأله عن حاله ، فشكا
إليه خلّة^١ ، فكتب إلى أهل معرفة النعمان يشهد له بالحدق ، ويوصيهم
باكرامه . فأكرموه بكتابه ، ووظفوا له^٢ أربعة آلاف درهم ، فكانت
أول مال أصابه .

وقيل بل كان أبو تمام في مجلس أبي سعيد الطائي ، فدخل البحري وهو
يومئذ حديث السن . فأنشد قصيدة امتدح بها أبا سعيد ، فحفظ أبو تمام
أكثرها وادعاها . فصدق أبو سعيد دعواه لمكانته في الشعر ، ووبخ البحري
لمدحه إياه بشعر مسروق . فخرج البحري يجر رجله . ولكن ما ابعده حتى
تبعه الغلمان وردوه . وأقبل عليه أبو تمام ، وقال له : « الشعر لك يا بني .
والله ما قلت قط ، ولا سمعت به إلا منك . ولكنني ظننت انك تهاننت
بموضعي ، فاقدمت على الانشاد بحضرتي ، من غير معرفة كانت بيننا ، تريد
مضاهايتي ، ومكاثرتي . حتى عرفني الأمير نسبك وموضعك . ولوددت ان
لا تلد طائفة إلا مثلك . »

ورويت هذه الحادثة على وجه آخر لم يدع فيه أبو تمام القصيدة بل اهتز
لها طرباً ، وقبل الغلام الشاعر بين عينيه ، وجعل له جائزته . ثم لزمه
البحري واقتدى به وأخذ عنه .

والبحري كغيره من الشعراء لا يرى مورداً عذباً لشاعريته إلا دار

١ الخلة : الحاجة والفقر .

٢ وظفوا له : عينوا له .

الخليفة أبغداد كانت أم سر من رأى . لذلك قصد إلى بغداد في خلافة
الوائقي^١ وامتدح وزيره ابن الزيات بقصيدة يقول فيها :

دَقَّ قَهْمًا وَجَلَّ حِلْمًا فَأَرْضَى اللَّهَ فِينَا ، والوائقي بن الرشيد

ومدح الحسن بن وهب ، وأخذ منه الجوائز . وكان الحسن يتولى
ديوان الرسائل من قبل ابن الزيات . وامتدح غيرهما من الأمراء والقواد ،
ولكنه لم يتصل بالوائقي ، ولا اتخذ العراق له داراً إلا بعد أن بويح
للمتوكل^٢ ، فاخص بخدمته وخدمة وزيره الفتح بن خاقان ، ولقي عندهما
الحرمة حتى قتل معاً على مشهد منه . فعزن عليهما ، واسودت العراق في
عينيه ، فعاد إلى منبج . على انه كان يختلف إلى بغداد وسر من رأى بمدح
فيهما الخلفاء والأمراء ، ولكنه لم يختص بواحد منهم ، ولعله اتصل بالمعتز^٣
أكثر من غيره ، فكثرت مدائحه فيه ، غير انه لم يجعل العراق في عهده
مقاماً له كما جعلها في عهد المتوكل . ولم يستقدم إليها عيلته بل تركها في
منبج ، لذلك نراه يلتبس من المعتز لإذن شهرين ليروى صبيته ، ويصلح خلة
ضيعة يأمر له بها ، قال :

هَلْ أَطْلَعَنْ عَلَى الشَّامِ مَبْجَلًا ، فِي عِزِّ دَوْلَتِكَ الْجَدِيدِ الْمُونِقِ^٤ ،
فَارُمُ خِلَّةَ ضَيْعَةٍ تَصِفُ اسْمَهَا ، وَالْمِثْمُ بِصَبِيَّةٍ لِي دَرْدَقِ^٥
مَشْهُرَانِ إِنْ بَسُرْتُ إِذْنِي فِيهَا ، كَفَيْلَا بِالْفَسَةِ شَمْلِي الْمُنْفَرَقِ

١ الوائقي بن المعتصم بن الرشيد ، خلافته من سنة ٢٢٧ - ٢٣٢ هـ (٨٤١ - ٨٤٦ م).

٢ المتوكل بن المعتصم ، خلافته من سنة ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ (٨٤٦ - ٨٦١ م) .

٣ المعتز بن المتوكل ، خلافته من سنة ٢٥٢ - ٢٥٥ هـ (٨٦٦ - ٨٦٨ م) .

٤ المونق : المعجب .

٥ فارم : فأصلح . الخلة : الثلمة . دردق : اطفال .

ولبت البحتري يتنقل بين العراق والشام حتى أواخر خلافة المعتد^١ ، وهو آخر خليفة اتصل به ومدحه . ولم تستقر به منبج إلا في خلافة المعتضد^٢ فأقام فيها لا يروحها حتى مات ، وكانت وفاته بالسكنة .

صفاته وأخلاقه

قال صاحب الأغاني : « كان البحتري من أوسخ خلق الله ثوباً وآلة ، وأبخلهم على كل شيء . وكان له أخ و غلام معه في داره فكان يقتلها جوعاً ، فإذا بلغ منها الجوع أتياه يبكيان ، فيومي إليهما بشن أقواتهما مضيئاً مقترأ ويقول : كُلا ! أجاع الله أكبادكما ، وأطال جهادكما ! » اهـ

على انه لا يسعنا أن ننقل هذه الرواية إلا في شيء من التحفظ ، لأن دراستنا لشعر البحتري أطلعتنا على ناحية بيّنة من حياته وأخلاقه ، فأرتنا فيه رجلاً حريصاً على التكسب وجمع المال ، حتى انه وقف شعره على المدح ، وتاجر بـغلام له فكان يبيعه ثم يشبب به ويمدح من اشتراه ، فيستعيده بشعره . وما زال كذلك حتى مات الغلام وكفى الناس أمره . وقد أفاد البحتري ثروة حسنة من شعره ، فـجـريـت عليه الأرزاق ، وامتلك الضياع فكان يتعهدا ، ويرمّ خلاتها في كثير من الاعتناء . فلقد كان ممن يتعبدون للمال ، ولا يقع لهم فتور عن اكتنازه . ولكنه لم يكن يقتر على نفسه ، ويبخل بالنفقة على ملاذه . وهو صاحب لهو ولذة ، يشرب الحبرة ، ويجـزـر مجالس الطرب ، ويعبث ويفتك ويمجن . على اننا لا نشك في أن البحتري كان بخيلاً على الناس ، وانه صحبهم ليأخذ منهم لا ليعطيهم : صحبـت أنا ما أطلب المال عندهم فكيف يكون المال مـطـلـباً عندي !

١ المعتد بن المتوكل ، خلافته من سنة ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ (٨٦٩ - ٨٩٢ م) .

٢ المعتضد بن الموفق بن المتوكل ، خلافته من سنة ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ (٨٩٢ - ٩٠٢ م) .

ولكنه لم يكن كزراً شحيحاً كما أفرط بعض الرواة في وصفه . وربما آتست فيه أريجياً واهتزازاً للمعروف إذا علمت أنه مدح طاهر بن محمد^١ الهاشمي . وكان طاهر قد أنفق ماله على الشعراء والزوار ، وركبته الديون فقعد في داره . فلما وصلت إليه مدحة البحري ، بكى وقام فباع داره بثلاثة دنانير ، وأخذ صرة وأنفذ منها مائة إلى البحري . وكتب إليه معها رقعة فيها أبيات يعتذر فيها من قلة العطاء لضيق ذات يده . فلما وصلت الرقعة والدنانير إلى البحري ردها على صاحبها . وكتب إليه أبياتاً يقول فيها :

غَيْرَ أَنِّي رَدَدْتُ بِرِّكَ إِذْ كَا نَ رَبًّا مِنْكَ وَالرَّبَّ لَا يَحِلُّ^٢
وَإِذَا مَا تَجَزَيْتَ شِعْراً بِشِعْرِي ، قُضِيَ الْحَقُّ ، والدَّانِيرُ فَضْلُ^٣
فهذه عاطفة طيبة لا تدل على خساسة ودناءة .

ومن صفاته أنه كان شديد الغرور بشعره ، كثير الاعتداد بنفسه حتى ليتبعض في إنشاده زهواً وإعجاباً . فقد روي انه كان إذا أنشد أخذ يتشادق ، ويتزاور^٤ في مشيته مرةً جانباً ، ومرة القهقري . ويزرّ برأسه مرة ، وبمنكبه أخرى . ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول : « أحسنت والله ! » ثم يُقبل على المستمعين ، فيقول : « ما لكم لا تقولون لي أحسنت ! هذا والله ما لا يحسن أحد ان يقول مثله ! » على أن ذلك لا يعني أن البحري كان ثقیل الظل مقيتاً ، فشعره يدل على خفة روح ، ولطف ودعابة .

ويجمع الرواة في شاعرنا صفتين متناقضتين وهما الوفاء والحياة ، ومن

١ هذه رواية ابن خلكان . وفي الديوان طاهر بن اسماعيل .

٢ برك : احسانك . الربا : ما يستحق للدائن على المدين من زيادة على ما يدينه اياه .

٣ فضل : زيادة .

٤ يتزاور : يميل وينحرف .

الغريب أن يجتمع النقيضان في واحد فيكون تارةً برّاً وفيّاً ، وطوراً غداً رآ خؤوناً ، فبينما نسمع المرزُباني يقول في موشحه انه لم يرَ اقل وفاء من البحري لأنه هجا اربعين رئيساً بمن مدحهم ، ونقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها إلى مدح غيرهم ، وأما اسماء من مدحه أولاً ، نرى صاحب الأغاني يحدثنا بوفائه لاستاذة فإذا هو يرد على من يقول له : انت اشعر من ابي تمام : « كلاً والله ان ابا تمام للرئيس والاستاذ . والله ما اكلت الخبز إلا به . » ويحدثنا بوفائه لأبي سعيد الطائي وابنه واختصاصه بهما حتى انه رثاهما بعد مقتلهما فكانت مرثيته فيهما اجود من مدائحه . ولنا ايضاً بيتة على وفائه قصيدته التي رثى بها المتوكل وهجا المنتصر^١ وهدّده بالقتل فعرض نفسه لسخطة كادت تودي بحياته ولو لم يشفع له أحمد بن الحُصيب وزير المنتصر ويسترضي الخليفة الجديد ، لما عفا عنه واجازة على قصيدة مدحه بها وأوصلها إليه الوزير . ولكن البحري كافاً ابن الحُصيب شر مكافأة يوم نكبه المستعين^٢ ، فإنه حرّض الخليفة على قتله واستصفاء أمواله ، وفي ذلك يقول :

والرأيُ كلُّ الرأيِ في قَتْلِهِ بالسَّيفِ ، واستِصفاءِ أموالِهِ

فهذه الأخبار المتناقضة تجعلنا في حيرة من امر هذا الرجل فنقف موقف الشك بين خيائته ووفائه ، لا نقطع بأنه خؤون ، ولا نقطع بأنه وفيّ . غير اننا نرجح الجانب الأول ، ذلك ان البحري لم يخلص للمتوكل والفتح ابن خاقان ولم يذكرهما بخير بعد موتهما إلا لأنه فقد بهما جنته في الحياة

١ المنتصر بن المتوكل هو الذي واطأ الاثرالك على قتل ابيه ، خلافته ستة اشهر من سنة ٢٤٧ - ٢٤٨ هـ (٨٦١ - ٨٦٢ م) .

٢ المستعين بن المعتصم ، خلافته من سنة ٢٤٨ - ٢٥٢ هـ (٨٦٢ - ٨٦٦ م) .

الدنيا ، فقد كان يرتع في جنبائيهما في مجبوحة من العيش الحُضيل . فلما هلكا وأحسن بنجم سعوته يغور في إثرهما صرخ صراخ اليأس المستبیت ، وبكى على حظه في رثائه للمتوكل ، ولم يفتن إلى انه قد عرض بنفسه إلى التهلكة في شتبه المنتصر . ولكنه ما تاب إلى رثده حتى صمت واعتصم بالثقية ، ثم سعى إلى استرضاء الخليفة الجديد . غير انه لبث يذكر المتوكل والفتح في كل سائحة وبارحة ، لأنه لم يجد بعدهما خليفة ولا وزيراً يملأ الفراغ الذي أحدثاه في نفسه . ومدح بعدهما طائفة من الخلفاء والأمراء وتكسب منهم دون أن يخلص الولاء لأحدهم لأنه كان يتوقع أبداً تبدل الولاة والملوك . فصاحبهم على دخل يمدحهم في عزم ، ويتنكر لهم في نكبتهم ، وهو لما يماشي زمانه في ذلك . وقد وُجد في زمن قل فيه الوفاء وكثر الغدر والرياء . والزمان كأهله وأهله كما ترى .

وليس وفاؤه لأبي سعيد وابنه إلا لأنها من طيء وكانا يعطفان عليه ، ويحسنان صلته . فأحبها حب النسب لنسبته ، وحب المنتفع لمن ينتفع منه . فمدحها وتعصب لها ، ورثاها أحسن رثاء . وأما وفاؤه لأبي تمام فوفاء التلميذ لأستاذه والقريب لقريبه . ولكن لا نجد له قصيدة في رثائه تظهر قيمة هذا الوفاء إلا بعض أبيات رثى بها دعبلاً وذكره فيها معه .

وفي البحتري خاصة ظاهرة في شعره وهي حب الوطن ، فإنه كثيراً ما يحن إلى منبج وحلب ، ويحسب نفسه غريباً في العراق ، مع ان شهرته لم تقم إلا فيه ، وثروته لم تجمع إلا هناك .

وكان يتعصب لليمن عموماً ولطيء خصوصاً ، ولكنه لم يكن مفرطاً في نعصبه ، وربما لمحت فيه شيئاً من التعاجم لأنه كان مفتوناً بحضارة الفرس ، ولأنه وُجد في عصر كانت السيادة فيه للموالي لا للعرب .

فضعت فيه العصبية كما ضعفت في كثيرين من أمثاله .
على انه كان شديد التعصب للإسلام ، وربما نزع إلى التشيع فتسمعه يمدح
الطاليين ، ويهجو علي بن الجهم لتعرضه لهم بالهجاء . ولكنه كان يتحفظ
ولا يسرف في اظهار تشيعه ، وخصوصاً في عهد المتوكل . فإنه لما جاء العراق
أراد ان يتكفى بأبي الحسن بدلاً من أبي عبادة ليتشبه بعلماء الشيعة ،
فرأى من المتوكل كرهاً شديداً للعلويين فعدل إلى كنيته الأولى ، وكنى
تشيعة ، أو تركه ، ولكنه لم يقل هجراً في الطاليين .

آثاره

ديوان شعر أكثره في المدح ، وأقله في الهجاء والثناء . وفي مدحه
غزل كثير ، ووصف مختلف الوجوه والأنواع . وبقي شعر البحتري
متفرقاً حتى جمعه أبو بكر الصولي ، ورتبه على الحروف . وجمعه علي بن
حزرة الأصفهاني ورتبه على الأنواع . وشرحه أبو العلاء المعري ، وسماه
عبث الوليد . وطُبع هذا الديوان بالاستانة في جزءين كبيرين ، ثم طبع
في بيروت مشكولاً ، ومشروحاً بعض ألفاظه . وكلتا الطبعتين لا ترتيب
فيهما ، وليس لهما فهرست تُعرف به القوافي ، وفيها قصائد مكررة لم
يلتبه إليها من جمعها .

وعني البحتري بالتأليف كأستاذه فجمع كتاب الحماسة معارضة لكتاب
أبي تمام ، اختاره من أشعار العرب للفتح بن خاقان ، وجعله مائة وأربعة
وسبعين باباً ، ضمّنها معظم المعاني الأدبية التي تناولها الشعراء المتقدمون .
وهذه الأبواب على كثرتها صغيرة لا يتجاوز بعضها الصفحة الواحدة .
ولم يتقيد فيها البحتري بأبواب الشعر المعروفة ، بل نظر فيها إلى الأغراض
والمعاني ، فجاءت جديدة في نوعها . مثال ذلك : الباب الأول فيما قيل في

حمل النفس على المكروه . الباب الخامس عشر : فيما قيل في استجابة الموت عند الحرب . الباب الثاني والستون : فيما قيل في ذم عاقبة البغي والظلم الخ ... وقد خلت من الغزل والمحش والمجون . وتشتمل حماسة البحري على أقوال لنحو ستمائة شاعر من الجاهلية وصدر الاسلام ، وفيهم نفر أدركوا بني العباس كيحيى بن زياد ، وصالح بن عبد القدوس ، وبشار ، ومطيع بن إياس . وطُبعت في بيروت ومصر . وله أيضاً كتاب معاني الشعر لم يصل إلينا .

ميزته

البحري طائر غريد سيج بأنغامه في أفق علوي ، خصب الخيال ، متنوع الاصباغ . فأشرف على جلال الطبيعة وجمالها ، وحوّمْ فوق جبالها ومروجها ، وأنهارها وغيظانها . ورُفرف على زخارف المدنية وعمرانها ، فعلقت جميع هذه الصور بقوادمه وخوافيه ، فصبغتها بأشكال من الرسوم والتلاوين .

ولا تقوم شاعرية البحري على المدح أو الغزل أو الرثاء وإن برع في كثير منها ، وإنما تقوم على جمال الفن وانطلاق الخيال ، واتقان الوصف والتصوير . ونحن سنعنى بدراسته من جميع نواحيه حتى تتكشف خصائصه التي يمتاز بها في أنواع الشعر وفنونه .

مدحه

وقف البحري شعره على المدح لا يلتفت لِفَتْ غيره إلا غراراً . فغير عجيب أن يجيد هذا الفن ، ويبرع فيه . وله من أهبة شاعرية فياضة ، ونزوع شديد إلى التكسب والاستجداء ،

وأدرك البحري عشرة خلفاء من المأمون إلى المعتضد . ولكنه لم يمدح غير ستة ، وهم المتوكل بن المعتصم ، والمنتصر بن المتوكل ، والمستعين بن المعتصم ، والمعتز بن المتوكل ، والمهتدي بن الواثق ، والمعتمد بن المتوكل . وأكثر مدائحه في المتوكل ثم في ابنه المعتز .

ومدح من الأمراء والوزراء طائفة كبيرة ، منهم الفتح بن خاقان وزير المتوكل . والحسن بن مَخْلَد وزير المعتضد . وإبراهيم بن المدبر من كبار رجال الدولة . وآل سهل . وإسماعيل بن بلبل الشيباني . وأنسابؤه أبو سعيد الثغري وابنه يوسف ، وآل حُميد الطوسي وسواهم . وأحسن مدائحه ، وأصدقها عاطفة ، ما قاله في المتوكل والفتح وأبي سعيد . وهو إذا مدح المتوكل مدح خليفة في عز دولته ، وقوة سلطانه ، لا سيطرة للموالي عليه ، كسيطرتهم على من جاء بعده من الخلفاء . فترى الشاعر يعن في وصف جلال الملك ووقاره . ويشبه المتوكل بالنبي ، ويستفيض بذكر تقواه ، وتعزيزه للدين ، وإقامته أحكام السنة . ويجعل له زلفة عند الله ، فإذا احتبس المطر استسقى للمسلمين فينهل الغمام :

لَمَّا تَعَبَّدَ مَحَلُّ الْأَرْضِ وَاحْتَبَسَتْ غُرُّ السَّحَابِ حَتَّى مَا نُرَجِّيَهَا
وَقُمْتَ مُسْتَسْقِيًّا لِلْمُسْلِمِينَ جَرَّتْ غُرُّ الْغَمَامِ، وَحَلَّتْ مِنْ عَزَالِيهَا

ويظهر ان المطر احتبس يومذاك فصلى المتوكل صلاة الغيث . ثم امطرت السماء فجعلها البحري من كرامات بمدوحه . ويذكر له كرامة أخرى

١ تعبد : صعب وامتنع .

٢ عزالي : جمع عزلاء وهي مصب الماء من القرية . يقال : انزلت السماء عزاليها إشارة الى شدة وقع المطر على التشبيه بنزوله من افواه القرب . وقوله : وحلت من عزاليها اي حلت عقدها فتدفق ماؤها .

وهي طاعة الوحوش له وسيرها في ركابه :

وطاعة الوحش إذ جاءتك من خرقٍ أحوى ، وأمانةٍ كحلٍ مآقيها^١
إن سرت سارت ، وإن وقفتها وقفت^٢ صوراً إليك بالحاظِ تواليها^٣

وقد يعرض لسياسة الخلافة في مدحه المتوكل ، فيؤيد حق العباسيين ، ولكنه لا يهجو الطالبيين مع علمه بكره الخليفة لهم ، لان هواه فيهم ، ولم يجاهر بميله إليهم إلا بعد مقتل المتوكل وقيام المنتصر . وكان المنتصر ينكر على والده اضطهاد العلويين ، واذنه للناس بلعن علي ، ولطالما عارضه في ذلك فلقى منه التحقير والطرد . فلما مدحه البحتري بعد ان ولي الخلافة ، ذكر عطفه على العلويين ، وجاهر بتفضيل علي على عمر قال :

وإن علياً لأولى بكم^٤ ، وأزكى يداً عندكم^٥ من عمر^٦

ولم يعرض بعد المتوكل لسياسة الخلافة إلا في الندرى ، ذلك بأنه لم يخلص الحب لخليفة لإخلاصه إياه للمتوكل . ثم انه رأى ضعف الحلائف الذين توالوا بعد المتوكل ، فعلم ان من العبث الكلام على سياسة الخلافة بين العباسيين والталиبيين ما دام الأمر فيها للموالي . وأصبح لا يمدح خليفة إلا مدح الموالي معه وازدلف إليهم . ويكثر ذكره لهم في مدح المعتز ، ولعله كان يشفق عليه من سطوتهم ، او يخشى على نعمته أن تزول بزواله ، وهو قد اتصل به وحظي عنده أكثر منه عند غيره . فإذا مدحه أشاد بذكرهم ، وجعلهم جند الله لتأييد الخليفة ونصرته . واعتذر عنهم إذا أساؤوا

١ الخرق : ولد الظبية الضعيف القوائم . الأحوى : ما خالط حمرة او صفرة سواد .

الأمانة : الظبية اشرب لونها بياضاً .

٢ صوراً : جميع أصور وهو المائل .

إليه أو أنموا :

وَلَيْتَ نَصْرَهُ الْمَوَالِي فَأَعْطَتْهُ عُلُوُّ السَّمَاءِ أَوْ هُوَ أَعْلَى

*

أَمَّا الْمَوَالِي فَجَعَدُ اللَّهِ حَمَلَهُمْ ، إِنْ يَنْصُرُوكَ ، فَقَدْ قَامُوا بِمَا احْتَمَلُوا^١

وضُغف الخلفاء حملة على استنهاض همهم ، فكان يذكّرهم آباءهم العظام ، ويزعم انهم متشبهون بهم ، ساثرون على خطاهم ، كقوله في مدح المهدي :

له عزمة^٢ ما استبطن الملك نجحها ، ولا استعتب الأيام وري زنادها^٣

رشيديّة في نجرها واثقيّة ، يرى الله إيثار الثقي من عتادها^٣

وإذا رأى بادرة عزم من أحدم ، تنفّس الصعداء ، وشاقه أن تستعيد عزة الملك سابق عهدا ، فنسمعه يقول بعد ان فتك المعتز ببغا :

فاليوم عاودت الخلافة عزها وأضاء وجهه الملك بعد ظلام

أضعى بغاء وأقربوه وحزبه ، وكأنتهم حلّم من الأحلام

والبحتري يصدر مدحه على الغالب بالغزل . وقلما عني بحسن التخلص بل ينتقل وثباً ، ويقتضب اقتضاباً كأستاذ أبي تمام . ولكنه يختلف عنه

١ حملهم : كلفهم . احتملوا : تكلفوا وحملوا .

٢ استعتب : استرضى . الوري : خروج النار من الزناد . الزناد : جمع زند وهو العود الذي تقدح به النار . يقول : له عزمة ناجحة لم يستطع الملك نجاحها يوماً ، ولا احتاج توقدها إلى استرضاء الأيام لأن الأيام طائفة لها .

٣ نجرها : أصلها . إيثار : تفضيل . العتاد : العدة . يقول : إن الله يرى لها أن تجعل تفضيل الثقي عدة لها .

بأنه أقل غلواً منه ، وأشدّ تركفاً لمدوحه ، وأكثر تحذراً بنعمه . وشعره كشره حافل بالفوائد التاريخية . ففيه أخبار الوقائع والحروب التي جرت في أيامه ، وأخبار الذين خرجوا على العباسيين من علويين وسواهم . وفيه غير ذلك من الحوادث التي تُظهر لنا اضطراب الحالة السياسية في ذلك العصر .

وصفه

والوصف هو الذي رفع منزلة البحثري ، وأحله في الطبقة الأولى . فقد أوتي من قوة المخيلة وروعة التصور ما جعله يتناول الأشياء المادية فيرسها بشعره لمحاً ، فيخرج لها صوراً دقيقة بارعة الفن . وقد يرتفع عن المراثيات فيمعن في سبأ الخيال ، ثم يعود بمختلف التصاوير والتهاويل ، ملؤها حركة وحياة ، فتحس كأنك تسمع جرسها ، وترى خطراتها ، وتلمسها بأناملك العشر .

وكان لنشأة الشاعر في بادية منبج يد في تصفية خياله ، فشب على ما يشب عليه أهل البداوة من دقة الحس ، وصدق المخيلة ، ورفقت عليه منبج بجمالها الطبيعي الذي تغنى به الشعراء ، فاستمد منها خياله البديع ، ثم زاده ثروة بأسفاره إلى الأمصار المتحضرة . فبهرتة المدنية الجديدة بمشاهدة عمرانها . فشغف بها ، وصورها أحسن تصوير ، كوصفه إربان كسرى ، وبركة المتوكل ، وقصر المعتز ، ومجالس اللهو والحمر ، أو وصفه للمناظر الطبيعية ، كدجلة والربيع . حتى أن أوصافه البدوية ، على ماديتها الظاهرة وضيق حدودها ، وسلوكه في أكثرها مسلك من تقدمه ، لا يعدوها جمال الفن ولا سيما قصيدة الذئب .

وصف الايوان

لم يخبرنا الرواة عن السبب الذي حمل البحري على السفر إلى المدائن حتى زار قصور الأكاسرة ، وطاف بها وبكى عليها . ولكن الشاعر يذكر في مستهل قصيدته انه شخص إليها وملاء فؤاده يأس وتشاؤم ، فهو حزين لانه استبدل العراق بالشام ، وهو مثقل بالهموم يشكو جفاء ابن عمه له . فسفره كان إذآ لتفريج الكرب ، وللترفيه عن النفس .

وكان الايوان يوم طاف به الشاعر خراباً ، معرّى من أثائه ، بعد أن أمر المنصور بهدمه . فأخذ البحري بجلال معالمة ورسومه ، واجتذبه روعة الفن ، فانخطف على أجنحة الخيال ، وتمثلت له عظمت الأكاسرة بما عرف من أخبارهم ، وشهد من آثارهم . وذكر اليمن وغارة الأحبوش عليها ، وانتصار كسرى لها ، وردة الملك على أميرها ابن بن ذي يزن ، فأخذ يصف الايوان ، ويتغنى بفضل الفرس الذين أبدوا استقلال بلادهم .

ويقف أمام صورة تريك وقعة بين الروم والفرس في مدينة انطاكية ، فيتناولها بالوصف فتحس ان الحياة تدب فيها ، ويبدو لك انك تشاهد التحام الفرسان ، ووقع الأسنة . وتمثل كسرى في ثيابه الملونة يسوق الصفوف تحت رايته . وما أنت إلا منجذب مع الشاعر في خياله الجميل :

فإذا ما رأيت صورة أنطاكية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل ، وأنوشروان^١ يزجي الصفوف تحت الدرفس^٢

فقصيدة الايوان ابلغ مثال لدقة الوصف ، وسمو الخيال عند البحري . وقد ادهش بها معاصريه لانه فتح بها فتحاً جديداً في الأدب ، وهو البكاء

١ يزجي : يسوق . الدرفس : العلم الكبير .

على الممالك الزائلة ، ووصف أطلالها الدارسة . فإذا ابن المعتز يقول :
 « لو لم يكن للبحثري إلا قصيدته السينية في وصف ابوان كسرى ، فليس
 للعرب سينية مثلها ، وقصيدته في وصف البركة لكان أشعر الناس في
 زمانه . »

غزله

ليس للبحثري غزل قائم بنفسه ، وإنما هو في صدور مدائحه ، فمنه تقليدي
 بدوي يتسم به الأقدمين من وقوف وبكاء على الأطلال ، ويكثر فيه
 ذكر أسماء عرائس الشعر كسعاد وأسماء وليلى ، وذكر أماكن البدو
 كنجد وإصم وخبثت . وهذا النوع لا يطالعك بشيء طريف . ومنه الجديد
 المترف ، وهو الذي تحس فيه نفسية الشاعر ، وتلمس عاطفته المتوقدة .
 وفيه يصف عواطف نفسه وأهواءها ، وشجونها وارتياحها ، ويصف مواقف
 اللقاء والوداع ، ومجالس اللهو والأنس ، والحرمة والحبيب . ويصف
 استكانته للحب وخضوعه ، واذعانه لمشيئة محبوبه . وقد يتهتك في تشبيهه
 ولكنه لا يبلغ فيه مبلغ أبي نواس .

وأول ما عرف الحب قلب البحثري يوم تعشقت علوة الحلبية ، فأذكت
 الجذوة الأولى في فؤاده ، فأذابت عاطفته على قوافيه . ثم ابتعد عنها إلى
 العراق ، فكان لا يفتر عن ذكرها ، والتشبيب بها والجنين إليها . والظاهر
 ان علوة هذه كانت فتاة نياهة يلذ لها العبث بقلوب الفتيان ، وليس للتصون
 عندها حظ كبير ، لذلك لم يكن حب البحثري لها عذرياً ولا صلته بها
 طاهرة ، حتى إذا بلغه انها تزوجت هجاها ، وأوجع عرضها ، ورمأها بكل
 سائنة . وغزله فيها يظهر لنا حقيقة هذا الحب وبُعده من العفاف .
 على ان البحثري لم يقصر حبه على علوة بل أحب أشخاصاً آخرين ،

احتلوا فؤاده ، واشتركت عاطفته فيما بينهم ، فذكرهم في شعره وشبّب بهم جميعاً .

وكان صاحبنا لم يسعد طالعه بمن يواهم ، فابتلي بالافتراق عنهم ، فكان يتشوّق إليهم ، ويتلهّف على أيام لقائهم ، فإذا لجت به الذكريات ، وتغلبت عليه الأشواق ، تمثلت له أخيلتهم في المنام ، فإذا هبّ من نومه ، وكذبت اليقظة الحلم ، تضاعف التياغ وازداد وجده ، فراح يشبب بطيف الحبيب ، ويأسى على فراقه ، كأن الحلم حقيقة . ولما كثّر ذلك منه طارت له شهرة في وصف طيف الخيال .

وغزل البحري في أكثره لطيف ناعم ، يزدان بحسن الوصف ، وفيه ما يستأسر القلوب ، ويثير العواطف في النفوس .

رثاؤه

كاد البحري يحصر رثاءه في نسيب يعز عليه فقده ، أو صديق يشجوه بعده . فقد رثى المتوكل وكان أحبّ الخلفاء إليه . ورثى أبا سعيد وابنه يوسف وآل حمّيد وجميعهم من أنسابه . ورثى غلامه قيصر وكان يحبه ، وجارية له وكان يواها . لذلك جاء رثاؤه على قلّته عاطفياً صادق التفجع . على أنه لم يرث الفتح بن خاقان مع حبه له وحزنه على موته . فقد تاب إليه رشده بعد رثائه المتوكل ، فشعر بالخطر المحدق به فلم يجرؤ على رثاء الفتح ، لأن المنتصر ادّعى ، بعدما بويغ بالخلافة ، أن الفتح قتل المتوكل ، وأنه قتل الفتح ثأراً لأبيه .

وليس للبحري غير مراثاة واحدة في المتوكل ، ولكنه ظل يذكره ويذكر الفتح في سوانح شعره ، ويتلهف على أيامهما . ولم يرث خليفة غيره ، مع أنه شهد مقتل جماعة منهم كان متصلاً بهم بمدحهم ، ذلك بأنّه لم

يخلص الحب لخليفة بعد المتوكل ولم يشأ أن يستهدف لغضب الموالي وولاية العهد ، وهو يعلم أن أكثر الخلفاء الذين ماتوا في زمنه قُتلوا إما بسيف الأتراك ، وإما بمكيدة يشترك فيها ولي العهد .

وأكثر مرثي البحري يتخللها المدح ، ولا سيما ما جاء في رثاء الأمراء الذين يفيد منهم . فإنه يبكي الميت ويتفجع عليه ، ثم يفرغ إلى تعزية ولده أو بعض اهله فيسعن في مدحهم ، فكأنه يوطئ من رثائه سبيلاً للاتصال بهم . فقد رثى نسيبه أبا سعيد رثاء صادقاً لا شك فيه ، ولكنه مدح في القصيدة نفسها ولده يوسف . ورثى وصيفاً القائد التركي ، ومدح في المراثاة ولده صالحاً . وتجد له مديحاً في محمد بن عبد الله بن طاهر ادبجه في رثائه لأخيه طاهر ، وعمه الحسين .

ويستهل مرثيه على الغالب بتعظيم الخطب وإكباره ، وذم الدهر والتوجع من صروفه ونوائبه . وما يؤخذ عليه في رثاء النساء ان المرأة مضعوفة عنده ، فهو يرى فيها رأي الفرزدق زاعماً انها أهون ميت على الرجل ، وان البكاء عليها عيب وغضاضة . ولعله يتكلم بلسان عصره ، فإن المرأة كانت يومئذ ذليلة الجانب ، محتقرة المكان . فمن ذلك قوله يعزي نسيبه أبا نهشل الطوسي عن ابنة افتروطها :

ولعمري ما العجز عندي إلا أن تبيت الرجال تبكي النساء

وقوله مستنداً إلى حديث لا ندري مبلغ صحته :

ومن نعم الله لا شك فيه حياة البنين ، وموت البنات
لِقَوْلِ النَّبِيِّ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَوْتُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ

عتابه

برع البحتري في العتاب ، وأحسن في اللوم والاستواء ، حتى قال صاحب العمدة : « وأحسن الناس طريقاً في عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيد الجماعة أبو عبادة البحتري . » ويمتاز عتابه في نعومته ، وتلطفه ، فإنه يؤنب قليلاً ، ويسترضي كثيراً ، ويلوم ولا يهدد . وإذا هدد لا يغلظ ولا يتبغض .

فخره

وله في الفخر أشياء حسنة . وأكثر مفاخره بشعره ، ثم بقومه بني طيء . وربما افتخر على أنسابه إذا لحقته جفوة منهم ، فيؤنبهم ، ويتسامى عليهم ليظهر أن حياته فخر لهم ، فمن ذلك قوله من قصيدة :

وَمِنْ الْأَقَارِبِ مَنْ يُسَرُّ بِمَيْتِي سَفَهًا ، وَعِزُّ حَيَاتِهِمْ بِحَيَاتِي
إِنْ أَبَقَ ، أَوْ أَهْلِكَ فَقَدْ نِلْتُ الَّتِي مَلَأَتْ صُدُورَ أَقَارِبِي وَعُدَاتِي

حكمه

وله بضاعة قليلة في الحكم لأنها ليست من طلباته ، فهو يرى أن الشعر لم 'يخلق للمنطق وفي ذلك يرد على بعض لائييه :

كَلَفْتُمُونَا حُدُودَ مَنْطِقِكُمْ ، فِي الشَّعْرِ يُلْفَى عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُهُ
وَلَمْ يَكُنْ ذُو الْقُرُوحِ يَلْهَجُ بِالْمَنْطِقِ ، مَا نَوْعُهُ ، وَمَا سَبَبُهُ
وَالشَّعْرُ لَمْحٌ تَكْفِي إِشَارَتُهُ ، وَلَيْسَ بِالْمَذَرِ طَوْلُ لُحْطَبَةٍ
ونشأته البدوية هي التي جعلته لا يأنس بالأدلة العقلية والتفكير المنطقي ،

١ ذو القروح : امرؤ القيس .

ولا يرى خيراً في الشعر، إلا إذا انطلق من هذه الاغلال محمولاً على أجنحة
الخيال الحر الفسيح . فجاءت حِكْمَه على قَلْبِها ساذجة مشتركة التفكير ،
تدور معانيها على ألسنة الناس ، وأكثرها في شكوى الزمان .

هجاؤه

والبحثري كأستاذة أبي تمام ليس له يد طويلة في الهجاء ، وبضاعته فيه
نزرة ، وجيده قليل ، وكان ابنه أبو الغوث يزعم ان والده عند موته
أمره بإحراق جميع ما قاله في هذا الفن ففعل . ونحن نشك في رواية أبي
الغوث ونرى ان الابن أراد أن يستر عجز أبيه ، فزعم ذلك الزعم .
ووصل إلينا من هجاء البحثري ما يكفي للدلالة على ضعفه في هذا النوع
الذي لم يكن من مذهبه . ولما تعرض له ابن الرومي وأوجع عرضه لم
يجرؤ على مهاجته لعجزه عن لحاقه . وخطر له يوماً أن يرد عليه ليسكنه
فأهدى إليه تحتاً متاع وكيس دراهم . وضمّ إلى ذلك بيتين سخيفين
وهما :

شاعِرٌ لا أهابُهُ تَبَحَّثَنِي كِلابُهُ
إنَّ مَنْ لا أُعِزُّهُ لَعَزَّيْزُهُ جَوَابُهُ

على ان هذا التمثل لا يستر ضعف البحثري وتقصيره عن ابن الرومي
في الهجو . وكان ابن الرومي يعرف ذلك فيه ، فقد ذكر المَرزُباني في
موشحه انها اجتمعا مرة ، وكان اجتماعهما سبباً للمودة بينهما . فقال
البحثري : « عزمت على أن أعمل قصيدة في الهجاء ... » فقال له ابن
الرومي : « وإياك والهجاء يا أبا عبادة ، فليس من عملك وهو من عملي . »
١ تحت : وعاء تصان فيه الثياب .

فقال له : « نتعاون . » وعمل البحتري ثلاثة أبيات ، وعمل ابن الرومي ثمانية ، فلم يلحقه في صنعه .

ولكن البحتري كان يهاجم الشعراء المغمورين فيهمجوم غير خائف شرم . وصب أكثر هجائه على الطبقة العالية من الناس ، حتى انه هجا أربعين رئيساً من الذين مدحهم وأخذ جوائزهم . منهم خلفاء ووزراء وقواد وكتاب وقضاة وولاة ومن جرى مجراهم من الكبراء .

وهو في هجائه فاحش متعبر ، بذىء الألفاظ ، يجعل مهجوتيه على الغالب مخنيين فاقدى النخوة والحياء . ولم يجد له صاحب الأغاني غير قصيدتين جيدتين في الهجو إحداهما في أبي قماش ، والثانية في يعقوب بن الفرج النصراني . والاولى فيها شيء من مذهبه في الوصف والتصوير ، ولكنها لا تجعل منه شاعراً هجاء على كل حال .

ما أدرك عليه

قال الآمدي في موازنته بين الطائين : « وما رأيت شيئاً بما عيب به أبو تمام إلا وجدت في شعر البحتري مثله . إلا انه في شعر أبي تمام كثير ، وفي شعر البحتري قليل . » وقد صدق الآمدي ، وان يكن تعصبه على أبي تمام لا يحتاج إلى دليل . فالبحتري وقع في مثل ما وقع فيه استاذه ، فروي له شعر مسروق جعله ابن أبي طاهر ستائة بيت منها مائة مسروقة من شعر أبي تمام . وسواء صح هذا العدد كله او بعضه فالاستاذ فاق بالسرقة تلميذه . وخصوصاً إذا نظرنا إلى ما ترك أبو عبادة من الشعر الكثير الذي يبلغ ضعف شعر أبي تمام ، ثم إلى المعاني المشتركة التي سرقوه اياها وهي لا يستقل بها شاعر دون آخر . فيما أخذه من أبي تمام وحسنه قوله :
ولو أن «مُشتاقاً تكلفَ غير ما في وَسْعِهِ لَسَمَى إِلَيْكَ الْمِنْبَرُ»

وقال أبو تمام :

دِيمَةٌ سَمَحَةٌ الْقِيَادِ سَكُوبٌ ، مُسْتَفِيتٌ بِهَا الثَّرَى الْمَكْرُوبُ
لَوْ سَعَتْ بُقْعَةٌ لِإِعْظَامِ نَعْمَى ، لَسَعَى نَحْوَهَا الْمَكَانُ الْجَدِيبُ
وقوله وقصر فيه عن أستاذه :

ولن تستبين الدهرَ موضعَ نِعْمَةٍ ، إذا أنتَ لم تدلّلْ عليها بجاسِدٍ
وقال أبو تمام :

وإذا أرادَ اللهُ نَشَرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ ، أتاحَ لها لسانَ حَسودٍ
وأدركَ عليه معانٍ لم يوفّقَ في استخراجها . فبها ما كان ضعيف
المدلول . ومنها ما خالف فيه أدب الشعر كقوله يمدح المعتز بالله :
لا الْعَذْلُ يَرُدُّعُهُ وَلَا التَّعْنِيفُ عَنْ كَرَمٍ يَصُدُّهُ
وهذا على رأي الآمدي من أهجن ما مدح به خليفة وأقبحه . ومن
ذا يعتف الحليفة أو يصدّه ؟ ان هذا بالهجو اولى منه بالمدح .
وهو كأستاذه يحتذي مثال الأقدمين في اشباع الحركات حتى يخرج منها
حرف لين ؛ وهذا الزحاف نفر منه جمهور الشعراء المولدين ، وان اجازه
أصحاب العروض . على ان البحري لم يتورط فيه تورط أبي تمام .
ولا يخلو شعره من أبيات فيها ضعف واسفاف . وقد تمر بألفاظ تنكر
عليها الفصاحة ، وتعجب ان يكون البحري صاحبها . فمن ذلك استعماله
فعل اختشى ، وهذا غير مسموع ، كقوله في مدح ابن الفياض :

يَخْتَشِي زَلَّةَ الْخَطَرِ، وَأَرْجُو عَوْدَةً مِنْ عَوَائِدِ اللَّهِ تَعْنِي^١
ويمكننا ان نعزو هذه الأشياء إلى إكثاره من النظم ، ثم إلى اختلاف
الروايات فانها حملت عليه أقوالاً منحولة ، فنُسبت إليه على براءته منها .
ومها يكن من شيء فان الذي أدرك على البحرني يسكاد لا يُذكر
بالإضافة إلى غزارة شعره .

منزله

نُسب إلى أبي العلاء المعري انه قال : «أبو تمام والمتنبي حكيما وإنما
الشاعر البحرني . » ومنهم من يضيف هذا القول إلى المتنبي نفسه فيزعم انه
قال : « أنا وأبو تمام حكيما وإنما الشاعر البحرني . » وكلا الأمرين عندنا
مشكوك فيه لأنه اما مخالف لعقيدة أبي العلاء في شاعرية أبي الطيب وقد
كان يسميه وحده الشاعر ويسمي غيره من الشعراء باسمه كما قال ابن الأثير،
واما مخالف لعقيدة أبي الطيب وإيمانه القوي بشعره . على ان البحرني أصح
من أبي تمام طبعاً ، وأقلّ تكلفاً ، وأوضح الثلاثة ديباجة ، وأكثرهم انسجاماً ،
وأسلمهم من الغموض والتعقيد . ذلك بأن نشأته البدوية جعلته لا يحتفل
بالمعاني الفلسفية والأدلة العقلية ، ولا يتورط في التزام البديع لأنه يخالف
أذواق أهل البادية المطبوعين على الشعر . ولا يسرف في طلب الغريب ،
لأن معرفته ليست فضيلة عند البدو كما هي فضيلة عند الحضري . فكل بدوي
يعرف الغريب ، ولا يعرفه كل حضري . لذلك كان البحرني يحذفه وينفيه
عن شعره ليقربه من افهام ممدوحيه إلا ان يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة في

١ الخطار : جمع الخطر . العودة : هنا بمعنى المعروف . العوائد : جمع عائدة وهي المعروف .
تعي : تقدر .

موضعها من غير طلب لها . فأوتي ديباجة واثقة ، قلما ظفر شاعر بثلمها حتى ضرب المثل بها فقليل ديباجة بحترية ؛ وشبه شعره لأجلها بسلاسل الذهب لتناسقه ، وتماسكه ، ورونقه وحسن انسجامه . واتخذ طرازاً أعلى للطريقة الشامية التي شغف بها صاحب بن عباد ، وحث الناس على رواية أشعار اصحابها . وكأنا شعره وضع للغناء لما فيه من ايقاع وترجيع ، ومزاوجة ألفاظ ومطابقتها . ثم لما فيه من الطراوة والركة ، والبعد من التداخل ، على خفة في المعنى وقرب متناوله .

وكان إذا تشبه باستاذة فطلب المجاز والبديع ، يحسن اختيار الألفاظ وتأليفها ، ويجعل استعاراته وتمثيلات ، وجناساته ومطابقاته ، نازلة في منازلها ، لا تستخدم المعنى ، وإنما تزيد تصويراً ورونقاً . وكأن وصية أبي تمام له أثرت فيه أحسن تأثير فاهتدى بهديها ، فأثقف شعره من الشوائب التي علفت بشعر استاذة . فإذا هو كما أوصاه : « يتقاضى المعاني ، ويحذر المجهول منها ، ولا يشين شعره بالألفاظ الزرية . » وشهد له أبو تمام فقال : « أنت أمير الشعراء بعدي . »

ويرى طائفة من أهل الأدب انه لم يأت بعد أبي نواس من هو أشعر من البحتري ، ولا بعد البحتري من هو أطبع منه على الشعر . وذكر الآمدي في موازنته ان أبا عباد قد أسقط في أيامه أكثر من خمسمائة شاعر وذهب بخبرهم ، وانفرد بأخذ جوائز الخلفاء دونهم .

وإذا صغ ان إنشاء الأديب صورة لنفسه ، فشعر البحتري بما فيه من ديباجة رائعة ، وخيال جميل ، وغزل لطيف ، يجعلنا نشك في ما يزعمه بعض الرواة من انه كان وسخاً بغيضاً ، فأناقة عباراته لا تدل على قذارة آله ، ورقة ألفاظه ولطف معانيه لا يلائم غلاظة طباعه .

وما أدراك ان أولئك الذين شنعوا عليه كانوا من خصومه ، فأرادوا اسقاطه ليفضلوا صاحبهم أبا تمام ، ونحن نرى غيرهم من الرواة لا يصفونه بمثل هذه الأوصاف بل ينعتونه بحسن الحلال . ومهما يكن الأمر فشعر البحتري يجعل صاحبه محبباً إلى النفوس ، ولا يرسم لنا تلك الصور الممقونة التي يرينا إياها بعض الرواة .

والخلاصة ان البحتري يتحلى بجمال الديباجة، وبراعة الوصف والتصوير، ولا سيما وصف الطبيعة ومظاهر العمران ، يسمو به خيال لطيف ، يسبح في سماء صافية الاديم ، معطرة الارجاء ، علية النسيم . وهو زعيم الطريقة الشامية ، وفي طبيعة من قال مدحاً في خلافة العباسيين . ومنزلته في الطبقة الأولى بين الشعراء المولدين .

ابن الرومي

٨٣٥ - ٨٩٦ م و ٢٢١ - ٢٨٣ هـ ؟

حياته : أخباره من شعره . صفاته وأخلاقه . حبه للحياة . طيرته . آثاره .
ميزته : مدحه . هجوه . رثاؤه . غزله . وصفه الطبيعة . آراؤه وعقائده .
منزله . تفكيره وعاطفته وخياله . ليس لشعره ديباجة . هو أكثر
الشعراء اختراعاً .

حياته

أبى المؤرخون الأوائل أن يتركوا لنا ترجمة وافية لابن الرومي ، فلم
يدونوا إلا أخباراً متقطعة الأوصال ليس فيها غناء كبير للباحث في الآداب .
فهم يعلموننا أن اسمه علي بن العباس بن جرّيج أو جورجيس . وأن لقبه
ابن الرومي ، وكنيته أبو الحسن . وأنه مولى لعبيد الله بن عيسى بن جعفر
ابن المنصور أحد الأمراء العباسيين ، وأنه ولد في بغداد وبها نشأ . وهنا
تنقطع سلسلة أخباره فما تجد منها غير نتف لا لحمية بينها ولا سدى . حتى
إذا بلغنا خبر موته علمنا أنه مات مسموماً سمّه القاسم بن عبيد الله الوهبي
وزير المعتضد . وكان هذا الوزير ظلاماً عاتياً ، فخاف أن يهجو الشاعر لما
عرف من فلتات لسانه ، فدرس عليه من اطعمه خُشْكَنانجة^١ مسمومة فمات
بها . وكانت وفاته في بغداد ودفن في مقبرة البستان .
ويزيد ابن خلكان على هذه الرواية قوله : « فلما أكلها أحسّ بالسم

١ الخشكناجة : قرص حلوى بالسمن والسكر .

فقام ؛ فقال له الوزير : « إلى أين تذهب ؟ » فقال : « إلى الموضع الذي بعثني إليه . » فقال له : « سلّم لي على والدي . » فقال له : « ما طريقي على النار . » وخرج من مجلسه وأتى منزله ، وأقام أياماً ومات . اه
ولكن هذا القول مضعوف بدليل ان والد القاسم مات بعد ابن الرومي ببضع سنوات ، فلا معنى لقول القاسم : « سلّم على والدي . » ويؤيد ذلك رواية لابن رشيقي في العمدة تطلعنا على ان عبيد الله أبا القاسم هو الذي أوعز إلى ولده بأن يتخلص من الشاعر لأن لسانه أطول من عقله .
ولئن نجس المؤرخون حق ابن الرومي فلم يعنوا بجمع أخباره لقد كان الشاعر أحرص منهم على ذلك ، فجاء شعره تاريخاً صادقاً لحياته ، وصورة ناطقة بأخلاقه وصفاته . فإذا أردت حقيقة نسبه فهو رومي من ناحية أبيه ، وفارسي من ناحية أمه :

كَيْفَ أَغْضِي عَلَى الدَّيْنِيَّةِ وَالْفُرْ سُ خَوْلي والرُّومُ أَعْمَاسِي
وإذا أردت ولاءه فهو عباسي :

قَوْمِي بَنُو الْعَبَّاسِ ، حِلْمُهُمْ حِلْمِي ، كَذَلِكَ ، وَجَهْلُهُمْ جَهْلِي
مَوْلَاهُمْ ، وَغَذِي نِعْمَتِهِمْ ، والرُّومُ ، حِينَ تَنْصُنِي ، أَصْلِي
ونجبرنا في شعره انه عاش فقيراً ضيق العيش :

أَيْلَسَ النَّاسُ الْغِنَى فَيُصِيبُهُمْ ، وَأَلَسَ الْقَوْتُ الطُّفِيفَ فَيَلْتَوِي؟
يستجدي الكساء ليقه قر الشتاء ، فيأطل حتى يخشى أن يأتى الصيف

١ تنصني : تسندني وتنسني .

قبل أن يعطى بغيته فيقول :
 إِنَّكَ إِنْ مَاطَلْتَنِي المَوَاعِدَا ، وَأَضْرَمَ الصَّيْفُ الْأَجِيحَ الصَّاخِدَا^١
 جاء الكيساءُ عِنْدَ ذَاكَ بَارِدَا
 وتركبه الديون فيتذمر على الوزير ويشكو إليه :
 وارْتِكَابُ الدُّيُونِ إِنِّيَّ فِي ظِلِّكَ كَيْ يَهْجُوكَ بِاللِّسَانِ الفَصِيحِ
 ويستعطي درهمين من كل صديق ليسد عوزه :
 لِي فِي دِرْهَمَيْنِ فِي كُلِّ شَهْرٍ ، مَنْ فِئَامٍ ، مَا يَطْرُدُ الحَوَاجَا^٢
 ولكن أصحابه كانوا يُعرضون عنه أكثر الأحيان ، ولا يلبثون نداءه ،
 فيعاتب ويؤنب ويهجو .
 على أن الشاعر لم يعيش طول حياته معدماً محروماً ، فقد كانت تمرُّ به
 أوقات يلهو بها وينعم ، ثم لا تلبث أن تمضي سراعاً ، فيعود إليه بؤسه .
 وكان له ضيعة فخانه الحظ فيها ، ولم تجده فتيلاً :
 أَعَانِي ضَيْعَةٌ مَا زِلْتُ مِنْهَا ، بِحَمْدِ اللَّهِ ، قِدَمًا ، فِي عَنَاءِ
 وجميع ثروة فالتهمت منها النيران :
 حُدُوثُ حَوَادِثٍ مِنْهَا حَرِيقٌ تَحْتِيفٌ مَا جَمَعْتُ مِنَ الثَّرَا^٣
 وكان له دار فاضطره بعضهم إلى بيعها :
 وَلِي وَطَنٌ آلَيْتُ أَنْ لَا أَبِيعَهُ ، وَأَنْ لَا أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرَ مَالِكَا^٤

- ١ الأجيح : اللهب . الصاخذ : المحرق .
- ٢ الفئام : الجماعة من الناس ، لا واحد له من لفظه . الحوَجاء : الحاجة .
- ٣ تحيف الشيء : تنقصه وأخذ من نواحيه .
- ٤ آلَيْت : أقسمت .

وَقَدْ ضَامَنِي فِيهِ لَيْثٌ ، وَعَزَّنِي ، وَهَا أَنَا مِنْهُ مُعْصِمٌ بِجِبَالِكَا
 وَتَمْلِكُ دَاراً أُخْرَى فَعَصَبَتْهُ إِيَّاهَا امْرَأَةٌ فَرَّاحٌ يَتَظَلَّمُ إِلَى الْوَزِيرِ الْقَاسِمِ :
 تَهَضُّنِي أَنْتِي ، وَتَغْصِبُ جَهْرَةً عَقَّارِي ، وَفِي هَاتِيكَ أَعْجَبُ مُعْجِبٍ !^٢
 فكل ذلك يدل على ان الشاعر عاش مضعوفاً مهيناً ، وحالفه الشقاء
 ونكد الطالع ، فلم يتسم له الدهر إلا ساخراً منه . فقد لقي من الناس
 تحرشاً وشرّاً . وخذله أصدقاؤه وابتعدوا عنه ، واقصاه الملوك ولم يقربوه .
 فعاش خاملاً ، مضطهداً ، مُتَنَقِّصاً ، ضَيِّقَ الرِّزْقِ ، كثير العوز ، واصيب
 بأولاده الثلاثة وامراته وأمه وأخيه . فمات وهو على أشد ما يكون من
 البؤس والتطير .

واختلف في تاريخ موته ف قيل انه كان سنة ٢٨٢ هـ ، وقيل سنة ٢٨٣ ،
 وقيل بل سنة ٢٧٦ . ولكن ابن الرومي يخبرنا في شعره انه بلغ الستين :

طَرِبْتُ وَلَمْ تَطْرَبْ عَلَى حِينٍ مَطْرَبٍ ،
 وَكَيْفَ التَّصَايِي بِابْنِ سِتِينَ أَشِير !

فبلوغة الستين ينفي قول من زعموا انه مات سنة ٢٧٦ ، ويؤيد
 التاريخين الآخرين لأنه لا خلاف في تاريخ ولادته . فوفاته إذأ بين السنة
 الثالثة والثمانين والرابعة والثمانين بعد المائتين . فيكون قد ادرك تسعة
 خلفاء أولهم المعتصم وآخرهم المعتضد ولكنه لم يتصل بواحد منهم .

صفاته وأخلاقه

يصف ابن الرومي نفسه في عدة مواضع من شعره ، فيرينا انه كان في

١ عزني : غلبني . معصم : معك . وقوله : معصم بجبالكا أي متكل عليك .

٢ تهضمني : تطلني وتغصبي .

صباہ جمیل الوجہ ، أبيض اللون ، أسود الشعر ، حسن القامة معدولها .
ولكنّ هذا الجمال لم يلبث أن خبا نوره لاستهتاره بالمذات ، فاصفر وجهه
وتجعد ، وتقوس ظهره ، وضعف سمعه وبصره ، ووهنت قواه ، ونحل
جسمه واستدق :

مُلبِثٌ سَوَادَ الْعَارِضِينَ ، وَقَبْلَهُ بَيَاضُهَا الْمَحْشُودَ ، إِذْ أَنَا أَمْرَدٌ^١

•

وَأَضْحَتْ قَنَاءُ الظَّهْرِ قَوَّسَ مَتْنُهَا ،
وَقَدْ كَانَ مَعْدُولًا ، وَإِنْ عِشْتُ فَخُخًا^٢
وَأَحْدَثَ نَقْصَانُ الْقَوَى بَيْنَ نَاطِرِي
وَسَمْعِي ، وَبَيْنَ الشَّخْصِ وَالصَّوْتِ ، بَرَزَخًا^٣

•

أَنَا مَنْ خَفَّ وَاسْتَدَقَّ فَمَا يُثْقِلُ - أَرْضًا ، وَلَا يَسُدُّ فَضَاءً

•

شَغِيفْتُ بِالْحُرْدِ الْحِسَانِ وَمَا يَصْلَحُ وَجْهِي إِلَّا لَذِي وَرَعٍ ،

١ العارضين : جانبي الوجه . يقول : إنه شاب عارضاه ففقد سوادهما بعد أن فقد بياضهما
الذي عرف به يوم كان أمرد .

٢ فخخ : استرخى . يقول : إنه إذا عاش وطال عمره سيصير ظهره إلى الاسترخاء بعد
تقويسه في سن الشباب .

٣ البرزخ : هنا الحاجز بين الشيئين .

٤ الحرد : جمع خريدة وهي البكر السكوت الخفرة .

كَمِي يَعْْبُدُ اللَّهَ فِي الْفَلَاةِ ، وَلَا يَشْهَدُ فِيهِ مَسَاجِدَ الْجُمُعِ
وعلا رأسه المشيبُ وله من العمر إحدى وعشرون سنة . وأصيب
بالصلع ، فاتَّهَمَ عمامته ، ولكنه أبى خلعا لتستر صلته :
فَظَلُمُ اللَّيَالِي أَنَّهُنَّ أَشْبَنَنِي ، لِعِشْرِينَ يَحْدُوهُنَّ حَوْلُ مُجَرَّمٍ^٢

*

عَزَمْتُ عَلَى لُبْسِ الْعِمَامَةِ حِيلَةً ، لِنَسْتُرَ مَا جَرَتْ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَعِ
وكان مضطرب المشية يهتز كالغربال في يد المغربل :

إِنَّ لِي مِشْيَةً أَغْرَبِلُ فِيهَا ، آمِنًا أَنْ أُسَاقِطَ الْأَسْقَاطُ^٣

وهو إلى ذلك دقيقُ الحس ، عصبي المزاج ، تغلب عليه السوداء ، فيثور ،
ويشتد غضبه ويسلط لسانه إذا عبث به عابث ، ولكنه سريع الرضى ،
صفوح إذا استرضي . وكان يحب الحياة ويتعشقا مع ما لقي فيها من بؤس
وشقاء . والحياة عنده لذة يتطلبها ويستمتع بها . واللذة عنده شهوة إلى
الجمال يتبعه أينما بدا له . فيستعذبه في وجوه الملاح ، وفي أصوات المغنين
والقيان ، وفي الطبيعة وما عليها من صور وألوان . واللذة عنده شهوة إلى
المآدب ، فهو منهوم لا يشبع من طعام وفواكه وشراب .

١ يقول : ان وجهه في شحوبه أشبه بوجوه النساك ، يصلح لأن يعبد الله في الفلاة ، ولا
يصلح أن يجتمع مع الناس يوم الجمعة في المساجد ، فكيف يحق له وهو في مثل هذا الحال
أن يمشق الخرد الحسان ؟

٢ يحدوهم : يسوقهم والمعنى يتقدمهم . حول مجرم : سنة تامة .

٣ الأسقاط : جمع السقط وهو ما أسقط من الشيء وما لا خير فيه . يقول انه يغربل في
مشيته ولكنه لا يخشى أن يسقط شيء من غرباله ، كما تسقط النفاية من غربيل المغربلين .
وهنا يستم معناه ليدل على أن غرباله مجازي لا حقيقي .

وطلبه لهذه الملهذات على فقره وحرمانه ، جعله يحسد كل ذي نعمة ،
فيلمناها لنفسه ، ويستكثرها في صاحبها . وجعله يلحف في السؤال ،
ويعاتب ويتذلل حتى يتبغض .

وكان على حبه للتكسب يحين عن إدراك رزقه ، فقد يدعوه بعض
الأمراء فما يجرو أن يصير إليه لأنه يخشى الأسفار ويخيفه البر والبحر
والصيف والشتاء . فهو موسوس ضعيف العقل ، متشائم ، متطير .

وزاده طيرة ما قاله من الارزاء والمحن فأصبح يتوهم النحس توهماً ،
ويتمثل في تصعيف الاسماء وقلبها وتحليلها ، وفي صور الاشخاص ، وأشكال
الاشياء . حتى بات الناس يضحكون منه ، ويعابثونه ، فيهبوهم ، ويثخن
في اعراضهم ويسخر منهم ، وهم يمعنون في نكايته ولا يبالون . ذكر
صاحب معاهد التنصيص : « ان أصحابه كانوا يرسلون إليه من يتطير من
اسمه فلا يخرج من بيته أصلاً ، ويمتنع من التصرف سائر يومه . وارسل
إليه بعض أصحابه غلاماً حسن الصورة اسمه حسن ، فطرق الباب عليه ،
فقال : « من ؟ » قال : « حسن . » فتفأول به وخرج . وإذا على باب
داره حانوت خياط قد صلب عليها درفتين كهيئة اللام الف . ورأى تحتها
نوى تمر فتطير وقال : « هذا يشير بأن لا تمر . » ورجع ولم يذهب معه .
وكان الأخفش الأصغر علي بن سليمان يقرع عليه الباب إذا أصبح . فإذا
قال : « من القارع ؟ » قال : « مرة بن حنظلة » ونحو ذلك من الاسماء
التي يتطير بذكرها . فيحبس نفسه في بيته ، ولا يخرج يومه أجمع . « اه .
وأخبار ابن الرومي في الطيرة كثيرة نكتفي بما ذكرنا منها للدلالة على
وسوسته وجبنه واختلاط عقله .

ومن صفاته الحسنة انه كان صادق المودة لأصحابه ، محباً لأولاده وأهله ،
عطوفاً على الفقراء والمساكين .

آثاره

لابن الرومي شعر كثير رواه عنه المسيبي^١ . ولم يكن مرتباً فعله الصولي على الحروف ، وجمعه أبو الطيب وراق ابن عبدوس من جميع النسخ ، وزاد على كل نسخة مما هو على الحروف وغيرها نحو ألف بيت . وذكر المستشرق كليمان هيوار ان أبا عثمان سعيداً الخالدي من العلماء المتصلين بسيف الدولة كتب ترجمته مفصلة ، ولكن لم تصل إلينا . وبقي شعره متفرقاً في كتب الأدب حتى قام بعض الأدباء في مصر ، فعنوا بطبعه ونشره . وعني بدراسته جماعة ، منهم عباس محمود العقاد فإنه وضع كتاباً خاصاً به . فهذا الشاعر الذي أهمله عصره ، وتنكر له أبناء زمانه ، عُرف قدره بعد موته فدونت أشعاره ، وجمعت أخباره . ونبشت آثاره فإذا هي عنوان المبقرية والنبوغ .

ولابن الرومي بقايا في النثر منها رسائل صغيرة إلى الوزير القاسم وإلى بعض أصدقائه . ومنها نبذة في تفضيل النرجس . ونثره حسن الأسلوب يجري به مع بلفاء الكتاب . وكان يفتخر بنثره كما يفتخر بشعره مشبهاً نفسه بالأخطل والجاحظ :

ألم تجِدوني آلَ وَهَبٍ لِمَدْحِكُمْ ، بشعري ونثري ، أخطلاً ثم جاحِظاً؟

ميزته

هذا شاعر حاول التكسب بشعره فلم يفلح سهمه . وقلّت حظوته فما أتبع له ان يرضي بمدوحه فيرضوه ، فعاتبهم واستعجبهم ، فما أجدها العتاب ، ولا أعطي العنبي . فسخط وهجا ، وانتقم أخبث انتقام .

١ ورد في ابن خلكان رواه المتنبي وهو تحريف .

هذا شاعر تنكر له الدهر ، وقعد به الجدة ، وأزرى به معاصروه ،
وصفرت كفه ، فقادته مضاضة الفقر إلى ذل السؤال . فألح وألحف ، فنهر
ورُدّ . وليس للملحف غير الرد .

هذا شاعر أحب الحياة ونعيمها ، فتهالك على شهواتها وملاذها ، فأذاقه
الله لباس الجوع ، فإذا هو منهوم لا يشبع ، يرى الدنيا وما فيها لذة
واستمتاعاً .

هذا شاعر كُتِبَ الشقاء له في لوح الأقدار ، فقد ارتق فلم يُرزق .
واشتهى فحُرم . وأحب فنُبذ . وطلب الراحة في ظل عيلته ، فمات
أولاده ، وماتت زوجته ، ومات أخوه ، ومات أمه . وغصبت داره .
وبقي وحده حياً يشقى ، فتشاءم وتطير . فسخر الناس به ، وقالوا :
مجنون موسوس . وقد صدقوا ، فابن الرومي لم يسلم من اختلاط في عقله
يرفده الشقاء ، وتشده الحيرة . ولكن الشاعر مدين بعقريته لجنونه وشقائه
وخيبته . فلو لم يطرحه الناس ، وينكروا عليه غرابة أطواره ، ولو لم
يخفق ويتعس ويتألم ، لشغل شعره بالمديح وما يشبه المديح ، ولما جاءنا بهذه
الآيات البينات التي صور بها عواطف نفسه ، وأخلاق أهل زمانه ؛ وصور
الأشياء التي رغب فيها وأحبها وظل طوال عمره يشتهيها ، والأشياء التي
كرها ونفر منها وتطير :

مدحه

لم يمدح ابن الرومي من الخلفاء الذين عاصروا غير المعتضد ، وليس له فيه
شيء يعتد به ، لأنه لم يحظَ عنده . ولكنه مدح جماعة من الوزراء والامراء ،
فوق لشيء من الاجادة . وأشهر بمدوحه اسمعيل بن بلبل وزير المعتضد ،
ومحمد بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد وأمير خراسان ، وأخوه

عبيد الله بن طاهر ، وكانت له ولاية الشرطة بعد أخيه ، والقاسم بن عبيد الله الوهبي وزير المعتضد .

على ان مدائحهم فيهم لم تكن لتغنيه من فقر ، لأنهم لم يحسنوا صلاته ، ولم يقربوا مكانه ، وربما أقصوه عنهم أو سيعوا شعره دون ان يميزوه عليه . وغير عجيب ان يخفق عندهم ، وهو على اضطراب عقله ، وضيق أخلاقه ، وسلطة لسانه ، وسوء تصرفه في مصاحبة الناس ، لا يصلح للمجالس فيتخذ نديماً . وكان إلى هذا شديد الخلف ، فتبرموا به وحرموه . فآله ذلك لأمرين : أحدهما حاجته إلى المال ، والآخر ذهاب شعره ضياعاً . فإنه كان مفتوناً بلذة الحياة ونعيمها فلم يقدر له من الرزق ما يشبع به شهواته . وكان حريصاً على شاعريته فأمضه ان يبخس حقها . فكثرت عتابه لمدوحيه ، وأرهقهم بالسؤال والاستعطاف حيناً ، وبالتأنيب والتهديد آخر . وقد يعتد بنفسه فيطلب أن يكون نديماً لهم يحضر مجالس اللهو معهم ، أو كاتباً في دواوينهم تستودع عنده أسرارهم ، فيرتد خائباً مزبوراً ، يتظلم ويشكو . وكيف يفلح شاعر مثله ، وهو لا يحسن المدح إلا إذا سأل وعاتب وهدد . ولم يكن له من ظرف اللسان ، وحميد المخالفة ، ورجحان العقل ما يجيبه إلى الأمراء فيرغبوا في مجالسته ومناذمته . وكانت طيرته عنواً عليه ، فازداد بها بؤساً وخيبة ، لأن وسواس عقله جعله جباناً قلق النفس ، مروّع الفؤاد يتخوف أشياء يتوهمها توهماً ، فإذا دعاه أمير أن يتجشم إليه السفر ليسمع شعره ويثيبه ، أبى أن يذهب خوفاً من مشاق البرّ وغرق البحر ، وطلب إليه أن يميزه دون أن يركبه هذا المركب الحشن . ولعل معاصرتهم للبحثري أضرت به ، وغمرته عند الأمراء . لأنه مدح أكثر الذين مدحهم أبو عباد ، فلم يحفلوا به ولا التفتوا لفته ، مع انهم أكرموا

البحثري وخصوه بسني الجوائز . ويرجع ذلك إلى أن الوليد أبرع منه في المدح، وأرصن في المجالس وأعقل ، وأحسن تصرفاً في استرضاء ممدوحيه .
هجو

لابن الرومي شهرة في الهجاء لا تتقدمها شهرة دعبل وبشار . ويفوقهما بما امتاز فيه من دقة التصوير ، فإن هجاءه لا يقتصر على القذف والطعن والسخر بل يتعداه إلى وصف أخلاق المهجو ، وتصوير أشكاله حتى يبرزه مثله شوهاً مضحكة .

وبواعث الهجاء عند الشاعر كثيرة ، فمنها أنه كان محروماً يستعدي فلا يعطى إلا القليل ، فيغضب ويهجو من يمنعون صلتهم عنه . ومنها انه كان يحسد ذوي النعمة الذين يتمتعون بملاذ الحياة دونه فيهجوهم . ومنها ان الناس كانوا يعلمون ضيق اخلاقه، وغبابة اطواره ، فيعبتون به ويضايقونه، ويعيبون شعره ويلتقدونه ، فيثور ثأره ويهجوهم . ومنها انه كان دقيق الحس ينفر من الاشياء التي لا تلائم طبعه ، ولا يستأغها ذوقه ، فيذمها كما في هجائه لصاحب اللحية الطويلة ، والغناء القبيح . ومنها انه كان شديد الطيرة يتوهم النحس في الاشخاص والاسماء والعاهات والعيوب ، فهجا كل شيء يتطير منه . ومنها انه كان شرهاً منهوماً لا يصبر عن الطعام ، فاذا جاء رمضان تضايق من الصوم فهجاه . ومنها انه كان يتشيع للعلويين مع ولائه في بني العباس ، فهجا العباسيين وافحش فيهم لما رأى ما اصاب الطالبين من التنكيل .

وثأؤه

لم يكن ابن الرومي حفيظاً عند الملوك فيتخذ الرثاء آلة للتكسب ، لذلك قلت مراثيه ، وليس له منها ما يستحق الذكر إلا الذي قاله في

اولاده وزوجه وامه واخيه . وإلا الذي قاله في بستان المغنية وكان يهاها ، وفي ابي الحسين يحيى بن عمر الطالبي لانه كان ينشيع للعلوبين ، فساءه ان يفتك به العباسيون وكان قد ثار بهم . فبكى عليه وهجا بني العباس وآل طاهر إخوانهم على قتله . والذي قاله في بكائه على البصرة لما دخلها الزنج سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ م) واحرقوها ومثلوا بأهلها ، فقد راعه ما دهاها وهي منبت العلماء والادباء ، وعكاظ الاسلام ، فرثاها والها وصوّر خرابها ابرع تصوير .

وابن الرومي شديد التفجع على الميت اذا كان عزيزاً عليه ، ولا غرو فانه من طبيعته ضعيف الارادة ، قوي العاطفة ، دقيق الاحساس ، مضطرب العقل ، فأخلق به ان يغلب عليه الجزع اذا رزىء بمن يحبه ، فيتأجج بركاناً عاطفياً ينفث نيرانه عن نفس يصهرها الحزن ، ويضعفها التطير ، ويحفزها تتابع النكبات ، فتنفجر بالبكاء والالين . واحسن مرثيه قصيدته في ولده الاوسط واسمه محمد . وقد مات منزوفاً وهو لم يزل طفلاً ، فهي من افجع ما قال والد في رثاء ولد ، وهي تصور جزع الشاعر ادق تصوير ، وتخرج مشهداً تاماً عن حياة طفله ومرضه وذبوله وموته .

وابن الرومي على تفجعه لا يرثي فقيده غير مرة . وقلما جاوزها الى المرتين او الثلاث شأنه في رثاء امه وامراته ، بما يدل على ان الحزن لا يلح عليه طويلاً . وانما تحرقه الجمره ساعة سقوطها ، ثم لا تلبث ان تنطفئ فينسى او يتناسى . ولعل هذا راجع الى تقلب طباعه ، واضطراب مزاجه ، وسرعة تنقله من حال الى حال ؛ او راجع الى توالي المصائب عليه ، فان حرمانه وخسرانه ، ثم موت امه واخيه ، ثم موت اولاده وزوجه لا بد ان يجعل في نفسه شيئاً من الاستسلام والقنوط ، فيصبح وهو اليك الارزاء

والتطير ، يتوقع كل يوم رزءاً جديداً ، فينسى الماضي لاشتغال فكره
بتنظر الآتي .

غزله

كان ابن الرومي تبغ جمال يجري وراءه طلباً للذة فهي عنده زينة
الحياة الدنيا ، ولا بهجة للحياة بدونها . فأفرغ ماء شبابه على أشواك شهواته .
وما راعه الا بارقة البياض تلوح بمفرقه ، فبكى على الصبي وتلف ، وذم
المشيب وهجاه . وهو لم يأسف على فراق الشباب إلا لانه سيفارق اللذة
بعده . وما كان ليحب ويعشق لولا التهاك على اللذة والاستمتاع . ومثل
هذا الحب تغمره المادة ، وتسيطر فيه على الروح فينحط بصاحبه إلى الدنايا ،
ويجعل المرأة أداة للهو والتسلية ، ويهبط بها عن عرشها السامي الذي رفعه
الله لتوضع عليه .

وصاحب هذا الحب لا يتعشق شخصاً واحداً فيقف فؤاده على حبه ،
ولئلا لذته في التنقل . فكلما بدا له وجه جميل افتتن به ، وجدّ في أثره .
وهيات أن يطبئن إلى معاشرة الحرائر المحصنات ، أو يكتفي بزواج أمينة
ودیعة يسكن إليها ، ويغض طرفه عن سواها . فابن الرومي بقي مدة
طويلة لا يأنس بالحياة الزوجية ، ولا يتغزل إلا بالقيان والغلمان ، ولا
يجد اللذة إلا في مكائس الريب وحوانيت الحمارين ، حتى نفدت قواه أو
كادت ، فتزوج ، وكان زواجه في أواخر كهولته ، فرزق أولاداً ضعاف
البنية ، فلم تُكتب لهم الحياة .

وليس لشاعرنا غزل كثير على شدة شغفه بالجمال ، لأن الحب لا يؤثر
في نفس طالب اللذة تأثيره في نفوس المتيمين ، ولا يمتزج بها إلا أوقاتاً
معلومة يموت في خلالها حيناً ثم ينبعث ويحيا ، ثم يموت . ويغلب على غزل

ابن الرومي وصف القينة والساقى ومجلس لهو . ونجد هذا الغزل في صدر
أهاجيه كما تجده في صدر مدائحه .

وهو في تهافته على اللذة لا يُشفى فؤاده إلا إذا استوعبها من أقصى
قراراتها ، فيود لو أنه يستغرق في ذات من يهواه فتمزج روحه بروحه ،
حتى لتظنه من أصحاب مذهب الاتصال الذين يزعمون انهم يستغرقون في
ذات الله سبحانه وتعالى عما يافكون :

كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ ، سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ يَمْتَزِجَانِ

وصفه

والوصف عند ابن الرومي أخص ميزة يُعرف بها ، فهو من أي النواحي
أتتبه تجده وصافاً بارعاً ومصوراً دقيقاً . وفي شعره أوصاف جديدة لم
يسبقه إليها شاعر ، استمدّها من حياته وتأثرات نفسه . فإِنَّهُ لتطيره من
المنظر القبيحة كان يتعشق الجمال على اختلاف مظاهره واتساع معانيه .
فأحب الطبيعة ولا سيما طبيعة الربيع فاتصل بها وجعل منها شخصاً حياً ،
مازجاً شعوره بشعورها . وأغرم بحبها كما أغرم بالوجه المليح ، فأصبح
إذا وصفها شبهها بالمرأة ، وإذا وصف المرأة شبهها بالطبيعة . فمن ذلك
قوله يصف الأرض في الربيع :

تَبَرَّجَتْ بَعْدَ حَيَاةٍ وَخَفَرٍ ، تَبَرَّجَ الْأُنْثَى تَصَدَّتْ لِلذِّكْرِ^١

وكان يحب الصوت الجميل ومجالس اللهو ، فوصف القينة وغناها ،
والساقى وكأسه ، والحمرة وآنيتها . وله براعة في نعت الصوت الحسن

١ تبرجت : أظهرت زينتها ومحاسنها ، ويريد بزينة الأرض أزهارها في الربيع . بعد حياء
وخفر : أي بعد أن أخفت تبرجها في الشتاء .

تدل على صحة شعوره بالفن كوصفه للقينة وحيد .
وكان له من شراسته وحرمانه ما ضاعف نهسته إلى المآذب . واوتي
معدة خبيثة لا تشبع ولا ترتوي . ولم يخطئ نعتها إذ قال فيها متلهفاً على
أكلة :

لَهْفِي عَلَيَّهَا وَأَنَا الزَّعِيمُ بِسِعْدَةٍ شَيْطَانُهَا رَجِيمٌ^١

ولهذا اكثر من ذكر انواع الطعام والشراب . وهو اول شاعر ، فيما
نعهد ، عُني بوصف السك والفرايج والبيض والقَطائف والزلاية والمشش
والموز والعنب وغير ذلك من المآكل .

وهو لدقة احساسه قوي الشعور بالشيء يستكرهه ، كما انه قوي الشعور
بالشيء يستعسسه . وكان له من تطيره وضعف عقله ما جعله يكره او يتخوف
الاشياء التي يحفر عنها طبعه ، ولا يستأغها ذوقه ومزاجه ، فيهبوها ويصفها
فعله بالأحذب وصاحب اللحية الطويلة ، وسفر البر والبحر ، والقينة 'سُطُف' ،
والمغني دبس لانه استقبح صوتها . وفعله بنفسه بعد ان شاب ، وضعفت
قواه ، وشحب لونه . فقد اكثر من وصف مشيبه والبكاء على شبابه لانه فقد
بها لذة الحياة .

وضيق ذات يده جعله يستفيض في وصف فاقته . وقد جره فقره الى
حسد الاغنياء ، فهجهم ووصف ترفهم كما في قصيدته التي هجا بها الكتاب
المتنعين باموال الدولة .

وتنكر له الناس ، وعبثوا به ، فحقده عليهم ، ورأى الخير في الحقد فمدحه
وبيّن منافعه . وهجا الناس ، ومزق اعراضهم ، فحقدوا عليه ، فرأى الشر

١ الزعيم : الكفيل .

في الحقد ، فذمه واطهر مساوئه واضاراه . وصوّر اخلاق الحقود ادق تصوير .

وكان له من حياة الزهاد تعزية وسلوى في حرمانه ، وتوالي الخطوب عليه. فوصف معيشتهم وتعبدهم ولكن نفسه التي استعبدتها الشهوات لم تكن لترتاح الى حياة المتزهدين ، فتنسك مثلهم .

ولزم بغداد فما استطاع البُعد عنها الا غراراً . فاذا فارقها حنّ اليها ، وصوّر ذكرياته فيها ابداع تصوير :

بَلَدٌ صَحِبْتُ بِهِ الشَّبِيَّةَ وَالصَّبِيَّ ، وَلَبِستُ فِيهِ الْعَيْشَ ، وَهُوَ جَدِيدُ
فَإِذَا تَمَثَّلَ فِي الضَّمِيرِ رَأْيُهُ ، وَعَلَيْهِ أَفْنَانُ الشَّبَابِ تَمِيدُ ١

ووصف الصيد كغيره من الشعراء المولدين ، ولكنه لم يلتزم له بحر الرجز ، ولا امعن في الغريب مثلهم .

ويمتاز وصفه في الاسترسال والتبسط ، ودقة النظر ، فانه حريص على اظهار الاشياء دقيقها وجليلها ، متفنن في ابرازها وتصويرها سواء عليه أبتشابه كانت ام بغير تشبيه وبتشيل ام بغير تمثيل . وكثيراً ما يتتبع المعنى ويستقره حتى يستتمه ويستوفيه ، ويظهره على حقيقته لا غلو فيه ولا تمويه .

آراؤه وعقائده

ذكر ابو العلاء المعري في رسالة الغفران ان ابن الرومي كان يتعاطى الفلسفة . وفي شعره امثلة تدل على انه كان ملتبساً بعلوم عصره ، واقفاً على الفلسفة اليونانية والآداب الفارسية . ولكن ذلك لم يجعل منه مفكراً ذا مذهب معروف ، وانما جعله صاحب آراء وعقائد لا تخلو من التناقض لما كان عليه

١ أفنان : أفسان . تميد : تميل .

من اضطراب العقل، وغريب الاطوار، وتقلب الافكار . فقد كان يتشيع للعلويين بدليل قصيدته التي رثى بها ابا الحسين يحيى بن عمر الطالبي ، وهجا العباسيين من اجله وافحش فيهم . ثم كان يقول بمذهب المعتزلة والقدرية معاً ، وقد يميل الى الجبرية مع بعدها عن القدرية . فمن ذلك قوله في الاعتزال :

أَرَضِضْ الإِعْتِزَالَ رَأْيَا ؟ كَلَّا ! لِأَنْتِي بِهِ صَنِينُ
وقوله في القدرية :

أَلْخَيْرُ مَصْنُوعٌ بِصَانِعِهِ ، فَتَى صَنَعْتَ الْخَيْرَ أَعْقَبَا
وَالشَّرُّ مَفْعُولٌ بِفَاعِلِهِ ، فَتَى فَعَلْتَ الشَّرَّ أَعْطَبَا
ومن قوله في الجبرية وقد أوجعه توف الكتاب وحياتهم الناعمة بين
القيان :

لَوْ تَرَى الْقَوْمَ بَيْنَهُنَّ لِأَجْبَرَ تَ صَرَاخاً ، وَلَمْ تَقُلْ مَا كُنْتَ سَابِغٌ
ولهذا اعتقد بالحظ ، وقوي ايمانه به :

إِنَّ لِلنَّجْدِ كَيْسِيَاءَ إِذَا مَا مَسَّ كَلْبًا أَحَالَهُ إِنْسَانَا
واعتقاده بالحظ جعله ينيطه بطوالع الكواكب شأن أبناء عصره .
وكان يقول بالطبيعتين^٣ ، فطبيعة الخير في النفس لأنها سماوية ، وطبيعة
الشر في الجسم لأنه أرضي ، والشر كامن في الأرض كمن اضطرار وجبر ،

١ اعقبك : جازاك بخير .

٢ اجبرت : دنت بالجبرية . صراحاً : خالصاً من كل شيء ، اي اجباراً صراحاً . الاكتساب :
مباشرة الاسباب بالاختيار ، اي ان الانسان مخير في كسبه لا مجبر . والاكتساب من مذهبه
القدرية .

٣ الطبيعتين : كالثنوية جاءت من الفرس ، وهي ان في الانسان طبيعة شر وطبيعة خير .

والارض مضطرة إلى قبوله ، مجبرة عليه . ولذلك يوصي الإنسان بتطهير نفسه من الطبيعة الأرضية الشريرة .

وله في الحقد رأي مختلف ، فطوراً يحسنه فيظهر فضله ، وتارة يذمه فيظهر شره . وهكذا رأيه في الجود والبخل .

وكان على حبه للحياة وملاذها ينظر إليها بعين سرداء لكثرة ما ناله فيها من الويلات والمحن ، فيرى ان بكاء الطفل ساعة ولادته إنما هو ناشئ عن خوفه من صروف الدهر ، وهذا رأي ساذج كما لا يخفى ، ولكنه يكشف عن نفس حزينة متألمة متطيرة :

لِما تُؤذِنُ الدنيا به مِنْ صُروفِها ، يَكُونُ بُكاءُ الطِّفْلِ ساعةَ يولدُ وساء ظنه بالناس ، لأنهم في زعمه لثام لا يصاحبون المرء إلا في السراء ، ويتخلون منه في الضراء ، فمن الخير عنده أن لا يكثر الإنسان من الأصحاب .

وكان يوصي بالصبر على شدة جزعه ، ويحاول أن يقتنع نفسه بأن الصبر والجزع ليسا من الطوابع المركبة في الانسان بل هما في اختياره ، يستطيع ان يتصرف فيهما كيف يشاء .

وهو على حبه للمرأة سيء الظن بها كسائر أهل زمانه ، ينعتها بالمركر والخداع والكيد ، وحسبك أن تقرأ حديقة الشعر ففتبين حبه لها وضعف ثقته بها .

ما أدرك عليه

لم يدرك على ابن الرومي سرقات جمّة مع كثرة شعره ، ذلك لغزارة مادته في الاختراع والتوليد . وكان يتجنب استباحة أفكار غيره ، إلا إذا اقتبسها ليولد منها معنى جديداً . وكان يزدرى الشعراء الذين يغيرون على

أكفان الموتى ويسلبونهم إياها ، فعله بأبي عبادة البحري ، ومع هذا فلم
يسلم من العثار بعض الأحياء ، فمن سرقاته قوله في وحيد :
لَبِتَ شِعْرِي إِذَا أَدَامَ إِلَيْهَا كَرَّةَ الطَّرْفِ مُبْدِيٌّ وَمُعِيدٌ ،
أَهْمَى شَيْءٌ لَا تَسَامُ الْعَيْنُ مِنْهُ ، أَمْ لَهَا كُلُّ سَاعَةٍ تَجْدِيدُ ؟
أخذه من قول أبي نواس :

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا ، إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظَرًا
ويؤخذ عليه في بعض شعره لين قد يبلغ به حد الاسفاف . فمن غته
البارد قوله في ختام أبيات يمدح بها المعتضد :
دَامَتْ سَلَامَتُهُ ، وَطَالَ بَقَاؤُهُ ، وَمَعَ الْبَقَاءِ الْعِزُّ وَالنِّعْمَاءُ
فهذا أشبه بختام رسالة يكتبها بعض العامة . وربما استعمل ألفاظاً عامية
تكررها الفصاحة كقوله :

لَسْتُ أَهْجِيكَ مَا حَيَّيْتَ بَيْتِي ، وَسَتَهْجُوكَ عَنِّي الْأَحْدُوثُ^١
فقوله : أهجيك خطأ لأنه واوي . قال الجوهري : « لا تقل هجيت
والعامة تقول . » ولم يخل شعره من الإقواء وزحاف الإشباع ، ولكن
ذلك فيه قليل .

منزله

قال العميدي صاحب الإبانة في كلامه على المتنبي : « ولا أقبسه في
امتداد النَّقْسِ ، وعلم اللغة ، والاقتدار على ضروب الكلام ، وتصوير

١ المبدى : من يفعل الشيء ابتداء . المعيد : المكرر .

٢ الاحدثة : ما يتحدث به . يقول : ان حديث الناس عنه سيجهوه بعد موته .

المعاني العجيبة ، والتشبيهات الغريبة ، والحكم البارة ، والآداب الواسعة
 بابن الرومي . « وقال ابن رشيقي صاحب العبد : « وكان ابن الرومي
 ضئيلاً بالمعاني ، حريصاً عليها . يأخذ بالمعنى الواحد وبولده ، فلا يزال يقلبه
 ظهراً لبطن ، ويصرفه في كل وجه ، وإلى كل ناحية حتى يميت ، ويعلم انه
 لا مطمع فيه لأحد . « وقال أيضاً : « وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم
 شاعر لكثرة اختراعه ، وحسن افتنانه . « وقال ابن خلكان : « صاحب
 النظم العجيب ، والتوليد الغريب ؛ يغوص على المعاني النادرة ، فيستخرجها
 من مكانها ، ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى
 آخره ، ولا يبقى فيه بقية . »

فهذه الأقوال كافية لان تعرفك منزلة الشاعر عند الأدباء المتقدمين ،
 فتعلم ان اهمال عصره له لم يضيع فضله بعد موته . فقد قام أصحاب
 الادب ينشرون ذكره ، ويفضله بعضهم على أكابر الشعراء أمثال المتنبي
 وسواه . وقد استحق ابن الرومي هذه المنزلة لاسباب منها براعة وصفه
 وتصويره ، ودقة نظره في مراقبة الأشياء . ومنها خصب معانيه المولدة
 والمختوعة ، واسترساله معها حتى يستوفيه إلى آخرها ، ويبرزها جليلة تامة ،
 بأشكالها وألوانها ، وصفاتها وتوابعها . وقلما غفل عن شيء منها أو بما يتصل
 بها مهما دق شأنه ، وقل خطرته .

واسترساله مع المعاني جعله يطيل قصائده فيبلغ بها مائتي بيت او
 ثلاثمائة . وهذا الطول لم نعهده في شاعر قبله ، إذا استثنينا منظومات كليله
 ودمنة وما شاكلها لضعف الروح الشعرية فيها . ثم إذا أنكرنا ما يزعمه
 الرواة من أن بعض المعلقات بلغت الف بيت ، لان زعمهم يحتمل الشك
 أكثر من اليقين .

وتمتاز قصائده على طولها بقربها من وحدة الموضوع . فهي وان تعددت اغراضها احياناً ، لا تخلو من الصلة المعنوية التي تربط اجزاءها بعضها ببعض . ولا بن الرومي شعر كثير نظم في غرض واحد .

ولعل اصله الاعجمي كان له يد في طول نفسه ، وميله الى وحدة الموضوع ، كما كان له يد في اتساق افكاره ، ودقة معانيه ، واحاطته بهنات الامور ، وخروجه الى اغراض جديدة كوصف الاخلاق والعادات ، وتصوير الاشخاص تصويراً سخرياً مضحكاً ، وغير ذلك مما يتصل بحياة المرء في هزله وجده ، وفرحه وكدره .

ويظهر اتساق افكاره في ارتباط معانيه واغراضه ، ثم في اعتماده على الاسلوب المنطقي ، فانه اتخذ اماماً له وعلى الاخص في احتياجه الى الرد على خصومه ومعيريه ، والى معاتبة بمدوحيه واسترضائهم ، والى ابداء آرائه في الحياة وصروف الدهر . وتختلف احكامه المنطقية بين القوة والضعف ، فمنها ما يستقيم له ومنها ما لا يستقيم . ذلك ان قوة التفكير عنده تنازعها قوة العاطفة . ولا غرو فانه موسوس عصبي المزاج سريع التأثر ، فأجدر به ان يكون عبداً للعاطفة ، يستخدم منطق له لارضائهم ، وبجارية اهوائهم . وحسبك ان ترى محاولته تركية الطيرة ، وامعانه في تزيين الحقد ، وتبغيض السفر ، لتبين كيف يسخر تفكيره لعاطفته .

وهو على قوة عاطفته وتفكيره ، مديد الخيال ، عميق التصور . وخياله مع اتساع مجاريه ينطلق بهدوء وانتظام ، يساير المنطق ، فلا يجنح بصاحبه الى الغلو والاحالة ، بل يعتمد في الغالب الى اظهار حقائق الموصوفات فيخرجها في أحسن صور واصدق تمثيل باعثاً فيها حياة تجعلها تهتز وتحرك ، هائماً في وادٍ كثيب تتفجر من جوانبه ينابيع الدموع ، وتدمي رياحينه اشواك

الشهوات والآلام . وابن الرومي اشغف الشعراء بالطبيعة والوانها ، يتصل بها ويعيش معها ويحسها احساساً قوياً .

ولكن ليس لشعره على الاجمال ديباجة ، لان انصرافه الى توليد المعاني ، واستخراجها من ابعاد قراراتها ، ثم اهتمامه باستيفائها وشرحها ، جعله يهمل اللفظ فما يحفل به . فاذا هو لا يعنيه الا ان يظفر بالمعنى الطريف سواء أفرغ في القالب الجميل او لم يُفرغ . فرويت له ابيات ضعيفة البناء لا روعة فيها ولا رونق ، تخلو ألفاظها من الموسيقى الشعرية ، فما تهتز لها ولا تطرب . ولولا حسن معانيها لكانت خليقة بالاغفال .

واهماله اللفظ جعله لا يحتمل بالزخرف والتزيق ، فاقصد في استعمال البديع ، وفي طلب التشابه والاستعارات ، فعُرف له منها شيء قليل بالاضافة الى كثرة شعره ، ولكن قليله جيد رائع . وأجوده ما جاء من التشابه بصورة المركب التمثيلي ، فانه غابة في الابداع . واكثر من استعمال الغريب لطول نفسه ، ثم لركوبه القوافي الغليظة كالثاء والحاء والشين والضاد وما اشبه . فانه كان يرى ان المدح تسقط قيمته اذا سلكت اليه القوافي السهلة . ثم لاقتداره على ضروب الكلام ، فان تضلعه من اللغة جعله ينتقي اللفظ المؤدي حقيقة المعنى ، ولو كان غير مأنوس ، وكثيراً ما يعمد الى تحليل الالفاظ والتلاعب بمعاني مشتقاتها فيغث بيانه وينضب ماؤه .

على ان غريبه لم يورث شعره غموضاً لسهولة تعبيره ووضوحه ، وسلامة الفاظه من التداخل . ولم يؤثر فيه الاسلوب المنطقي كما أثر في شعر أبي تمام لأنه لم يعتمد الادلة العقلية العويصة بل تناول منها اقربها سبلاً ، وتولى في نظمه ، شرحها وايضاها . ولم يجار الطائي في التزام البديع ، والافراط في التجنيس والمطابقة ، فيقع في التعقيد مثله ويصعب على الناس فهمه .

وعلى الجملة فابن الرومي أطول الشعراء نفساً ، وأكثرهم اختراعاً
 للمعاني ، واستيفاء لها ، وأبعدهم نظراً في وصف دقائق الأشياء ، وأقربهم
 إلى وحدة الموضوع . وأبرع من صوّر الأخلاق والصفات ، وجعل لمهجّوّه
 نساویر هزلیة مضحكة ، وأصدق مؤرخ لحياته في ملذاتها وأفراحها ، وفي
 مكارمها وأحزانها . ولئن أهمله عصره ، ولم يقدره حق قدره ، لقد كان
 على الرغم من عصره ، في طبيعة الشعراء المولدين .

الكتاب المولدون

العصر الثاني

ميزة النثر

ليس في ميزة النثر ما يدعو إلى فصل هذا العصر عن الأول ، فأسلوب الرسائل بقي على حاله لم يتبدل فيه شيء إلا ما كان من ازدياد التزيين والسجع ، وهذا طبيعي قضت به سنة النشوء والارتقاء ، كما قضت بتقدم فن التصنيف وشيوعه عند الكتاب . وفي هذا العصر تمت السيادة لأسلوب الجاحظ . وما الجاحظ إلا من كتاب العصر الأول عاش فيه معظم عمره ، وصنف فيه أكثر كتبه وأشهرها . ولم يعيش في الثاني إلا عشرين سنة ونيفاً مضى به نصفها الأخير وهو مفلوج مقعد ليس به غناء . فالعصران عصر واحد في الأدب شعره ونثره وإن فصلتها السياسة .

الجاحظ

٧٧٥ هـ - ٨٦٨ م و ١٥٩ هـ - ٢٥٥ هـ

حياته : اتصاله بالأمراء . موته . صفاته وأخلاقه . زندقته . أستاذه وعلومه .
الجاحظية . آثاره .
ميزته : الحيوان - أغراضه . البخل - أغراضه . أسلوبه الإنشائي . منزلته .
تأثيره . لماذا غلب أسلوبه .

حياته

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكِنَاني بالولاء ، وقيل بل كِنَاني صليب ،
والاول اشهر . وكان له جد اسود اللون يقال له فزارة كان جميلاً لعمرو بن
قِلَع من بني كِنانة . ولقب بالجاحظ لجحوظ عينيه ، وربما قيل له الحدقي
لكبر حدقته . وكني بأبي عثمان .

وكان مولده في البصرة . فلما ترعرع طلب العلم في الكُتّاب ،
وخالط المسجدين من اهل العلم والادب ، فاخذ عنهم . وكان يكتري
حوانيت الوراقين ويبيت فيها للمطالعة . على ان ضيق ذات يده لم يتح له
ان ينقطع الى العلم في اول امره . فقد شوهد يبيع الحبز والسك في

١ ذكر ياقوت ان الجاحظ قال : « أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت في أول سنة ١٥٠
وولد في آخرها . » ونحن نشك في هذه الرواية لأن أبا نواس ترجع ولادته سنة ١٤٥ هـ
وقد أدرك أبا عمرو بن العلاء وكان يتردد على بابه ويسمع منه وهو في العقد الأول من
عمره . وأبو عمرو توفي سنة ١٥٤ هـ فعلى ذلك لا تصح ولادة الشاعر في سنة ١٥٠ هـ
كما يزعم ياقوت .

سيحان^١ ، ولعله افاد من هذه التجارة ما اغناه بعض الشيء فانصرف يجلس الى علماء البصرة ويسمع من العرب الخُلص في المِرْبَد . وبدأت نباهة الجاحظ في خلافة المأمون ، ووصلت كتبه الى الخليفة فاعجب بها واستقدمه اليه ، وصدره ديوان الرسائل ، فاستعفى بعد ثلاثة ايام ، فأعفي . وكان سهل بن هارون يقول : « ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان اقل نجم الكتاب . » ويعزو ابن مُشيد الاندلسي إخفاق الجاحظ في منصب الكتابة الى امرين : اولهما دمامة وجهه ، والمملوك يؤثرون الكتاب الحسان الوجوه . والثاني خفته وعبه ، والكتاب يُحمد فيهم الترحمن والوقار .

ولما صارت الخلافة الى المعتصم ، وتقلد الوزارة ابن الزيات اتصل به الجاحظ اتصالاً مكيناً ، واقام معه يكتب له ويمدحه ، وقدّم له كتاب الحيوان فأفاد منه مالاً وفرّاً . وتأتى له ان يقوم برحلات الى دمشق وانطاكية وربما الى مصر . فوسعت هذه الاسفار خياله وزادته علماً وخبرة واطلاعاً .

وكان بين ابن الزيات والقاضي احمد بن ابي دؤاد من الشنآن ما جعل كاتبنا ينصرف الى صديقه الوزير ، ويتنكر لابن ابي دؤاد . فلما استخلف المتوكل ، وفتك بابن الزيات ، خاف الجاحظ على نفسه ، لأن المتوكل كان يكره اصحاب الاعتزال وابو عثمان منهم ، فهرب واختفى عن الناس . فجدّ القاضي في طلبه حتى قبض عليه . وجيء به مغلول العنق بسلسلة ، مقيد الرجلين ، في قميص سيل . فلما وقع نظر القاضي عليه قال : « والله ما علمتك الا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معدناً

١ سيجان : نهر بالبصرة .

للمساويء . وما قصرتُ باستصلاحي لك ، ولكن الأيام لا تُصلح منك
 لفساد طويتك ، ورداءة دخلتك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك . «
 فقال له الجاحظ : « خففُض عليك ، أبتدك الله ! فوالله لأن يكون لك
 الامر عليّ خيرٌ من أن يكون لي عليك . ولأن اسيء وتحسن احسنُ في
 الاحدوثة عنك من أن أحسن فتسيء . ولأن تغفو عني في حال قدرتك
 أجبل بك من الانتقام مني . » فقال له ابن أبي دؤاد : « قبّحك الله ! ما
 علمتك الا كثير تزويق الكلام . وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم
 اصطفيت فيه النفاق والكفر . » ثم قال : « جيئوا بمجدّاد . » فقال :
 « اعزّ الله القاضي ! ليفك عني او ليزيدني ؟ » فقال : « بل ليفك عنك . »
 فجيء بالحداد فغمزه بعض اهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ،
 ويطيل أمره قليلاً ، ففعل . فلطمه الجاحظ وقال : « اعمل عمل شهر في
 يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة في لحظة ، فان الضرر على ساق
 ولبس يجذع ولا ساجة^١ . » فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه .
 وقال القاضي : « أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه . » ثم قال : « يا غلام
 صر به إلى الحمّام وأميط عنه الاذى ، واحمل إليه تحت^٢ ثياب وطويلة^٣
 وخفّاً . » فلبس ذلك ثم أتاه فتصدر في مجلسه . ثم أقبل عليه القاضي وقال :
 « هات الآن حديثك يا أبا عثمان ! »

وانقطع الجاحظ إلى ابن أبي دؤاد سنة كاملة ، وقدم له كتاب البيان
 والتبيين فأجازه عليه بخمسة آلاف دينار . ولما فُلج القاضي وخلفه في

١ الساجة : شجرة هندية عظيمة ، وتطلق على قطعة الخشب .

٢ تحت : وعاء تصان فيه الثياب .

٣ طويلة : أي قلنسوة طويلة ، والقلائس الطوال كانت من زي العصر العباسي .

القضاء ابنه أبو الوليد ، لزمه الجاحظ حتى غضب عليه المتوكل لكثرة شاكبه ، فأمر به ، فصُرف عن القضاء ، وصودر على أمواله وذلك سنة ٢٣٧ هـ (٨٥١ م) .

واتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان وزير المتوكل ، وقدم له كتبه ، منها كتاب في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، وكانت بينهما مودة ومراسلات .

ولطالما أثنى الفتح على الجاحظ عند المتوكل وأخذ له الجوائز والمشاھرات . ولكن دمامة أبي عثمان حالت بينه وبين الخليفة ، فلم يقرب مكانه . حدث الجاحظ عن نفسه قال : « ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رأيته استبشع منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني . »

موته

اجمعت الروايات على أن الجاحظ أُصيب بالفالج والنقرس^١ في أواخر حياته ، فانتقل إلى البصرة في خلافة المتوكل وربما في السنة التي قُتل فيها^٢ . ويروون لعلته خبراً لا ينبغي التعويل عليه ، وهو أنه كان على مائدة أحمد ابن أبي دؤاد فأكل مضيرة^٣ وسكاً ففلج ونقرس من ليلته لجمعه بين السمك واللبن .

ونرى أن الجاحظ كان يشكو علته في عهد ابن الزيات ، وقبل أن يتصل بأحمد بن أبي دؤاد ، لأنه أشار إليها في كتاب الحيوان ، واعتذر

١ النقرس : علة في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين تشبه داء المفاصل .

٢ قتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) .

٣ المضيرة : لحم يطبخ بالبن المضير أي الحامض . وربما خلط المضير بالحليب وهو الأجود ، ثم يضيفون إليه من الأبرار ما يوفر اللذة في طعمه ، وله مريقة يحملون أكلها .

بها إلى نقاده . قال : « وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه : أول ذلك العلة الشديدة ، والثانية قلة الاعوان ، والثالثة طول الكتاب . » فهذه العلة التي يذكرها ولا يسميها رافقته وهو ابن سبعين وكان لم يزل متصلاً بابن الزيات . ولكننا لا نقطع بأنها هي الفالج لأن الجاحظ أصيب بالنقرس أيضاً . وكان به حصاة لا ينسرح له البول معها . فقد تكون هذه العلة الحصاة ، وقد تكون أعراضاً من ألم النقرس ، أو خدر الفالج . على انه لم يقعه المرض إلا بعد أن نيّف على الثاين . فمكث مدة في سر من رأى ثم انتقل إلى البصرة فأقام فيها حتى مات .

صفاته وأخلاقه

كان الجاحظ مشوه الوجه جهماً ، ثاقب العينين ، قصير القامة لا تفتح العين على أبشع منه منظراً . وكان إلى ذلك خفيف الروح ، حسن المعاشرة ، ظريف الحديث ، طيب النكتة ، مطبوعاً على السخر والتهكم . وليس سخره بالجراح الحاد وإنما هو لطيف ناعم ، مصور لنفسه المرححة التواقة إلى الدعاب . ولطالما التمس الجاحظ النكتة وأوردها ولو كانت على نفسه ، وأخبره في ذلك كثيرة . قال : « أتيت منزل صديق لي ، فطرقت الباب ، فخرجت إليّ جارية سندية . فقلت لها : « قولي لسيدك : الجاحظ بالباب . » فقالت : « الجاحظ بالباب ؟ » على لغتها ، فقلت : « لا ، قولي : الحدقي بالباب . » فقالت : « أقول الحلقي ؟ » فقلت : « لا تقولي شيئاً . » ووجعت . » وقال : « أتاني بعض الثقلاء فقال : « سمعت ان لك ألف جواب مُسكت ، فعلمي منها . » فقلت : « نعم . » فقال : « إذا قال لي شخص : « يا . . . يا ثقیل الروح ، أي شيء أقول له ؟ » قلت : « قل

١ الحلقي : المختل .

له صدقت . »

وكان شديد الذكاء حسن الفراسة ، محباً للتكسب ، ولا يعتد به بما يأخذ به الناس أنفسهم وينتعلون به من الرسوم والعادات ، وأنواع العصبية المذهبية ، فقد دافع عن العرب ، وردّ على الشعوبية في كتابه البيان والتبيين . ولكنه لم يبخس الأعاجم حقهم في كثير من كنبه ، وقد يتخذ من ذلك سبيلاً للتكسب ، فإنه قدّم البيان والتبيين إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد وهو عربي صريح فتقرّب إليه وتكسّب منه بدفاعه عن العرب . وقدّم كتابه في مناقب الأتراك إلى الفتح بن خاقان وهو توكي الأصل فحظي به عنده .

وكان يحب اللهو والمجانة وسماع القيان والمغنين ، وتطيب له معاشره الاماء والجواري فتسرّى بهن واستمتع ، ولم يتزوج ، ولم يُرزق ولداً . وإذا علمت أن الجاحظ من علماء الكلام ومن شيوخ الاعتزال ، وصاحب الفرقه الجاحظية ، وأمير من امراء البيان ، لم تعجب أن ترى له حساداً يبالغون في انتقاده ، ويتهمون به بالزندقة .

زندقته

كان الجاحظ حر التفكير كغيره من أصحاب الاعتزال ، يعتمد على العقل ، ويتخذة إماماً في تفسير الشرع وتأويله . ولا يطمئن إلى الحديث لكثرة ما فيه من المصنوع ، فردّ كثيراً من الاحاديث وانتهى بها . وحمل على علماء التفسير ، من سنيين ، وصوفيين ، وغالية ، فأنكر عليهم أقوالهم وجهلهم ، وسخر منهم وأسرف في السخرية . وفي كتاب الحيوان مقالات كثيرة يناظرهم بها في غير رفق ولا هوادة ، فمن ذلك قوله : « وقال الله عز وجل : « والتين والزيتون . » فزعم زيد بن أسلم ان التين دمشق

والزيتون فلسطين ... والكلمات في هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف ، وإنما يريد النعم والاعاجيب والصلاة وما أشبه ذلك . « وقال أيضاً : « وفي القرآن قول الله عز وجل : « وأوحى ربك إلى النحل ... » فقد زعم ابن حائك وناس من جهال الصوفية ان في النحل أنبياء لقوله عز وجل : وإذ أوحيت إلى الخواصين . « وما خالف أن يكون في النحل أنبياء بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء ، لقوله على المخرج العام : « وأوحى ربك إلى النحل . « ولم يخص الأمهات والملوك واليعاسيب بل أطلق القول إطلاقاً . « وقال أيضاً : « وزعم بعض المفسرين وأصحاب الاخبار ان اهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر . فعطس الاسد عطسة ، فرمى من منخره بزوج سنابير ، فذلك السنور أشبه شيء بالأسد . وسلح الفيل زوج خنازير ، فذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل . قال كينسان : فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنابير وتلك السنورة حواءها . وضعك القوم . »

وهذه الشواهد كافية للدلالة على تهكم الجاحظ برجال الدين من غير المعتزلة ، وتسفيه أقوالهم . فلا بدع أن ينقموا عليه ، ويتبعوا هفواته ، ويرمونه بكل نقيصة ومعرفة . فقد اتهموه بدينه ، وقالوا انه زنديق ، واتهموه بصنع الحديث ، والتهاون بالصلاة . ووضعوا عليه روايات لا محل لذكرها . على اننا وان كنا نعتقد ان الجاحظ ليس من أولئك المتشددين في أمر الدين ، ولا من الذين يؤمنون بأحكامه دون أن يحتكموا إلى عقولهم ، لتأبى أن نجاري من يرمونه بالزندقة والاحاد ، فليس في كتبه ما يدلنا على كفره ، وإنما هي مشبعة بالعاطفة الدينية ، لا يفتأ يتحدث فيها

١ اليعاسيب : جمع يعسوب وهو ذكر النحل .

بقدره الله وحكمته في خلقه. وقلما روى خبراً الا ذكر الله وأثنى عليه .
 وإذا تكلم على منافع الكتب ، فضل كتب الله على غيرها . وإذا ذكر
 الفصاحة لا يجد أفصح من النبي محمد . فمن كان هذا شأنه فما هو بزندق
 وإنما هو مفكر حر التفكير يشك في موضع الشك ، ويؤمن في موضع
 الايمان . وكان له من روح عصره وأحوال بيئته ما يفسح له في مجال
 الشك والسخر . فشك وسخر ، ولكنه لم يسقط في الكفر والجحود .
 وليس التهاون بالصلاة ضرباً من الكفر اذا صح ان الجاحظ كان لا يقيسها
 في أوقاتها . ولم يقم دليل قاطع على وضعه للأحاديث ، وهبه وضع تاجناً
 او مداعبة او نكابة ، شيئاً منها فما يؤثّم به لانه كان يتهم الأحاديث ،
 ولا يثق بها ، وقبله أبو حنيفة لم يعتدّ بالحديث . فالجاحظ مستهزئ ساخر ،
 معتزليّ يعتمد على العقل ، ولكنه ليس بزندق .

أُستاذوه وعلومه

رغب الجاحظ في العلم وهو حدث فكان يذهب إلى الكتاب في البصرة
 مع ما هو فيه من خصاصة . ثم عمد إلى دكاكين الرافقين يكتريها ويبيت
 فيها للنظر ، ولم يقع في يده كتاب إلا استوفى قراءته . ثم اتصل بشيوخ
 العلم وأئمة الأدب فأخذ عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الانصاري وأبي
 الحسن الأخفش . وتخرّج في الكلام والاعتزال على أبي اسحق النظم .
 وكان يشهد المريد ، ويسمع اللغة من الأعزّاب شفاهاً .
 وحدث عن جماعة من الفقهاء كآبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، ويزيد
 ابن هارون ، والسريّ بن عبدّويه . وروى عنه المبرّد ، ويموت بن
 المزرع^١ ، وأبو بكر السجستاني وسوام .

١ يموت بن المزرع هو ابن أخت الجاحظ .

ويرى بعضهم انه تعلم الفارسية وأتقنها ، ويستدلون على ذلك بكثرة ما ورد من ألفاظها في كتبه . ولكن لا يصح الاطمئنان إلى هذا الرأي لأن لغة الفرس كانت شائعة في عصر الجاحظ لانتشار أهلها في العراق ، فقد يكون النقط ألفاظاً منها ، واستعملها في كتبه تلمحاً وتظرفاً ، دون أن يعنى بدراستها وإتقانها .

ولم يدع الجاحظ علماً معروفاً في أيامه إلا نظر فيه ، واطلع عليه . فقد درس الفلسفة والمنطق والطبيعات والرياضيات والتاريخ والسياسة والأخلاق والفراصة ، فاكتملت آلته . فإذا هو فقيه متكلم يتفلسف ويتنطق . يحدث وإن لم يؤمن بالحديث . بارع في الأدب واللغة . راوية للأخبار والأشعار . مجتة عن الحيوان والنبات . نقاد للأخلاق والعادات . عالم بالفلك والموسيقى والغناء .

الجاحظية

أثر ابراهيم النظام في أفكار تلميذه أكثر من أستاذه الباقين ، فقد لقنه علم الكلام ، وصار به إلى الاعتزال ، وعوده حرية التفكير . ولكن الجاحظ لم يلبث أن انفرد عنه بمقالة قامت عليها فرقته الجاحظية . ولم يبلغ إلينا من آرائه في مذهبه هذا إلا ما أورده الشهرستاني في الملل والنحل . والبغدادى في الفرق بين الفرق . ومنه نعلم أن أبا عثمان جارى المعتزلة في أشياء فقال مثلهم بنفي الصفات عن الله ، واثبات مذهب القدونية . وقال بخلق القرآن كما خلق الرجل والمرأة والحيوان^١ ، وانفرد عنهم بمسائل منها قوله بأن المعارف ضرورية مركبة في طباع العباد وليست من أفعالهم وليس

١ حرف الراوندي قول الجاحظ ، وكان يتمصّب عليه ويكرهه ، فزعم انه قال ان القرآن جسد يجوز أن يقلب مرة رجلاً ومرة حيواناً .

للعباد كسب سوى الإرادة لأنها جنس من الأعراض. وأما الأفعال فجبورية تحصل من العباد طباعاً . ومنها ان أهل النار لا يخلدون فيها عذاباً بل يصيرون إلى طبيعة النار ، وان الله لا يدخل أحداً في النار بل ان النار تجذب أهلها إليها .

ورويت له اقوال غير هذه لا نرى فائدة من ذكرها. ومذهب الجاحظ كما يقول الشهرستاني هو بعينه مذهب الفلاسفة إلا أنه يميل الى الطبيعيين اكثر منه الى الالهيين .

آثاره

خلف الجاحظ مؤلفات كثيرة جعلها بعضهم ثلاثمائة وستين كتاباً وهي دون ذلك فيما نعلم لأنه اضيف الى الجاحظ كتب ليست له. وذكرت كتب تكررأرأ باسماء مختلفة . على انه مهما يكن من شيء فان آثار الجاحظ في غاية الحصب. ونظرة الى ما اثبت منها في مقدمة الحيوان ، ومعجم الأدباء، تطلعنا على طائفة جليلة ، تربي على المائة بين مؤلف كبير ورسالة صغيرة . وفيها عاليج مختلف الاغراض والموضوعات فكتب في الادب والشعر والديانات والعقائد والامامة والنبوة والمذاهب الفلسفية . وبحث السياسة والاقتصاد وتحسين الأموال ، وغش الصناعات ، والأخلاق وطبائع الأشياء ، وحيل اللصوص وحيل المكدين وذوي العاهات كالحول والعمور والعرجان والبرصان . وتكلم على العصبية وتأثير البيئة فكتب في القحطانية والعدنانية والشرحاء والمهجناء ، والسودان والحران ، والرجال والنساء وفي اي موضع يغلب ويفضلن ، وفي اي موضع يكن المغلوبات والمفضولات . ونظر في العلوم التاريخية والجغرافية والطبيعية والرياضية فكتب في المدن والأمصار والمعادن وجواهر الأرض ، والكيسياء والنبات والحيوان والطب

والفلك والموسيقى والغناء ، والقيان والمغنين . وكتب في الجواري والعلمان والعشق والنساء ، والنرد والشطرنج وغير ذلك مما يتناول الحياة الاجتماعية والأدبية والعلمية في عصره وقبل عصره .

وكان في أول أمره ينحل كتبه البلغاء المشهورين كعبد الله بن المقفع ، وسهل بن هارون ، فيقبل عليها الناس ، ويتسارعون إلى نسخها لا شيء إلا لأنها منسوبة إلى كتاب معروفين . وربما كتب أفضل منها ونسبه إلى نفسه فلم يجد عليه اقبالا . وما زال هذا دأبه حتى بعد صيته فأصبح لا يضع رسالة إلا تلففتها الأيدي وتناسختها ، وطارت في الأمصار فحفظوها واستظهروها . وربما أرسلوا المتأدين إلى مكة في مواسم الحج ، يسألون الحجاج عن كتاب له طلبوه ولم يجدوه .

واقاد الجاحظ بكتبه ثروة حسنة طاب بها عيشه ، فقد قدم الحيوان إلى ابن الزيات فأعطاه خمسة آلاف دينار ، و قدم البيان والتبيين إلى ابن أبي دؤاد فأعطاه خمسة آلاف دينار ، و قدم كتاب الزرع والنخل إلى ابراهيم ابن العباس الصولي فأعطاه خمسة آلاف دينار . وكانت له وظائف يتقاضاها مشاهرة في وزارة الفتح بن خاقان ، عدا ما قال من الجوائز والصلات في مختلف الأحوال .

ولما مات راح بعض الكتاب المغمورين يضيفون إليه كتبهم لشهره ، كما فعل هو في أول عهده بالكتابة ، فنحلوه كتباً كثيرة ليس له يد فيها ، ولا هي من نفسه واسلوبه .

وروي للجاحظ شعر في المدح والهجاء وغير ذلك ، ولكن شعره لا يُعتد به لأن أبا عثمان خلق كاتباً لا شاعراً . ومنزله قائمة على طرائف مصنفاته ، وبلاغة انشائه .

ميزته

تجلى ميزة الجاحظ في كل كتاب أو رسالة صنفه، وهو كثير كما رأيت. فبهيات أن يتاح لنا دراسة آثاره كلها في هذا البحث. وانما نجتزئ بكتابين من أشهرها وهما الحيوان والبغلاء. وربما رجعنا في بعض الأحوال إلى البيان والتبيين وسواه استتماماً لميزة الكاتب العبقرى في مختلف شؤونه وأغراضه.

كتاب الحيوان - أغراضه

جمل الجاحظ هذا الكتاب في سبعة أجزاء. فالجزء الأول صدره بمقدمة متممة يرد فيها على شخص انتقد كتبه، وعاب عليه مباحثه. ويذكر في هذه المقدمة طائفة جليلة من مصنفاته التي تصدى لها المنتقد. ثم ينتقل إلى مدح الكتب، وذكر فوائدها والترغيب في اصطناعها. ثم يتكلم على الحياء وأحواله ومنافعه ومساوئه، ثم على الكلب والديك وما قيل فيهما من ذم ومدح.

والجزء الثانى يتضمن تمة الكلام على الكلب واحتجاج صاحبه له.

والجزء الثالث يذكر فيه الحمام وما وُصف به من كرم الطبائع ثم من لؤمها، ويتخلل ذلك استطرادات إلى صدق الظن والفراسة والجنون، ثم ينتقل إلى الكلام على الذبان والغربان والجعلان^١ والخنافس، والمدهد^٢.

١ الجعلان: ضرب من الخنافس ثخن، قيل أنه يموت من ريح الورد ويمش إذا أُميد إلى

الروث، ويضرب المثل بشدة سواد لونه، مفردة جمل.

٢ المدهد: طائر ذو خطوط وألوان يبنى أنحوصه في الزبل فينتن ريحه.

والرَّخَمَ^١ والخَفَّاشَ^٢ .

والجزء الرابع يتكلم فيه على الذرَّة والنمل والقرد والحزير والحيات والظلم^٣ ، ثم على النيران وأجناسها ومواضعها ، وما يضاف منها إلى العجم ، وما يضاف منها إلى العرب . ونيران الديانات وغير الديانات ومن عظمها ، ومن استهان بها ، ومن أفرط في تعظيمها حتى عبدها .

والجزء الخامس يستتم فيه الكلام على النار . ثم يشرع في تفسير بعض الآيات . ثم يرجع إلى ذكر النار فيتكلم على جمرات العرب . ثم يفرِّد باباً يذكر فيه ما قيل من مديح في النصارى واليهود والمجوس والأنذال وصغار الناس . وهو في جميع ذلك لا يبحث الحيوان حتى ينتقل إلى القول في أجناس الطير التي تألف دُور الناس ، والقول في الفأر والجردان والسنانير ، والعقرب والصَّوَاب والبق وما أشبه ؛ ثم في العنكبوت والنحل والقراد^٤ والحُبَّارَى^٥ والضَّان والماعز والضفدع ؛ ثم في الفرق بين الإنسان والبهيمة ، والإنسان والسبع ، ثم في القطا . ويختتم الكتاب بنوادر وأشعار وأحاديث .

والجزء السادس يبدأ فيه بذكر الأبواب التي تكلم عليها ، ثم يوطئ^٦ للأبواب التي يريد الكلام فيها . ويستهل القول في الضب ، ثم يفسر قصيدة

١ الرخم : طائر يشبه النمر والعامة تسميه الشوح ، الواحدة رخمة .

٢ الخفَّاش : الوطواط ، وهو طائر لا يطير في ضوء ولا ظلمة ، وإنما وقت غروب الشمس وبقيّة الشفق حيث يرتفع البعوض وينتشر فيتمكن من صيده .

٣ الظلم : ذكر النعام .

٤ القراد : دويبة تتعلق بالإبل ونحوها ، وهي كالقمل للإنسان .

٥ الحُبَّارَى : طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوزة في منقاره طول ، يقال للذكر والانثى الواحد والجمع ، يضرب به المثل في البلاءة والحق .

البهراني في الحيوان ، ثم يبحث في الغيلان والجان ، ثم يورد قصيدتين في الحيوان لبشر بن المعتبر ويفسر الاولى منها ، وينتقل إلى الهدهد والظبي والتمساح والأرنب والظربان^١ . ثم يورد أشعاراً في أخلاط من السباع والوحش والحشرات . ثم يفسر قصيدة بشر بن المعتبر الثانية . وينتقل إلى ذكر الثار عند العرب ، وذكر الجبان ووهله . ثم يتكلم على الورد^٢ وتسلطه على الحية ، ثم على القنافذ والفهد^٣ ، ويختم بنوادر وأشعار وأحاديث .

والجزء السابع ، أصغر الأجزاء ، يبحث فيه عما عُرفت به الحيوانات من الحكمة العجيبة ، والأحاساس الدقيقة ، والصفة اللطيفة ، وما ألهمها الله من المعرفة ، وكساها من الجبن والجرأة ، وأشعرها من الفطنة بما تحاذر به عدوها . ويستدل بذلك كله على حسن صنع الله ، وجلال أحكامه وتدابيره . ثم ينتقل إلى القول في الفيل ، ثم في ذوات الأظلاف^٤ فيتكلم على الزرافة وغيرها من الحيوانات . وعند ذلك ينتهي الكتاب .

وهذا الكتاب مستمد من عدة مراجع : منها أشعار العرب وأخبارهم وأمثالهم . ومنها القرآن والحديث ، وما بلغ إليه علم الجاحظ بالتوراة والانجيل . ومنها كتب العلوم المنقولة ، ولا سيما كتب أرسطو وأقواله في الحيوان وما أضيف إليه فيه من أقوال . ومنها ما أخذه الجاحظ شفاهاً من أفواه من كان يحدّثهم من أصحاب المهن والحرف وغيرهم . ومنها ما

١ الظربان : دويبة كالهرة منتنة الريح .

٢ الورد : دابة كالضب إلا أنه أعظم منه خلقة يكون في الرمال والصحارى .

٣ الفهد : سبع أشبه بالنمر أسمر اللون ضارب إلى الصفرة مرقط الظهر شديد الغضب ، ثقیل النوم .

٤ الأظلاف : جمع الظلف وهو للبقرة والشاة ونحوهما كالظفر للإنسان والحافر للفرس .

كان نتيجة رحلاته واختباراته .

وقد رأيت ان الجاحظ لم يقصر مباحثه على الحيوان بل أحاط بالنواحي الأدبية والدينية والاجتماعية والحلقية . ففي هذا الكتاب شعر كثير ، وأخبار ونوادير ، وفحش ومجون . وفيه آيات وأحاديث ، وحكم وأمثال . وفيه أقوال في الديانات والعبادات . وفيه أساطير وخرافات ، وتقاليد وعادات .

والجاحظ كما علمت يعتمد على العقل في مباحثه شأن أصحابه المعتزلة . وقد اتخذ عقله دليلاً في كتاب الحيوان ، فإذا هو يدقق ويمحص ، ويختبر الأشياء بنفسه ، أو يسأل عنها أهل المعرفة وأصحاب الاختصاص .

وإذا اعتمد صاحب التفكير على العقل فلا يخلص في الغالب من الشك . وهكذا شك الجاحظ في ما رأى وسمع وقرأ . فكان يشك في أقوال أرسطو إذا لم يقبلها عقله ، كما كان يشك في أقوال الرواة والمحدثين . وتراه يزين الشك وبوصي به فيقول : « وبعد فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له . »

وجنوحه إلى الشك جعله يقف عند كل رواية ليحكم فيها عقله ، فمرة يرفضها ، ومرة يقبلها ، ومرة يثبت دونها بين الرفض والقبول . وبهتته عائد على عجزه عن ادراك الحقيقة .

وإذا اتهم أرسطو ورفض قوله شدة عليه وضعف امتحاناته ، وربما بقوارص الكلام . ويسيه ثارة باسمه وثارة صاحب المنطق . فمن ذلك قوله : « وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل ، وما يليق بمنله أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء . »

ويشدّد النكير على الحرافات الشائعة ، والأساطير المتداولة ، ويسخر منها وينفيها . وإذا اطمأن إلى الرواية علّل سبب ارتياحه إليها فيقول مثلاً : « وقد زعم صاحب المنطق ان ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الأسنان ، لطول مكثه في بطنها . وهذا جائز في ولد الفيل غير منكر ، لأن جماعة نساء معروفات الآباء والأبناء قد ولدن أولادهن ولهم اسنان نابتة . » وربما اطمأن الى رواية غريبة فقبلها على علائها مكتفياً بأبداء تعجبه كما في كلامه على الأفعى التي عضت الناقة ، وفصيلها يرتضع منها ، فمات الفصيل قبل امه .

وكثيراً ما يلجأ الى الاختبار في بحثه ، فيتتبع الأشياء بنفسه ، ويدقق في السؤال عنها . وقد يعمد الى الحيوانات فيقتلها او يرضع بيضها ليفحص باطنها . أو يدفننها حية ليراقب حركاتها . او يجمع بعضها الى بعض في إناء واحد ليشهد تألفها وتخاصبها .

وربما جرت له مناظرات مع نبلاء الأطباء في عصره كسَلَمَوَيْه ، وابن ماسويه ، وبَخْتِيَشَوْع بن جبريل ، كمنظرته لهم في عمل سم الأفعى . وقد تجدل له اقوالاً لا يقرها العلم الحديث ولا تقوم على الاختبارات الفنية كقوله ان الذبان يتولد مرة من تعفن الأجسام والفساد الحادث في الأجرام^١ والباقلاء^٢ إذا عتق . فلا حرج عليه في ذلك فانما هو يعرض علينا علوم عصره لا علوم العصر الذي نحن فيه .

ويعجبك كلامه على البلدان وتأثير الهواء في أهلها ، وما اشتهر من امراضها وحشراتنا . كقوله في حمى الاهواز وضعف نسلها ، وشعوب لوهم .

١ الأجرام : جمع جرم وهو جسم الحيوان وغيره .

٢ الباقلاء : الفول ، الواحدة باقلاء .

ويقوده الكلام على الحيوان واضرارہ ومنافعه الى بحث فلسفة الخلق
وضرورة وجود الخير والشر واللذة والألم في الحياة .

والجاحظ في هذا البحث يريد أن يظهر قدرة الله وحكمته في خلقه ،
وأنه خلق كل شيء نافعاً وإن يكن فيه الأذى والضرر . واطهار قدرة الله
وحكمته هو الغاية التي يتطلبها الكاتب في جميع مباحث هذا الكتاب .
فإنه لا يورد مثلاً ، ولا يقص خبراً ، ولا يبدي درساً الا استخلص منه عبرة
يردّها على قدرة الله وحسن صنعه في خلقه .

فكتاب الحيوان كما رأيت ، فيه أدب كثير ، وفيه علم غير يسير ،
واذا غلبت عليه الصبغة الأدبية فمن الغبن ان نبخسه حقه من العلم ، فان فيه
من الاستقراءات والاختبارات ما لا تجده إلا في مصنفات العلماء والمفكرين .

البخلاء - أغراضه

هذا كتاب جعله الجاحظ في جزء واحد ، صور فيه اخلاق البخلاء
وطرقهم في الحرص والاقتصاد ، وصدّره بمقدمة خاطب فيها شخصاً طلب
اليه ان يذكر له البخل ونوادير اصحابه ، فأجاب طلبه ، ووضع له هذا
الكتاب . واوله رسالة من سهل بن هارون إلى بني عمه ، وقد ذموا مذهبه
في البخل ، فدافع عنه واحتج له ، وذكر منافعه ، وما قيل في تحسين الحرص
وذم السرف . حتى إذا انتهت الرسالة أخذ الجاحظ في سرد قصص البخلاء ،
وأكثرهم من أهل البصرة وخصوصاً أهل مسجدها وفيهم من أهل خراسان .
ويتخلل هذه الأقاصيص حيل البخلاء في الحرص والاقتصاد وجع المال ،
ودفع الضيوف ، ومناظرات كثيرة بين السخي والشحيح . ولا يتخرج
الكاتب من فضح أصدقائه المبخلين وذكر نوادرهم ، وفيهم طبقة من الادباء
والعلماء . ويختم هذه الأقاصيص بإيراد رسالة من أبي العاص بن عبد الوهاب إلى

الشَّقْفِي يذم فيها البخل ويمدح الجود . ويتعرض لرجل يُعرف بابن التَّوَام ، فيعده في البخل . فلما بلغت الرسالة ابن التَّوَام كره أن يجيب أبا العاص لما في ذلك من المنافسة . وخاف ان يترقى الأمر أكثر من ذلك ، وكأنه خشي ان يؤثر كلام ابي العاص في نفس الشَّقْفِي فيصرفه عن البخل . فبادر إليه برسالة فنَّد فيها اقوال ابي العاص ، ومدح البخل ، وزين جمع المال . ثم يعود الجاحظ إلى أخبار البخلاء فيروي نوادر عن بخل الأصمعي . ثم ينتقل إلى اسماء المآدب عند العرب ، فيبين اختصاص كل اسم بمعناه كالخُرْس يتخذ للطعام صبيحة الولادة ، والإعذار طعام الختان .

ويقوده الكلام على المآدب الى التحدث بجوع العرب وعطشهم ، وشظفهم وفقرهم . ثم يستطرد إلى شِبَعهم وخصبهم وضيافاتهم ، وقِدْرهم وصفاتها عند الشعراء من مدح وذم ، ويعدد طعام الأعراب من طيب وردي . ويروي اشعاراً هجيت بها اقوام لاشتهارهم ببعض الاكلات . ثم يذكر الكلاب ونبحها في الليل لاستجلاب الضيوف ، ونبحها في وجه الضيف لدفعه ، ويروي ما قيل من الشعر في هذا وذاك . وينحتم الكتاب بالكلام على النيران التي كان يوقدها العرب في الأماكن المرتفعة ليهتدي بها الضيفان ، ويروي ما قيل في ذلك من الشعر .

فالكتاب كما يتبين لا يقتصر على اخبار البخلاء ، وإنما هو كسائر كتب الجاحظ حافل بمختلف الاغراض مصطبغ بالأدب من جميع جهاته . ولكن فوائده جمة في تدبير المنزل وعلم الاقتصاد ، وان تكن افاصيحه مصروفة الى ناحية الشح والجشع .

وفي الكتاب من الفوائد التاريخية ما لا يقل شأناً عن الفوائد الاقتصادية، فانه يطلعنا على انواع الملابس والأطعمة عند الأعراب ، واحوالهم في الشدة

والرخاء . فبينما كان بعضهم يأكل نحاتة القرون والاضلاف ، والدقيق
المختلط بالشعر ، والقرندان المعجونة بالدم وغير ذلك من خبيث الطعام ،
كان البعض الآخر ، وهم المترفون ، يأكلون الطيب من اللحوم ، والتمر ،
واللبن ، والفاكهة ، والفالوذق^١ . ويطلعنا على كثير من عاداتهم في الضيافة
وايقاد النار لها . وعلى خرافاتهم واعتقاداتهم الباطلة ، ومنها ما كان في
عصره كاعتقادهم العين الماحلة ، وهي التي تُعرف بالعين الشريرة .

ويطلعنا ايضاً على منزلة الأعاجم في عصره ولا سيما الاطباء ، فان الناس
كانوا لا يرون خيراً في الطب إلا في ما جاءهم عن نصراني عجمي . ومن
ذلك خبره عن اسد بن جاني الطيب العربي المسلم .

فالجاحظ كما ترى يصور احوال عصره في كل كتاب يصنفه ، ويظالمك
بكل حديث طريف ، وفادرة ظريفة . فيفيدك ويلهيك في وقت واحد .
ويمتاز البغلاء في ان أشخاصه على شعهم وخساستهم لا يطبعون في النفس
صوراً كدرة تنفر منها لان الجاحظ ألقى عليهم من خفة روحه ظلاً لطيفاً
فحسنتهم في العين ، وحسبهم إلى القلب . فهم من طيِّاب البغلاء كما ينعتهم
او ينعت بعضهم . والكتاب كله يجري على هذا النمط من تصوير للأخلاق
والعادات ، واخبار في الحرص والاقتصاد ، وأدب كثير ونوادر وأشعار .
أسلوبه الانشائي

للاجاحظ اسلوب لا تخطئه سواء وقعت عليه في كتاب صنّفه ، او في
رسالة دجّجها . ولهذا الاسلوب ميزات متعددة منها ان الكاتب يستهله بالبسلة ،
ويردّفها على الغالب بالحمدلة والتعوذ كما فعل في البيان والتبيين ، أو بمقدمة

١ الفالوذق والفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل ، وهي أطيب الحلوى عند
العرب .

دعائية يخاطب بها شخصاً لا يسميه كقوله في الحيوان : « جنبك الله الشبهة ، وعصك من الحيرة ... » وقوله في البخلاء : « تولأك الله بحفظه ، وأعانك على شكره ... » والدعاء من لزوميات الجاحظ يكثر منه في جمل اعتراضيه إما تملحاً وتظرفاً ، وإما تلتظافاً وتنجيباً ، وإما سخرأ وتهكماً وهذا أظرف الأدعية عنده وألذها وقعاً كقوله على لسان صاحب له : « فكيف عقل المعجوز حفظها الله ! »

والسخر عند الجاحظ طبيعي لا يتكلفه تكلفاً ، فالكنته أبدأً على اسلة لسانه ، والتهكم حشو ألفاظه . فذلك كثر هزله في مواضع الجد ، فبينا يكون في بحث علمي رصين لا يلبث أن يفاجئك بالنادرة الظريفة فيضحكك ويزيل سأمك . وقلما خلا كتاب له من المضحك والمهازل . فهو من أولئك الناس الذين يرون الدنيا ضاحكة إذا ضحكوا لها . وكان يعتذر من خروجه إلى المزح بعد الجد بقوله : « وإن كنا قد أمللناك بالجد » وبالاحتجاجات الصحيحة المزوجة لتكثر الحواطر وتُسعد العقول ، فاستنشطك ببعض البطالات وبذكر العلل الظريفة ، والاحتجاجات الغريبة . »

وتهكم الجاحظ لطيف ناعم ، وربما جاء به ذمماً في قالب المدح دون أن يتبعض فيه . وهو كثير السخر بالخرافات والحقاقات والأحاديث الكاذبة . وكتابا الحيوان والبخلاء حافلان بسخره وتندره .

ويمتاز أسلوبه في الاستطرادات الكثيرة فما يمسك غرضاً إلا تجاوزه إلى آخر بدافع من شعر أو حديث أو آية ، أو غير ذلك يستشهد به ويقف عنده فيخرجه عن موضوعه إلى اغراض مختلفة حتى يتيه بقارته . ثم يرجع به إلى الحديث الذي خرج عنه بعد أن ينسيه إياه . وقد يطول استطراده

فيستغرق عدة صفحات ، وقد يقصر فما يجاوز بضعة أسطر ، ويرى الجاحظ لنفسه في ذلك عذراً فيقول : « وعلى اني قد عذمت ، والله الموفق ، ان اوشع هذا الكتاب ، وافصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فلاني رأيت الأسماع تملأ الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها . »

ومن ميزاته التكرير والمرادفة والاسهاب ، ويعود ذلك على قصده إلى تبليغ المعنى وإيضاحه ، وإبراز الموصوف وتصويره ، ثم على تطرابه لموسيقى ألفاظه ، ووقعها في مسامعه .

وتصوير الموصوف من أبرز خصائص الجاحظ ، فإنه كثير العناية بمراقبة الأشياء التي يصفها فما يهمل موضعاً يتعلق به غرضه إلا جعل له صورة حتى يبرز موصوفه على الشكل الذي يراه ، ومن الناحية التي يريد أن يظهره فيها . ويستعين على ذلك بتعابير الخاصة فيكرر ويرادف ، ويبدى ويعيد إلى أن تتم له الصورة التي يريد .

وهو كثير الاستشهاد بالآيات والأحاديث والأشعار والأمثال ، بما يدل على سعة اطلاعه وفيرة روايته ، ولكنه كثير من المتقدمين لا يتخرج من إيراد الأشعار الفاحشة ، والنوادر المتعبرة . وكان يرى أن الشيء إذا وقع في محله ، فلا سبيل إلى استنكاره ، ويسخر من الذين يتأبون ذلك ويستكروهونه . ويقول فيهم : « وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم ، والنبيل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع . » والجاحظ في رأيه هذا ينطق بلسان السواد الأعظم من أهل عصره ، فان أدبهم كان في كثورته ماجناً متهكاً خليعاً .

وشيء آخر يميز أسلوب الجاحظ وهو الجمع بين الأضداد ، ولا يقتصر ذلك على كتبه المتناقضة في أغراضها وإنما يكون في كتاب واحد ككتاب البخلاء مثلاً ، فإنه يحتج مرة للسخي ، ويحتج مرة للبخل . وليست رسالة أبي العاص إلى الثقيفي في ذم البخل ، وردّ ابن التوأم واحتجاجه للبخلاء إلا خاصة يمتاز بها الجاحظ في أسلوبه الجدلي ، فهو عالم بالكلام تلذ له المناظرات ، واغلب ظننا أن الرسائل من وضعه لأن فيها روحه ونفسه وطرقه في التأليف والتعبير .

وإنشاء الجاحظ يسيل طبعاً ورقّة ، بعيد من التكلف لا يلتزم له سجعاً ، ولا يعتمد استعارة أو تشبيهاً ، وقلما نقى إلا في بعض رسائله ومقدمات كتبه ، فهو أبعد الكتاب من المجاز والتزيين ، لا يعنى إلا بايضاح المعنى في اللفظ السهل الفصيح .

وقد يصطنع التشبيه والاستعارة إذا اقتضتها البلاغة ، وتشابهه مادية محسوسة ، قريبة المتناول ، بارعة التصوير ، لا إغراب فيها ولا تركيب ، كقوله : « ولربما رأيت الحائط وكأن عليه مسحاً^١ شديد السواد من كثرة الذبان . » أو قوله يصف قاضي البصرة : « كأنه بناء بُني أو صخرة منصوبة . »

وكان على استبحاره في اللغة ، وحرصه على البيان الصحيح ، يجمد خطه ربما لا يوافق عليها جمهور النحاة . وهي أنه إذا روى نادرة من نوادر عامة المولدين لا يتكلف لها الإغراب بل يثبتها بكلام ملحون كما وردت على لسان صاحبها . قال في الحيوان : « إن الإغراب يفسد نوادر المولدين كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب . » وقال في البخلاء : « وإن وجدتم في

١ المسح : البلاس يتعد عليه ، وثوب من الشعر غليظ .

هذا الكتاب لحناً ، أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا
أننا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبعث هذا الباب ، ويخرجه من حده ،
إلا أن احكي كلاماً من كلام متعالي البخلاء وأشياء العلماء كسهل بن
هارون وأشباهه . ، وله كلام من هذا الضرب في البيان والتبيين .

. وجملة الجاحظ قصيرة على الغالب ، رشيقة واضحة المعنى ، مفصلة
تفصيلاً ، يقطعها مرة ويرسلها أخرى ، وقد تطول إذا تخللها جمل يتطلبها
سياق الكلام ، فتتد وتوسع دون أن يعتورها غموض ولا انقطاع لاثتلافها
مع الجمل المتداخلة فيها ، ثم لمشاركتها إياها في التنازع على الغرض الواحد .
وهو كغيره من الكتاب المتقدمين يفرط في استعمال فعل القول إذا حدثت
عن غيره حتى لا تكاد تذهب صفحة إلا وفيها طائفة من قال وما يشتق منه ،
وربما وردت هذه الأفعال متتابعة متجاورة فيثقل وقعها في السمع كقوله
في البخلاء : قال : « فما قال أبو الفاتك ؟ » قال : « قال أبو الفاتك . »

وكغيره من المتقدمين لا يسلم انشاؤه من التباس الضمائر حتى لتضطرب
ان تستوضح المعنى في شيء من الجهد ، ولا تستخلصه إلا إذا نظرت إلى ما
قبله ، وإلى ما بعده من كلام يدل عليه . ومع ذلك فأسلوبه أوضح
الأساليب القديمة ، وأكثرها طلاوة ، وأحسنها رواء .

منزله

قال ابن العميد : « كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً . »
وهذا قول حق لا جمجمة فيه لأن الجاحظ في مباحثه العلمية ، واعتماده على
العقل في تعليقاته واختباراته ، كان من قادة التفكير الحر في الاسلام . وما
آراؤه في الاعتزال ، وأقواله في الحيوان والنبات والأمصار والبلدان وغير
ذلك إلا نتاج عقل صحيح ، فلا بدع ان تكون غذاء لسواه من العقول .

والجاحظ اكبر اديب عرفته لغة العرب ، وتقدّم عصره فكانت كتبه هداية للادباء ، وقدوة للمنشئين ، يرتضعون لبانها ، ويضربون على غرارها . وقد ساقهم فيها ذلك الادب الخليط وما فيه من جد وعبث . ففتنوا به واتبعوه ، فكثرت طلابه ومقلدوه . فجاءت كتبهم حافلة بمختلف الموضوعات فيها اختلاط واستطراد وسوء ترتيب . ومنهم من كان يكره الجاحظ كابن قتيبة فإنه ، مع تشييعه عليه لما بينهما من اختلاف في المذهب^١ ، لم يسه إلا السير على خطته في تأليفه ، فارتسم مجونه ومضاحيكه في كتابه عيون الاخبار مع انه كان ينكر عليه ذلك . وقلّده في تناول الأغراض المختلفة ، وبجث مثله عن الطبائع والأخلاق والحيوان والبخل والطعام . ومن تلاميذ الجاحظ ابو العباس المبرّد ، وابن عبد ربه ، وابو القاسم الآمدي . وكان ابن العميد يسمي الجاحظ الثاني لانه سلك طريقته في تقصير الجملة وتقطيعها ، والاكتثار من الشواهد . وتلذذ له القاضي الفاضل وكان يقول : « واما الجاحظ فما منا معشر الكتاب إلا من دخل داره ، او شنّ على كلامه الغارة . »

وكان من تأثير كتبه ان خلقت له الاعداء والخصوم ، كما خلقت له الأصدقاء والأنصار ، فتضاربت فيه الأقوال ، فمن مادح يغالي في مدحه ، ومن ذام يسرف في ذمه ، ولم يختلف الناس يوماً الا على رجل عظيم . على ان خصومه لم يتمكنوا من إسقاطه في تحاملهم عليه ، فلم تكن مطاعن البغدادي وابن قتيبة والراوندي وسواهم ، إلا لترفع قدره . وما منهم واحد استطاع أن ينكر علمه وفضله ، ولكنهم هاجبوه من ناحية مذهبه ، فاتهموه في دينه .

١ كان ابن قتيبة سنياً .

ولا غرو ان يؤثر الجاحظ هذا التأثير فيكثر خصومه ، ويكثر مريدوه ،
فانه أوتي من الذكاء والعلم قسطاً حسناً . ورأى ان الكتب في عصره ،
منها ما يعتمد على النقل ، ومنها ما يعتمد على الرواية حتى كاد لا يكون
فيها استنباط فاختره واضطلع بعبئه فكان راوية ومخترعاً في وقت واحد .
ثم رأى ان الكتّاب لا يُعنون الا بعلم دخيل ، أو بأدب قديم . وقلّ
من نظر منهم إلى عصره ، فروى عنه شيئاً . فقام يسد هذه الثلمة ، وخص
عصره بجانب من كتبه ، فصور أخلاق أهله وحياتهم ، فشغف الناس
بكتبه وأقبلوا عليها يطالعونها بلذة . والإنسان يروقه ان يرى ما يصور له
البيئة التي يعيش فيها ، ويحس احساسها ، ويشعر بشعورها . فكتب الجاحظ
لم تكن كلها غريبة عن معاصريه كما كانت كتب ابن المقفع . فابن المقفع
نقل آداب الفرس والهند واليونان ، فأعجب الناس بها لأنهم رأوا فيها
شيئاً جديداً لا عهد لهم به . ثم لأنها كتبت بلغة بليغة سمحة ملأت صدورهم
جلالاً . ولكنهم لم يجدوا صلة روحية بينهم وبين هذه الآداب ، لأنها
وضعت لزمان غير زمانهم ، ولشعب غير شعبهم . فأثروا عليها كتب
الجاحظ ، فغلب أسلوبه على أسلوب ابن المقفع . وساعده على ذلك ما فيه
من سلاسة وفكاهة وسهولة مساغ . فأسلوب ابن المقفع منطقي رصين ،
متعصب ، تؤثره الطبقة الأرستقراطية لتأديب انجاليها ، وتحتفل به دور
التعليم ، وتفضله على غيره . واما أسلوب الجاحظ ، فأسلوب ضاحك هازي ،
ساجن ، ديموقراطي يدخل بين الطبقات كلها . وكما غلبت على ابن المقفع
الثقافات العجمية غلبت على الجاحظ الثقافة العربية ، فحفلت كتبه بالأشعار
والأدب والآيات والأحاديث والأمثال ، غير أنه لم يهمل الثقافات الدخيلة
بل كان لليونانية والفارسية عنده حظ غير قليل .

وملك الجاحظ ناصية البيان فانقادت اوضاع اللغة ذُلُلًا بين يديه تواتيه
 في مختلف مباحثه واغراضه ، واعطي من براعة الكلام ، وقوة
 الاختراع ، وحسن التعليل ما جعله يعرض للاشياء الحقيرة فيبني عليها
 موضوعات جليلة . ولو اعتمد القارئ عناوين كتبه لصدفته عن النظر فيها .
 وحسب الجاحظ منزلة أنه أول من جمع علوم عصره ، وصوّر حياة
 أهله وانتقد أخلاقهم وعاداتهم ، وأول من وضع الكتب الطويلة الجامعة ،
 وخلط فيها الهزل بالجد ، والمجون بالرصانة ، والفحش بالتعفف ، والكفر
 بالايمان ، وكل شيء بضده . فهو أبرع كاتب جمع النقيضين ، واحتج للنقيضين ،
 وذم ومدح النقيضين . وامتاز بالفضول العلمي وحب الاستقراء . وهو الى
 ذلك شيخ من شيوخ المعتزلة ، وإمام من أئمة المتكلمين ، وصاحب الفرقة
 الجاحظية ، وزعيم الأدباء غير مدافع .

علوم اللغة

الصرف والنحو

ظل الخلاف على أشده بين الكوفيين والبصريين وطمت الشروح والتعليقات فتعقدت المسائل النحوية ، وتشعبت طرقها . فلما توالى الفتن على المصيرين وامتدت اليهما ايدي الخراب ولا سيما البصرة بعد ان عاث فيها صاحب الزنج فساداً ، أخذ العلماء يهاجرون إلى بغداد ، وفيهم أصحاب النحو ، فاختلط المذهبان ، ونشأ منها مذهب بغدادى جديد . أشهر أصحابه ابن قتيبة ومن كتبه « أدب الكاتب » وفيه شيء غير قليل من العلل النحوية والصرفية . وابن كيسان وله كتاب المسائل على مذهب النحويين بما اختلف فيه البصريون والكوفيون . وكذلك نبطويه والأخفش الأصغر . ومن أفاضل النحاة في هذا العصر : المبرّد وثعلب وأبو اسحق الزجاج وأبو بكر السراج ، وأبو سعيد السيرافي وسواهم .

اللغة

كان كل نحوي من المتقدمين عالماً باللغة وكل لغوي عالماً بالنحو ولكن تغلب على الواحد منهم صفة أكثر من أخرى فيُعرف بها . وفي هذا العصر بدأ يتسع نطاق اللغة ، وتصنف فيها الكتب المطولة . وكان من علماءها المشهورين أبو العباس المبرّد وله كتاب الكامل في اللغة والنحو والأدب وأبو حاتم السجستاني وله كتاب « الأضداد » وأبو الفضل الرياشي وابن السكيت وابن دريد وله جمهرة لسان العرب ، وكتاب الاشتقاق .

العلوم الدخيلة

العلوم الطبيعية

ظل أصحاب الكيمياء يبحثون عن الحجر الفلسفي حتى ظهر لهم بطلانه ، والفضل في ذلك لأبي يوسف الفيلسوف الكندي فإنه أول من نهى عن الاشتغال بالكيمياء للحصول على الذهب ، واذم ذلك وبيّن انه عبث وتضييع للعر والمال . وقد أشار ابن الرومي إلى بطلان هذه الكيمياء بقوله : « كالكيمياء التي قالوا ولم تصب . »

وتقدم الطب العربي على أثر انتشار الكتب المنقولة واقبال المسلمين على دراستها ، واشتهر جلة من الأطباء في مقدمتهم أبو بكر الرازي جالينوس العرب ، وله كتاب الحاوي في صناعة الطب . وينسب إليه ابتكارات كياوية منها زيت الزاج وهو الحامض الكبريتي ، ومنها الكحول . واشتغل العلماء بالتاريخ الطبيعي ، فصنّف ابن وحشية الكلداني كتاب الفلاحة النبطية ، وقسطا بن لوقا الطبيب النصراني كتاب الفلاحة اليونانية .

العلوم الرياضية

كان من اشتغال العرب بهذه العلوم ان نهضوا بعلم مساحة المثلثات ، وعرفوا طريقته السهلة التي تحول الاعمال الحسابية إلى مثلثات تحل زواياها بواسطة الجيوب والجيوب . والفضل في ذلك لأبي عبد الله البتاني فإنه أول من استبدل الجيوب من أوتار الدائرة في قياس المثلثات .

العلوم الفلسفية

اقتصرت الفلسفة في العصر السابق على الترجمة ، حتى إذا انتشرت الكتب المنقولة وطالعتها المفكرون واختمرت بها آراؤهم ، شرعوا في التصنيف فظهرت الفلسفة الاسلامية اليونانية وغايتها التوفيق بين الشرع والعقل . ونبغ من المسلمين أبو يوسف يعقوب الكندي ، وله فضل في ترجمة كتب أرسطو وتفسيرها ، وبسط عويصها . وأبو نصر الفارابي وله كتب كثيرة منها آراء مبادئ المدينة الفاضلة هذا فيه حذو افلاطون في جمهوريته ، ورسالة السياسة في ما ينبغي للمرء ان يستعمله مع رؤسائه ، ومع اكفائه ، ومع من دونه ، ومع نفسه .

التاريخ

كان المؤرخون قبل هذا العصر لا يُعنون إلا بالطبقات والفتوح والقبائل والأنساب ، فلما تمت السيادة للعجم واسترخت العصبية العربية أمام عصبية البلاد كما رأيت في تنافس البصرة والكوفة ، اقتصد المؤرخون في تدوين الانساب واكتفوا من الفتوح بتلخيص حوادثها وضبطها ، وعُتوا بجمع أخبار الأمم وأحوال البلدان ، نبههم على ذلك اطلاعهم على التواريخ المنقولة ، وضرهم في الأمصار البعيدة واختلاطهم بشعوبها . واشتهر من المؤرخين البلاذري وله كتاب فتوح البلدان . واليعقوبي وله كتاب البلدان ، وكتاب في التاريخ العام يُعرف باسمه . ومحمد بن جرير الطبري وله كتاب أخبار الرسل والملوك ويُعرف بتاريخ الطبري .

وبما يعاب على هؤلاء المؤرخين انهم دونوا جميع ما عرفوه من الحوادث والأخبار دون تمحيص او تعليل ، ودون ما نظر في الأسباب والمسببات ،

فشوهوا التاريخ بخرافات وأساطير لا يقبلها العقل فحفلت كتبهم بالمضحكات. واقتصروا على الأحداث المادية كالولادة والوفاة والحرب والفتح والولاية والعزل. ولم يبيحوا عن أحوال الأمم الاقتصادية والاجتماعية ، وعن تطور الحضارة وتبدل الأخلاق والأهواء وغير ذلك مما لا غنية للتاريخ عنه ، فجاءت كتبهم مجموعات أخبار منسقة إمّا باعتبار الطبقات ، وإمّا باعتبار السنين ، وإمّا باعتبار الدول ، وكلها ضعيفة الفن في تأليفها ، خالية من الفلسفة التاريخية، ولكنها المرجع الوحيد للناظر في تاريخ العرب والاسلام .

الجغرافية

اشتغل العرب بالجغرافية قبل أن يطلعوا عليها في الكتب المنقولة ، فقد دعتهم الحاجة الى هذا العلم بعد أن اتسعت الممالك الاسلامية ، وتوالت الفتوح ، وسيّرت البردُ بين الخليفة وعماله . فكان حجاج البيت الحرام يدونون أسماء المواضع التي يجوزونها إلى مكة ؛ ورواة الأخبار يهتدون بأشعار العرب الى الأماكن والدارات في البادية؛ وأمراء الجيوش، وولاة الامر يتقصون أحوال البلدان المخضوعة ، ويضبطون مواقعها وأقاليمها وسكانها وأديانها وغلاتها لأخذ الجزية والحراج منها . وكان على أصحاب البريد أن يحافظوا على رسائل الخليفة وعماله، ويسلكوا بها الطرق المأمونة، فضبطوا المسالك والمواقف التي كانوا يرون بها ، ودققوا في وصفها وتعريفها . فاجتمع لدى العرب من كل ذلك فوائد جغرافية جمة ولكن ينقصها حسن التأليف والتبويب . فلما نقلت جغرافية بطليموس ترسمها المصنفون واعتمدوا عليها في وضع كتبهم وتنسيقها ، الا أنهم لم يقتنعوا بما جاء فيها بل تجشموا الرحلات البعيدة في البر والبحر ، وخبروا الأماكن

بأنفسهم ، فصصحوا بعض أوهام بطليموس ، واستدركوا ما غاب عنه من العلم مما تمكنوا من الحصول عليه . وأشهر الجغرافيين ابن خُرْداذبَه وله كتاب المسالك والممالك ، وكان يتولى البريد في العراق العجمي ، فذكر فيه مسافات الطرق ، وأحصى جباية الخراج . واليعقوبي وله كتاب البلدان الذي مر ذكره ، فإنه لم يقصره على التاريخ بل تعدى به إلى الجغرافية فذكر أحوال البلدان وأجناس أهلها ، وما بينها من الأبعاد ، ومقادير الخراج فيها . وابن رُستَه وله كتاب الأعلام النفيسة في تقويم البلدان ، وصف فيه البحار والأنهار والأقاليم السبعة .

الادب والادباء

ما ان تولى صدر الدولة العباسية الا وقد فرغ الرواة من تلقف الاخبار والأشعار ، واعتساف البوادي والقفار ، وانصرفوا إلى تدوين ما اجتمع لديهم من أدب يتناقلونه بالرواية والاسناد . فشغف الناس به ، وحسن تذوقهم له ، فأقبلوا على كتبه يتناسخونها ويقتنونها ، فازداد المشتغلون به نشاطاً ، فأكبوا على التصنيف والتحجيص والنقد . حتى إذا اكتمل العصر الثاني كان الادباء المصنفون قد كثر عددهم فمهرروا اللغة مؤلفات نفيسة ، لولاها لضاع من آدابنا شيء جليل .

وخطا النقد الادبي خطوة إلاً تكن واسعة فان فيها تطوراً محسوساً اقتضته نهضة العلوم والفنون . فقد كان لنقل الفلسفة والمنطق أثر بليغ في ترقية الافكار وتنقيفها . فصار الادباء يمحسون الشعر والنثر ، ويضعون لها الشروط والقوانين ، وإذا وقعوا على قول فلسفي او منطقي ، ردوه على مذهبه ، وقدروه على قياسه ، فان استقام لهم المعنى قبلوه وإلا رفضوه . وأصبحوا يحكمون آراءهم في القديم والحديث ، فإذا تعصبوا للأول لا يبخلون الثاني حقه . فابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء يختط خطة جديدة في القديم والحديث إذ يقول : « ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا لتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين واعطيت كلاهما حقه ، ووفرت عليه حظه . » والمنطق هو الذي هدى ابن قتيبة إلى هذه الخطة . فأراه ان القديم والحديث لإضافيان

لا حقيقيان ، وان كل حديث سيصبح قديماً ، وفي ذلك يقول : « ولم يقصر الله الشعر والعلوم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عبادته ؛ وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره . »

وفي كتاب أدب الكاتب ينتقد ابن قتيبة صناعة الانشاء ويبعث ما يحتاج إليه الكاتب من الآداب والعلوم ، ويبين أوهام الكتاب ومغالطاتهم في معاني الألفاظ والاستقاقات والتراكيب .

وللجاحظ في البيان والتبيين نقد على فن الخطابة يظهر فيه ما يُستحسن من الخطيب وما يُعاب عليه. ويبعث عن اختلاف لغات العرب، وأوضاعها وفصاحة مفرداتها .

وكان لكتاب البديع الذي وضعه ابن المعتز تأثير في فن الانتقاد ، فان الادباء بعده أخذوا يتحرون في تقديم الصور البيانية ، ويتفحصون وجوه الاستعارة والتشبيه والطباق وما إلى ذلك . ثم جاء قدامة بن جعفر فصنف كتابه في نقد الشعر ، فبيّن فيه حدود النظم وشروط ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وتكلم في المجاز والتشبيه ، وعرض لعشرين نوعاً من البديع توارد مع ابن المعتز في سبعة منها .

فمن ذلك يتضح أن لتقدم العلوم والفنون يدأ محمودة في تطور النقد ، ولكن الادباء في وضعهم النظم والقواعد لصناعتي الشعر والنثر أبعثوا الشعراء والكتّاب عن طبعهم فأصبح هؤلاء ، وخصوصاً في أواخر العصر ، لا ينظمون ولا ينثرون إلا وهم يتلفتون إلى تلك الشروط والقوانين محاذرة الانتقاد .

العصر العباسي الثالث

٩٤٦ - ١٠٥٥ م . ٣٣٥ - ٤٤٧ هـ .

يبتدئ بقيام الدولة البويهية واستقلالها بالسلطان
وينتهي بسقوط بغداد في أيدي السلاجقة

لمحة تاريخية

استقلال الولايات العباسية

الدولة الحمدانية : سيف الدولة في حلب .
الدولة الفاطمية : فتح مصر . انتقال الخلافة إليها .
الدولة البويهية : أصلها . فتح بغداد . المعتضد .
ميسرة العصر : سوء الحالة السياسية . حسن الحالة الفكرية .

تكلّمنا في العصر الماضي على أسباب ضعف الخلافة العباسية ، وما كان
من تجزؤ هيكلها واستقلال ولايتها ، ونجتزئ هنا بالكلام على أشهر الدول
التي استقلت وكان لها يد بيضاء على العلوم والآداب .

الدولة الحمدانية ٩٠٤ - ١٠٠٣ م و ٢٩٢ - ٣٩٤ هـ

هي دولة عربية شيعية ينتهي نسبها إلى تغلب بنت وائل . وكان بدء

أمرها في خلافة المكتفي عندما ولي الموصل أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان . وتداول الحمدانيون إمارة الموصل واحداً بعد واحد ، لا يشقون الطاعة على العباسيين إلا عادوا إليهم مستأمنين ، حتى أزال ملكهم عضد الدولة بن بويه فتفرقوا في الولايات . فمنهم من دخل في خدمة البويهيين ، ومنهم من رحل إلى مصر ، وقصد سيف الدولة حلب واستولى عليها ، ثم امتلك حمص ، ثم سار إلى دمشق فدخلها وأقام فيها ، ولكن كافوراً الإخشيدي عاد إليها فارتجعها منه .

ونشبت بين سيف الدولة والروم عدة مواقع أبلى فيها بلاء حسناً وردهم مراراً عن حلب فلم يستقروا فيها مدة حياته . ومات سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٦م) قرير العين بعد جهاد طويل ، وسلطان امتد نحو ثلاث وعشرين سنة . وملك بعده عقبه حتى انقرض دولتهم ، واستولى الفاطميون على حلب .

واشتهر قصر الحمدانيين بمناصرة العلم والأدب ولا سيما قصر سيف الدولة ، فإن الشعراء الذين كانوا يجتمعون ببابه ، لم يجتمع مثلهم إلا في قصور الخلفاء المتقدمين . وحفلت داره بطائفة من الأطباء والفلاسفة والعلماء . فمن شعرائه المتنبي ، ومن خطبائه ابن نباتة ، ومن فلاسفته الفارابي ، ومن علمائه ابن خالويه .

وكان سيف الدولة أديباً نقاداً يناظر الشعراء ، ويدلهم على سقطاتهم . ونبغ من الحمدانيين شعراء بحسنون ، أشعرهم أبو فراس .

الدولة الفاطمية ٩٠٩ - ١١٧١ م و ٢٩٧ - ٥٦٧ هـ

اختلف المؤرخون في نسب الفاطميين ، فمنهم من نكر واشجعتهم بفاطمة بنت النبي ، وجعل عروقتهم في اليهودية أو النصرانية ، ومنهم من أثبتها ولم يلتفت لِفَتْ مجرّحها وفي جملتهم ابن خلدون .

ويرجع الفاطميون بأصلهم إلى جعفر الصادق^١ ، وهم من الشيعة الباطنية ينقلون الخلافة من جعفر الصادق الى ابنه اسماعيل ، ثم يسوقونها في عقبه حتى ينتهوا بها إلى أول خليفة فاطمي وهو عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب . ويدين الفاطميون بالحلولية فيقولون بان الله حل بالمهدي وغيره من الأئمة الاثني عشر . وانتشرت شيعتهم في اليمن والمشرق^٢ وإفريقية . ومؤسسها أبو عبيد الله محمد الحبيب ، فإنه ابتداءً يثبت دعوته سرّاً . وعادة الشيعة ان تدعو للرضا من آل محمد دون ان تسميه تقيّة وخوفاً عليه . فقصد محمد إلى اليمن ودعا أهلها وبشرهم بقرب ظهور المهدي المنتظر . واتصلت أخباره بالشيعة الذين في العراق فصاروا اليه فكثر جمعهم . ثم أنفذوا دعوتهم إلى المغرب فأذاعها وثبّتها ابو عبد الله الشيعي المشهور .

ولما مات محمد الحبيب أوصى لابنه عبيد الله وقال له : « انت المهدي » فقام عبيد الله بالأمر وكان ذلك في خلافة المكتفي ، فطلبه الخليفة فهرب إلى مصر ومنها إلى طرابلس الغرب ، وجاء سَجِلْمَاسَة فاعتقله عاملها أليسع ابن مدرار ملبياً أمر زيادة الله الأغلبي^٣ ولكن أبا عبد الله الشيعي ما انفك

١ جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب هو الإمام الخامس من الأئمة الاثني عشر على مذهب الامامية من الشيعة .

٢ المشرق : اي العراق وفارس وخراسان الى حدود الصين والهند .

٣ هو احد امراء الدولة الاغلبية في افريقية . مؤسسها ابراهيم بن الاغلب سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) وكان الرشيد قد ولاء على افريقية فقاوم الدعوة الادريسية هناك ، واخلص الاغالبية للعباسيين . واستتب لهم الملك هناك فتوارثوه نحو اثني عشرة سنة ومائة ، وانقرضت دولتهم سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) . والمراد بافريقية هنا كما كان يفهمها العرب وهي الأرض التي تمتد من طرابلس الغرب إلى الجزائر أي أنها لا تشتمل على تونس الحالية وحدها بل تمتد إلى قسم من طرابلس وإلى ولاية قسنطينة حيث كانت قبائل البربر المعروفة بالكثامة .

يجاهد في سبيله بقبائل كِنَامة حتى فتح له البلاد عنوة ، وانتصر على الأغالبة ، وامتلك إفريقية ؛ ودخل سجلماسة فانقذ عبيد الله من محبسه . ثم نزلوا برقادة ، فبيع عبيد الله البيعة العامة ، وقامت به الدولة العبّيدية في إفريقية منتسبة اليه .

ولما صارت الخلافة إلى المعز لدين الله الخليفة الرابع سير قائده جوهرًا الرومي إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) فافتتحها . وكان العبيديون قد هاجموا غير مرة وأرجعوا عنها ، وقد وُفّقوا في هذه الكرة لضعف الدولة الإخشيدية .

وأقام جوهر الدعوة للمعز في مصر ، وأزال الشعار الأسود العباسي ، وألبس الخطباء الثياب البيض ، ثم فتح دمشق ، وخطب للمعز على منابرها . وبني مدينة القاهرة شمالي الفسطاط ، وتم بناؤها سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) فجاءها المعز في السنة التالية ، وجعلها مقر الخلافة الفاطمية ، وأتمّ بناء الجامع الأزهر ، وكان جوهر قد بدأ به . وتعاقب بعد المعز على مصر عشرة خلفاء ثم زال ملكهم بقيام الدولة الأيوبية .

وكان لهم حضارة راقية ، فقد انشئت في عهدهم المدارس والمكاتب ، واقتنيت الكتب النفيسة ، وبني مرصد جبل المقطم . وقرّب الخلفاء الشعراء والعلماء وأحسنوا صلاتهم ، فأقبل هؤلاء على مصر ، وطابت لهم مورداً . وعني الفاطميون باللغة الفصحى في دواوينهم ، فأقاموا عالماً بالنحو يراقبها ويصلح ما يقع فيها من اللحن . وتركوا من الآثار العادية ما يشهد بتقدم العبارة في أيامهم .

وعُرف بعضهم بالتساهل ، وكره التعصب ، فان المعز كان يأذن لأسقف النصارى بأن يناظر القضاة والعلماء في مسائل الدين . وأمر بتجديد بناء

الكنيسة القبطية ، وشهد بنفسه وضع الحجر الأول فيها . وكان المعز من محسني الشعراء ، واشتهر أيضاً بالشعر ابنه الأمير تميم .

الدولة البويهية ٩٣٣ - ١٠٥٥ م و ٣٢١ - ٤٤٧ هـ

هذه دولة فارسية من أبناء الديلم قام بها اخوة ثلاثة وهم علي والحسن وأحمد ولد أبي شجاع بُويّه ، قيل ان نسبهم يتصل بملوك الفرس . وكان بعض زعماء الديلم خرجوا لامتلاك البلاد بعد أن رأوا ضعف العباسيين وفيهم ما كان بن كالي ومرداويج بن زيار ، وخرج أبناء بويه في جملة القوّاد مع ما كان . فلما دبّ الخلاف بين ما كان ومرداويج ، وغلب مرداويج صاحبه علي طبرستان وجرجان انضمّ أبناء بويه إليه فرحب بهم ، واستعمل عليّاً كبيرهم علي الكرج . فلم يلبث علي ان استقل بأمره وفتح اصفهان ثم استولى على بلاد فارس كلها . وكانت الخلافة أفضت إلى الرازي فكتب علي إليه وإلى وزيره أبي علي بن مقلة بالطاعة ، وان يُقطع ما بيده من أعمال فارس ؛ فأجيب إلى طلبه ، وبعث إليه باللواء والخلع . فأقطع أخاه الحسن أصفهان ، وأخاه أحمد كيرمان ، واستقرّ هو بفارس . ثم ولّى أحمد العراق ، فأقام هذا بالاهواز .

وحدثت فتن في بغداد سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) فانتهر أحمد بن بويه الفرصة فاحتلها وأزال سلطة الاتراك عنها .

وكانت الخلافة بيد المستكفي ، فعنا لسلطان ابن بويه وضرب السكة باسمه ، ولقبه بمعز الدولة ، ولقب أخاه الحسن بركن الدولة ، وأخاه عليّاً بعماد الدولة . ثم استراب معز الدولة بالمستكفي فوثب عليه وسبّله ، وباع الفضل بن المقتدر ولقبه المطيع لله . ولما بلغ الحمدانيين ما فعل المعز جاؤوا من الموصل لقتاله ، فخرج للقائهم ، فدخلوا بغداد . فلم يطمئن للمعز بها

مضجع إلا سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) بعد أن استنقذها منهم .
ولم يكن لعباد الدولة أمير فارس ولد ذكر ، فتبنى عضد الدولة ابن
أخيه ركن الدولة . فاستولى بعده على فارس وأقام بشيراز . ثم مات أبوه
ركن الدولة أمير أصفهان فضم مملكته إليه . ثم مات معز الدولة في بغداد
وانتقل ملكه إلى ولده بُختيار . وكان ضعيفاً ، سيء السيرة ، قليل الحيلة .
فسار عضد الدولة إلى بغداد ودخلها سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) ووحد دولة
الבוيعيين ، وخطب له على منابرها ، ولم يُخطب لأحد قبله غير الخليفة . ثم
ملك الموصل من بني حمدان ، وعاش مرهوب الجانب ، منبسط السلطان ،
حتى أتاه اليقين ، فتوفي ببغداد سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) .

ولدولة بني بويه فضل كبير على العلم وذويه ، فإنهم أباحوا حرية
التفكير ، وشدوا أزر العلماء ، فظهرت على عهدهم فلسفة إخوان الصفاء في
البصرة وبغداد ، ونبغ الشيخ الرئيس ابن سينا . وأفاضوا من سيدهم على
الشعراء والكتّاب ، فضربوا إليهم آباط الإبل من الامصار البعيدة ،
وقصدم أمثال المتنبي وأبي إسحق الصابي . وعُرف بالشعر جماعة منهم
كعضد الدولة وتاج الدولة .

وبلغ بهم حبهم للعلم أنهم لم يستوزروا غير الكتّاب والشعراء ؛ فركن
الدولة استوزر ابن العميد ، وابنه مؤيد الدولة استوزر صاحب بن عبّاد .
وكان مؤيد الدولة عاملاً لأخيه عضد الدولة على الريّ وهمدان ، فلما
مات تولى بعده أخوه فخر الدولة فأقر صاحب في وزارته . وكان وزير
معز الدولة الحسن المهلبّي الشاعر .

ولم يشأ البويهيون أن يقرّوا بخلافة الفاطميين في مصر مع أنهم شيعيون
مثلهم ، وآثروا عليها خلافة العباسيين وهي سنية ، ذلك بأن الفاطميين كانوا
دولة قوية تقبض على السلطة الروحية والسلطة الزمنية معاً ، والبويهيون وهم

من الفرس يعينهم أن يستعيدوا سابق عزم وسلطانهم ؛ وما يتأتى لهم أن
ينفردوا بالاحكام إلا في خلافة مهيضة الجناح كخلافة بني العباس .

ميزة العصر

لا يصح لنا أن نسمي هذا العصر عباسياً من الوجهة السياسية، إنما يصح
ذلك من الوجهة الفكرية ، لأن السلطان فيه كان للملوك المستقلين ، ولم
يبق منه إلا الشيء اليسير لخلافة بني العباس . ولكن العلوم والآداب
عباسية خالصة، ترتبط بما تقدمها بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها. وهي وان
يكن لها ميزات جديدة تصطبغ بها وتتلون ، فما ذلك إلا رقي بعد نشوء،
وتنمية بعد بدء ، ونضج بعد إثمار . فليس من فن أو علم في العصر الثالث
إلا وقد نشأ ونما وترعرع في حمى العباسيين ، فمن العدل أن نسمي العصر
عباسياً وان ولى ملك بني العباس أو كاد .

وهذا العصر يمتاز في شئين مختلفين ، أولهما سوء الحالة السياسية في ممالك
الاسلام ، واضطراب الأمن في جميع الأمصار ، وانتشار الدعات والفتن
والحروب. والثاني حسن الحالة الفكرية وقيام المدارس والمكاتب ، ازدهار
العلوم والآداب . فإن الأمراء المستقلين لم يقتصر تناوبهم وتحاسدهم على
أن يتقاتلون ويكابد بعضهم بعضاً ، بل تعدى ذلك إلى التنافس
والتباهي بتقريب الشعراء والعلماء ، والتزيد في الكتب ودور التدريس ،
فبذلوا المال ، واجزلوا العطاء . ومالوا إلى التساهل فلم يتخرجوا من حرية
القول والتفكير . فانتسج مجال الارتزاق على أهل العلم ، فتفرقوا في الممالك
المستقلة ، وأصبح لهم جملة حواضر ترفته لهم العيش ، وتضمن لهم الشهرة ،
بعد أن كان الرزق والشهرة مقصورين على بغداد . فابسطت أحوالهم ،
وفرغوا إلى النظم والتأليف ، فنهضوا بالفكر الإسلامي نهضة عظيمة ، ونم

على ايديهم نضج العلوم والآداب .
ومع أن بعض الدول التي استقلت كانت عجمية الأصل فارسية أو تركية كالبلوية ، والسامانية^١ ، والغزنوية^٢ ، فقد ظلت السيادة فيها للغة العربية لأن ملوك العجم وهم مسلمون أبوا إلا أن يحافظوا على لغة القرآن ، فتركوا لها السيادة الدينية . ثم ان العربية كانت لغة الآداب والعلوم ، فلم يستغنوا عنها في إنشاء حضاراتهم ، فاعتمدوا عليها وجعلوها لغتهم الرسمية في مدارسهم ومساجدهم ودواوينهم . على أن الفرس جهدوا في إحياء لغتهم القومية فتأتى لهم أن ينظموا الشعر فيها ، وينقلوا إليها بعض الآداب ، ولكن تعسر عليهم نقل العلوم ولا سيما الشرع لافتقار الفارسية الحديثة إلى الأوضاع العلمية . وظلت الأولية للغة العرب طوال هذا العصر ومعظم العصر الذي يليه حتى تمت السيادة للشعوب الغربية ، واجتاحت البلاد العربية بلغاتها ولهجاتها ، فتضاءل سواد لغة الضاد وباد 'حماتها' ، وأهل العلم بها ، وغلبت عليها طمطمانيّة الأعاجم .

١ السامانية : دولة فارسية في ما وراء النهر (تركستان) ضمت إليها خراسان في خلافة المعتضد ، وانقرض ملكهم على يد الأتراك بعد ان حكموا من سنة ٨٧٤ - ١٠٠٤ م و ٢٦١ - ٣٩٥ هـ .

٢ الغزنوية : دولة تركية مقرها غزنة في الافغان ، وامتدت سلطتها الى تركستان والهند وسواهما ، انقرضت بعد أن ملكت من سنة ٩٧٦ - ١١٨٣ م و ٣٦٦ - ٥٧٩ هـ .

الشعراء المولدون

العصر الثالث

ميزة الشعر : الشعر الفلسفي . الشعر الصوفي . الفخر والحساسة .
الدهريات . الزهريات . الاخوانيات . الهزليات . سائر
اغراض الشعر وفنونه . لغة الشعر .

ميزة الشعر

اصطبغ الشعر بألوان جديدة مازته بخصائصها . وانبعث فيه فنون
كادت تضهل وتُنسى ، واستقلت أبواب كانت تابعة لغيرها . فأما ما
استجد به فالشعر الفلسفي والصوفي . وأما ما انبعث حيّاً فالفخر والحساسة .
وأما ما استقل فالدهريات والزهريات والاخوانيات والهزليات .

الشعر الفلسفي

لا نعني بالشعر الفلسفي تلك الحكم والأمثال الماثلة في القصائد .
فهذه قديمة غير محدثة وإن يكن المتنبي رقتاها وأظهر حلاها . وإنما نعني
الشعر الذي تنظم فيه المذاهب الفلسفية بحثاً عن الحقيقة بالنظر الى الطبيعة
وما وراء الطبيعة . ومن حق الشعر الفلسفي أن يظهر في هذا العصر ،
وقد اختمرت العقول بالعلوم الدخيلة ، وشرع المفكرون في التصنيف بدلاً
من النقل ، فنشأت الفلسفة الاسلامية متحدة بالفلسفة اليونانية ، ونبغ
الفارابي وابن سينا واخوان الصفاء ، ونبغ شاعر فيلسوف نظم الفلسفة
للفلسفة في كتاب سماه الزوميات ألا وهو أبو العلاء المعري . ولابن سينا

قصيدة فلسفية شرح فيها رأي أفلاطون في هبوط النفس من السماء، وحبسها في الجسد إلى أن تظهر فترجع من حيث أتت . فهذا النوع من الشعر جديد لم يعرفه العرب من قبل .

الشعر الصوفي

وهذا أيضاً فن جديد ظهر بعد ان ترفت الطريقة الصوفية ، وصارت علماً يعتمد على الفلسفة . وكانت قبلاً أشبه بالزهد مقتصرة على العبادة ، والانقطاع إلى الله ، والإعراض عن زخرف الدنيا . ويعنى الصوفيون على الأخص بثلاثة أشياء ، أولها الاتصال بالله في هذه الحياة الدنيا . والثاني اثبات العالم من الله . والثالث رجوعه إليه تعالى ويسمونه الوصال . ويزعمون انهم في اتصالهم بالذات تتكشف لهم الحقائق المخبوءة فيرون الجنة وما فيها من أشجار وأنهار ، وحوار وولدان ، وبيرون الجحيم وما فيه من أبواب وعذاب . ولا يتم عندهم هذا الفتح الإلهي إلا بعد مجاهدة وذكر وخلوة ، يعكف عليها الصوفي ، فتأخذه غيبوبة يعبرون عنها بالانجذاب والسكر ، فيتوصل إلى الكشف والمشاهدة . ولهذا كثر تغزُّلهم بالحمرة الإلهية ونشوتها ، وتغزلوا بالذات والصفات ، ووصفوا الجنة ونعيمها . ولهم في ذلك اصطلاحات مخصوصة بهم يستعملونها في شعرهم ونثرهم . والمنظومات الصوفية من الشعر الرمزي ، ظاهرها غزل متها لك ، وباطنها توجُّد بالعزة الإلهية . وكان ظهور هذا الفن في أرض الفرس والعراق لأن ثمة مولد الصوفية . ثم امتد بامتدادها إلى الشام فمصر .

ومن الشعر الصوفي قول عبد الكريم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ هـ .

(١٠٧٢ م .) :

سَقَى اللهُ وَقْتاً كُنْتُ أَخْلُو بِوَجْهِكُمْ ،
وَتَغَرُّ الْمَوَى فِي رَوْضَةِ الْأَنْسِ ضاحِكُ

أَقَمْنَا زَمَانًا ، وَالْعُيُونُ قَرِيرَةٌ ،
وَأَصْبَحْتُ يَوْمًا ، وَالْجُفُونُ سَوَافِكُ

الفخر والحماسة

كان هذا الفن قد ضعف في صدر الدولة العباسية ، لضعف العصبية والنخوة ، وانصراف الشاعر إلى القصف والمجون . فلما توالى الحروب والفتن ، هبَّ الأمراء للدفاع عن ممالكهم ، فأنسوا في شعوبهم فتوراً واستكانةً ، ونفورا من الحرب والنجدة ، فأخذوا يبثون فيهم روح الشجاعة والحمية ، وحشوا الشعراء على الفروسية والاقدام . وكان ملوك العرب أشد عناية من غيرهم باستخدام الشعر الحماسي ، فسیف الدولة حمل المتنبي إلى حلب ، ودفعه إلى الرواض فعلموه الفروسية والطراد . فكان يصحبه في غزواته إلى بلاد الروم ، ويصف معاركه ، ويبعث بشعره الحمية في صدور الرجال . وقيل ان الخليفة الفاطمي أوعز إلى القصّاصين بنشر سيرة عنترة لتثقيف المصريين على الفضائل الجاهلية من فروسية وشجاعة ونجدة . ونظمت لهذه القصة أشعار حماسية أضيفت إلى عنترة واقرائه ، ورصّع بها صدر كل معركة او مبارزة ، فاستعاد هذا الفن سابق عزه ، وكان الفضل في احيائه لشعراء العرب الخُلص كالمتنبي وأبي فراس والشریف الرضي وأمثالهم . فجددوا به عهد الشعراء الفرسان ، وأبدعوا في وصف التحام الجيوش ، ووقع الأسنة والسيوف ، وشيخ وصّافهم ابو الطيب المتنبي .

الدهريات

وكان من تتابع الحروب والمحن ، واستفعال الفقر والعوز ، ان تفاقم تذر الناس على زمانهم ، فباتوا لا تحدث لهم حادثة إلا أضافوها إلى الدهر ،

وأحالوا عليه باللوم والعتب كأنما هو شخص مسؤول عن أعماله . واعتادوا ذلك حتى غلب على كلامهم ، وتلوّن به شعرهم ، فأصبح فتناً ولكنه يمتزج بغيره . ثم أنشأ الشعراء ينظمونه منفرداً فـيـل ابن الرومي وأخـرابه ، وتم له الاستقلال في هذا العصر ، وسبوه شكوى الدهر أو الدهريات .

الزهريات

وهي وصف الطبيعة وجمالها ، وهذا الفن قديم في الشعر العربي ، فلما كثرت النظم فيه أفردوا له باباً قائماً بذاته دعوه الزهريات . وخصوه بنعت الرياض والبساتين ، والأشجار والأزهار والأطيّار ، وغيوم الربيع ووسيه وما شاكل .

الاخوانيات

هذا باب انفرد به النثر قبل الشعر ، ثم لما كثرت النظّامون ، وتعاطى القريض الوزراء وكتاب الدواوين وأهل الفقه والقضاء ، أصبحوا يتراسلون بالشعر كما يتراسلون بالنثر ، فاستعملوه في التهنة والتعزية والشكر والعتاب والاستعطاف وغير ذلك بما يدور بين الاصحاب من مراسلات .

الهزليات

ويشمل هذا الباب الدعاب والعبث والتهكم ، ويغلب عليه الهزل والمجون ، وهو غير جديد في نوعه ، فقد ظهر منه شيء في ملاحيات بشار وحماد عجرد ، ثم في مداعبات أبي نواس وأصحابه المجّان ، ولكن لم يختص به شاعر يتخذة فتناً ، يميزه من غيره ، قبل ان ظهر في بغداد أشباه ابن سكرّة وابن حجاج من شعراء هذا العصر ؛ فإنهم جعلوا منه عرضاً مقصوداً ، وغاية يرمى إليها ، فاصطبغ به شعرهم دون غيره من الفنون والأغراض . ودونك مثلاً عليه

هذه الأبيات من مقصورة صريع الدلاء التي عارض بها مقصورة ابن دريد ،
وأخرجها منهكماً مخرج الحكيم والأمثال :

مَنْ لَمْ يُرِدْ أَنْ تَنْتَقِبْ نِعَالَهُ ، يَحْمِلُهَا فِي كَفِّهِ إِذَا مَشَى
وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصُونَ رَجُلَهُ ، فَلْيَبْسُ خَيْرُ لَهُ مِنَ الْحَفَا
مَنْ صَفَعَ النَّاسَ وَلَمْ يَدَعْهُمْ أَنْ يَصْفَعُوهُ فَعَلَيْهِمْ اعْتَدَى
مَنْ طَبَخَ الدِّيكَ وَلَا يَدْبَحُهُ ، طَارَ مِنَ الْقِدْرِ إِلَى حَيْثُ يَشَا

وكان للاصطلاحات الفلسفية ، والمزاعم الصوفية حظ من هذا الشعر ،
فإن أصحابه اصطنعوها وسيلة للضحك والسخرية . فمن ذلك ان المتفلسفين
كانوا يشبّهون الانسان بعالم صغير ، فيقول إخوان الصفاء في رسائلهم :
« ان هذا الجسد لهذه النفس هو بمنزلة دار لساكنها . فرجله وقيام الجسد
عليها كأساس الدار ، ورأسه في أعلى بدنه كالغرفة في أعلى الدار . » إلى
أن يقولوا : « ورقبته وطولها كرواق الدار ، وفتح حلقومه وجريان
الصوت فيه كدهليز الدار . » فانتحل ابن سكرة آراءهم في نزلة نزلت
به فقال :

قلتُ للنزلةِ حلِّي ، وانزلي غير لهاقي

واتركي حلقي بحلِّي ، فهو دهليزُ حياتي

على ان هذا الشعر يشوبه كثير من فحش القول وهجره مما يجعله غير
صالح للحفظ والرواية .

١ اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق من اعلى الفم .

سائر أغراض الشعر وفنونه

كان من جرّاء تنافس الدول في تقريب الشعراء ، وإقبال العلماء والكتّاب على نظم الشعر ، أن تضاعف عدد الشعراء والمتشاعرين ، فتكاثروا حتى امتلأت بهم الدواوين والمجالس ، وكثر القول حتى اكتظت به الصحائف والقماطر . قيل ان صاحب بن عبّاد بنى داراً فنهأ بها خمسون شاعراً ، وان صديقاً له مات حمارة ، فرُئي الحمار بأكثر من خمسين قصيدة . وكان من انقياد الشعر إلى غير أهله ان اختلفت فيه ألوانه وأغراضه وفنونه ، فحفل شعر الكتّاب والوزراء بالتشابه والاستعارات وأنواع البديع ، لأنهم تعوّدوا التثني في ترسلهم ، فغلب عليهم في نظمهم ، واحتذى مثالهم جماعة من الشعراء لمكانتهم في دولتهم ، فأصبح الشعر عندهم صنعة ووشياً .

وطغت الاصطلاحات العلمية والفلسفية على شعر أهل العلم والفلسفة ، وتزد في أسماء فلاسفة اليونان وعلمائهم . ويختص هذا الشعر بضعف العاطفة ، وقلة الماء ، وقوة التفكير ، ووفور المعاني على الألفاظ بحيث لا تسلم أحياناً من الابهام . فمن ذلك قول البديع الاسطرلابي :

وذي هيئة يزهر بخالٍ مُهندَسٍ ، أموتُ به في كلِّ وقتٍ وأبعثُ
فعارضُهُ خطُّ استواءٍ ، وخالُهُ به نقطةٌ ، والحدُّ شكلٌ مُثلثٌ

وقول أبي الفتح البُستي :

وقد يلبَسُ المرءُ تخزُ الثيابِ ، ومِنْ دونها حالةٌ مُضنيةٌ^١
كَمَنْ يكتسي خدُهُ حُمرةً ، وعِلَّتُهُ ورَمٌ بالريّة

١ غز الثياب : أي الثياب الحريرية . حالة مضنية : أي حالة فقر تفني الجسم .

وأفرط الشعراء في ذكر الألفاظ القبيحة ، ووصف معارض الفحش ، فشأوا مَنْ تقدّمهم ، وأربوا عليهم في الاقبال على اللذات ، والاستغراق في الشهوات . وقادهم ذلك إلى الازراء بالدين ، فخفّت أسماء الانبياء وكتبهم على ألسنتهم . وكان لانتشار الدعوات الباطنية ، والطرق الصوفية ، والآراء الفلسفية يد في دفع الشعراء إلى الاجترار على الدين والأنبياء المرسلين . وغلب الغلو المسترذل على مدائحهم لأن تنافس الدول المستقلة جعل امراءها يستعذبون كل إطرار كاذب ، لكي يُمدح كل واحد منهم بأحسن مما مُدح به غيره . فأسرف الشعراء في أقوالهم ، وأغرقوا في طلب المحال ، فوضعوا بمدوحهم في مقام الرسل حيناً ، وفي مقام الإله آخر ، وأضافوا إليهم غرائب المعجزات ، وأسطق الآيات ، فجاء شعرهم من هذا القليل كثير الغشاء بغيضاً بمقوتاً .

لغة الشعر

كان من تعدد جواهر الشعر ان ظهر شعراء في الأمصار العجمية حيث الرطانة غالبية ، والبلاغة مهزومة ، فجاء شعرهم ضعيف البيان منحدرأ الى الركافة ، وسرى هذا الداء الى العراق لغلبة العناصر الفارسية والتركية على أهله إلا بغداد قرارة العلم ، وكعبة رجاله ، ومحط رحال الأعراب ، فإن شعراءها احتفظوا ببلاغتهم ، وحسن بيانهم ، فنبغ فيهم أمثال الشريف الرضي ، ومهيار الديلمي ، وابن نبتاة السعدي ، والسلامي وغيرهم . وأما الشام فإن شعراءها بقيت لهم ملكة البلاغة ، فضربوا بسهم وافر منها . ويرجع ذلك إلى إعرافهم في العروبة ، وقربهم من البادية ، وقلة اختلاطهم بالأعجام ، فامتاز شعرهم في الجزالة والرصانة ، ولم يخلص من الغريب ، كما في شعر المتنبي والناسي وأبي فراس وأبي العلاء .

وأما مصر فلم تكن قدماً موطناً للشعر ، ولا مزاراً لأهل البادية ، فما نبغ فيها شاعر ' يذكر ' ، ولا رنت في أرجائها قافية شرود إلا لشاعر غريب يقصدها كما قصد إليها أبو نواس والمتنبي . فلما قامت الدولة الفاطمية ، وتعهدت الشعر برعايتها ، أقبل الشعراء على مصر ، وتكاثر عددهم ، فنمت بذور الأدب في الكنانة ، وتعاطى الشعر جماعة من أهلها إلا أنهم لم ينبغوا فيه نبوغ أهل الشام والعراق لقلة بضاعتهم في هذه الصناعة وقرب عهدهم بها ، ثم لضعف ثقافتهم الأدبية والعلمية ، فإن العلوم والآداب انتشرت في العراق والشام قبل أن تدخل مصر وتند فيها عروقها . هذا والشعر المصري يميل إلى الصنعة اللفظية ، لئلا التركيب لم يُدعم بلغة متينة خالصة العروبة كلغة أهل الشام ، فانحدر أحياناً بأصحابه إلى الضعف . وإذا تمادى اللين لا يسلم من الاسفاف . ونحن نقتصر هنا على درس اثنين من شعراء الشام ، وهما المتنبي وأبو فراس .

١ لا نعد أبا تمام شاعراً مصرياً لأنه شامي الاصل ، ولأن ثقافته الشعرية قامت بين العراق والشام .

المتني

٩١٥ - ٩٦٥ م و ٣٠٣ - ٣٥٤ هـ

حياته : دعوته . تنقله . وفاداته على الامراء . اتصاله بسيف الدولة .
اتصاله بكافور . في العراق وفارس . مقتله . احلاقه وصفاته . استاذوه
وعلموه . آثاره .

ميزته : مدحه . غلوه . مدحه لسيف الدولة . مدحه لكافور . رثاؤه :
دمعته الثلاث . هجائه . تصويره . سخره . هجاء كافور . عزله .
فخره . وصف القوة . الأسد . الممارك . فلسفته وآراؤه في الحياة .
تعظيم القوة . تحقير الضعف . ذم الزمان واهليه . كره النسل .
مصاحبة الناس . سخطه على الملوك . اعتقاده بالحظ . الحياة والموت .
طلبه المجد . الشجاعة والعقل . المال . فلسفته الالهية . النفس . المحسوسات .
الكواكب . ما ادرك عليه . منزلته .

حياته

هو أحمد بن الحسين الجُعفي ، عربي صليبة . وبنو جُعفي بطن من
سعد العشيرة بن مذحج ، وهي قبيلة يمانية فيها فصاحة ولَسَنٌ ، ينتهي
نسبها إلى بني كهلان ، وكنيته أبو الطيّب ، ولقبه المتني . قيل لُقِّبَ به
لادّعائه النبوة . وكان أبو الحسين بن لنكك يحسد أبا الطيب ، ويطعن
عليه ، ويزعم أن أناه كان سقاء بالكوفة . ورواية رجل مثله لا يصحّ
التعويل عليها .

وكان بالكوفة محلات نزلتها افناء اليمن ، وأطلقت عليها أسماء قبائلها
المشهورة ، منها محلة كِنْدَة ، وفيها وُلد المتني ، وإليها انتسب . وظهرت

عليه النجابة وهو صغير ، فحمله والده في نعومة أظفاره إلى الشام فنشأ فيها وبها تخرّج ، ونظم الشعر وهو في المكتب ، وما ان ترعرع حتى مات أبوه وتركه يتيماً .

دعوته

لبث المتنبي بعد موت أبيه يطوّف بين الشام والعراق ، ويتنقل في البادية مصاحباً الأعراب . وكانت الديار الاسلامية يومئذ دريئة للفتن والدعوات ، فالفرق الباطنية من قرامطة وإسماعيلية وسوام ، يدعون للرضا من ابناء علي ، او يبشرون الناس بظهور المهدي ليظهر الارض من الجور والفساد . والحوارج على السلطان يؤرثون نار الفتن في الامصار ويستولون عليها عنوة حتى باتت الخواطر على تنظّر دائم لرسول تبعته السماء وخارجي مغامر يملك الأرض ويحتل مكان مالك آخر .

وكان أبو الطيب ينظر إلى هذه الاحوال القلقة ، ويقلّبها على وجوها ، ويستكشف عن الافكار المضطربة ، ويروز حصياتها ، فحدثته نفسه الطموح بأن يلقي دلوّه في الدلاء ، ولم لا يفعل وفي قلبه جراءة واعتداد ، وفي لسانه فصاحة وبيان . وكان له في الأعراب أصحاب وخلان لكثرة اختلاطه بهم ، ومرافقته لهم في حل وترحال ، فاعتمد عليهم في بث دعوته ، فاجتمع إليه بعض القبائل الضاربة في بادية السماوة بجبال الكوفة وما يليها من مشارف الشام كبني كلب وكلاب وغيرهم . وأهل البادية ، لجهالتهم وفقرم ، أسرع الناس لتصديق الدعوات وإثارة الفتن والخروج على السلطان . ويدلنا شعر المتنبي على ان هذه القبائل كانت قوية الشوكة ، كثيرة العصيان ، فمرة تشق عصا الطاعة على سيف الدولة فيوقع بها ويسبي نساءها ، فيستعطفه المتنبي عليها . ومرة تخرج بالكوفة وتعيث فساداً فيأتي دليّ بن لشكر وّز لقتالها

فتنصرف إلى باديتها، قبل وصوله . فأبو الطيب في اعتياده عليها قد استنصر أقواماً لا يأتلون في مواجهة الكروب ومقارعة الخطوب . فلما كبر أمره ، تأدى خبره إلى لؤلؤ أمير حمص من قبل الدولة الإخشيدية ، فخرج إليه وأسرّه وشرّد اصحابه ، وحبسّه طويلاً حتى كاد يتلف .

أما دعوته التي دعا إليها ففيها خلاف ، فمنهم من يزعم أنه ادعى النبوة . ومنهم من يقول انه تنحل العلوية ودعا الناس إلى بيعته . ومنهم من يضيف إليه الدعوتين معاً فيزعم أنه حبس في الكوفة لادعائه العلوية ، ثم حبس في حمص لادعائه النبوة . غير ان ابا العلاء المعري يشك في خبر حبسه بالكوفة إذ يقول في رسالة الغفران : « وما وضع ان ذلك الرجل حبس بالعراق ، فأما بالشام فحبسه مشهور . » ولكنه لا يصرح بحقيقة دعوته فيقول : « وحدّثت انه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب (اي المتنبى) قال : « هو من النبوة » أي المرتفع من الأرض . وكان قد طمع في شيء كان قد طمع فيه من هو دونه . وانما هي مقادير يظفر بها من وفّق ، ولا يُراع بالمجتهد أن يخفق . وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان مثلاً ، فمن ذلك قوله : « ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً . » اهـ . على أن تأله في شعره لا يعطينا دليلاً قاطعاً على تنبؤه وإن يكن شبه نفسه مرة بالمسيح وأخرى بصالح في قوله :

ما مُقامي بأرضٍ نَحْلَةَ إِلَّا كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ^٢
أَنَا فِي أُمَّةٍ ، تَدَارَكَهَا اللَّهُ ! - غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ^٣

١ النبوة والنبي : ما ارتفع من الارض .

٢ نَحْلَة : قرية لبني كلب عند بعلبك .

٣ صالح : نبي ذكره القرآن . ثمود : قبيلة بائدة جاء في القرآن ان الله ابادها بعد ان فسقت وكذبت بصالح ، وعقر رجل منها ناقته .

حتى ان قصيدته التي استعطف بها الوالي وهو معتقل عنده ليس فيها ذكر لنبوته وانما يشير إلى أمر كان يفكر فيه ولم يفعله :
 وَكُنْ فَارِقًا بَيْنَ دَعْوَى أَرَدْتُ ، وَدَعْوَى فَعَلْتُ ، بِشَأْوٍ بَعِيدٍ^١
 ومن تتبع ديوانه منذ حدوثه إلى اكتماله ، يرى حب الولاية والرئاسة يدور في رأسه ، ويدفعه إلى إظهار ما في ضميره من الرغبة في الخروج على السلطان ، والاستظهار بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الأطراف . وغير مستبعد ان يلتبس الملك بالوسائل الدينية ، فيدعي العلوية أسوة بغيره من الأدعياء .

ويستدل من قصيدته التي بعث بها إلى الوالي وهو مسجون ، أنه أظهر دعوته قبل أن يتم الخامسة عشرة ، وهذا من غرائب النوع المبكر إن صح الخبر ، وفي ذلك يقول :

تُعَجِّلُ فِي وُجُوبِ الْخُدُودِ - وَحَدَّيْ قُبَيْلِ وَجُوبِ السُّجُودِ^٢
 أما الثعالبي فلم يطمئن إلى هذا البيت بل ارتاب في صدق صاحبه وقال :
 « ويجوز أن يكون قد صغر سنه وأمر نفسه عند الوالي لأن من كان صبيًا لم يظن به اجتماع الناس إليه للشقاق والخلاف . » وإذا تقصينا أخبار دعوته تبين لنا من حديث لأبي عبد الله مُعَاذِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ اللَّادِقِيِّ أَنَّ الْمُتَنَبِّيَ قَدِمَ اللَّادِقِيَّةَ فِي سَنَةِ عَشْرِينَ وَنِيفَ وَثَلَاثًا مِائَةً هـ وَزَعَمَ أَنَّهُ بِي مَرْسَلٍ ، فَيَكُونُ يَوْمَئِذٍ فِي حُدُودِ الْعَشْرِينَ . وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي اعْتَقَلَهُ فِيهَا لَوْأُو فُطَالِ حَبَسَهُ حَتَّى انْتَقَلَتْ أَمَارَةُ حَمَصَ إِلَى إِسْحَاقَ بْنِ كَسِيغَلَنْغِ التُّرْكِيِّ ، فَلَبِثَ يَعْانِي مَضْضَ

١ دعوى أردت . أي من يقول أردت . الشأو : المسافة .

٢ الحدود : جمع حد وهو العقوبة الشرعية . يقول : تلزمني حدود الله وتعاقبي وأنا صبي ذو .
 اللوع لا تجب عليه الصلاة فكيف تجب عليه العقوبة .

الاعتقال حتى مرض واشتد عليه المرض فنظم قصيدته التي يستعطفه بها ويصغر فيها سنه. ووافق وصول هذه القصيدة الرقيقة شفاعات للفتى المريض، فرضي ابن كيغلع ان يعفو عنه إذا تاب وأنكر دعواه. فأظهر المتنبي توبته، وأطلق سراحه في أواخر سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) بعد ما قضى في السجن زهاء سنتين .

وفاداته على الامراء

لم يرث المتنبي من أبيه مالا يسدّ به خلته ، وبينه عن التكسب بشعره . وكثيراً ما كان يشكو الفقر وشظف العيش ، وقلة الاعوان . وابتدأ يمدح الناس وهو في الكتاب ، وكان من جوائز في صباه هدية فيها سلك من سكر ولوز في بركة من العسل . وعضّت به الحاجة بعد موت أبيه فراح يتردد في حواضر الشام، يمدح الأمراء والسادات؛ فعرفته دمشق، وبعليّك ، وحمص ، وطرابلس ، ومنبج ، وانطاكية ، واللاذقية ، وطرسوس ، وصور ، وطبرية ، والرملة . وله مدائح قالها في اثناء دعوته يوم كان يتوغل في البادية، ويستنصر الأعراب، كمدحته في الحسين بن اسحق التوخي ، أنشده إياها في اللاذقية وهو ابن عشرين لقوله فيها :

وما أُرْبِتْ على العشرين سنّي ، فكَيْفَ ملّيتُ من طولِ البقاء !

ومرت به أوقات أول أمره ، كان 'يجاز فيها بدينار واحد ، ويلبس خشن القطن ولا يملك ناقة يستعين بها على اسفاره. فيركب نعليه ويضرب بها في الحواضر والبوادي، فاشتهر بجلده على المشي المتواصل، وفي ذلك يقول :

لا ناقتي تقبلُ الرديفَ ، ولا بالسوطِ يومَ الرّهانِ أجهدُها^١

١ الرديف : الراكب خلف الراكب . الرهان : السباق .

شراكها كُورُها ، ومِشْفَرُها زِمَامُها ، والشُّسُوعُ مِقْوَدُها^١
ويقول في كلمة أخرى .

أَبْدَأَ أَقْطَعُ الْبِلَادَ وَنَجِّي فِي نَحُوسٍ ، وَهَيْتِي فِي مَعُودٍ
ويقول أيضاً :

لِسَرِيٍّ لِبَاسُهُ خَشِينُ الْفَضْرِ - وَتَرَوِي مَرَوَ لِبَسِ الْقُرُودِ^٢

ثم حظي عند بعض الامراء أمثال آل تنوخ في اللاذقية، وبدر بن عمار
في طبرية، والحسن بن طنج في الرملة. واتيح له شيء من الشهرة حتى أصبح
ذو الوجهة يتعرضون له ليدحهم فعل ابن كيغْلَغْ وكان يومئذ على
طرابلس، بعد ما كان في حمص فمر به أبو الطيب ووجهته انطاكية، فسأله
أن يمدحه، فباطله أبو الطيب وكان يرجو الاتصال بسيف الدولة، فكيف يمدح
عاملاً لعدوه الإخشيد ، وهو إلى ذلك لم ينس أن الرجل لم يطلقه من
السجن إلا بعدما أذنفه المرض . وما زال يباطله حتى تسنى له الهرب بعد
أربعين يوماً ، فهجاه بقصيدته الشهيرة التي أولها : « لهوى النفوس

١ الشراك : سير النعل . الكور : رحل الناقة . المشفر : من الناقة بمنزلة الشفة من الإنسان.
زمام النعل : ما تشد اليه السيور التي تكون بين الاصابع . الشسوع : السيور . مفردتها
شع . مقودها : حبلها الذي تقاد به . جعل نعله ناقته بجامع ركوبه اياها . وجعل سيرها
الذي تشد به بمنزلة الرحل . وجعل زمامها بمنزلة مشفر الناقة . وجعل سيورها بمنزلة المقود.
وكان حقه ان يقول : وزمامها مشفرها لمناسبة ما قبله وما بعده الا انه خالفهما لقصور
الوزن .

٢ السري : الشريف . يعني به نفسه . مروى : ثياب رفاق تنسج بمرو وهي بلد بخراسان .
تقول في النسبة اليها ثوب مروى ، ورجل مروزي على غير قياس .

سريرة " لا تعلم " ، ومثله طاهر . بن الحسين العلوي في الرملة ، فإنه كان يشتهي أن يمدح بشعر أبي الطيب ، وشاعرنا يأبى أن يمدحه حتى ألح عليه الامير ابو محمد الحسن بن طنج ، وضمن له عند العلوي مئات من الدنانير ، ففعل ابو الطيب ، ولما دخل على طاهر لينشده شعره فيه نزل طاهر عن سريره ، والتقاء مسلماً عليه ، ثم أخذه بيده ، فأجلسه في المرتبة التي كان فيها ، وجلس هو بين يديه .

على ان حظوته عند هؤلاء الامراء لم تغنه من فقر ، ولم تحل دون تدمره على الدهر ، وشكواه كساد الشعر . وقد أورثته مع ضآلتها اعداء وحساداً فكانوا يكيدونه شأن ابن كرويس الأورنديم بدر بن عمار ، وكان هو يهجوم ويدود عن نفسه . وما زال كذلك دأبه بين خمول وشهرة ، وهبوط وارتفاع ، وفقر وغنى ، حتى ورد انطاكية وعليها ابو العشار الحمداني من قبل نسيبه سيف الدولة ، فاتصل به ومدحه بعدة قصائد ، فأكرمه أبو العشار ، وأحسن مثواه .

اتصاله بسيف الدولة

وكان سبب اتصاله بسيف الدولة ان ملك حلب قدم انطاكية سنة ٣٣٧ هـ (٩٤٨ م) فاستقبله أبو العشار ، وقدم إليه المتنبي وعرفه منزله في الشعر والأدب وأثنى عليه . فحمله معه إلى حلب ، واشتروط عليه أبو الطيب ألا ينشده واقفاً وألاً يكلف تقبيل الارض بين يديه ، فدخل سيف الدولة تحت شرطه ، ومالت نفسه إليه واحبه ، فسلمه إلى الرواض ، فعلموه الفروسية والطراد والمناقة ، فكان يصحبه في غزواته ، ويشهد معه المعارك ، ويصفها بشعره .

وأفاض عليه سيف الدولة وافر النعم ، فكان يعطيه كل سنة ثلاثة

آلاف دينار على ثلاث قصائد ما عدا غيرها من نوافل الاعطيات والحيل
والجواني والضيع ، حتى بلغ ما ناله في مدة اربع سنوات خمسة وثلاثين
ألف دينار . وهي ثروة لا تقل عما كان يربحه فحول الشعراء في العصر
المتقدمة ، لان الذهب في عصر المتنبي كان غالباً لتوزعه في الممالك المستقلة
بعد ما كان محصوراً في مملكة واحدة ، ثم لتتابع الحروب والثورات
والفتن ، فلا غرو أن يشعر أبو الطيب بلذة الغنى ، وينزع عن شكوى
الفقر ، والتطواف للتكسب ، ويخاطب سيف الدولة بقوله :

تركتُ السرى خلفي لمن قلَّ ماله ، وأنعلتُ أفرامي بنُعماك عَسجداً^١
ولكن نفسه الجبارة ظلت تطمع في شيء أعظم ، فكان يشير إليه ولا
يصرح به :

أهمُّ بشيءٍ واللَّيالي كأنَّها تُطارِدُني عن كونه ، وأطارِدُ^٢
وكان به غلظة واستكبار ، فرفع رأسه تغطرساً ، وصعَّر خده للناس ،
فمقته الشعراء والأدباء لكبريائه ، وحسدوه على نعمته ورقته حواشي
عيشه . فراحوا يكيدونه ويرمون به بكل نقيصة ، ويعيرونه أصله ، ويعيبون
شعره ، ويغلظون قلب الأمير عليه . ولم تخفَ على المتنبي قوة خصومه ،
فلم ينجحهم عنهم بل قاومهم بعنف واحتقار . وإذا رأى من سيف الدولة
ميلاً إليهم عاتبه واستنجد به عليهم .

أزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عَنِّي بِكَبَّتِهِمْ ، فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَّداً^٣

١ عسجداً : ذهباً .

٢ وأطارِدُ : أي وأطارِد اليلالي عن الحؤول بيني وبين هذا الشيء .

٣ بكبتهم . باذلالهم .

وكان أشدَّ خصومه لَدَدَاْ أُو فراس الحمداني ، وابن خالويته مؤدب سيف الدولة . فان أبا فراس ، وهو شاعر وأمير ، كان يتأذى من شهرة أبي الطيب المتنبي ، وتقديم سيف الدولة له ، ويغيظه أن يُعرض أبو الطيب عنه فما يخصه بمدح . ولا يُعْتَدُّ بقول الثعالبي انه لم يمدحه تهيأً له وإجلالاً ، لا إغفالاً وإخلاقاً ؛ فإن شاعر سيف الدولة لو شاء لاستطاع أن يمدح أبا فراس وهو دون الملك مقاماً ، وهيبة وجلالاً ، لكنه ترفع عنه كما ترفع عن غيره ، واكتفى بسيف الدولة لا بمدح سواه . فكرهه أُو فراس ، وتمنى إسقاطه ، وخضد كبريائه ، فطفق يضافر الشعراء على ثلبه ، ويلوم ابن عمه على تقديمه فيقول : « إن هذا المنتشدق كثير الإدلال عليك ، وانت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره . » وما زال به يعضده سائر خصوم المتنبي من شعراء وعلماء حتى تغير قلب الأمير عليه ، فجعل يحفوه مرة ، ويرضى عنه أخرى ، وربما دخل عليه فتنكر له ، ورد السلام مختصراً . وجفاه مرة ، فعاتبه الشاعر ، فلم ينظر اليه سيف الدولة كعادته ، فخرج متغيراً وانقطع عن نظم الشعر . وكان سيف الدولة إذا تأخر عنه مدحه شق عليه وأكثر أذاه ، وأحضر من لا خير فيه ، وتقدم إليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب ، فلا يجيب أُو الطيب . فيزيد ذلك في غيظ سيف الدولة ويتأذى أبو الطيب في ترك قول الشعر ، ويلج سيف الدولة فيما كان يفعل ، إلى أن كبر الأمر على الشاعر فنظم ميميته الخالدة التي أولها :

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِيمٌ ، وَمَنْ بِجَسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ !^١

١ قوله : قلباه ، ألحقها السكت في الوصل ضرورة ، والمختار حذفها . وحذف الياء من قلبي على لغة من يسكها دفعاً لالتقاء الساكنين . سيم : بارد .

وكان أبو فراس حاضراً ساعة لإنشادها، فانهى إنتقادها ، وبين سرقات أبي الطيب فيها ، وأبو الطيب يتابع القول ولا يردُّ عليه ويبالغ في الكبر والصلف حتى إنه لم يبال أن يتناوله بشعره ، ويعرض به ، وأن يفتخر على جميع من حضر مجلس الأمير . فضجر سيف الدولة منه ، واستاء من دعاويه وعجرفته ، فضربه بدواة بين يديه ، فلم يهلع الشاعر بل ظل رابط الجلّاش ، حاضر الذهن ، فارتجل هذا البيت الشروء :

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا ، فما لجرح ، إذا أرضاكم ، ألم

وتابع أبو فراس نقده ، فلم يلتفت سيف الدولة إلى قوله ، وأعجبه بيت المتنبي ، ورضي عنه ، وأدناه إليه ، وقبله ، وأجازه بألف دينار ، ثم أودفها بألف أخرى .

على أن هذه القصيدة وإن تكن أرضت سيف الدولة مع ما فيها من غطرسة وغلظة في العتاب ، لقد احتقت أنسابه وحاشيته ورجال مجلسه . وكان أبو العشائر حاضراً فسأه أن يعرض الشاعر ببعض بني عمه ، فلما خرج المتنبي ألحق به بعض غلمان له ليقعوا به ، فوقفوا له في الطريق ، فرماه أحدهم بسهم وقال : « خذه ، وأنا غلام أبي العشائر ! » فوقع السهم في نحر فرسه ، فانتزعه ورمى به ، ثم كر عليهم بالسيف فجرح أحدهم ، فتركوه واشتغلوا بالمضروب . واستخفى أبو الطيب عند صديق له ، وسيف الدولة يسأل عنه ، وينكر أن يكون قد أمر بقتله ، أو علم بما دبّر لاغتياله . ثم عاد إليه الشاعر يمدحه ، ولكن اجتماع الحساد عليه كان ينقص عبثه ، فسئم الإقامة بينهم وآله أن يعيهم الأمير ستمه ، فأزمع الرحيل ، وحذر سيف الدولة بقوله :

إذا الجود أعطى الناس ما أنت مالِكٌ ، ولا تُعطَيْنَ الناسَ ما أنا قائلٌ

فلم يحفل سيف الدولة بهديده ، ولا مع الخصوم عن التوقية به ، حتى كانت حادثة ابن خالويه ، فجاءت ثالثة الاثافي .

وابن خالويه له دالة على الأمير لأنه مؤدبه ، وهو يكره المتنبي لشاعريته وحظوته ، ويكرهه لأن أبا الطيب كان يحتقره . ويزدري آراءه في النحو : ولطالما حاول النحوي مناظرته ، فخذله الشاعر ، وجهلته وسفه آراءه . فاتفق ان اجتماعاً مرة في مجلس سيف الدولة بعد ان عانت مكاييد الحساد في صدر الأمير فأفسدت في ما بينه وبين شاعره من مودة . وكان أبو الطيب اللغوي حاضراً ، فجرت بينه وبين ابن خالويه مناظرة في اللغة ، والمتنبي ساكت . فقال له سيف الدولة : « ألا تتكلم يا أبا الطيب ؟ » فتكلم بما قوئى حجة أبي الطيب اللغوي وضعف قول ابن خالويه . فأخرج هذا من كفه مفتاحاً ليحكم به المتنبي ، فقال له المتنبي : « اسكت وبجك ! فإنك أعجمي ، وأصلك خوزي فما لك والعربية ! » ف ضرب وجهه بذلك المفتاح ، فأسال دمه ، فغضب المتنبي من ذلك . وزاده غيظاً . سيف الدولة لم ينتصر له لا قولاً ولا فعلاً . فاعتصم بالصمت علماً ان التعرض لابن خالويه وخيم المغيبة ما دام الأمير راضياً عن عمله ، وخرج من الحضرة ، وقد عول على الرحيل .

اتصاله بكافور

ترك المتنبي حلب سنة ٨٣٤٦ (٩٥٧ م) وأمّ دمشق وهي يومئذ من أعمال الإخشيد وعليها واليهودي من قبل كافور يُعرف بابن مالك ،

١ كان كافور مولى لمحمد بن طنج اشترى بثانية عشر ديناراً ، وكاد عبداً اسود ، خصياً مثقوب الشفة السفلى ، عظيم البطن ، مشقوق القدير . ثقل البدن ، لا فرق بينه وبين الأمة . وكان الى ذلك ذكياً فظناً ، حذر السياسة . فرماه سيده ، وجعله في خدمة ←

فالتمس من المتنبى أن يمدحه، فتأبى، فغضب ابن مالك وحمل كافوراً على أن يطلب أبا الطيب إلى مصر . ثم كتب إليه ان الشاعر قال : « لا أقصد العبد، وان دخلت مصر فما قصدي إلا ابن سيده . » ونبت دمشق بالمتنبى فصار إلى الرملة بفلسطين ، وافداً على أميرها الحسن بن طنج ، وكان أبو الطيب يمدحه قبل اتصاله بسيف الدولة ، فحمل إليه الحسن هدايا نفيسة ، وخلع عليه ، وحمله على فرس ، وقلّده سيفاً محلياً . وعرف كافور بمقدمه فكان يقول : « أترأه يبلغ الرملة ولا يأتينا ؟ » وكانت الرملة من أعمال الاخشيد فكتب إلى أميرها يطلبه ، فصار إليه أبو الطيب ، فأمر له بمنزل ، ووكل به جماعة من العلمان يخدمونه ، وخلع عليه .

وكان المتنبى لا ينفك يحلم بالملك منذ حادثته ، فلما صار إلى كافور بعد خيبته عند سيف الدولة ، ولقي من الأسود حفاوة وإكراماً ، طمع فيه وشاقه أن يقطع ولاية في مملكته يدبر أمورها ، ويعتاض بها من خيبته ، ويكبت بها حساده ، فوعده كافور . فشرع المتنبى يمدحه في كل سانحة ، ويعرض لذكر الولاية ، وكافور يماطله .

ولديه ثم قاد له الجيوش في حربه مع سيف الدولة . ولما مات محمد سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) انتقل الملك الى ولده أنوجور ، وكان صغيراً ، فتاب عنه كافور وقام بتدبير دولته احسن قيام . وتوفي أنوجور سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) قيل ان كافوراً سقاه سماً ليتخلص منه . فتولى بعده اخوه علي ، واستمر كافور على نيابته مستبداً بالسلطة حتى مات علي سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) فاستولى كافور بعده على الملك واتخذ لقب الاخشيد كساده أبناء طنج . واتسمت مملكته فكان يدعى له على المنابر بمكة والحجاز ، والديار المصرية ، وبلاد الشام من دمشق وحلب وانطاكية وطرسوس والمصيصة وغير ذلك ، حتى توفي سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٧ م) وعاد الملك بعده الى آل طنج . فملك ابو الفوارس احمد بن علي الى سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) وتم للفاطمييين الاستيلاء على مصر فانقرضت بهم دولة الاخشيد .

ولم يسلم في مصر من أعداء يكيدونه ، فان ابن حنزابه وزير كافور كان يبغضه لانه أبى أن يمدحه ، فأخذ يشنع عليه ، ويشير على كافور بأن لا يجيب طلبه ، وإذا سمع مدحه في سيده قال : « هذا هزء بكافور . » فلما طال الأمر بأبي الطيب ، وبأن له ان وعود كافور عرقوبية ، تولاه اليأس ، وملّ الإقامة في مصر . ثم أصابته الحمى ، فسأت صحته ، فعزم على الرحيل .

وكان كافور يعلم ان أبا الطيب واجدٌ عليه لتخليبه رجاءه ، فخشي ان يهجوّه إذا خرج من مصر وابتعد عن حكمه ، فمنعه من الرحيل ، وألزمه أن يبقى في بطاتته . فعلم أبو الطيب انه سجين لا يستطيع البراح إلا خفية ، فأعدّ كل ما يحتاج إليه ، وأعان بعض أصحابه ، فدفن الرماح في الرمال ، وحمل الماء على الإبل لعشر ليال ، وتزوّد لعشرين . وكان يفعل ذلك سرّاً وهو يظهر الرغبة في المقام ، ويركب في خدمة العبد خوفاً منه . فلما كانت ليلة الأضحى في أواخر سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) خرج من مصر مستخفياً ، ونظم في هجو كافور دالته الشهيرة : « عيدٌ بأية حالٍ عُدّت يا عيدُ ! » فأرسل كافور بعض رجاله بطلبه فلم يدر كوه .

في العراق وفارس

برح المتنبي مصر ساخطاً على كافور يهجوّه ويوجع عرضه ، فقدم الكوفة سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) وأقام بها . وبلغ سيف الدولة قدومه ، فأنفذ إليه ابنه من حلب سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) ومعه هدية سنّية ، فمدحه أبو الطيب بقصيدة ، وأرسلها إليه . ثم ماتت أخت سيف الدولة ، فعمل المتنبي قصيدة يعزّيه فيها ، وبعث بها إلى حلب . ثم أنفذ إليه سيف الدولة كتاباً بخط يده يسأله المسير إليه ، فأجابه أبو الطيب بقصيدة أولها :

فَهَمْتُ الْكِتَابَ أَبْرَ الْكُتُبِ ، فَسَمِعاً لِأَمِيرِ الْعَرَبِ

ولكنه لم يصر إليه، بل لبث بالكوفة نحو ثلاث سنوات، قصد في خلالها إلى بغداد والخليفة فيها المطيع لله، والسلطان بيد معز الدولة بن بويه، ووزيره المهلب، فرغب المهلب إلى أبي الطيب في أن يمدحه، فالتحف برداء الكبر، على لغة الحاتمي، وأعرض عن مدحه. فحنق الوزير وأغرى به الشعراء فانبروا يشتمونه ويتنقصون قدره. وكان أشدهم تطاولاً عليه ابن سُكْرَةَ وابن حجاج. وكان المعز قد ساءه أن يصدر شاعر عن حضرة عدوّه سيف الدولة ويرد حضرته في دار الخلافة، فلا يلقي أحداً يساويه في صناعته. فما كان من الحاتمي إلا أن تعرض لمناظرة أبي الطيب فجاءه في داره، فازدراه المتنبي ولم يقره، فحنق واندفع ينتقده ويظهر عيوبه. ومجدثنا الحاتمي في رسالته الموضحة أن أبا الطيب اعتذر له مستخدياً، وعجز عن مناظرته. ولكن لا نستطيع أن نثبت حقيقة هذه المناظرة لأن القصة يرويها أحد الحصين. ومن الصعب أن يقنعنا الحاتمي بأن المتنبي لانت قناته في مناظرته له، وقد عُرف باستبحاره في اللغة، واعتداده بنفسه، وصلابته في الدفاع عن شعره.

ولم تطب الإقامة للتنبي في دار السلام، فلم يُطل بها مكوثه بل رجع إلى الكوفة وأقام بها زمناً ثم رحل إلى أَرْجَان وفيها ابن العميد وزير ركن الدولة بن بويه صاحب اصفهان. وكان قد راسل المتنبي إلى العراق فصار إليه في شهر صفر سنة ٣٥٤ هـ (شباط ٩٦٥ م) ومدحه وأقام عنده برهة. ثم جاءه كتاب من عضد الدولة بن بويه صاحب فارس يستزيه، فودع ابن العميد، وشخص إلى شيراز، فاحتفى به عضد الدولة، وأحسن وفادته، وأجزل له العطاء حتى بلغ ما وصل إليه منه أكثر من مائتي ألف درهم ما

عدا الحِلْع والهدايا والتحف .

وعرضت لأبي الطيب حاجة في الكوفة ، ويظن انه كان يريد الرجوع إلى حلب ، فاستأذن عضد الدولة بالسفر على أن يعود إليه ، فأذن له وخلع عليه الحِلْع الخاصة ، ووصله بالمال الكثير ، فودعه بقصيدة كافيّة انشده إياها في أول شعبان سنة ٣٥٤ هـ (٢ آب ٩٦٥ م) وكانت آخر شعر قاله ، وقد أودعها من النشاؤم على نفسه ، بما لم يقع له في غيرها مع كثرة أسفاره . وكثيراً ما تنتاب الهواجس قلب المرء ، قبل نكبة مقدورة له ، ولا يعلم لها سبباً :

وَأَنْتَ سِتَتْ يَاطْرُقِي فَكُونِي أَذَاةً ، أَوْ نَجَاةً ، أَوْ هَلَاكاً !

مقتله

اختلف الرواة في مقتل المتنبّي ، فمن قائل إن قاتله فاتك بن جهل الأسدي ، ومن زاعم ان عضد الدولة لما وفد عليه أبو الطيب، وصله بثلاثة آلاف دينار ، وثلاثة أفراس مُسرّجة محلّاة، وثياب مفتخرة، ثم دس عليه من سألّه : « أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة ؟ » فقال : « هذا اجزل إلا أن عطاءه متكلّف ، وسيف الدولة كان يعطي طبعاً . » فغضب عضد الدولة ، فلما انصرف أبو الطيب من شيراز ، جهز عليه قوماً من بني ضبّة فقتلوه . وقيل إن الخفراء جاؤوه، وطلبوا منه خمسين درهماً ليسيروا معه، فمنعه الشح والكبر ، فوقع له في الطريق ما وقع . على أن الرواية الأولى أشهر ، وتحرير الخبر أن رجلاً يقال له ضبة بن يزيد العبّتي كان قد خرج في الكوفة مع خوارج الأعراب من كلاب ، فقتل والده في تلك الفتنة ، قتله قوم من الكوفة ، وسبيت أمه .

وكان ضبة غداراً بكل من نزل به ، فاجتاز به أبو الطيب في جماعة من أشرف الكوفة ، فامتنع منهم ، وأقبل يجاهر بشتهم . فأرادوا أن يجيئوه بمثل ألفاظه القبيحة ، وسألوا ذلك أبا الطيب ، فتكلفه لهم على كراهة وقال يهجو ضبة وهو على ظهر جواده : « ما أنصف القومُ ضبةً . » وهي قصيدة فاحشة الألفاظ ، كثيرة الغناء حتى ان أبا الطيب كان يكره سماعها إذا رويت له . وقد سببت قتله مع ما فيها من سخف وسفسفة ، ذلك انه كان لضبة خال يقال له فاتك بن جهل الأسدي ، فداخلته الحمية لما سمع ذكر أخته بالقبيح ، فأضر الشر لأبي الطيب ، ولبت يتربص به في جماعة من قومه ، قيل انهم عشرون ، وجعلهم عبد الله الكاتب النصيبي في قصيدة رثى بها المتنبى سبعين رجلاً ، وجعل رفاق أبا الطيب ستة .

وعاد المتنبى من شيراز ومعه بغال موقرة بالذهب والطيب ، والكتب الثينة ، والخلع النفيسة . فلما بلغ النعمانية في جبال الصافية ، من الجانب الغربي من سواد بغداد ، على مقربة من دير العاقول ، خرج عليه فاتك في أصحابه ، فقاتل المتنبى حتى قُتل هو وابنه محمّد ، وغلّامه مُفلح . وروى صاحب العمدة ان أبا الطيب فرّ لما رأى الغلبة ، فقال له غلامه : « لا يتحدث عنك الناس بالفراغ أبداً وأنت القاتل : »

أَلْحَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي ، وَالسِّيفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

فَكَرَّ رَاجِعاً فَقُتِلَ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي ٢٨ رَمَضَانَ سَنَةِ ٣٥٤ هـ (٢٧ أَيْلُول ٩٦٥ م) .

ورثى أبا الطيب عدّة شعراء منهم صديقه أبو الفتح عثمان بن جنيّ النحوي ، ومظفر بن عليّ الطبرسي ، وعبد الله الكاتب النصيبي ، وثابت بن

هارون الرّقبي النصراني . وهذان استجاشا عضد الدولة على بني أسد لأنهم قتلوا ضيفه ، وحووا عطاءه ، ولكن عضد الدولة لم يصنع شيئاً ، وذهب دم الشاعر وأصحابه هدرآ .

أخلاقه وصفاته

يصور لنا شعر المتنبي أخص ما يمتاز به صاحبه من الصفات ، ففيه الكبرياء والافتة ، والشجاعة ، والطموح ، وحب المغامرات . وفيه التعفف والتزصن ، وبجانبه اللهو والهزل حتى ان شاعرنا كان يكره الحمر لأنها تضع العقل :

وَأَنْفَسُ مَا لِلْفَتَى لُبُّهُ ، وَذُو اللَّبِّ يَكْرَهُ إِتْفَاقَهُ

ولا يكرهها لأن الكتاب حرّمها ، فتحريم الكتاب عنده دون تحريم ممدوحه إذا أرادته على شربها :

وَإِذَا طَلَبْتُ رِضَى الْأَمِيرِ بِشُرْبِهَا وَأَخَذْتُهَا ، فَلَقَدْ تَرَكْتُ الْأَحْرَمَ مَا

ومن يعلو بنفسه إلى منازل الأنبياء والرسل لا يرجى منه نخرج في الدين . فقد روي ان أبا الطيب لم يكن يصوم ، ولا يصلي ، ولا يقرأ القرآن . ولكنه كان وفيّاً لأصحابه ، فقد ترك حلب غاضباً مقهوراً ، وقبله لم يزل يحن إلى سيف الدولة . وبعث أبو العشائر غلمانة لينغتلوه ، فلم يقل فيه كلمة سوء ، وإنما قال أحياناً تُشعر بحبه الأكيد له :

وَمُنْتَسِبٌ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَحْبَبْتُهُ ؛ وَلِلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدِيهِ حَفِيفٌ

وكان يكره التمويه والخداع ، فقد شاب وهو غلام فلم يختضب لأن

الاختضاب تمويه :

وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مَمْلُوءَةً ، تَرَكَتْ لَوْنٌ مَشِيبي غيرَ مخضوبٍ
وكره كافوراً لأنه خدعه وأخلفه الوعد . ولكن عصره كان عصر ريلو
ومخادعة فاضطره أحياناً إلى محاربة الناس بسلاحهم :

ولما صارَ دُودُ النَّاسِ خَبّاً ، جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامٍ
إلا أنه كان يتألم من ذلك :

وَمِنْ تَكْدِيرِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوّاً لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدْءُ
وساء ظنه بعصره فتشاءم به ، واحتقر اهليه ، وزاده تشاؤماً مغامراته
الكثيرة ، وإخفاقه المتتابع .

وعيب أبو الطيب بالبخل ، فرووا عنه قصصاً غريبة لا نطمئن إلى صحتها
لأنها تنافي كبره وإباءه ، ولأن الشاعر كان كثير الحساد ، فوضعوا عليه
هذه النوادر ليتنقصوه ويسقطوه . ونحن لا نزعم أن أبا الطيب سخي متلاف ،
فذلك ليس من طباعه ، ولكننا لا نراه حزاً شحيحاً ، فقد طالما ذم الحرص
وافتنر بكرمه . ولو كان ممن يحرصون على جمع المال لما استنكف أن
يمدح كل أمير يسأله مدحاً . وأغلب ظننا أن المتنبي كان مقتصداً لأنه ذاق
طعم الفقر في صباه ، ورأى فيه ضيقاً ، ونفسه تأبى الضيم ، فكره التبذير
خوفاً من ذل الفاقة ، وهو يطلب المجد ، وعنده أن المجد لا يُدرك بغير
المال : « فلا مجد في الدنيا لمن قلَّ ماله . » ، فعرض أبي الطيب على طلب
المجد جعله يؤثر الاقتصاد ، ولا يسرف في الانفاق .

١ خباً : خداعاً .

استاذوه وعلومه

طلب المتنبي العلم في صباه، ورغب في تحصيله، فحمله والده إلى الشام، فأدخله المكاتب، وطوّف به في الحواضر والبوادي، ورددته في القبائل، حتى توفي أبوه وقد ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع. وكان يلزم حوانيت الوراقين، ويقصد أشهر أصحاب اللغة والأدب في الشام والعراق ويأخذ عنهم. فقد جالس ابن السراج، والأخفش الأصغر، وابن دريد، وأبا علي الفارسي، وأخذ عنهم. ولم ينفك يتوغل في البادية، ويصاحب الأعراب، حتى صار بدويّاً فصحّ فصيح اللسان، عالماً بمذاهب الكلام، مطلعاً على غريب اللغة وحوشيتها، واسع الرواية لا يسأل عن شيء إلا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر، حتى قيل إن الشيخ أبا علي الفارسي سأله: «كم لنا من الجموع على وزن فعلى؟»، فقال في الحال: «حِجْلِي، وظِرْبِي»^١. قال الشيخ أبو علي: «فطالعت كتب اللغة ثلاث ليالٍ على أن أجِدْ لَهْذَيْنِ الْجَمْعَيْنِ ثَلَاثاً، فلم أجده». وكان كثير الدرس يطوي معظم ليله والكتاب بيده، ولا يرحل إلا ودفأته معه لا يستطيع عنها صبراً، وهو القائل: «وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابٌ». وكان له إلمام بالعلوم الدخيلة، وفي شعره آراء كثيرة اقتبسها من فلاسفة اليونان ولا سيما أرسطو.

آثاره

لم يخدم الحظ شاعراً بعد موته، كما خدم أبا الطيب المتنبي، فإن الحرب التي أثارها عليه أعداؤه وحساده أقامت في وجوههم أنصاراً له ومريدين،

١ حجل : جمع حجل . ظرْب : جمع ظربان وهي دويبة منتنة الرائحة .

فسارت أشعاره على الأفواه، وتناقلها جمهور الأدباء، وعزوا بجمعها وشرحها؛ حتى ذكروا أن شراح ديوانه يزيدون على الأربعين. فمنهم في المتقدمين ابن جني، وأبو العلاء المعري، والواحدي، والعكبري. ومنهم في المحدثين اليازجيان، والبرقوقي.

واهتموا بنقد شعره اهتمامهم بجمعه وشرحه، فمنهم من جاز وأسرف كالصاحب بن عباد في كتابه الكشف عن مساوي شعر المتنبي، فانه تتبع سقطاته دون حسناته وشنع عليه، لأن المتنبي أبي أن يزوره ويمدحه. وفعل مثله العبيدي^١ في كتاب «الإبانة» ولم يقصر الحاشي في رسالته الموضحة. ومنهم من عدل وأنصف كالقاضي الجرجاني فقد ألف كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، ذكر فيه ما للشاعر وما عليه. وكذلك صنع الثعالبي في يتيمة الدهر، والبديعي في الصبح المنى. وأشهر من نقد شعره في التأخرين الشيخ إبراهيم اليازجي، فانه ذيل ديوانه بنقد بليغ بذّ به المتقدمين. ثم قام بعده جماعة من الأدباء في الشام ومصر، ودرسوا شعر أبي الطيب درساً تحليلياً حديثاً. وللمستشرقين متقدميهم ومحدثيهم عناية كبيرة بهذا الشاعر، ونقل أشعاره إلى لغاتهم.

ولا ريب ان اهتمام الأدباء بأبي الطيب من نحو ألف سنة إلى اليوم هو لا بد سرّ من أسرار عبقريته وخلوده.

ميزته

لا أشبه المتنبي إلا بنسر عتيق أشرف على القمم العالية، بأسطاً جناحيه زهواً وكبراً، فلاحته له طيور مدوّمة تريد محاراته، فانقض عليها كامراً

١ هو كما ورد في الإبانة أبو سعيد محمد بن أحمد العبيدي. أما الصبح المنى فيسيه العبيدي. وكذلك ياقوت في معجم الأدباء ولكنه لا يذكر الإبانة في جملة تأليفه.

يصيح بها ، فأوسعها رعباً وذعرآ ، فأسفت جوانح للكلال كل ، وراح النسر
 يخفق بقوادهمه وخوافيه ، وقد منع حجاب الشمس عن سائر الاطيار .
 وأبى أن يقتنع بما أتيح له من عز وسلطان ، وهيبات ذلك ، وله همة
 تصك بمنكبها منكب السحاب ، ونفس طماعة لا ترضى بما دون نجوم السماء .
 فحدثته أن يخرج من سمائه ، ويحتل سماوات غيره ، ففعل . فتضافرت عليه
 لسور غريبة ، فردته ، فأبى أن ينكص خائباً ، فعاود الكرة ، فعاوده
 الاخفاق . وما انفك يغامر ويخاطر حتى تحطفت هوج الرياح ، فحطمت
 جناحيه ، فهوى على الصم الحوالد ، فتمزق صدره وعيناه ناظرتان إلى عل .
 هذا هو المتنبي في شاعريته ونبوغه ، في كبريائه وطموحه ، في عزائمه
 ومغامراته ، وفي اخفاقه ومماته . فماذا ترك ذلك من أثر في شعره ؟ انه لا
 بد شيء عظيم ، سنتبينه في دراسة أغراضه وفنونه .

مدحه

يشتمل المدح على القسم الأعظم من ديوان أبي الطيب ، وفيه تنطوي
 أكثر فنونه وأغراضه . والمتنبي في مدائحه يسير على طرق مشبهة المسالك ،
 متواطئة الأفكار . ويعود ذلك على ان الشاعر كان يصور في مدائحه ذاتيته ،
 ومطامع نفسه ورغائبها ، ونظره إلى الأشياء المحبودة بعين مكبرة ، أكثر
 مما يصور حقيقة ممدوحه وصفاته التي ينماز بها . فقد كان أبو الطيب لا يرى
 خيراً إلا بالرجل الذي يملأ الدنيا ، ويترك فيها دويلاً ، الرجل السامي الذي
 تتمله مخيلته ، وتتوق نفسه إلى بلوغ مرتبته . فجعل ممدوحيه صوراً لهذا
 الرجل الحياي ، متشابهة الألوان والأوصاف والأشكال . وكان يرى الرسل
 والأنبياء رجالاً غير عاديين ، فطعت نفسه في منافستهم ، والتفوق عليهم ،
 فجعل ممدوحيه في منازلهم ، أو أعلى من منازلهم . وكان شاعرنا شجاعاً ،

بعيد المهم ، شديد العزائم ، فأحب الشجاعة في ممدوحيه ، وبالغ في تعظيمها ،
وأبدع في نعت الأبطال ، وذكر حروبهم ، ووصف انتصاراتهم ، فجاءت
مدائحه في سيف الدولة ، وفاتك^١ ، وبدر بن عمار وأمثالهم ، أروع منها في
غيرهم . وكان يعنيه أن يرى ممدوحه سخيًا معطاء ، فافق^٢ في وصف جوده ،
وغالى في طرق انفاقه ، فجعل كل ما في الدنيا صغيراً في عينه محتقراً ، يبذله
ولا يسأل عنه . ودونك أمثلة من أقواله في المدح :

أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازِرَ سَيْفِهِ ، فِي يَوْمٍ مَعْرَكَةٍ ، لَأَعْيَا عَيْسَى
أَوْ كَانَ لُجَّ الْبَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ ، مَا انشَقَّ حَتَّى جَازَ فِيهِ مُوسَى

•

أَوْ كَانَ لَفْظُكَ فِيهِمْ مَا أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، وَالتَّوْرَةَ ، وَالْإِنْجِيلَ^٣

•

بِمَنْ تَقْشَعِرُ الْأَرْضُ خَوْفًا إِذَا مَشَى عَلَيْهَا ، وَتَرْجُ الْجِبَالُ الشَّوَاهِقُ

•

فَمَا تَرْزُقُ الْأَقْدَارُ مَنْ أَنْتَ حَارِمٌ ، وَلَا تَحْرِمُ الْأَقْدَارُ مَنْ أَنْتَ رَازِقُ

•

وَأَرْهَبَ حَتَّى لَوْ تَأْمَلَ دِرْعَهُ ، جَرَتْ جَزَعًا مِنْ غَيْرِنَا وَلَا فَحْمٍ^٣

•

١ هو أبو شجاع فاتك ، ويلقب بالمجنون لشجاعته . مدحه المتنبي وهو في مصر بقصيدته الشهيرة :

« لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تَهْدِيهَا وَلَا مَالٌ . »

٢ الفرقان : اسم جامع للكتب المنزلة لفرقها بين الحق والباطل . وقد يراد به القرآن بخصوصه
وهو المقصود هنا .

٣ جرت : سالت .

وأضراب هذه المغاليات كثيرة في شعر أبي الطيب لا نرى حاجة إلى الاستزادة منها ، ففي القدر الذي أوردناه كفاية للدلالة على نظر الشاعر إلى بمدوحه ، وشغفه بكل خارق عجيب . ومثل هذه المعاني وغيرها معادة مكرورة في ديوان المتنبي فلا تكاد تقرأ قصيدة إلا وقعت على شيء منها وجدته في قصيدة سواها . وترداد هذه الأفكار في شعره دليل على ما كان لها من بليغ التأثير في نفسه . وهي إلى ذلك يشوبها الغلو المستكره حتى لينحدر بصاحبه إلى السخف ، وربما لا يخلو من المضحكات فيخيل إليك أن الشاعر يهزأ بمدوحه ، كقوله :

فَبَعْدَهُ وَإِلَى ذَا الْيَوْمِ لَوْ رَكُضَتْ بِالْحِيلِ فِي لَهَوَاتِ الطُّغْلِ مَا سَعَلَا

ومثل هذه الحماقات يخل بها شعر صباه أكثر من شعر كهولته . وأروع مدائح المتنبي ما قاله في سيف الدولة ، ويكاد يبلغ ثلث شعره . ويمتاز في وصف الجيوش والمعارك ، وصدق العاطفة وإخلاص الولاء ، والإدلال على المدوح ، ومخاطبته بلغة العشاق والمحبين . وهذه الخاصة تكاد تشمل جميع مدائح المتنبي، إلا أنها في مدح سيف الدولة أظهر وأدل لأن أبا الطيب لم يحب بمدوحاً كما أحب صاحب حلب ، ولم يخلص الود لأمير كما أخلص له . فهو شاعر سيف الدولة وإن تعدد بمدوحوه .

ولست مدائح في كافور كذلك ، فإنها كذب محض ، وتجارة محض . ولكنها رائعة الفن ، بديعة الأسلوب ، لأن الشاعر استطاع أن يلبسها ثوباً ذا لونين اتحد ظاهرهما واختلفت حقيقتهما . فمزج المدح بالسخر والجد بالعبث ، ولا يلام أبو الطيب في مدحه الكاذب لكافور لأنه لم يقصده

١ ركفت : الضمير ليني تميم الذين كسرهم مدوحه . اللهوات : جمع الهواة وهي لمة في الخلق عند أصل اللسان .

إلا" بعد ان دعاه اليه ، ولم يمدحه شغفاً بمناقبه ، ولكن رجاء أن ينال منه ولاية يعمر بها خيبته ، ويفقأ عيون خصومه ، ويحقق أحلام صباه . فقد كان شاعرنا متهاكماً في طلبها ، وبه مثل الجنون للحصول عليها حتى إنه اصطنع التزلف على غير عادته ، فكان ينشد العبد واقفاً بين يديه ، ولم ينشد الحر إلا "قاعداً .

ووعده كافور بالولاية فاستنجزه الوعد ، فأرهمه مطلاً وتسويفاً ، فكانت نفسه الكبيرة تتألم لعبث الأسود بها ، واضطرارها إلى مصانعته . وبوسعنا أن نبين سوء حالها من تملل الشاعر في كل قصيدة مدح بها كافوراً ، وإخافه في طلب الولاية ، وتدمره على التسويف :

إِذَا لَمْ تَنْطُ بِـي ضَيْعَةً أَوْ وِلَايَةً فَجُودُكَ يَكْسُونِي ، وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ^١

ولئن كان أبو الطيب بارع الفن في مدح كافور ، لقد كان سيء السياسة في مصاحبته ، قصير الحيلة في استمالته ، ضعيف النظر في استبصار فطنته ، فانه ما كاد يدخل عليه لينشده أول قصيدة صنعها فيه حتى فاجأه بطلب الولاية ، وأظهر له غرضه من مجيئه اليه ، فقال في يائئته :

وغيرُ كثيرٍ أَن يزوركَ راجِلٌ ، فيرجِعَ مَلِكاً لِلْعِرَاقَيْنِ وَالْيَا

فعلم العبد ان أبا الطيب طامع فيه ، فساء به ظنه ، ومناه الوعود الكاذبة . وأبت نفس المتنبى في جبروتها أن تستتر مع رغبتها في اصطناع التزلف ، فطفق الشاعر يتغنى بفضلته ويتسامى إلى مقام الملوك فيقول :

وفؤادي من المُلُوكِ ، وإن كا نَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعْرَاءِ

١ تنط بي : تفوض الي . يقول : ان شغلك عن اجابة طلبي يسلب مني ما يكسوني اياه جودك .

ولعلّ كافوراً خاف من طبعه وطموحه فعالجه بالمطل ، أو لعله شك
في صلاحه للسياسة والتدبير لما رأى من تهوره ، وقله مبالاته . وأحسن
أبو الطيب ضعف ثقته به فخاطبه بقوله :

إذا كنتَ في شكٍّ من السيف فابلِّه ، فإمّا تُنَفِّيه ، وإمّا تُعِدُّهُ^١

ولكن الأسود لم يشأ أن يبلو هذا السيف ، بل تركه متقلقاً في قرابه .
ولو اقتصر الشاعر على طلب الولاية ، والاعتداد بنفسه لما ن بعض الشيء على
كافور ، ولكن أبا الطيب حسب العبد مغفلاً لا يفتن لما يقوله له فجعل
يتنادر عليه في مدحه ، ويسخر به في أسلوب موجّه^٢ لو خفي على كافور لما
كتبه إياه ابن حنّابة وهو يكره الشاعر ويتمنى إسقاطه . وما نرى أنه يخفى
على كافور تعابث المتنبي في قوله :

وما طرّبي ، لما رأيْتُكَ ، بدعة^٣ ، لقد كنتُ أرجو أن أراك فاطرَ ب^٣

قال الواحدي : « هذا البيت يشبه الاستهزاء لأنه يقول : طربت على
رؤيتك كما يطرب الإنسان على رؤية المضحكات . » وقال ابن جني : « لما
قرأت على أبي الطيب هذا البيت قلت له : « ما زدت على أن جعلت الرجل
أبا زنة ، وهي كنية القرد ، فضحك . » ولا نرى أنه يفوت العبد الذكي ،
أن يكتنه الذم بمعرض المدح في قوله :

١ ابله : امتحنه . تعده : تختاره وتهيئه .

٢ موجه : ذو وجهين .

٣ البدعة : ما أحدث من جديد غير مسبوق إليه . وهي منصوبة على أنها خبر ما . فاطر ب
معطوفة على أرجو . أي فاطر ب على رجاء رؤيتك .

فما لك تختارُ القيسيَّ ، وإنما عن السعدِ يرمى دُونَكَ الثقلانِ ١
وما لك تُعنى بالأسنةِ والقنا ، وجدُّكَ طَعْنانٌ بغيرِ سنانِ ٢
ولِمَ تحيلُ السيفَ الطويلَ نِجَادُهُ ، وأنتَ غَنِيٌّ عنه بالحدَّانِ ٣ ؟
فإن تقول لإنسان : « نم واطمئن فالحظ يخدمك . » ، لأقرب إلى التهم
منه إلى المدح .

ومهما يكن عليه كافور من الغرور بالنفس ، لا نخسبه يُخدَع بشاعر
يفضله على الشمس بشمس سواده ، وإن جعل وجه الشبه ضياء مجده :

تَفَضَّحَ الشمسُ كلما ذرَّتِ الشمسُ - بشمسٍ مُنِيرَةٍ سَوْداءُ ٤
إنَّ في ثوبِكَ الذي المجدُّ فيه لَضِيَاءٌ يُزري بكلِّ ضياء

فذكر الشمس السوداء كافٍ لأن يبعث السامع على الضحك
والاستغراب . وقد علمت ان كافوراً فطن ذكي ، فهيئات ان تذهب عنه
مرامي الشاعر ، وان تغافل عنها ، وصرفها إلى وجهها الصالح صوناً لكرامته
وأجاز عليها أبا الطيب وقرَّبه ، ولكنه عرف من أين يأتيه ، فينتقم منه ،
فإنه ما زال يعدده بالولاية ويماطله حتى أتلَف نفسه انتظاراً ، وأشعل في
قلبه حُرْقاً .

١ الثقلان : الإنس والجن . اي يرمى الثقلان عن قوس سعدك .

٢ جدك : حظك .

٣ لم : بمعنى لم يفتح الميم ، والتسكين مخصوص بالشعر . يقول : الحدَّانِ تحارب اعداءك
فلماذا تحمل السيف لمحاربتهم ؟

٤ ذرت : طلعت .

وجملة القول ان مدح المتنبي جيد بارع لولا غلوه المقوت ، وأفغمه
ما جاء في سيف الدولة ، وأبرعه ما جاء في كافور .

رثاؤه

يختلف رثاء المتنبي باختلاف صلته بالمفقود ، وشعوره بوقع المصاب . فقد
اضطرّ إلى رثاء أشخاص لم يحزنه الرزء بهم ، فجاء شعره متصلب العاطفة ، فاقد
الشعور ، كرثائه لأُم سيف الدولة وابنه وأخته الصغرى ، ولمحمد بن اسحق
التنوخى ، ولعمة عضد الدولة . ولكنه ستر عجزه بإرسال الحكيم البليغة
ووصف المآثم والجنائز ومدح الميت أو مدح آله . وان نفساً كبيرة كنفس
أبي الطيب ، تهزأ بالدهر ومصائبه ، ويغلب عليها العقل أكثر من العاطفة ،
لا يهون على الدهر أن يذلها ويلينها ، مها جرّ عليها من حوادثه وخطوبه .
ولكن قد تمرّ بها أحوال قاهرة تخضعها للعاطفة ولو زمناً يسيراً ، فتتصاعد
منها زفرات ، وتنحدر دموع ، كما جرى للشاعر في رثائه جدته لأُمه ،
وأبا شجاع فاتك ، وأخت سيف الدولة الكبرى ، فإنه ذرف على هؤلاء
الثلاثة ثلاث دمعات صادقات . فقد ماتت جدته بالكوفة وهو بعيد عنها ،
وكان قد طال غيابه بعد ان أخفق في دعوته ، فبرّح بها الشوق ، فأرسلت
إليه كتاباً تطلب منه أن يحضر ، فشخص إلى العراق ، ولكنه تعذر عليه
دخول الكوفة ، لأسباب غير واضحة ، فجاء بغداد ، وكتب إليها يسألها
المسير إليه ، وكانت قد يئست فقبلت كتابه شوقاً ، وغلب عليها السرور
فحُمّت وماتت . فكان لموتها على هذه الحال أثر عميق في نفسه ، فجزع
عليها وبكاها ، وأرسل الدمعة الاولى أحرّ دمعة روى بها تراب ميت :

لك الله من مفعوعةٍ بحبيها ، قتيلةٍ شوقٍ غير مُلحِقِها وصنا

أَحِنُّ إِلَى الْكَأْسِ الَّتِي شَرَبْتُ بِهَا ، وَأَهْوَى لِمَشْوَاهَا الثَّرَابَ وَمَا ضَمًّا
ومات أبو شجاع فأنك ، بعد خروج المتنبي من مصر ، وكان أبو الطيب
يحببه لشجاعته وكرمه ، فرثاه متوجعاً ، ذارفاً دمعته الثانية على ضريح
ميت :

بَرْدَ حَشَايَ إِنْ اسْتَطَعْتَ بِلَفْظَةٍ ، فَلَقَدْ تَضَرُّ ، إِذَا تَشَاءُ ، وَتَنْفَعُ
مَا كَانَ مِنْكَ إِلَى خَلِيلٍ قَبْلَهَا مَا يُسْتَرَابُ بِهِ ، وَلَا مَا يُوجِّعُ
وماتت أخت سيف الدولة الكبرى وهو في الكوفة ، بعد رجوعه من
مصر ، فكان في رثائه أياها صادق العاطفة ، بيّن اللوعة ، بما يدل على
اخلاصه المودة لها . فجاءت دمعته على قبرها خاتمة دمعاته الثلاث :

وَلَا ذَكَرْتُ جَمِيلًا مِنْ صَانِعِهَا ، إِلَّا بِكَيْتٍ ، وَلَا وَدَّ بِلَا سَبَبٍ
قَدْ كَانَ كُلُّ حِجَابٍ دُونَ رُؤْيَيْهَا ، فَمَا قَنِعْتُ لَهَا يَا أَرْضُ بِالْحُجُبِ
والمتنبي في رثائه مثله في مدحه ، يخاطب المراثي مخاطبة المحب لحبيبه ،
ويؤخذ عليه أنه لم يجتنب هذه الخطبة في رثاء الأميرات ، فقد خاطب أم
سيف الدولة بقوله :

بَعَيْشِكَ هَلْ سَلَوْتُ فَإِنْ قَلْبِي ، وَإِنْ جَانَبْتُ أَرْضَكَ ، غَيْرُ سَالٍ ؟
وقال في أخته الكبرى :

يَعْلَمُنْ حِينَ تَحْيَا حُسْنَ مَبْسَمِهَا ، وَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهَ بِالشَّنَبِ ١

١ يعلمن : الضمير لأتراب المراثية . الشنب : برد الريق . قال الواحدي : « وأساء في ذكر
حسن مبسم أخت ملك . ، وليس من العادة ذكر جمال النساء في مراثيهن . »

وما رثى امرأة إلاّ رفعها من الانوثة إلى الذكورة ، متأثراً بعقلية عصره ، فانهم كانوا يحتقرون المرأة ، ويعتدونها ضعيفة ، مهينة الجناح وكان أبو الطيب يحب القوة ، ويأنف أن يرثي ضعيفاً ، وجعل مراثياته ذكور وربما فضلهم على الذكور . قال في ام سيف الدولة :

ولو كان النساءُ كمنْ فقدنا ، لَفُضِّلَتِ النساءُ على الرجالِ
وقال في اخته الكبرى :

وإن تكنْ خُلِقَتْ أنثى ، لقد خُلِقَتْ كريمةً غيرَ أنثى العقل والحسبِ
وقال في عمة عضد الدولة :

ويُظهِرُ التذكيرُ في ذكره ، ويُستَرُّ التأنيثُ في حُجُبِهِ
هذا وإن أحسن حلية تتحلّى بها مرثي أبي الطيب هي الحكم والامثال .

هجاؤه

لم يصطنع أبو الطيب الهجاء آلة للتكسب كما اصطنعه بشار ودعبل وابن الرومي ، فالمتنبى أعز نفساً من أن يهبط بها إلى هذا الدرك . وإنما اصطنعه عدة للكفاح يؤذي بها من آذاه ، ويدراً بها عن نفسه . ولا نعدّ هجاؤه في كافور من قبيل التكسب لأنه لم يهجه مهدداً ليعطيه ، أو مستقلاً عطاءه . وإنما هجاه لأن كافوراً آلمه في صميم فؤاده ، إذ عبث به عبث الوليد بلعبته حتى إذا ملّسها اطّرحها وحطمها . فقد استقدم كافور أبا الطيب ، وكان هذا يأنف أن يتصل به ، ووعد به بأن يُقطعه ولاية يدبر أعمالها ، ثم ماطله

١ الضمير في ذكره وحجه يعود على شخص المراثية ، يقول : انها امرأة في خدرها . ولكنها ذكر اذا ذكرت مساعيا للمعالي .

وكذب عليه ، واستأثر به ، ومنعه براح مصر . فهذه الامور احفظت الشاعر وزادته كرهاً للعبد فهجاء . وكذلك هجوه لابن كَيْفَلَعْ فلو لم يؤخره عن السفر لما هجاء . وهكذا هجاؤه لضبّة ، فان رفاقه الكوفيين هم الذين حبّلوه على هجوه ، ولم يكن يريد . وليس له في غير هؤلاء الثلاثة هجاء يستحق الذكر إلا أبياتاً ماثورة في عدة قصائده ذم بها الزمان واهيله ، والملوك والحساد والشعراء ، فجاءت وليدة الألم والتنافس ، والدفاع عن النفس ، وحب الذات ، والاستئثار بالنفوذ وجوائز الامراء . وحب الاستئثار بالجوائز يرجع عند المتنبّي إلى التنافس والاعتداد بالنفس أكثر مما يرجع إلى الرغبة في التكسب كما يدل على ذلك شعره .

وهجاء أبي الطيب مقذع يؤلم الأعراض ، فاحش الألفاظ والمعاني ، يمتاز في تلك القوة التي تغلغل في أجزائه ، هي قوة نفس الشاعر العاتية ، وفي تلك الأمثال الحكيمية التي يتعلّى بها جميع شعره . ثم في ذلك التشاؤم الذي تضاعف في صدره بعد الاخفاق المتواصل ، فجعله ناقماً على الدهر وبنيه . ثم في استنزاه من المهجو واحتقاره له ، حتى لا يكاد يخاطبه إلا بصيغة التصغير . ثم في تصويره السخري له حتى يجعل منه اضحوخة شوهاء فيصبيه بخلقه وخلقه ومنزلته الاجتماعية .

وسخر أبي الطيب بعيد من أن يكون فيه نكتة لطيفة ، أو شيء من الظرف ، وانما هو نهكم حادّ جارح يعجب أكثر بما يضحك . وأبرع هجاء قاله كان في كافور فإنه افتنّ فيه ما شاء له الفن ، فأرضى به نفسه المتألّمة ، النائرة على العبد الممتلك . وكافور عند أبي الطيب كؤيْفير بصيغة التصغير ، وكناه أبو النتن ، وأبو البيضاء . وألقابه الحنثى ، والأسود ، والحنزير ، والحصى ، والنوبي وما شا كل .

غزله

ليس في أخبار أبي الطيب ما ينبئنا أنه أحب يوماً، ولا في شعره ذكر
لمحبوب يردد اسمه، ويشبب به، وينشوق إليه. وقد تزوج المتنبي، ورزق
ولداً، ولكنه لم يحدثنا بشعره شيئاً عن امرأته وحبه لها. ولو لم نعلم أن
له ولداً لجهلنا أمر زواجه لأن مؤرخي الآداب سكتوا عنه.

وكان أبو الطيب متعففاً يرغب عن الملاهي ومكانس الريب، والقيان
والحب الفاجر، فغلا غزله من التعهر والمجون. غير أنه تسرّى بالجواري
التي أهديت إليه، والتسرّي عندهم غير ممنوع.

وهو في غزله يؤثر البدويات على الحضريات، وقدماً كان الغزل المتعفف
في خيام الأعراب. وليس له غزل متحضر إلا في شعره الذي قاله وهو
في بلاد فارس، فإن ديار العجم ذكرته بوطنه الذي نشأ به، فعن إلى
ديار الشام، وذكر نساءها، وتغزل بهن. ولكن إن هي إلا خطرة
عرضت حتى عاد إلى البدويات كأنه لا يجد ارتياحاً في ذكر نساء الحضر.
وغير عجيب أن يأنس المتنبي بالأعرايات وقد تمضى شطر عمره الذي
تشتعل فيه نار الحب، وهو يتردد في قبائل البادية، فتفتقت الكمام عاطفته
على بساتين البدويات، فشغف بهن، ولم يرقه إلا حسنهن، لأنه جمال
مطبوع لا مصنوع، وهو يكره التمويه والطلاء:

ما أوجهُ الحَضْرِ المُسْتَحْسَنَاتُ به، كأوجهِ البَدَوِيَّاتِ الرَّعَائِبِ^١
حُسْنُ الحِضَارَةِ مجْلُوبٌ بِتَطْرِيقَةٍ، وفي البِيدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مجْلُوبٍ^٢

١ الضمير في به للحضر. الرعايب: جمع رعبوبة وهي الطويلة الممتلئة.

٢ التطرية: خلط الطيب بالأفاويه.

أفدي ظبياءَ فلاةٍ ما عَرَفْنَ بها مَضْغَ الكلامِ ولا صبغَ الحواجِبِ
وكان يكثر النزول في بني عَدِيٍّ وهي قبيلة ضاربة بأرض سَلَمِيَّةَ
من عمل حصص ، فشذب بالعدويات وجعلهن عرائس شعره دون أن يسمي
واحدة منهن :

لولا ظبياءَ عَدِيٍّ ما شَغِفَتْ بهم ولا برَبْرَبِهِمْ لولا جَادِرُهُ^١
على ان غزل المتنبي لم يكن قوي العاطفة لأن اشتغال الشاعر بطلب
المعالي لم يترك له متسعاً من الوقت فيفرغ للحب والنساء . وكان له من
نفسه المتصلة وازع عن الاستسلام لعوامل الهوى . فإذا نسب فاتبعاً
للأسلوب القديم ، وارضاء للفن ، لا تلبية لجرس فؤاده الخافق ، أو تخفيفاً
للواعج أشواقه . ولطالما أراد التغزل فاخشوشن فأسمعك في صباه:
أيا خَدَّةَ الله ورَدَ الحدودِ ، وقدَّ قدود الحِسانِ القدودِ^٢

واسمعك في شبابه :

ركائبَ الأحباب إنَّ الأدمعَا ، تَطِيسُ الحدودَ كما تَطِيسُ اليرمعا^٣
واسمعك وهو على قمة كهولته :

ألا كلُّ ماشيةٍ الحَيَزَلِي ، فِدَى كلِّ ماشيةٍ الهَيَذَلِي^٤

- ١ الربرب : القطيع من بقر الوحش . والمراد به جماعة النساء . والمراد بالظباء النساء .
الجاذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . والمراد بهن الفتيات .
- ٢ خدد : شقق . قد : قطع طويلاً . الحسان القدود : اضافة لفظية .
- ٣ الركائب : جمع ركاب وهي الابل . تطس : تضرب بشدة . اليرمع : حجارة رخوة .
- ٤ الحيزلي : مشية النساء فيها ثقاقل وتفكك . الهيزلي : ضرب من مشي الخيل فيه جد .

وقد تجد له غزلاً يروقك ، فإذا تدبرته رأيت ان اعجابك به ناجم إما
عن صنعة تستحسنها وإما عن معنى جميل تستلطفه ، لا لأنه حرّك فيك
عاطفة كامنة ، كقوله :

ولمّا التقينا ، والنوى ورقبنا غفولانِ عثاء، ظلمتْ أبكي وتبسم
فلم أرَ بَدراً ضاحكاً قبل وجهها ، ولم ترَ قبلي مِيتاً يتكلّمُ

وأكثر عنايته بأن يغوص على المعاني الدقيقة، ويستخرجها من مكانها .
وان يدخل الفلسفة على الحب، فإذا صحَّ أن تسميه غزلاً في مثل هذه الحال،
فهو فيلسوف الغزليين وغزل الفلاسفة . وقد يجيء بالأشياء الحسنة لما فيها
من قوة التفكير ، ودقة المعنى ، وقد يعتصم عليه اللفظ ، فما ينجلي له
الكلام ، وربما تبغض فيه وتبرّد . ومهما دار الأمر ، فإن ارضت الفلسفة
في الغزل الأدباء أو المفكرين ، لا نراها ترضي حبيباً مرحاً لعبوباً ، تعود
أن يفهم لغة العاطفة ، لا لغة العقل . وهيئات أن يكون له صبر على اجتهاد
فكره ليتفهم غزلاً خفي المعنى ، أو معقّد اللفظ قيل فيه . وماذا يهمه من
تفلسف أبي الطيب في وضع قانون الصبابة للمحبين ليصح أن يسموا عشاقاً :
جُهدُ الصبابة أن تكون كما أرى عينٌ مسهّدةٌ ، وقلبٌ يخفقُ

أوليس من التبرّد أن يوغل شاعرنا في التفلسف ، فيخلق الاعذار
للنوى ، ويجعل منها شخصاً عاشقاً حبيبه :

ملاهي النوى في ظلمها غاية الظلم ، لعل بها مثل الذي بي من السقم
وذهب بعض غزل أبي الطيب مذهب الأمثال لما فيه من فلسفة الحياة

١ ظلت : اي ظلت .

في الحب كقوله :

زودنا من حُسن وجهك ما دَامَ ، فحُسنُ الوجوهِ حالٌ تحولُ
وَصَلِينَا نَصَلِكُ في هذه الدنيا - فإنَّ المَقَامَ فيها قليلُ
فهذا أولى بَأَن يبعث الزهد والنسك في النفوس ، من أن يضرَم نار
الحب والصباة . ومن ذلك قوله :

وما صباةُ مشتاقٍ على أَمَلٍ من اللقاء ، كمشتاقٍ بلا أَمَلٍ
والمهجرُ أَقْتَلُ لي ممَّا أراقِبُهُ ، أنا الغريقُ فما خَوْفي من البَلَلِ^١
وقوله :

إنَّ القَتِيلَ مضرٌ جأً بدُموعِهِ ، مثلُ القَتِيلِ مضرٌ جأً بِدِمَائِهِ
وما هكذا لغة المحبين ، وبعيد أن يستميل صبٌّ حبيبه بالاعتماد على
المنطق والأدلة العقلية .

وشيء آخر يميز غزل المتنبي وهو مزج الحب بالحماسة ، وخلط ألفاظ
الحرب بألفاظ النسيب . وأبو الطيب شاعر فارس ، ومن عادة الشعراء
الفرسان أن يصطبغ حبهم بدماء الحروب :

وما كلُّ مَنْ يَهْوِي يَعْفُ ، إذا خلا ، عفا في ، ويرضي الحُبَّ والحيلُ تلتنقي^٢
وقد يكون المتنبي أحبُّ كما يزعم ، غير أن الحبَّ لم يشغل فؤاده ،
فيتيسر ويدلّه ، وأراد أن يتغزل أسوة بغيره ، فجاء غزله فلسفة وصنعة .

١ قوله بما أراقبه : أي بما أراقبه من فتك أهلها بي لشجاعتهم ، ودفاعهم عن أعراضهم .
وقبله :

مَنْ تَرَى قَوْمَ مِنْ تَهْوَى زيارتها ، لا يتحفوك بنير البيض والأسل

٢ إذا خلا : أي خلا بمن يحب . يرضي الحب : أي يحمي من يحبها فما تسبى .

وأنتى لنفسه الجبارة أن تخضع للحب وتلبن؟ وهي لا تصبو إلى غير ركوب
الأهوال ، وبلوغ المراتب العليا ، فما حبّها إلا القوة تحيط بها السيوف
والرماح . ولقد أحسن أبو الطيب في تعريف حبّه حين قال :

تقولين ما في الناس مثلكَ عاشقٌ ، جِدِي مثلَ مَنْ أَحَبَّه ، تجدي مثلي^١
مُحِبٌّ كُنِي بالبيض عن مُرّهفاته ، وبالحسنِ في أجسامهنّ عن الصقلِ^٢
وبالسُّمْرِ عن سُر القنا، غيرَ أَنِّي جَنّاها أَحِبّاي ، وأطرافها رُسلي^٣
فخوره

لا يُستغرب الفخر في شاعر شجاع باسل متكبر كالمتنبي ، فعنصر الفخر
مركّب في طباعه ، رافقه منذ صباه حتى وافته منيته . فقد كان صيّاً يوم
سبت به هيمته إلى ان يقول :

أَيُّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي ، أَيُّ عَظِيمٍ أَتَقِي ؟
وكلُّ ما قد خَلَقَ اللهُ - وما لم يَخْلُقْ
مُحْتَقَرٌ في هِمَّتِي ، كَشَعْرَةٍ في مَفْرِقِي

وفي هذه الأبيات الثلاثة وضع خطة الفخر التي سار عليها طوال حياته ،
وهي الارتفاع بنفسه إلى أعلى الدرجات ، وتحقير غيره والازراء به . فأبو

١ مثلك : حال من عاشق . جدي : أمر من وجد .

٢ البيض : السيوف ، مفردها ابيض . وجمع بيضاء اي امرأة بيضاء . يقول : انه يكني
بالبيض عن السيوف لا عن النساء . ويكني بالحسن عن صقل السيوف لا عن بضاعة
أجسام النساء .

٣ يقول : واكني بالسمر عن سمر الرماح لا سمر النساء . جناها احبائي : اي ما تجنيه من
الدماء . وأطرافها رسلِي : أي أطراف الرماح رسلِي التي تذهب إلى احبائي ، وتجمع بيني
وبينها .

الطيب في فخره كثير الاعتداد بنفسه ، لا يجد لها صنواً ، والناس كبارهم وصغارهم ، ملو كهم وسوقتهم ، يحتقرون عنده .

وليس للشاعر قصائد مستقلة في الفخر ، وإنما هي أبيات يوردها في أثناء شكاويه ومدائحه وأهاجيه ومراثيه ، وأعجبها ما جاء في قصائد المدح وهي كثيرة ، فإنه يجعل نفسه في الثرى شرفاً وخيراً ، بحيث يصبح كل ما يقوله في مدوحه لا يعادل ذرة مما قاله في نفسه . فكأن نفسه الكبيرة تأبى عليه أن يطري أحداً قبل أن يؤدي لها حقها من التعظيم والاكرام . وأعجب من هذا أن بمدوحيه كانوا يسمعون تبيحاته وتمدحاته ، ويرصون عنه ، ويقبلون مدحه ، ويجيزونه عليه ؛ فكان كمن يستبهم بقوة شعره ، وسحر بيانه ، ويستخدون له ولا يستنكفون . فما قولك بشاعر يمدح أميراً ويصدّر مدحته بابيات يقول فيها مفتخراً :

وكيفَ لا يُحَسِّدُ امرؤٌ عَلمَ ، له على كلِّ هامةٍ قَدَمٌ ؟^١

فهما يقل من مديح في الأمير لا يبلغ به مبلغ هذا البيت الذي وضع فيه قدمه على الرؤوس غير مستثنى رأس مدوحه . أو ليس عجيباً أن يدخل الشاعر على سيف الدولة معاتباً مسترضياً فيخاطبه بقوله :

سَيَعْلَمُ الجَمْعُ مَنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا ، بَأَنِّي خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ

وغير ذلك من أبيات كلها صلف وتعريض . ثم يرضى عنه سيف الدولة ويدنيه ويجيزه ، مع أن أبا الطيب لم يقل له كلمة لينة إلا "أردف معها كلمات عنيفة . فقد جاءه من علّ وملاً مسامعه وناظره كبراً وتعجباً ، وفتن الأمير بقوة شعره ، فاغتر له سيئاته ، وتغافل عما نعت به نفسه من

١ علم : سيد عظيم .

أوصاف لم تنعت بثملها الملوك .
ومفاخر المتنبّي تتناول حيناً آباءه ، وأحياناً نفسه . وهو إذا افتخر
بآبائه 'يجمل القول فما يعدّ لهم مآر ، ولا يذكر لهم آباً ، ولا يتباهى
باسمائهم وإنما يقول :
ولو لم تكنوني بنت أكرم والد ، لكان أباك الضخم كوثك في أمّا
وإني لمن قوم كأن نفوسهم ، بها أنف أن تسكن اللحم والعظما
وأما إذا افتخر بنفسه ، فانه يتسع له مجال القول فيباهي بشجاعته وصبوه
وعفته وإبائه ، وشعره وفصاحته ، فتراه يتحدى الزمان ليارزه :
ولو برز الزمان إلي شخصاً ، لحضّب شعر مفرقه حسامي
ولا يقبل حكماً إلا الله :
تغرب لا مستعظماً غير نفسه ، ولا قابلاً إلا لحالفه حكماً
وإذا سأل متكسباً كان الفخر حشو سؤاله ، فإنه يظهر للممدوح قيمة
شعره ، فهو كالدر لا يغبن من يعطي عليه دراً :
لك الحمد في الدر الذي لي لفظه ، فإنك معطيه ، وإني ناظم
ويعرض للشعراء فيرمي بهم إلى أسفل ، ويحلّق فوقهم مغرداً ، ومدلاً
بشاعريته على ممدوحه فيقول :
ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى
وقلما خلت قصيدة لأبي الطيب من أبيات في الفخر ، ولا سيما مدائحه .

١ المحكي : الذي يحكي به ، أي يكون غيره حكاية له .

وصفه

لم يُعنَ المتنبي بوصف الطبيعة، والتغزل بجمالها، والافضاء بما توحى إليه أسرارها، ولم يلتفت إلى قصور الملوك وحدائقهم، ولا إلى حلقات اللهو وأدواته، لأنَّ نفسه كانت أبعد همًّا من أن تفرغ لهذه الأشياء، فقد شغلها حب المغامرات، وطلب السيادة والتملك، فلم تجد قبَّلها غير القوة تصفها على اختلاف صورها وهيالها. فاتَّبعتها يتقرَّأها في مواطنها، فنظر إلى الطبيعة على قلة احتفاله بها، فلم يبدُ له منها غير القوة فوصفها في بحيرة طبرية، فإذا أمواجها فحول مزبدة، وطيورها فرسان على خيول بلق، ورياحها جيشا وغى، هازم ومنهزم^١. وأصابته الحمى وهو في مصر، فما كاد يصفها ببضعة أبيات لطيفة حتى أخذ يتشوق إلى يوم تعود به إليه صحته، فيتمكن من أن يصرف عناناً أو زمماً، ويحمل قناة أو حساماً. ووصف انشاء ابن العميد في كتاب ورد منه عليه، فلم يجد فيه غير أسود مفترسة. فالقوة ماثلة في جميع أوصاف المتنبي، تتبينها في تشابيه واستعاراته، في ألفاظه وعباراته، وفي غلوه وتخيلاتهِ. وأحسن الوصف عنده ما صبح أن تتسلل القوة فيه، كوصف أسدٍ ضارٍ يطلب فريسة، ووصف خيول مغيرة تثير غباراً، وجيش زاحف غارق في الزرد، وسيوف مسلولة، ورماح مشرعة، ومعارك حامية الوطيس تضاربُ فيها الأبطال وتطاعن.

١ نستثني وصفه للطبيعة في شعب بوان، وهو سائر إلى عضد الدولة، فإنه لطيف ناعم خارج عن مألوفه. ولا ندرى ماذا أوحى إليه بلاد الفرس، وماذا كان من تأثيرها في نفسه. فإنه حينها حيناً صادقاً إلى وطنه الشام، وهي المرة الأولى التي يعرف بها المتنبي وطناً ويرتاح إلى ذكره. وذكر القيان الدمشقيات وهي المرة الأولى التي يأنس فيها بذكر الحضريات دون البدويات. ووصف الطبيعة وصفاً لطيفاً، ولم يسبق له وصف مثله قبل ذلك الحين.

وابدع في وصف الاخلاق وتصوير الحياة ، والاشخاص . وصوره مادية واقعية ، قلّما بث فيها روحاً أرفع من روحها ، ولكنه يرفعها بالاغراق والتكبير وجمال الفن ؛ فما اسده اسدّاً عادياً ولا شخصه انساناً بشريّاً ولا جيشه جيشاً مألوفاً . وإنما هي أشياء متطرفة عن حدودها تطرّف نفسه الجبارة وخياله العنيف الجامع .

وقد وصف الاسد في قصيدة مدح بها بدر بن عمار لما عفر الليث بسوطه ودار به الجيش . ومثل هذه المشاهد الرائعة تثير اعجاب أبي الطيب ، فبالغ في وصف الأسد ما شئت له شاعريته ، وشاء خياله المبدع . وهذه المبالغة كلها مدح لبدر لانه أذل بسوطه ليشأ هصوراً نضد هام الرفاق تلولا . ووصف المعارك فكان كما قال فيه ابن الاثير: « إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواسلا . » وهذه المعارك هي التي شهدا مع سيف الدولة ، فأجاد وصفها ، ولم يبرع في وصف الحروب إلا عند صاحب حلب .

ووصف الجيوش والمعامع أروع شعر المتنبي وأفخه ، ولولاه لما جاءت مدائحه في سيف الدولة أجل من مدائحه في غيره ، فقد كان مصوراً بها لحروبه ، ومؤرخاً ومخلداً . ومن العدل أن نقول إنه لو لم تجتمع عبقرية المتنبي ، وهمة سيف الدولة في الحروب ، لما خرج هذا الشعر الرائع .

فلسفته وآراؤه في الحياة

للشعر أغراض متفاوتة يمتاز بعضها من بعض ، ويعلو بعضها على بعض ، ونرى ان أعلاها ثلاثة ، فالأول الغزل وما يتبعه من تشبيب بحاسن المحبوب وتصوير لأخلاقه ، ووصف لمشاعر النفس في حالتها اللذة والألم . والثاني

وصف الطبيعة ، واستجلاء أسرارها ، والاتصال بمحاسنها وألوانها . والثالث النظر في الحياة ، وما يتعلق بها من عادات الناس وأخلاقهم ، وطبائعهم وأذواقهم ، ولذاتهم وآلامهم ، وتآلفهم وتخالفهم ، وسياساتهم واجتماعاتهم . فإذا قسنا العبقرية في الشاعر على هذه الأغراض الثلاثة ، فالمتنبي خاسر في الغرضين الأولين ، رابع في الثالث ، بل معتصب بأجد أكايل العبقرية ، متبوء أعلى مراتبها . فهو لا جرم فيلسوف الحياة ، لأن فلسفته مأخوذة من صورها وأسفارها ^١ . فقد كان لأبي الطيب من حياته وحياة عصره عبر ومواعظ اعمل فيها فكره ، وبني عليها آراءه . وكان له من اطلاعه على الفلسفة العربية اليونانية عون على إبراز فكره ناضجاً ، مشبعاً بالاحكام السديدة . فكتبت له فلسفته صك الخلود ، وسارت أمثاله على أفواه الأجيال تطوي وراءها العصور والقرون .

والمتنبي ، كما علمت ، يحب القوة فغير عجيب أن تقوم آراؤه في الحياة على تعظيمها . وتعظيم القوة يكاد يكون من خصائص الفلسفة العربية منذ طورها الجاهلي إلى عصر أبي الطيب . فقد كان العرب في بداوتهم يعيشون بالغزوات والغارات ، فجاءت حكمة شاعرهم مزوجة بالقوة كما قال زهير :
وَمَنْ لَمْ يَذُذْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يَهْدُمْ ، وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يَظْلَمُ .

ثم جاء الإسلام قائماً على الجهاد ، فلم يجد الشاعر المسلم غير القوة عتاداً ، فبشر بها وأشاد بذكرها . والمتنبي أحد أولئك المبشرين الذين رفعوا للقوة هيكلًا عالي الدعائم . ويختلف عن غيره في أنه كان يبني فلسفته على مشاعر نفسه ورغباتها ، فهو لم يعظم القوة إلا لأنه أحبها ، وجاهد في سبيلها ، ولم

١ اسفارها : اي كتبها .

يرَ للحياة معنى إلا بها .

وقد يجب الإنسان القوة ويعظمها، ولكنه يرحم الضعف ويعطف عليه.
وأما المتنبي فقد ازدري الضعيف ، وسخر منه ، وتنادر عليه :

وإذا ما 'خلا الجبان' بأرضٍ ، طَلَبَ الطُّعْنَ وَحَدَهُ والنَّزْلا

ونحن نشرع الآن في تحليل فلسفته ، وعرضها على حياته وحالة عصره ،
لنستخرج منها هذين العنصرين المتضادين ألا وهما تعظيم القوة ، وتحقير
الضعف ، ونصل إلى الغاية التي يرمي إليها شاعرنا وهي المجد .

ذم الزمان وأهله

أوتي أبو الطيب نفساً جبارة تسامت به إلى أرفع الدرجات ، فخالفتها
الأقدار ، فأخفقت مراراً ، فأفضى بها الاخفاق المتتابع إلى التشاؤم بالزمان
وأهله . وقد تشاءم بأهل زمانه لأنه رأى فيهم أعداء وحساداً يكيدونه ،
ويعكسون آماله ، ويخضدون شوكته . ورأى فيهم أيضاً من ساعده
الخط ، فبلغ أعلى الرتب ، وهو عنده لا يستحق هذا المقام ، فكبر زمانه ،
وأشار إليه بهذا تحقيراً :

أريدُ مِنْ زَمَنِي ذَا ان يُبْلَغَنِي مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ^١
وكره أهل زمانه ، وصغرتهم فجعلهم أهيلاً ، ورماهم بأقبح الأوصاف .
فهم قوم ليس الاحسان عندهم في صنع الجميل ، وإنما في ترك القبيح :
إِنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرَكَ الْقُبْحَ بِهِ ، من أكثر الناس ، إحساناً وإجمالاً

وفي هذا البيت حكمة خالدة مع العصور .

١ يقول : اكلف زمني هذا همّاً كبيراً يعجز الزمن عن بلوغه .

كره النسل

وقاده تشاؤمه بالزمان وأهله إلى القول بكره النسل :
وما الدهرُ أهلٌ أن تؤمِّلَ عندهُ حياةً ، وأن يُشتاقَ فيه إلى النسلِ
مصاحبة الناس

فأما وقد قصي على أهل زمانه باللؤم والقبح والظلم والجهل ، فأصبح من
حقه أن يتهم مودتهم ودينهم :

فلم أرَ ودَّهمُ إلاَّ خِداً ، ولم أرَ دينَهُمُ إلاَّ نِفاقاً
ويربأ بنفسه أن ينتسب إليهم :
وما أنا منهمُ بالعِيشِ فيهمُ ، ولكن مَعَدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ^١

سخطه على الملوك

وأبو الطيب ساخط على الملوك ، يريد الشر لهم لأمرين ، أولهما انه
يرى من حقه أن يرتفع إلى منازلهم لأن فؤاده منهم :

وفؤادي من الملوكِ ، وإن كانَ لساني يُرى من الشعراءِ
والثاني تألمه من رؤية من تجري معهم التقادير ، وهم جهال ، فتعطي لهم
العروش بعد خمول ذكر . وقد حاول ان يوطئ له عرشاً ، فلم يفلح ،
فنقم منهم ، وراح يشتمهم ، ويتنقى هلاكهم :

ولا أعاسِرُ مِن أَملاكِهِم مَلِكاً ، إلاَّ أحقَّ بضربِ الرأسِ من وثني
اعتقاده بالخط

ونشأ من هنا اعتقاده بالخط ، ففضى ان العاقل غير محدود :

١ الرغام : التراب .

وما الجمعُ بين الماء والنار في يدي ، بأصعبَ من أن أجمعَ الجَدَّ والفَهْمَا
وكان كافور مجدوداً لأنه مغفل في نظره : « وجدُّك طعمانٌ بكلِّ »
سنان . ،

الحياة والموت

ولو كان غير المتنبئ أصيب بالاخفاق المتواصل في حياته ، لأفضى به ذلك
إلى الإذعان والخنوع ، ولكن أبا الطيب لم يزد الإخفاق إلا عزماً وإقداماً ،
وأبى أن يقر بخيبتة وعجزه . فلم يفتأ يجاهد الأيام ويعارك الليالي فما
يسقط في المضار إلا نهض قائماً وهو يقول :
توَيِّدِينَ لِقِيَانِ المعالي رَخِيصَةً ، ولا بُدَّ دونَ الشَّهِدِ من دَبرِ النُّحْلِ
أو يقول :

وإذا كانتِ النفوسُ كِبَاراً ، تَعَبَّتْ في مُرَادِهَا الأجسامُ
وكان يرى أن « لكل امرئ من دهره ما نعوذاً . » فمن عوَّذ نفسه
الذلَّ هان عليه احتماله :

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلِ الهوانُ عليه ، ما لَجُرْحٍ بِمَيِّتٍ لِمِلاَمٍ
ومن حمل نفسه على ركوب الأخطار هانت عليه مكارهاها :
سُبْحَانَ خَالِقِ نفسي كيف لَذَّثَهَا ، فيما النفوسُ تراهُ غايةَ الألمِ
ونظر إلى الموت فرآه ضرورياً لحياة الإنسان فقال :
سُبْقُنَا إِلَى الدُّنْيَا فلو عاشَ أهلُهَا ، مُنِعْنَا بِهَا مِنْ جَبَنَةٍ وَذُحُوبٍ
وقضى بأن طعم الموت واحد سواء مات الإنسان حتف انفه أو مات

في الحروب :

فطعم الموت في أمرٍ حقيرٍ ، كطعم الموت في أمرٍ عظيمٍ .
ورأى ان لا مهرب من الموت ، فاستعجز من يجذره ويخافه ، على حين
لا يرده حذر ولا خوف ، فتولد فيه تحقير الضعف وإيثار القوة :
وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ ، فمن العجز أن تكون جباناً
وأنكر أن يكون العجز من العقل :
يرى الجُبْناء أن العجزَ عقلٌ ، وتلك خديعة الطبع اللئيم .
وعلى هذه الآراء بنى صرح الحياة التي يريد أن يعيها ، فإذا هي حياة
القوة البالغة بصاحبها إلى أعلى قمم المجد .

طلبه المجد

وغير جدير بأبي الطبيب أن يطلب من المجد أدناه ، وهو يرى أن طعم
الموت في الأمر الحقير مثله في الأمر العظيم . فمد نظره إلى أسمى
الدرجات وقال :

إذا غامرت في شرفٍ مرُومٍ ، فلا تقنع بما دون النجوم .
ووطن نفسه على الجهاد في سبيل المجد ، فعانى الأسفار ، وركب
الأخطار ، فما الدنيا عنده إلا غنيمة الجسور : « والبرُّ أوسع والدنيا لمن
غلبا . » فأضعف ذلك فيه حب الوطن ، فكان يقول : « وكل مكان
يُنبت العزَّ طيبٌ . » أو يقول : « إن الذليلَ غريبٌ حيثما كانا . » ووضع
خطته التي يسير عليها لبلوغ المجد فإذا هي :

ولا تحسبن المجد زيقاً وقينةً ، فما المجد إلا السيف والفتكة البكرُ

وَتَضْرِبُ أَعْنَاقَ الْمُلُوكِ ، وَأَنْ تُرَى لِكِ الْهَبَوَاتِ السُّودِ وَالْعُسْكَرِ الْمَجْرُ^١
وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّا تَدَاوَلَ سَمْعَ الْمَرْءِ أَثْمَلُهُ الْعَشْرُ^٢
فَالْقُوَّةُ تَحُوطُ هَذَا الْمَجْدَ مِنْ جَمِيعِ أَطْرَافِهِ ، فَقَبَابِهِ الصَّوَارِمُ ، وَمَوْطِنُهُ
الْمَعَارِكُ ، وَهَدَفُهُ تَضْرِيبُ أَعْنَاقِ الْمُلُوكِ ، وَلَا سَلَامَةَ لَهُ إِلَّا إِذَا سَبَّحَ بِالدَّمَاءِ :
لَا يَسْلُمُ الشَّرَفُ الرَفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ
وَهَذِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي يَتَعَشَّقُهَا شَاعِرُنَا بِأَشْيَاءِ ثَلَاثَةٍ لَا غَنِيَةَ عَنْهَا ، وَهِيَ
الشَّجَاعَةُ وَالْعَقْلُ وَالْمَالُ .

الشَّجَاعَةُ وَالْعَقْلُ

يَقْدَسُ الْمُتَنَبِّيُ الْعَقْلُ كَمَا يَقْدَسُ الشَّجَاعَةُ ، لِأَنَّ هَذِهِ لَا تَبْلُغُ بِصَاحِبِهَا
الْمَرَاتِبَ الْعُلْيَا مَا لَمْ يَصْحَبْهَا الْعَقْلُ :
فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ حُرَّةٍ ، بَلَغَتْ مِنْ الْعَلِيَاءِ كُلِّ مَكَانٍ
وَهُوَ وَإِنْ فَضَّلَ السَّيْفُ عَلَى الْقَلَمِ مَرَّةً فِي قَوْلِهِ :
حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي : « الْمَجْدُ لِلْسَّيْفِ لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ » .
فَقَدْ فَضَّلَهُ بَيْنَ قَوْمٍ لَا يَعْظُمُونَ الْعِلْمَ ، وَإِنَّمَا يَعْظُمُونَ الْبَطْشَ ، وَلَكِنَّهُ
قَضَى لِلْعَقْلِ عَلَى الشَّجَاعَةِ بِقَوْلِهِ :
الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ ، هُوَ أَوَّلُ ، وَهِيَ الْمَحَلُّ الشَّانِي
وَالْعَقْلُ عِنْدَهُ لَا يَعَادِلُهُ فِي التَّعْظِيمِ إِلَّا الشَّرَفُ :
يَهْوَنُ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنَا ، وَتَسْلُمَ أَعْرَاضُنَا لَنَا وَعُقُولُنَا

١ الهبوات : جمع هبوة وهي الغبار . المجر : الكثير .

٢ تداول الشيء : تعاقبه وأخذه مرة بعد مرة .

المال

وكان يرى ان المال عصب المجد، وان لا قوة إلا به ، فعظم جانبه،
ولم يسرف في إنفاقه حفاظاً على المجد أن ينهار بشلل أعصابه :

فلا مَجْدَ في الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ، ولا مالَ في الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ
فحبه المال من أجل المجد وحده ، فإذا ذهب المجد أصبح المال لا قيمة
له ولا نفع : « ولا مال في الدنيا لمن قلَّ مجده . » فالمجد إذاً هو المحور
الذي تدور عليه فلسفة المتنبى في الحياة .

فلسفته الالهية

لم يُعْنِ أبو الطيب بالفلسفة الالهية عنايته بفلسفة الحياة ، لأنه رآها لا
تؤدي إلى نتيجة واضحة ، فزهد فيها ولم يتعمق في بحثها ، غير انه ترك
بعض أقوال لا نرى بأساً في أن نعرض لها موجزين ، فنقول : ان الشاعر
لم يشك في وجود الله تعالى ، ولكنه استخف بالدين والانبياء والكتب
المقدسة ، غير حافل . ويظهر انه تأثر بالحلولية منذ صباه ، فقد ذكر هذا
المذهب وهو صبي :

نورٌ تظاهرَ فيكَ لاهوتِيهِ ، فتكادُ تعلمُ عِلْمَ ما لن يُعلِّمًا

والحلولية انتحلها جماعة من العلويين ، فقالوا بأن روح الله تحل في
أئمتهم حتى تبلغ المهدي المنتظر . ونرى أن أبا الطيب قد تلقن هذا المذهب
من باطنية الكوفة ، ورافقه التفكير فيه إلى أواخر حياته فاذا هو يقول في
ابن العميد :

فإن يكنِ المهديُّ مَنْ بَانَ هَدِيَّهُ فهذا، وإلا فالهْدَى ذاء، فما المهديُّ؟

ولعلّ تأثره بهذا المذهب يؤيد الرواية التي تذهب إلى انه ادّعى العلوية في أول أمره ، وما العلوية إلا الامام الباطن ، والمهدي المنتظر .

النفس

تكلم أبو الطيب غير مرة على النفس فقال :

فهذه الأرواحُ من جَـوْهِ ، وهذه الأجسامُ من تَـرَبِّهِ
وهذا مذهب الماديين الذين يقولون بأن النفس من الهواء . وقال أيضاً :
والظلمُ من شَيْمِ النفوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذا عَفْةٍ ، فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ
وهذا قول من يرى أن الشرّ كامن في النفس ، وهو مذهب مادي أيضاً
لأن أصحابه يزعمون أن الخير في الجسم ، ويخالفون في ذلك مذهب أفلاطون
الذي يقول بأن الخير في النفس ، والشرّ في الجسم . وتكلم أبو الطيب على
خلود النفس قال :

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ ، إِلَّا عَلَى شَجَبٍ ، وَالْخُلَافَ فِي الشَّجَبِ ١
فَقِيلَ تَخْلُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً ، وَقِيلَ تَشْرُكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ
وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الدُّنْيَا وَمُهْجَتِهِ ، أَقَامَهُ الْفِكْرُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالتَّعَبِ ٢

فقد أقرّ بعجزه عن إدراك الحقيقة ، ووقف حائراً بين القولين لا يبت
امراً . وحاول مرة أن يفسر الحالة التي تطرأ على النفس بعد مفارقتها للجسد فقال :

تَمْتَعُ مِنْ سُهَادٍ أَوْ رُقَادٍ ، وَلَا تَأْمُلُ كَرْمٍ تَحْتَ الرَّجَامِ ٣

١ الشجب : الهلاك ، يقول : تخالف الناس في كل شيء ، فلم يتفقوا إلا على الموت ، ولكنهم
اختلفوا في حقيقة هذا الموت .

٢ المهجة . الروح .

٣ الكرم : النعاس ويريد به النوم . الرجاء : حجارة ضخمة تنصب على القبر ، مفردا رجمة .

فإن "لثالث الحالين معنى" سوى معنى انتباهك والمتنام
ولكنه لم يخرج بهذا التفسير من حيوته وعجزه .

المحسوسات

لم يشك المتنبى في المحسوسات ، كما انه لم يشك في المعقولات :
وليس يصح في الأفهام شيء ، إذا احتاج النهار إلى دليل
الكواكب

وكان الفلاسفة في عصره ، والفارابي في مقدمتهم ، يقولون بعقول
الكواكب ، يريدون به تأييد المذهب الانبثاقي الذي اعتمدوا عليه في تحليل
خلق العالم . فلم يطمئن المتنبى إلى هذا القول ، فسخر به ، وأنكره :

فتباً لدين عبيد النجوم - ومن يدعي أنها تعقل

ولكنه اعتقد تأثيرها الطبيعي في حظوظ الناس اسوة بأهل زمانه :
نفى وقع أطراف الرماح برمح ، ولم يخش وقع النجوم والدبران^١
على أن فلسفته الالهية ليست بما ينظر إليه في معيار شاعريته وتفكيره ،
ولما تقوم منزلته على آرائه في الحياة .

ما أدرك عليه

كان انحدار المتنبى في مقابجه بقدر ارتفاعه في محاسنه ، فجعل منها سلاحاً
ماضياً بأيدي خصومه مجاربونه به . ولا يزيد ان نتقصى جميع ما أدرك

١ النجم : هنا الثريا . الدبران : خمسة كواكب من الثور وقيل نجم كبير في عين الثور
وهو من منازل القمر . يقول : ان هذا الرجل رد عنه قضاء الرماح برمح ، ولكنه لم
يحسب حساباً لقضاء النجوم ومناحها ، وكانت قد قضت بحلول أجله .

عليه ، فهذا بحث يطول أمره ، وليس محله هنا . وقد عاجله قبلنا جماعة من الأدباء المتقدمين كالصاحب بن عباد ، والقاضي الجرجاني ، والحائمي ، والثعالبي ، والواحدي وسواهم . فحسبك أن ترجع إلى الوساطة ، أو يتيمة الدهر ، أو الصبح المنبي لتقع على ضالتك . بل حسبك ان تطالع البحث البليغ الذي ذيل به الشيخ ابراهيم اليازجي ديوان أبي الطيب فإن فيه نهاية الارب . وإنما نحن نجتزئ بالدلالة على أنواع معانيه ، وبيان أسبابها ، فنقول : ان المتنبي كان يعنى بتصيد المعاني ويفرغ عليها في أبعد قراراتها ، حتى إذا أمكنته أبرزها بالثوب الذي يتفق له فسواء عليه كان كرايس أو خزّاً وديباجاً . وربما ازدحمت عليه المعاني في البيت الواحد ، فيلجأ في اظهارها إلى التقديم والتأخير ، والحذف وتقصير الألفاظ ، فيكثر تداخله وتعقده ، ويطبق عليه الغموض ، فلا يحصل معناه إلا بعد كد الحاطر وارهاق الذهن . واستبان للشيخ ابراهيم ان طائفة من غوامض المتنبي ليس فيها كبير معنى بحيث لو حللتها لما رأيت للشاعر عذراً في إلباسها هذا الثوب البالي . وعزا ذلك إلى التعمية في صور التراكيب ، وإلباس المعنى غير ثوبه ، فقد كان المتنبي يقع على المعنى الساقط فيحاول الخروج به إلى الإغراب ، وعلى المعنى المسبوق فيحاول البعد به عن أصله ، فيغير ديباجته ويتحدلق فيه حتى يفسده . وأكثر معنياته واردة في أوائل شعره قبل ان تستحكم ملكته ، وكان يومئذ يحتذي خطة أبي تمام فيغرب ويتكلف ، وينقب عن الوحشي من اللفظ ، ويعتمد الصيغ الشاذة ، والتراكيب الجافية ، ويسرف في طلب المجاز والبديع ، فمن ذلك قوله :

أُحَادٌ أَمْ سُدَّاسٌ فِي أَحَادٍ ، لِيَيْلَسُنَا الْمَنُوطَةُ بِالتَّنَادِي ؟

١ التنادي : القيامة . يقول : ان ليلته لطولها معلقة بيوم القيامة . وقوله : أحاد ، أي أحاد ؟ والمعنى ان ليلته دهر ، وكل ليلة من ليالي هذا الدهر سبعة أيام .

قال صاحب بن عبّاد : « وهذا من عنوان قصائده التي تحير الافهام ، وتفوت الأوهام ، وتجمع من الحساب ما لا يدرك بالارتماطيقى ، والأعداد الموضوعة للموسيقى . » ويؤخذ عليه فساد ذوقه في مطالع المدح :

أَوْهٍ بَدِيلٌ مِّنْ قَوْلِي وَاهَا ! لِمَنْ نَأَتْ ، وَالبَدِيلُ ذِكْرَاهَا

قال الثعالبي : « وهو بِرُقِيَّةِ العقرب أشبه منه بافتتاح كلام في مخاطبة ملك . » وعيب عليه الاستكثار من استعمال ذا ، وهي ضعيفة في صنعة الشعر ، دالة على التكلف ، ويزيدها قبحاً وغلاظة ان تأتي ثقيلة على السمع ، متقلقة في موضعها ، ظاهرة التكلف كقوله : « يُضاحكُ في ذا اليوم كلَّ حبيبه . »

وعيب عليه تكرار اللفظ حتى يثقل وقعه ، ولا يحسن فيه المعنى :

وَلَا الضَّعْفَ حَتَّى يَتَّبَعَ الضَّعْفَ ضِعْفُهُ

وَلَا ضَعْفَ ضَعْفِ الضَّعْفِ ، بَلْ مِثْلُهُ أَلْفٌ

فقد أراد المغالاة في بمدوحه فحشر نفسه في هذا المأزق المستوحل حتى غرق . وكأن بمدوحه أحب أن ينتقم للشعر فلم يحزه بسوى دينار واحد . ومن مقابحه خشونته في مخاطبة الملوك :

عَيْبٌ عَلَيْكَ تُرَى بِسَيْفٍ فِي الْوَعَى ، مَا يَصْنَعُ الصَّصَامُ بِالصَّصَامِ ؟

١ أوه : كلمة توجع . واهاً : كلمة تعجب واستطابة . وقوله : والبديل ذكرها ، أي والبديل منها ذكرها .

٢ مثله : منصوب على الحال لأنه نعت فكرة قدم عليها . والف خبر عن محذوف أي بل أنت الف . يقول : انه لا يرضى لمدوحه ان يكون ضعف الورى بل ألوف الأضعاف .

٣ ترى : حذف ان ، أي ان ترى . الصمصام : من اسماء السيف . والمعنى ان سيف الدولة صمصام ، فريب عليه ان يحمل صمصاماً في الحرب ، وماذا يصنع به وهو مثله ؟

وسوء تخلصه من الغزل إلى المدح :

عَلَّ الْأَمِيرَ يَرَى دُذْلِي فَيَشْفَعُ لِي إِلَى الَّتِي تَرَكْتَنِي فِي الْهَوَى مَثَلًا
ولم يقنع بتكليفه هذه المهمة الشنعاء حتى جعله يعتقل ربحه ليحارب
امرأة ، ويأخذ له بثأره منها :

أَيَقْنَتُ أَنْ سَعِيدًا آخِذٌ بِدَمِي ، لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِالرُّمَحِ مُعْتَقِلًا
ويعاب عليه غلوه المستنكر حتى يخرج به إلى الإحالة . وسرقاته عن
تقدمه كأبي تمام والبحري وابن الرومي وسواهم . وتكراره للمعاني، وهذا
عندي ليس بعيب فللشاعر أن يستعين بمعانيه متى شاء ، على أن لا يفرط في
تردادها ، والمتنبى لم يفرط في التكرار .
١ وهو أقل الشعراء إخلالاً بالأوزان ، فليس في ديوانه إلا بيت أو بيتان
خرج بهما عن الوزن كقوله :

تَعَثَّرَتْ بِهِ فِي الْأَفْوَاهِ أَلْسُنُهَا وَالْبُرْدُ فِي الطَّرْقِ وَالْأَقْلَامُ فِي الْكُتُبِ
فقد اختلس حركة الهاء من به . ويدرك عليه بعض سقطات في اللغة
كقوله :

مَنْ لِبَيْضِ الْمُلُوكِ أَنْ تُبَدَلَ اللَّوْنُ نَ بَلَوْنِ الْأَسَاذِ وَالسَّحْنَاءِ ٢

١ سعيد : اسم مدوحه وهو سعيد بن عبد الله الكلابي المنبجي .

٢ به : الضمير لخبر وفاة اخت سيف الدولة . البرد : جمع برید وهو الرسول . يقول :
تلجلجت بذكره الألسنة ذعراً ، وتعثرت الرسل الحاملة له في الطرُق ، ورجفت أيدي
الكتاب في كتابته .

٣ من لبیض الملوك : أي من يكفل لهم . السحناء : الهیة .

ووجه الكلام ان يقول : « ان تبدل بلونها لون الاستاذ . » لأن ما دخل عليه حرف الجر في هذا الفعل كان هو المتروك .

منزلته

اوتي المتنبي شهرة لم يؤتها شاعر قبله ، فصار شعره على غوارب السنين والأحقاب ، تردده الحواضر والبوادي ، وتختصم فيه مجالس الأدب ، وتعقد عليه حلقات الطلب . وحجب شعراء زمانه فلم يذكر معه إلا أبو فراس ، ولولا مكانه من السلطان لأخفاه . وكان من عداوة الأدباء له ان ضاعفت سيورة شعره ، لأن اهتمامهم بنقد اقواله ، وإظهار معايبه ، جعل الناس يلتفتون لفته من كل صوب ، وقام له انصار ينافحون عنه ، ويردون حجج خصومه ، فصنفت الكتب في ما له وما عليه ، وعني الشراح بتفسير ديوانه لكثرة الراغبين فيه ، وكتب له الخلود في أرفع ألواحه ، وتبوأ أعلى درجاته . هذا ولما نزع ان خلوده مدين لعداوة الأدباء دون غيرها ، فلو لم يكن في شعره ما يستحق هذا الاهتمام لما شغل به الناس ، وملأ الدنيا على حد قول ابن رشيقي ؛ فإن في شعره من قوة البلاغ ، وطيب المساغ ، ما يستبي الاسماع ، ويلج القلوب بغير استئذان . ولربما قرأت له قصيدة دون ان تبغي حفظ شيء منها وما تتركها إلا وأنت راوية له على الرغم منك . ولا ريب في ان ذلك عائد على فيرة مقلداته التي استقاها من فلسفة الحياة ، فلا تقع حادثة في نظام الاجتماع إلا كان لها في شعره ما يتمثل به ، فكأنه كما يقول الشيخ ابراهيم اليازجي : « ينطق بألسنة الحدثان ، ويتكلم بخاطر كل إنسان . » وقد وفق لإفراغ هذه المقلدات في قالب سهل واضح ، فساغتها النفوس ، وعلقت بالخواطر ؛ وفلما وجدت له بيتاً عاثراً إلا وقد جمع حلاوة اللفظ وشرف المعنى .

وشيء آخر عمل لتوطيد شهرة المتنبي وخلوده ، وهو ما تجدد في شعره من تصوير المعامع ، واطراء الشجاعة والحمية والشرف ؛ فإن الإنسان مطبوع على حب القوة ، يلذ له ان يتغنى بها ، ويتمنى أن ينسب إليها ولو كان ضعيفاً . وكذلك الإنسان يكبر الشرف والحمية ، وان كان دنيئاً ساقط المروءة . فاستمال شعر أبي الطيب على هذه الميزات العالية ملكه قلوب الناس وخواطرم ، فحفظوه واستشهدوا به حتى ان صاحب بن عباد وهو أشد خصومه لددأ كان أحفظهم لشعره ، وأكثرهم تمثلاً به في محاضراته ومكاتباته . ولا يزال شعر المتنبي في زماننا معيناً غيراً يترشف منه الشعراء والكتاب .

وامتازت لغة المتنبي في قوتها فلاءمت بها قوة نفسه ومعانيه وأغراضه . وتبدو هذه القوة في ألفاظه الصلبة، وتراكيبه المتينة، وتشابيه واستعاراته؛ بمدّها خيال بدوي عنيف ، يسبح في سماء محجّبة بالغيوم ، تنقض منها الصواعق ، وتثور فيها الزوابع ، وتنقذف عنها الرجوم ، فما يعود إلا مضرجاً بالدماء .

وكان لحياته المضطربة تأثير في توجيه عاطفته ، فإن تردده في البادية ، ومغامراته الكثيرة ، واختفاؤه المتتابع ، وتشاؤمه بالزمان واهله . جعل عاطفته تنمو مخشوشنة متصلبة ، لا ترتاح إلى سوى العنف والشدة . وكذلك أثرت فيها ثقافته الفلسفية وتطلبه للمعاني فضعف عملها في كثير من المواطن بقدر ما قوي عمل التفكير .

وتتفاوت ديباجته ، فأحياناً تنجلي صافية لها رونق ورواء ، فتطرب وتبهج وتحمس ، وأحياناً تتجهم كدرة معقدة نافرة ، فتضيق بها النفس وتتأذى منها الآذان .

وأبو الطيب يمثل شطراً كبيراً من عصره ، ففيه تتجلى تلك النهضة الفكرية التي سبقت بها العلوم والفلسفة والمنطق . وفيه يتمثل اتساع الرزق على الشعراء لتعدد حواضر العلم والأدب ، وتنافس الأمراء في استقدام الشعراء ليمتدحهم ، ويغالوا في نعتهم حتى أصبح الشعر تكسباً كله . وفيه يتمثل اضطراب الحالة السياسية ، وتحفز كل ذي طموح إلى التملك ، وكثرة الحروب والخروج والفتن :

وعلى الجملة فشعر المتنبي مستند تاريخي لزمانه . وهو أبرع من وصف جيشاً ، وصوّر ملعبة ؛ ولو طالت ملاحظه لسد ثلثة في الشعر العربي . وهو أكثر الشعراء المتقدمين بيتاً مقلداً ، وأنضجهم تفكيراً وحكمة ، وأبصرهم بفلسفة الحياة ، وأخلدهم على كرور الأجيال .

أبو فراس

٩٣٢ - ٩٦٧ م و ٣٢٠ - ٩٧ هـ

حياته : نسبه . أسره . موته . صفاته وأخلاقه .
ميزته : لم يمدح . غزله . ترفعه . فخره . روميته . ما أدرك عليه . منزهته

حياته

هو الحارث بن سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني ، عربي النجار ، ينتمي بعمومته إلى تغلب فريضة الفرس ، وبخوولته إلى تميم فمضر الحمراء لقوله :

لَمْ تَتَفَرَّقْ بِنَا خُوُولٌ ، فِي الْعَرِّ أَخْوَالُنَا تَمِيمُ

وكتبته أبو فراس ، ولد على الأرجح في الموصل حيث كُتِبَ أبوه وأسرته وقُتِلَ أبوه وعمره ثلاث سنوات ، قتل ابن أخيه ناصر الدولة لأنه سعى سرّاً في ضمان الموصل وديار ربيعة من جهة الراضي بالله الخليفة العباسي . فنشأ أبو فراس يتيماً تحتضنه أمه ، ويعطف عليه ابن عمه سيف الدولة أخو ناصر الدولة .

فلما قام عرش الحمدانيين في حلب سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) كان شاعرنا في جملة من ضمهم بلاط سيف الدولة من آل حمدان . فشب في كنف ابن عمه يشمله حنانه ورعايته ، فرسخت محبته في قلبه صبيّاً ، وميزه سيف الدولة بالأكرام عن سائر قومه لما رأى من نجابته ومحاسن أخلاقه . ولقي أبو فراس في الحضرة جمهرة من كبار العلماء والادباء ، فتخرج

عليهم في اللغة والشعر والرواية حتى برع . ولما بلغ أشده أخذ سيف الدولة يستصعبه في غزواته ، ويمرسه بمواقف الأهوال ، فخرج فارساً مغواراً ، بصيراً بمواقع الطعن والضرب ، فحارب الروم ، ونازل الدماشق^١ ، وسطا على القبائل النائرة بابن عمه ؛ فأذل كعباً وكلاباً ، ونميراً وقُشيراً . وأصبح لا يطيب له غير مقارعة الكتائب ، وملاقة الأبطال ، والذود عن حياض الملك ، حتى إذا استخلفه الأمير على أعماله ، ولم يستصعبه في غزوة غزاها ، تكدر وتوسل إليه أن لا يجرمه صحبته :

لَا تُشْغَلَنَّ ، فَأَرْضُ الشَّامِ تَحْرُسُهُ ، إِنَّ الشَّامَ عَلَى مَنْ حَلَّهُ حَرَمٌ^٢
لَا تَبْهَرُ مِنْهُ سَيْفُ الدِّينِ صَحْبَتَهُ ، فَهِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي تَحْيَا بِهَا الْأُمَمُ^٣
وأقامه سيف الدولة على منبج ، فتولى أعمالها ، وحارب الروم دونها .

أسره

تضاربت الروايات في أسر أبي فراس ، فمن قائل أنه أسر مرة واحدة ، ومن زاعم أنه أسر مرتين ، فقد حدثنا صاحب يتيمة الدهر بأن الروم أسرته في بعض مواقعها بعد أن جرح بسهم أصابه في فخذه ، وبقي نضله فيها ، فحُبل إلى خرسنة^٤ ثم إلى قسطنطينية . وذكر ابن خلكان هذه الرواية ، وأسندها إلى أبي الحسن علي بن الزرّاد الديلمي ، وجعل تاريخ أسرته سنة ٣٤٨ هـ (٩٥٩ م) وتاريخ فدائه سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) ثم استدرك فزعم

١ الدماشق : جمع دمستق : قائد قواد الروم .

٢ يقول : لا يشتغل قلبك على الشام إذا غبت عنه معك فإن أرضه تحرسه .

٣ صحبته : الضمير لسيف الدين .

٤ خرسنة : قلعة ببلاد الروم ، والفرات يجري من تحبها .

أن المؤرخين نسبوا ابن الزرّاد إلى الغلط ، وقالوا: أسر أبو فراس مرتين ، فالمرّة الأولى بغمارة الكحل في سنة ٣٤٨ هـ وما تعدّوا به خرشنة. وبني على نجاته اسطورة ، ف قيل إنه ركب فرسه وركضه برجله ، فأهوى به من أعلى الحصن إلى الفرات . والمرة الثانية أسره الروم وهو على منبج في سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) وحملوه إلى قسطنطينية ، فأقام فيها أربع سنوات حتى اقتداه سيف الدولة سنة ٣٥٥ هـ .

أما نحن فنميل إلى ترجيح الرواية التي تقول انه أسر مرة واحدة لأسباب منها : أن الثعالبي ، وهو أقرب الرواة عصرآ إلى أبي فراس ، لم يذكر له سوى أسرة واحدة ، ولم يروِ اسطورة نجاته كما رواها ابن خلكان ، مع أنه شديد الإعجاب به لا يذكر اسمه إلا بالأعظام ، فلو صحت الاسطورة والاسرة الثانية ، لما غفل عنهما صاحب يتيمة الدهر . ومنها : ان الرواة لم يختلفوا في شأن الفداء ، فقد اتفقوا على أن سيف الدولة اقتداه مرة واحدة وهو أسير في قسطنطينية . ومنها : ان أبا فراس لم يقل روميّاته إلا بعد ان طال أسره ، وابطأ سيف الدولة في بذل فدائه ، وله رومية شهيرة نظمها في خرشنة ، وبعث بها إلى سيف الدولة لما علم أن والدته قصدت إليه من منبج تكلمه في المفاداة فلم يجب طلبها ، وفيها يقول بلسان امه :

يا مَنْ رأى لي بِحصنِ خَرْشَنَةِ أُسْدَ شَرِّى فِي الْقِيُودِ أَرْجُلُهَا^١

فهذا يدل على أنه أخذ يعاتب ابن عمه وهو في خرشنة ، فالراجح انه لم يؤسر غير مرة واحدة سنة ٣٥١ هـ فامتد أسره إلى سنة ٣٥٥ ، فتكون مدة أسره أربع سنوات ، سلخ بعضها بخرشنة ، وبعضها الآخر

١ الشرى : طريق كثير الاسود يضرب به المثل .

بسططية ، ونظم روميته في كلا المجسدين .

نثر ابن هالويه ان ابن أخت ملك الروم كان أسيراً عند سيف الدولة ، فلما وقع أبو فراس أسيراً في يدي أخيه ، سامه اخراج أخيه المأسور او دفع فدائه . فكتب أبو فراس إلى سيف الدولة يسأله المفاداة ، فامتنع سيف الدولة عن اخراجه . اخذت الملك إلا بفداء عام ، فحُمل أبو فراس إلى القسطنطينية ، وسيف الدولة يأبى ان يفتديه فداء خاصاً ، فبقي أسيراً . مع مرور الزمن ، سرى لفداء العام . ونحن نرى أن صاحب حلب لو أراد تعجيل دمه ، دُفِعَ عليه ان يطلق ابن أخت الملك ليطلق أبو فراس . ولكنه آثر التسليم لغرض في نفسه ، ولعله أحس من الشاعر الفارس طمعاً في الملك ، وترتب من دلاله وزهوه بشجاعته ، فرأى أن يصرفه عن وجهه زمناً ، وبعد في امره ، ليضعف عرائمه ، ويريه أن الدولة غنية عنه ، وان النصر يتم بدونه ، ففعل ما فعل حتى حان وقت الفداء فاقتداه .

موته

توفي سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٦ م) بعد خلاص أبي فراس بعام واحد ، وخلفه ولده أبو المعالي سعد الدولة ، وهو ابن أخت شاعرنا ، يعاونه على الأمر قنبر بن مولى أبيه . فخطر لأبي فراس أن يتغلب على حمص باستطاعها ، وهذا يؤيد ما زعمناه من مطامعه في الملك ، فقصد قرغويه بحرس إلى حمص ، فاستطهر عليه وقتله . وروى ابن خلكان عن ثابت بن سعيد السلمي ان جثته بقيت مطروحة في البرية إلى أن جاء بعض الأعراب فكفنه . وقد رثاه أبو اسحق الصابي بقصيدة أشار إليها الثعالبي ، ولم يذكر فيها شيئاً .

صفاته وأخلاقه

كان أبو فراس طويلًا بدينًا ، تبدو عليه دلائل القوة والبطش ، وقد وصف نفسه فقال :

متى تخلف الأيامُ مثلي لكم فتى ، طويلَ نِجادِ السيفِ ، رَحْبَ المقلدِ^١
وشاب وهو في العشرين :

وما زادتْ على العشرينَ سنِّي ، فما عذُرُ المشيبِ إلى عِذاري^٢؟
وأصابته طعنة في خدِّه فبقي أثرها :

ما أنسَ قولتْهُنَّ يومَ لقينني : أَرى السَّنانُ بوجهِ هذا البائسِ^٣
ووصفه الثعالبى فقال : « كان فرد دهره ، وشمس عصره ، أدبًا وفضلًا ،
وكرمًا ونبلًا ، ومجدًا وبلاغة وبراعة ، وفروسيَّة وشجاعة . » اه . .

وكان كفيده من أبناء الملوك يميل إلى اللهو والعبث والسماع ، ولكن حياته كانت سلسلة حروب وغزوات ، وأسر واعتقال ، فلم يتَّح له أن يتنعم بمخضر العيش ، ويرتوي بماء الشباب . فكان يفترص اللذات افتراضاً فإذا منحت له شرب وطرب ، ولها وعبث ، ودلف إلى بيوت الحمارين :

وقمُّنا نَسْحَبُ الرِّيطَ ، إلى حانة خَمَّارٍ^٤

ومَا في طَلَبِ اللُّهُوِ ، على الفِتيانِ ، مِن عارٍ

١ طويل نجاد السيف : كناية عن طول القامة . رحب المقلد : كناية عن سعة ما بين المنكبين .

٢ العذار : الشعر النابت على جانب الوجه المحاذي للأذن .

٣ قوله : ما أنس : مجزوم لأنه فعل الشرط وجوابه محذوف والتقدير لا أنس . أرى : حقّر .

٤ الريط : جمع ريطه وهي كل ثوب لين رقيق يشبه الملحفة .

وكان صبوراً لا يستخفّه الجزع ، ولا يوهى له جلد ، ولطالما أوصى بالصبر ، وافتخر به . وهو إلى ذلك حسن الدين ، عظيم الثقة بعناية الله . وكان يتشيع للعلويين .

آثاره

لأبي فراس ديوان جمعه ابن خالويه بعد موته ، وأورد له الثعالبى في بنية الدهر طائفة حسنة من مختاراته ، ولا سيما الروميات . وأفضل طبعات هذا الديوان ما أخرجه المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٤٥ بعناية سامي الدهان الذي تولى جمعه ونشره وتعليق حواشيه ووضع فهرسه .

ميزته

الشعر عند أبي فراس الهوّة يتلّهى بها ، وبلسم يداوي به كلومه ، وقبّطر يجمع فيه مفاخره . وقد أغناه الله عن السؤال بعزة الملك ، ونعيم الدولة ، فلم يصطنع المدح ولا الهجاء ، وإنما مدح قومه وعشيرته وهذا فخر لا مديح :

نَطَقْتُ بِفَضْلِي ، وَامْتَدَحْتُ عَشِيرَتِي ، فَمَا أَنَا مَدَّاحٌ وَلَا أَنَا شَاعِرٌ^١
ومدح بعض أصدقائه من آل ورقاء وسواهم ، وهذا من نوع الإخوانيات . فالمدح والهجاء لا حظ لهما في شعر أبي فراس ، وما القصيدة التي هجا بها العباسيين ، ومدح العلويين ، إلا من النوع السياسي ، اندفع إليه شاعرنا بعاطفة التشيع لعلّي وأبنائه .

ولم تكن حياته المضطربة لتسمح له بأن يفتن في وصف مشاهد الطبيعة ، وأسباب اللّهُ ، فلم يترك فيه شيئاً يستحق الذكر .

١ أراد بالشاعر المرتزق المكدي بمدحه وهجائه .

وكذلك الرثاء لم يكن له يد فيه ، فقد ماتت اخته فرثاها ، فلم يحسن رثاءها . وماتت أخت سيف الدولة ، فأراد أن يرثيها فكان رثاؤه مؤاساة لأخيها . ورثى ابن سيف الدولة فما تم له الاحسان . ومات سيف الدولة فلم يقل فيه شيئاً على ما بينهما من مودة وقربى . وما كان لأبي فراس أن يقصر في الرثاء ، وهو شاعر عاطفي ، والرثاء قوامه العاطفة ؛ ولعلّ تَعُودُهُ رَكُوبُ الْأَهْوَالِ والمخاطر جعله يستهين الموت فما يرتاع له ، ولا يرى فيه ما يبعث على الجزع ؛ فكان يستقبل مصائب الدهر في شيء من الانفة والاستكبار ، وحبس عاطفته فلم يطلق لها العنان في التفجع والارنان . وربما كان سكوته عن رثاء سيف الدولة مسبباً عما وقع بينها من جفاء من أجل الفداء .

ونظم في الحِكمَ فما تَأَتَتْ له البراعة ، لأن العاطفة إذا غلبت أضعفت قوة التفكير ، وإنما ترك بعض أبيات جرت مجرى الأمثال كقوله : « وفي اللبلة الظلمات يُفْتَقَدُ البدرُ . » وقوله : « وَمَنْ خَطَبَ الحسنة لم يَغْلُهَا المَهْرُ . »

وله في الإخوانيات شعر حسن وخصوصاً ما كان منه في تسلية صديق نabhة نأبة كالقوائد التي بعث بها إلى أبي العشار، وكان هذا أسيراً عند الروم . وأجمل شعره ما جاء في مفاخره وروميائه، ونحن نعتد عليها في دراسته ونلّم الماماً بغزله .

غزله

لأبي فراس غزل يأتي به مرة في صدور مفاخره وإخوانياته ، وأخرى مستقلاً في مقطّعات صغيرة . ويختلف عن غيره من متغزلي المولدين بأنّه لم يتعهر فيه ، وإن استخفّ في بعضه حيث يذكر مجالس لهوه . ولم يتذلل

لمن يحبه، فيدعوه بسيدته ، ومالك رقه ، أو يفرش خدّه تحت أقدامه ،
بل يغلب عليه الكبر والانفة . وإذا برّح به الوجد حبس دمه على عيون
الناس لئلا ينيّئوا فيه ضعفاً ، وأبى أن يبكي إلاّ محتجباً بقيص الليل .
ثم لا يغفل عن نعت دمه بصفات ترفعه من وهدة الذلّ ، فهو العصيّ ،
ومن خلّاقه الكبر .

وإذا رأى من حبيبه صدوداً استرضاه على شيء من الاعتداد بالنفس :

أَجْنِلي يا أمّ عمرو ، زادك الله جَمَالا

لا تليعنني برُخصٍ ، إنّ في مثلي يُغالى

وليس لشعره عروس اشهر بها ، وقصر نسيبه عليها ، فحيناً يذكر أمّ
عمرو ، وآخر عمرة ، وكثيراً ما يشبب بشخص لا يسمّيه . وألطف
غزليّاته ، وأشملها لميزته في هذا الفن ، قوله في صدر إحدى روميّاته :

أراك عَصِيّ الدمعِ ، شِمَتَكَ الصبرُ ، أمّا للهوى نهيّ عليك ولا أمرُ ؟

وقد تغلب الصنعة على غزله ولا سيما مقطعاته فإنه كان يزيّنها بالطف
التشاييه والاستعارات ، ويوشيه بأنواع البديع حتى يكاد يبعد بها عن الطبع .

مفاخره

لا يُستغرب الفخر من شاعر كأيّ فراس ، تخلّس بأشرف صفاته
ومعانيه : فمن فروسيّة وشجاعة ، وإباء وعفة ، إلى نسب رفيع وحسب
كريم ، إلى شاعرية جوّادة ، وبيان ساحر . فإذا افتخر أمعن في وصف
شجاعته وإقدامه ، وبلائه في الحروب ، وباهى الناس بأبائه وأعيامه
وجدوده ، وعدّد أيامهم وحروبهم ، ومدح سيف الدولة ، وذكر مناقبه ،

وفاخر به لأنه ابن عمه ومربيه . وله رائية طويلة تبلغ مائتي بيت وخمسة عشر بيتاً ، تكاد تشتمل على جميع خصائصه في الفخر ؛ أكثر فيها من ذكر الغزوات والوقائع . ولو عني بالوصف والتصوير ، كما عني بسرد الأخبار ، لتترك ملحمة من فرائد الشعر القصصي . ووصف المعارك والجيوش والعُدَد ضعيف في شعر أبي فراس على الأجمال ، فقد كان همه في تعداد انتصاراته ، والادلال بشجاعته وكرمه ، وعفته وحلمه .

وقلما ترى في مفاخره اعتداداً مستكراً ما كاعتداد أبي الطيب ، وخروجاً إلى الاحالة كخروجه ، وان وقعت على شيء من ذلك ساغته نفسك ، ولم تنفر منه ، لقربه من الطبع وبُعده من التكلف ، فتتمثل فيه أميراً معجباً بنفسه ، مزهواً بمناقب قومه ، يتكلم بعاطفته لا بعقله ، والشعر العاطفي محبب إلى القلوب كيفما جاء .

ويمتاز فخره في نفخته الملوكية ، وفخامة لفظه وشدة أسره ، ولكنه لا يخرج إلى الوحشي من الكلام .

روميّاته

ويراد بالروميّات القصائد التي قالها الشاعر وهو أسير في بلاد الروم ، فقد آلمه ان يتناساه ابن عمه ، ويهمل أمره ، ولا يذكر ما له من بيض الأيدي في دولته . وكان يزيد له ألماً ما يبلغه من الأخبار عن والدته الحزينة ، فلمّا لم ترفأ لها دمة طوال أسره . وقصدت من منبج إلى حلب تلتبس الفداء من سيف الدولة ، ثم عادت خائبة ، مكلومة الفؤاد ، مكسورة الحاطر ، وما ان علم الأسير بخبرها ، حتى قبضت على صدره غصة القهر ، فثار ثأره ، وفاضت مشاعره ، وبث أشجانه في مسامع بنات عاطفته .

والروميّات تشتمل على أجمل المزايا التي تحلى بها أبو فراس ، ففيها عزة

نفسه وإباؤه ، وجراته وشجاعته . وفيها حبه لوالدته ، وحنينه إلى صيته
 ووطنه . وفيها صبره وجلده وثقته المكيّنة بعناية الله . وفيها شكايته لسيف
 الدولة وعتبه عليه . فكأنها مذكرات ضمّنها ما كان يمر به وهو مأسور .
 وكان يتوقع من سيف الدولة أن يجعل اقتداه ، فلما استبطأه أرسل
 إليه يحثه على بذل الفداء :

دَعَوْتُكَ لِلجَفْنِ القَرِيعِ المُسَهَّدِ ، لَدَيَّ ، وَلِلنَّوْمِ القَلِيلِ المُشَرَّدِ
 وتأبى على أبي فراس نفسه الكبيرة أن يتذلل في طلب الفداء ، لما به
 من أنفة وعزة . فاما أن يطلبه لأنه يريد أن يموت قتيلاً لا مוסداً ، أو
 لأن ملك بني حمدان ليس به غنى عنه . واما أن يطلبه من أجل أمه العجوز :
 لولا العَجُوزُ بِسَبَبِجٍ ، مَا خِفْتُ أَسْبَابَ المَنِيَّةِ !
 ولكن لي عما سأل من الفداء نفس أبيّة

وخطر له أن يلتجئ إلى خراسان بعد أن أوجعه تباطؤ سيف الدولة
 عنه . فكتب إليه يقول : « مفادني ان تعذرت عليك ، فأذن لي في مكتابة
 أهل خراسان ومراسلتهم ليفادوني ، وينوبوا عنك في أمري . » فأثر ذلك
 في سيف الدولة ، وساءه أن يفزع ابن عمه إلى قوم أعجام غرباء ، فأرسل
 إليه يقول : « ومن يعرفك بخراسان ؟ » فألم أبا فراس أن ينسب إلى
 الحمول ، فقال من قصيدة يعاتب بها سيف الدولة :

فَلَا تَنْسِبَنَّ إِلَيَّ الحُمُولَ ، عَلَيْكَ أَقْسَمْتُ ، فَلَمْ أَغْتَرِبْ
 وَأَصْبَحْتُ مِنْكَ ، فَإِنْ كَانَ فَضْلٌ ، وَإِنْ كَانَ نَقْصٌ ، فَأَنْتَ السَّبَبُ
 وَإِنْ خُرَاسَانَ إِنْ أَنْكَرْتَ عَلَايَ ، فَقَدْ عَرَفْتَهَا حَلَبًا^١

١ يشير إلى مآتيه في خدمة صاحب حلب .

وهذا قول لا يصدر إلا عن نفس عزيزة ، لا تلين لها مخزوانة مهمـ .
تراخى بها الأمر ، وتألّبت عليها المصائب . وربما ناظر شاعرنا الدمستق ،
وفخر عليه ، ورماه بقوارص الكلام ، غير خاشٍ مغبة جبرائه ، ولا مبالٍ
على أي جنبه وقع الأمر . فمن قوله فيه وقد تناظرا في أمر الدين :
أما مِنْ أعجبِ الأشياءِ عِلْجٌ ، يُعرَفُنِي الحلالَ من الحرامِ .

وقال له الدمستق يوماً : « إنما أنتم كتّاب ولا تعرفون الحرب . »
فأحفظه ذلك من عدوه فردّ عليه : « نحن نطأ أرضك منذ سنين سنة ،
بالسيوف أم بالاقلام ؟ » وله شعر في ذلك .

ولشدّ ما كان حنينه إلى وطنه وأهله ، فقد جُمعت في صدره الشجاعة
والصبر ، والرفقة والحنو ، ولكلّ من هذه الصفات أثر بليغ في حياته ،
ولا سيما حياة أسره ، فينا تراه يعاتب ويهدد ويعظ ويؤنب ، إذا هو يلين
ويلطف فيبث صبابته ، ويشرح هواه ، ويناجي والدته وصبيته وخلّانه .
وقد تهيج به الذكرى ريح تهب شامية ، أو عيد يمر به ، أو حمامة تنوح
على شجرة ، فتفيض شجونته ، ويتسلى بالأشعار :

أقول ، وقد ناحَتْ بقُرْبِي حَمَامَةٌ : أيا جارِتا ! هل تشعُرِينَ بحالي ؟

وجملة القول ان أبا فراس تعدّب في الأسر كثيراً ، ولقي أشدّ العنف
والإرهاق ، ولكنه لم يخفض رأسه ، ولا أذلّ نفسه ، بل ظلّ شديد
العزيمة ، صليب العود ، بادي الشمم ، جريء القلب ، يجابه العدو في عقر
داره ، متدرباً بالصبر ، متوكلاً على رحمة الله .

ولا بدّ من القول ان لأسره يدآ على خلوده ، وعلى الأدب معاً . فلولاً
روميّاته لما كان له في سائر شعره ما يتمييز فيه من الشعراء العاديين . ولولاً

أسره وشقاؤه لما جرى طبعه بهذه القصائد الرائعة ، فجاء بها ذوب العاطفة المتألّمة ، وعصارة النفس الكليم ، فكتبت اسمه في سفر الخلود ، ومهرت الأدب نوعاً طريفاً من الشعر الوجداني .

ما أدرك عليه

أدرك على أبي فراس من السرقات كما أدرك على غيره ، ولكنه يعاب في ما سرقه عن أبي الطيب المتنبي ، مع كرهه له ، وتسريقه إياه ، كقوله :
راميات^١ بأْسْهُمْ ريشها الهد^٢ ب^٣ ، تشق^٤ الجلود بعد^٥ القلوب
وقد قال أبو الطيب :

راميات^١ بأْسْهُمْ ريشها الهد^٢ ب^٣ ، تشق^٤ القلوب قبل^٥ الجلود
وبما يدرك عليه أخذه باللغات الضعيفة كقوله :

وما أسفرت^٦ عن ريق^٧ الحُسْنِ إنما تَمَنَّيَ على ما تحتهن^٨ المعاجر^٩
فهذه لغة أكلوني البراغيث . وربما رفع خبر كان واخوانها ، وسكن الفعل المضارع حيث لا مسوغ للتسكين ، كقوله :
قد مَنَعْتُ الرقادَ عَيْنَ خَلِيٍّ^{١٠} بات^{١١} خالٍ مما يَجُنُّ^{١٢} ضيري^{١٣}
وقوله :

لست^{١٤} أَعْتَبُكَ ، والعتاب^{١٥} لروحي قاتِل^{١٦} ، والعذاب^{١٧} غير^{١٨} وَجِيب^{١٩}

١ المعاجر : جمع معجر وهو ثوب تمتجر به المرأة أي تشده على رأسها .

٢ يحن : يستر .

٣ وجيب : مردود ، من وجهه عنه : رده . وهو فاعيل بمعنى المفعول .

— منزله —

قال صاحب بن عبّاد : « بدىء الشعر بملك ، وختم بملك . » يعني امرأ القيس وأبا فراس . وقال الثعالبي : « وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة ، والسهولة والجزالة ، والعذوبة والفخامة ، والحلاوة والمتانة ، ومعه رواء الطبع ، وسمة الظرف ، وعزة الملك . ولم تجتمع هذه الجلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز . وأبو فراس يُعدّ أشعر منه عند أهل الصنعة ونقدة الكلام . » اهـ .

وقد حقّق لأبي فراس أن يستوي على الدرجة الرفيعة مع الشعراء ، ولكن الأدباء المتقدمين لم يلتفتوا إليه كل الالتفات لأسباب منها أن معاصرتهم لأبي الطيب أخفتت صوته ، كما أخفتت أصوات غيره من أصحاب الشعر ، إلا أن أبا فراس كان أظهر منهم لمكانته في دولته . ومنها أن المتقدمين كانوا يبنون مقاييس الفحولة على المدح والهجو ؛ فمن لم يُشهر بها لا يُعدّ في الفحول . ولم يكن بأبي فراس حاجة إلى هذين الفنين فلم يصطنعهما ، فانحدرت منزلته بعض الشيء ولم يعدّوه في الطبقة الأولى ، ولكنهم ختموا به الشعر ، وفضّلوه على ابن المعتز . وبين هذين الشاعرين شبه ، فكلاهما ملك قال الشعر متلهياً لا متكسباً ، ونظمه في الفخر والغزل والاخوانيات ، إلا أن حياة ابن المعتز كانت راحة ورخاء ، فأكثر من وصف الرياض والحداثق ، ومجالس اللهو ، وغدوات الصيد ، فغلبت الصنعة على شعره . وكانت حياة أبي فراس حرباً وأمرآ ، فأجاد الفخر والحماسة وأبدع في روميّاته ، وغلبت على شعره العاطفة ، لأنه لم يتكلفه تكلفاً وإنما جرى به طبعه الصحيح ، وهو في أشدّ حالات التأثر محارباً كان أو أسيراً . واستسلامه إلى العاطفة المطلقة جعل في خياله ضيقاً ، فلم ينفس له مجال

التصوير والتزيين ؛ فقد كان يصف حالته في الأسر كما يحسها ويشعر بها ، لا كما تجسها المخيلة وتوسّعها . وكان يصف الحروب ، ويذكر الوقائع دون أن يلجأ إلى الخيال لتلوينها وتعظيمها فعل المتنبى . فصوره الخيالية قصيرة الخطى ، قريبة المدى ، ولكنها لطيفة محببة .

وتمتاز لغته في حسن اختيار الألفاظ ، وجمال التعبير ، ففيها الجزالة وشدة الأسر في موضع الشدة ، وفيها الرقة والسهولة في موضع الخنو . وجدير بنا أن ننصف أبا فراس فنقول : إنه جيّد الشعر في حماسياته ، مبدع في روميائه ، شاعر العاطفة في كليهما . وهو الشاعر الملك ، والملك الفارس ، والفارس الأسير .

الكتاب المولدون

العصر الثالث

ميزة النثر . انشاء المترسلين .

ميزة النثر

تبدل النثر ميزة جديدة ظهرت في إنشاء المترسلين ووضعت لها القواعد والأصول ، وأقيمت الأهداف والحدود ، فكان منها أسلوب واضح المعالم ، يعتمد على الصناعة والتنميق . والترسل منذ نشوئه قائم على الصناعة والتزيين لأنه وليد المواطن الارستوقراطية المترفة . فقد كان أصحابه الأوائل ، إما وزراء وأمراء ، وإما متقربين إلى الوزراء والأمراء ، ومعظمهم من الموالي المستبحرين في الحضارة . فكان الزخرف والتنوق في العبارة من أنخص غاياتهم . ولا بدع فترف الألفاظ من اتباع ترف الحياة ولا سيما الترسل فإن أغراضه قليلة ، فإذا لم يُحسن فيه تصريف الكلام ، ضعف شأنه وانحطت منزلته . ولكنه كان في الأعصر الأولى غير بيتن التكلف لصحة طباع أهله ، ثم تداولته الأجيال ، فسارت به الصناعة في طريق الكمال بعامل النشوء والارتقاء . فما ان اكتمل العصر الثاني حتى بات المترسلون يلتزمون المحسنات اللفظية والمعنوية التزاماً ، ويتكلفونها تكلفاً .

وكأن الأقدار أبت إلا أن يظل الترسل في أيدي الأعجام يتعهدوه بأذواقهم حتى يبلغوا به أقصى حدود الفن والصناعة . وأتاحت له كاتبين

بليغين عبداً طريقه بما لهما من واسع السلطان ، وبراعة الإنشاء ، ألا وهما ابن العميد وزير ركن الدولة ، والصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة ففخر الدولة . فارتفع شأن الترسل بهما ، وتعشقه الكتّاب ، وجلّتهم عجم متقربون إلى الحضرة ، فاحتدوا مثالهما ، وساروا بالأسلوب الجديد إلى أعلى درجاته ، ونبع فيهم أمثال أبي بكر الخوارزمي ، وأبي إسحق الصابي ، وبديع الزمان الهمداني ، وأبي منصور الثعالبي وسواهم .

انشاء المترسلين

يتناول الترسل عدة أغراض متلونة ، فمنها الاخوانيات على اختلاف أبوابها . ومنها مقدمات الكتب . ومنها مناظرات الأدباء كمنظرة أبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني ، أو مناظرة المتنبي والحاتمي . ومنها المناظرات السياسية كمنظرات الشيعة والعباسيين ، والشعوبية والعرب . ومنها المقامات وسنفردها بحثاً خاصاً بها . وأمعن المترسلون في الوصف حتى جاوروا الشعراء في خيالهم ؛ فوصفوا القصور والحدائق والرياض ، والأزهار والبرك والحدائق والأنهار والبحار ، والسفن والزوارق ، والزينة والرياش ، والحلى ، وآلات الطرب ، والاطعمات والأشربات ، والأواني ، والفصول ، والليل والنهار ، والغيوم والمطر ، والرعود والبروق ، والصيد والوحوش والطيور ، والعواطف والشهوات . وتماجنوا في وصف الإماء والغلمان ، ومجالس اللذة والطرب .

وحلّوا إنشاءهم بأنواع المجاز والبديع ، فالتزموا التشابيه والاستعارات والكنائيات فما كادوا يعبرون عن معنى بحقيقة لفظه . والتزموا التزيين فجاءوا بالمسجوع قصير العبارات على الغالب ، مزدوجاً وغير مزدوج . وجاءوا بالطباق والجناس وسواهما من المحسنات ، فغلبت ميزة الشعر

المصنوع على نثرهم ، لا ينقصه غير البحور والأوزان .
 وشغفوا بالاقباس من القرآن والحديث والأمثال لفظاً ومعنى ، وتضمنين
 الملح والنوادر من التاريخ والعلوم ، والإشارة إلى الحوادث المشهورة ،
 والاستشهاد بالشعر ، فقد يخلونه نثراً ، أو يوردون البيت أو نصف البيت ،
 أو لفظة شاردة من بيت . وقد تمرّ بك فقر لا تقرّ منها جملة إلا رأيت
 بعدها بيتاً من الشعر ، كقول بديع الزمان الهمداني في رسالته إلى أبي بكر
 الخوارزمي :

أنا لقرب الأستاذ . أطال الله بقاءه : « كما طَربَ النَّشْثَانُ مَالَتْ
 به الخمرُ . » ومن الارتياح للقائه : « كما انتفض العصفور بِلَاءَه القطرُ . »
 ومن الامتزاج بولائه : « كما التقت الصهباءُ والبارِدُ العَذْبُ . » ومن
 الابتهاج بمرآه : « كما اهتزَّ تحتَ البَرحِ الغُصْنُ الرُّطْبُ . »
 وقول ابن العميد يصف شهر رمضان في رسالة إلى أبي العلاء السروري :
 كتابي ، جعلني الله تعالى فداك ، وأنا في كدٍّ وتعبٍ ، منذ فارقت
 شعبان ، وفي جهْدٍ ونَصَبٍ ، من شهر رمضان ، وفي العذاب الأدنى ،
 دون العذاب الأكبر ، من وقع الصوم ، ومُرَّتَهْنٌ بتضاعف :
 حَرُّوهُ لَوْ أَنَّ اللَّحْمَ يُصَلِّي بِيَعُضْهَا غَرِيضاً ، أَيْ أَصْحَابَهُ وَهُوَ مُنْضَجٌ^٢
 وَمُمتَحَنٌ^٣ بهوَاجِرَ يَسْكَادُ^٤ أَوَارُهَا^٣ يُذَيِّبُ دِمَاحَ الضَّبِّ^٤ . و :

١ البَرح : الريح الحارة في الصيف .

٢ الحرور : الريح الحارة بالليل ، وحر الشمس ، والحر الدائم . يصل : يشوى .
 غريضاً : طرياً .

٣ أوارها : حرها .

٤ الضب : دويبة على حد فرخ التماسح ، وذنبه كثير المقد كذنبه ، وله صبر عجيب على
 حرارة الشمس .

« يُغَادِرُ الْوَحْشَ قَدْ مَالَتْ هَوَادِيهَا » .

وآثروا الإطناب ، وكرهوا الإيجاز وعابوه ، فأفضى بهم ذلك إلى الاكثار من المترادفات ، وإلى معاقبة الجمل على المعنى الواحد كما رأيت في المثالين المتقدمين ، فأصبح اللفظ غاية لهذا الأسلوب .

وكان من تأثير المواطن الارستوقراطية التي نشأ فيها الأسلوب الجديد ان أصحابه أسرفوا في منح الألقاب ، كسيدي الأستاذ ، وسيدي الشيخ ، وما شاكل . وأكثروا من الأدعية ، فتركوا لمن جاء بعدهم رواسم لفظية تداولتها الأجيال حتى ابتذلت وصارت من سقط المتاع .

وتسرّب هذا الأسلوب في لغة المصنفين ، فاستعملوه في كتبهم فيعمل الثعالي في يتيمة الدهر . ولكنه لم يشع عندهم ، فقد تحاماه سوادهم أمثال أبي الفرج في أغانيه ، والقاضي الجرجاني في وساطته ، والآمدي في موازنته ، وابن رشيق في عمدته ، وانتحلوا مذهب الجاحظ وسواه من الكتّاب المطبوعين .

ونحن نجتزئ هنا بدرس آثار بديع الزمان ففيها غنى لمن يريد الاطلاع على أسلوب المترسلين .

١ الوحش : اي الحمر الوحشية . هواديها : رؤوسها ، مفردا هادية . اي تميل الوحوش رؤوسها الى الاسفل لتسترها من حرارة الشمس .

بديع الزمان

٩٦٧ ؟ - ١٠٠٧ م و ٣٥٧ ؟ - ٣٩٨ هـ

حياته : نشأته وأسفاره . مناظرته لأبي بكر . زواجه وموته .
صفاته وأخلاقه : ذكاؤه . استاذوه وعلومه . آثاره :
ديوان شعر . مجموعة رسائل ومجموعة مقامات .
ميزته : رسائله . أغراضها . سخره وتهكمه وتصويره . مقاماته :
التعريف بالمقامات . مخترع المقامات . تحليل مقامات بديع
الزمان . المقامة المضيرية . المقامة البشرية : اصطنتت شاعراً
لتاريخ الادب . انشاؤه . منزلته .

حياته

هو أحمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان ، وكنيته أبو الفضل ،
ولد بهمسدان^١ وبها نشأ ، وإليها انتسب . ثم فارقها سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م)
وهو في ميلة الصبي ، وربيع الشباب . ووفد على الصاحب بن عباد في
الرّي فحظي عنده . ثم قدم جرجان ، فدخل فيها الإسماعيلية ، وتعمّش
في أكتافهم . ثم قصد إلى نيسابور فوافها سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م) فأملئ
فيها مقاماته ، وناظر أبا بكر الخوارزمي .

مناظرته مع أبي بكر

لا نعلم من أمر هذه المناظرة إلا ما أملاه بديع الزمان عنها ، فإن
مؤرخي الآداب لم يذكروا من أخبارها غير ما أورده الثعالبي في يتيمة
١ همدان : مدينة شمالي فارس .

الدهر . وهو لا يتكاد يتعدى الإشارة . بأوجز عبارة . ولا يزيد على الإخبار
 بوقوعها . وانقسام الناس بين المتساجلين . وهبوب ريح الهمداني لتصديه
 لشيخ راسخ القدم . صليب العود كالحوارزمي . وهو لم يزل غص الحداثة ،
 مقتبل الشباب . ولكن البديع فصلها في إحدى رسائله تفصيلاً وافياً ،
 وذكر جميع ما جرى فيها من منافسات . ومباهيات ، ومشاتمة .
 وخلاصتها : ان أبا الفضل دخل نيسابور صفر الكف ، رث الهيئة ، لأن
 اللصوص دهموه ورفاقه . وهم في بعض الطريق ، فابتزوا ما معهم من
 دراهم وثياب . وكان أبو بكر في نيسابور . فزاره البديع فلم يلقَ لديه
 وفادة حسنة . وإنما لقي صلفاً وتكلفاً لرد السلام . فعاد من عنده ، وكتب
 إليه يعاتبه . فرد عليه يستنكر عتابه ، وينكر ألا يكون وفاء حقه ، ونسبه
 إلى العربدة فسكت البديع . وانقطع عن ذكر أبي بكر . ومضى على ذلك
 شهر فجعل الحوارزمي يعرض ببديع الزمان . ثم لا يكتفي بالتعريض
 حتى يعلن : « وجعلت عواصفه تهب . وعقاربُه تدب . » وطلب
 أن يُجمع بينه وبين الهمداني . وعرف البديع فكتب إليه يعرض عليه
 المناظرة . فاجتمعا مرتين بمشهد من القضاة والفقهاء والأشراف وغيرهم
 من سائر الناس . وتقارعا ، فقرعه البديع بالمهاترة والتحقير والمشاتمة ،
 ونفسه بالمبادهة والحفظ ، والشعر ، والترسل ، واللغة والعروض ،
 والسجع . وخرج البديع رافع الرأس . وأبو بكر منكساً : « ولما خرجتُ
 لم يلقوني إلا بالشفاه تقبيلاً ، وبالأفواه تبجيلاً . وانتظروا خروجه إلى أن
 غابت الشمس ، ولم يظهر أبو بكر حتى حصّر الليل بجنوده ، وخلع الظلامُ
 عليه فروته . »

فنتيجة المناظرة على رواية الهمداني نصر مُبين له ، وخذلان مهين

للخوارزمي . غير اننا لا يسعنا أن نطمئن كل الاطمئنان إلى روايته وهو أحد الخصمين . وليس لنا مستند سواها يشفع لها وبزكيها . فهي أشبه برواية الحاتمي لمناظرته مع المتبي . ومن تدبرها بروية وأناة رأى فيها من صلف البديع واعتداده بنفسه ، وتحامله على أبي بكر ما يجرح حقيقتها ، ويلقي الشبهات عليها . فإنه جعله ينخزل في جميع العلوم التي ناظره فيها ، ولم يتركه مرة يبلغ شأوه في باب من الأبواب ، حتى في الترسل واللغة والسجع ، مع أن أبا بكر طويل الباع في هذه الفنون . ولم يرو له من الشعر إلا كل غث ساقط . وبلغ من تجهيله إياه أن جعله لا يعرف أن للشاعر أن يصرف ما لا ينصرف ، وهذا لا يكاد يحمله صبيان الكتائب .

ولم يقتصر على تحقيره وإخزائه ، بل حقر شهوده وأخزاهم . وربما م بأقبح الأوصاف : « رجالٌ يلعنُ بعضهم بعضاً ، فصاروا إلى قلب المجلس وصدرة ، حتى رُدَّ كيدُهم في نحرهم ، وأقيموا بالنعال إلى صف النعال . » مع أنه أفاض النعوت الحسنة على من كانوا له شهوداً وأنصاراً .

وإننا ، وإن كنا نكبر عبقرية أبي الفضل ، ونؤثره على أبي بكر ، لا نرى بدءاً من الشك في روايته . فغير معقول أن ينهزم حصمه على هذه الصورة الفاضحة ويصلد زنده في جميع الفنون ، لا تقتدح ناره ، ولا يهب شراره ، وهو أحد شيوخ العلم ، وأئمة الأدب . ومناظره فتى في أول عمره .

وقد رأينا أن الثعالبي لم يذكر في بتمته أن البديع قهر أبا بكر ، وإنما ذكر انقسام الناس بينهما ، وأن هذه المناظرة كانت سبباً لنباهة الهمداني . ولا غرو في ذلك ، فإن تصدي فتى رطب لشيخ يابس العود . ومقارعة له يمشهد من العلماء ، لا بد له أن يطير بشهرته ، ويجعل اسمه على الأفواه .

وغير عجيب أن ينقسم الناس بينه وبين خصمه ، فهذا دأبهم في كل مناظرة .
وأن يكثر أنصاره ، وله من ظرف الصبي وجماله خير شفيح .
ولبت الخصام ناشباً بينهما بعد المناظرة ، فكان أبو بكر يتتبع مقامات
البديع ويطعن عليها ، والبديع يتتبع شعر الخوارزمي ويعيبه ، حتى قُبِضَ
أبو بكر ، فخلا الجوَّ للهمذاني لا ينافسه فيه منافس ، ودرّت عليه اخلاف
الرزق ، فحسنت أحواله ، وخفض عيشه .

زواجه وموته

وعلقت نفسه بالأسفار فجاب خراسان ، وسجستان ، وغزنة ،
فحظي فيها جميعاً ، ولم يبقَ ملك أو أمير أو وزير أو رئيس إلاّ خصه
برغائب النعم . ثمّ ألقى عصاه بهراً^١ وأصهر فيها إلى أحد أشرافها أبي
علي الحسين بن محمد الحشنامي . فانتظمت أحواله بصهره^٢ ، وقرّت به
عينه ، واشتدّ ظهره ، واقتنى بسعوته ومشورته ضياعاً فاخرة ، وعاش
عيشة راضية حتى تصرف فيه أيدي المنون . قيل مات مسموماً ، وقيل
بل عرض له داء السكتة فعجل دفنه وهو حي ، فأفاق في قبره ، وسمع
صوته بالليل ، فنُبِش عنه فوجد قابضاً على لحيته من هول القبر . وشدة
الذعر ، وقد مات . وكانت سنه أربت على الأربعين .

صفاته وأخلاقه

وصفه صاحب اليتيمة قال : « كان مقبول الصورة ، خفيف الروح ،
حسن العشرة ، ناصع الظرف ، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم

١ هراة : بلد من خراسان .

٢ بصهره : أي بختته والد امرأته .

العهد ، خالص المودة ، حلو الصداقة ، مرّ العداوة . « اه . وكان على نشأة
الفارسية يؤثر الانتماء إلى العرب ، فيقول في إحدى رسائله : « إني عبد
الشيخ ، واسمي أحمد ، وهَمَذَان المولِد ، وتغلب المورِد ، ومضر
المحتد . » ويطعن على الشعوية ، ويفضل العرب على العجم ، ولا يبالي .
فمن ذلك قوله يرد على شاعر شعوبي هجا العرب وافتخر عليهم :

تُرِيدُ عَلَى مَكَارِمِنَا دَلِيلًا ، مَتَى احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ ؟
أَلَسْنَا الضَّارِبِينَ جِزَى عَلَيْكُمْ ، وَإِنَّ الْجِزْيَ أَوَّلَى بِالذَّلِيلِ ١
مَتَى قَرَعَ الْمَنَابِرَ فَارِسِيٌّ ، مَتَى عَرَفَ الْأَغَرَ مِنَ الْحُجُولِ ٢ ؟
مَتَى عَلِقْتَ ، وَأَنْتَ بِهَا زَعِيمٌ ، أَكُفُّ الْفُرْسَ أَعْرَافَ الْحُيُولِ ٣ ؟
فَأَجِدُ مِنْ أَيْبِكَ ، إِذَا انْتَسَبْنَا ، عُرَاةً كَاللَّيْثِ ، وَكَالْشُّوْلِ ٤

وكان إلى ذلك حسن العقيدة الدينية ، يتشيع للعلويين ويمدحهم . ولعله
اتخذ مذهب الإسماعيلية الباطنية لكثرة مداخلته لهم .

١ الجزى والجزى : جمع جزية ، وهي ما يؤخذ من خراج الأرض ، ومن أهل الذمة .
٢ قرع المنابر : أي قرعها بصوته أو بمصاه وهو يخطب عليها . الأغر : الجواد في جبينه
غرة . الحجول : جمع حجل وهو البياض في قوائم الفرس . والمراد ذي الحجول ،
فحذف للشعر . أو المراد الحجول بمعنى اسم الفاعل ، أي الفرس المحجل . ولكن المشهور
الحجيل فيقال فرس حجيل لا فرس حجول . ومعنى البيت انه ليس في الفرس خطيب
ولا فارس .

٣ علقت : علمت . زعيم : كفيل ومدع . الاعراف : جمع عرف وهو شعر عنق الفرس .
وقوله : انت بها زعيم ، أي انت تزعم فروسية العجم ، أو تكفل بها أي تضمها .
ينكر عليهم الفروسية كما انكرها في البيت السابق .
٤ عرأة : أي اعراب عرأة .

ذَكَاءُهُ

اشتهر البديع في ذكائه ، وقوة حافظته ، وسرعة خاطره . قال الثعالبي :
 « كان يُنشّد القصيدة التي لم يسمعها قط ، وهي أكثر من خمسين بيتاً ،
 فيحفظها كلها ، ويؤديها من أولها إلى آخرها ، لا يخرم منها حرفاً ،
 ولا يخلّ معنى . وينظر في الأربع والخمس الأوراق من كتاب لم يعرفه ،
 ولم يره ، نظرة واحدة خفيفة ، ثمّ يهذّها عن ظهر قلبه ، ويسردها سرداً ،
 وهذه حاله في الكتب الواردة وغيرها . وكان يُقترح عليه عمل قصيدة ،
 أو إنشاء رسالة في معنى بديع ، وباب غريب ، فيفرغ منها في الوقت
 والساعة والجواب عنها فيها . وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ
 بآخر سطر منه ثمّ هلمّ جرّاً إلى الأوّل ، ويخرجه كأحسن شيء وأملحه .
 ويوشح القصيدة الفريدة من قوله ، بالرسالة الشريفة من إنشائه ، فيقرأ
 من النظم النثر ، ويروي من النثر النظم . ويُعطى القوافي الكثيرة ، فيصل
 بها الأبيات الرشيقة . ويُقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر ،
 فيرتجله في أسرع من الطرف ، على ريق لا يبلعه ونفس لا يقطعه . وكلامه
 كله عفو الساعة ، وفيض اليد . وكان يترجم ما يُقترح عليه من الأبيات
 الفارسية ، المشتملة على المعاني الغريبة ، بالأبيات العربية ، فيجمع فيها بين
 الابداع والاسراع ، إلى عجائب كثيرة لا تُحصى ، ولطائف تطول ان
 تستقصى . » اهـ .

أُستأذوه وعلومه

لم نعرف من أستاذي بديع الزمان غير اثنين أولهما ابن فارس صاحب
 المجمل ، فقد درس عليه وهو في همدان ، فأخذ عنه اللغة وآدابها . والآخر

١ يهذها : يسرع في قراءتها .

الصاحب بن عباد فإنه اتصل به بعد أن ترك همدان ، وتلمذ له في صناعة الترس ، وأفاد منه أدباً جمّاً . وكان لمداخلته الإسماعيلية أثر بليغ في تثقيفه ، فاقتبس شيئاً كثيراً من آرائهم ومعارفهم .

وكان يعرف لغة الفرس وآدابهم . ونستدلّ من رسائله ومقاماته على براعته في علم الكلام ، واطلاعه على مذاهب أصحاب البدع وآرائهم الفلسفية ، ومعرفته علم المنطق ، وأحوال البلدان ، وطبائع أهلها ؛ ممّا يجعل منه أديباً عالي الثقافة . مكتمل الآلة في زمانه .

آثاره

لبديع الزمان ديوان طبع في مصر ، وشعره مختلف المذهب ، فأنّما يجري مع الطبع ويخلو من التكلف ، كقصيدته التي ردّها على الشاعر الشعبي . وأنّما تظهر عليه الصنعة وتكثر فيه المحسنات اللفظية والمعنوية كسائر شعر عصره .

وله في النثر مجموعة رسائل نشرتها المطبعة الكاثوليكية في بيروت . وشرح غريبها الشيخ إبراهيم الأحذب الطرابلسي . ومجموعة مقامات فيها اثنتان وخمسون مقامة ، تولى شرحها الشيخ محمد عبده المصري ، ونشرتها المطبعة الكاثوليكية في بيروت ، إلا المقامة الشامية فقد تُركت لما فيها ممّا ينافي الأدب ، وكذلك أغفلت بعض جمل وألفاظ من مقامات أخرى . ويستفاد من رسائل البديع وأقوال المؤرخين أن أصل المقامات أربع مائة ، فعُثبت بها أيدي الدهر ، فما أبقت إلا على أقلها .

ميزته

لا تقوم ميزة البديع على شعره ، فإنه وإن يكن له فيه أشياء حسنة ، فإنّاره في النثر أبلغ وأسمى ، وبها طار ذكره ، وخلد على كرور الليالي .

فعلى هذه الآثار من رسائل ومقامات نعتمد في كلامنا عليه لنجلو تلك الميزة التي بواته أعلى درجات الأدب .

رسائله

تتوزع رسائل البديع على أغراض مختلفة كالسؤال والشكوى والعتاب ، والاعتذار ، والاسترضاء ، والمدح والتهنئة . ويعرض في أكثرها لشؤونه الخاصة ، فمن ظلامة يبسطها ، وشكاية يرفعها ، وحاجة يشرحها . وله على خصوصه حملات منكرات ، فيصورهم تصويراً دقيقاً ملوّه السخر والنكاية ، ويطعن عليهم في غير رفيق ولا هوادة ، فما يذكر لهم صفة إلا قبّحها ، وشيعة إلا ردّها . وتحفل رسائله بالآيات والأمثال ، والإشارات التاريخية ، والاستشهادات الشرعية . ويستهلها على الغالب بالبسملة فالحمدلة ، ويدخل عليها الدعاء . وهي في أكثرها قصيرة بليغة الأداء ، وإذا طالت في أحوال مخصوصة ، لا تفرط في الطول .

وكان يكاتب الأمراء والوزراء والقضاة والشيخ وغيرهم . ومن أبلغ رسائله ما كتبه إلى أبي العباس الاسفرائيني وزير الأمير محمود بن سبكتكين^١ بعد فتح بهاضية من بلاد الهند . فقد استهل رسالته بذكر ما للأمير من الفتوح العظيمة في مختلف الأمصار ، وما له من جهاد في سبيل الله والإسلام . ثم فرغ إلى التنويه بفتح الهند ، فدخل إليه مدخلاً حسناً بقوله : « وسنذكر من حديث الهند وبلادها . » وراح يصف طبيعة

١ محمود بن سبكتكين أعظم سلاطين الدولة الغزنوية . امتدت سلطته على أفغانستان وتركستان وغرسان وطبرستان ، وسجستان ، وكشمير ، وشمال الهند . وملك من سنة ٣٨٨ - ٤٢١ هـ (١٠٣٠ - ١٠٣٠ م) . وملوك الدولة الغزنوية آراك ، ينتسبون إلى غزنة قاعدة ملكهم . وكانت حياة دولتهم من سنة ٣٥١ - ٥٨٢ هـ (٩٦٢ - ١١٨٦ م) .

البلاد ، حرّها وقرّها ، وعقباتها وأنهارها ، حتى إذا بالغ في التصوير والتهويل انتقل انتقالاً حسن الاتساق ، فقال : « حتى إذا خُرقت هذه الحُجُب خُلِص إلى عدّد . . . » وطفق يطنب في ذكر عدد سكانها . ويصف شدة بأسهم ، وغلاظة أكبادهم ، وتأبّد أخلاقهم وعاداتهم . فما ان انتهى من أوصافه حتى ظهرت الهند في مناعة الشمس ، وإذا به يوجز فيقول : « زحم الأميرُ السیدُ ، أدام الله ظله ، هذه الأهوال بمنكبه . » وكأنه اطمأن إلى نجاحه في تعظيم الفتح . فلم يذكر شيئاً عن الحرب ، ولا عن جيوش الأمير الغازي ، بل اقتصر على أن جعل الفضل للأمير بعون الله ، وذكر الغنائم التي غنمها في عودته .

مقاماته – التعريف بالمقامات

المقامات^١ أقاصيص خيالية مختلفة الأغراض والموضوعات . فمنها الأدبية ، ومنها العلمية . ومنها الدينية ، ومنها الاجتماعية ، أو الخلقية ، ومنها المجونية . وفيها سخر شديد ، ونقد لاذع . وفيها ضروب من التخابث والاحتيال ، للتكسب والتعيش . وفيها صور متلوّنة لطبائع المجتمع وعاداته .

ومدار المقامات على بطل متبدل الألوان ، كثير الاحتيال ، فيه شر كبير ، وفيه خير كبير . فهو دين منافق ، صادق كاذب ، متزهّد ماجن ، واعظ مخادع ، كل شيء وضده . وهو إلى ذلك واسع العلم والأدب ، شاعر خطيب ، متكلم راوية ، تجده في كل مقامة ، وكلما خلت مقامة منه ، ويتولى الحديث عنه راوية خيالي مثله ، يفاجئه في كل مقامة ،

١ المقامة : هي موضع القيام ، والمقصود موضع قيام الحادثة ، أو الموضوع الذي تقوم عليه

ويفضح أسرارها ، وينقل أخبارها .

والفن القصصي ضعيف في المقامات لقصرها ، ثم لأن القصة ليست غاية فيها بل واسطة لإظهار شخصية بطلها في مختلف أحواله . ولقد تمر مقامات غثة باردة لا قيمة فيها للقصة البتة .

وتمتاز المقامات في جمال لغتها ، وكثرة غريبها ، واعتمادها على المجاز أكثر من الحقيقة ، واصطبغها بالصنعة أكثر من الطبع . فهي ملتزمة السجعات ، أنيقة العبارات ، حافلة بالمحسنات المعنوية واللفظية . فيها الأمثال والأشعار ، والآيات والأحاديث ، فكل مقامة قطعة أدبية ، لغتها لغة الشعر على الأكثر لا لغة النثر .

مخترع المقامات

وبدع الزمان أول من جاءنا عنه فن المقامات ، فله فضل المتقدم ، وإن زعم بعضهم انه أخذه عن أستاذه ابن فارس ، فليس في آثار أستاذه ما يرجح هذا الزعم فضلاً عن تأكيده . ولا يحط من قدر البديع قول الحصري في زهر الآداب انه ترسم ابن دريد في أحاديثه الأربعين . لأن أحاديث ابن دريد ، نوادر ولطائف لم يستقل بها دون غيره ، فللجاحظ مثلها في البخلاء والحيوان ، وكذلك لابن قتيبة في عيون الأخبار ، ولابن عبد ربه في العقد الفريد . وهو في هذه الأحاديث يتوخى إظهار فصاحة الأعراب ، والإشادة بفضائلهم ، وليست المقامات كذلك . ويروي أحاديثه عن عدة رواة معروفين ، وللمقامات راوية خيالي واحد . وفي الأحاديث أبطال مختلفة ، وللمقامات بطل واحد .

وإذا جاز أن يجعل الحديث نواة للمقامة فمن باب التشابه القصصي ، فالمقامة حكاية فنية راقية وضعت للخاصة . وأما الحديث فنادرة يتلوه بها

العامة والخاصة معاً . وكيف دار الأمر فالمقامات غير الأحاديث الدرديدية ،
ولا فضل في اختراعها إلا لبديع الزمان .

تحليل مقامات البديع

لهذه المقامات رواية خيالي يُعرف بعيسى بن هشام ، رجل أخو سفر ،
لا يستقرّ به مكان ، وربما اتخذ صفة التجار ، أو صفة المكذّين . ولها بطل
يُعرف بأبي الفتح الإسكندري ، يظهر في أكثرها ، وينقل أخباره عيسى
ابن هشام . وأبو الفتح هذا رجل خيالي أيضاً : « من الثغور الأموية ،
والبلاد الإسكندرية^١ . » صاحب خبث وحيل ، يصطنع جميع المهن التي
يحترفها الناس ، من أجل الكدّية وابتزاز المال . وقلما خلت مقامة من
الكدية والاحتيال . وتراه مرّة شيخاً جليلاً وقف في الناس واعظاً ينصح
ويحذّر ، ومرّة قرّاداً يسلي الناس ويضحكهم ، وأخرى مشعوذاً يدّعي
صنع المعجزات خديعة للقوم الساذجين . فيدرّ عليه الرزق ، وينتفع بشعوذته
وخداعه ، فهو أشحد الناس ، وأبرعهم تسالاً . وهو إلى ذلك أخطبهم
وأشعرهم ، وأعرفهم بعلوم عصره . وقد اختلفت أغراض مقاماته وتنوّعت
أبوابها ، فمنها الأدبية كالمقامة الجاحظية ، والمقامة القريضية ، وفيها رواية
وشر ونقد . ومنها الدينية والخلقية والاجتماعية ، فمن شيخ يتظاهر بالتقوى
والتنسك ليعطف عليه الناس ، ويعطوه . ومتسوّل يطوف ومعه طفل فصيح
يسترقّ القلوب . وتاجر حديث النعمة ، معجب بنفسه ، كثير الكلام ،
يُضجر مستمعيه . ومجنون عاقل متبحر في علم الكلام ، يرد على أحد
شيوخ الاعتزال . وغير ذلك ممّا يقع بين الناس في مصاحبتهم ومخالفاتهم .

١ الاسكندرية : ثغر من ثغور الاندلس .

وحوادث هذه المقامات تقع على الغالب في الأمصار المتحضرة ، وقلما غني البديع بالكلام على أهل البادية، كما في مقاماته الغيلانية، والأسدية ، والبشرية، والفزارية، والأسودية . وهي ، في أكثرها ، قصيرة ضعيفة الفن القصصي ، تكاد تكون غثة باردة ، لولا حسن الصياغة ، وبراعة التصرف في ضروب الكلام . وأما ما طال منها فإنه جميل مونتق كالمقامة المضييرية والبشرية والأسدية وسواها .

ورواية بديع الزمان وبطله لا ينحصران في زمان محدود ، فإن عيسى ابن هشام يحدثك في المقامة الغيلانية عن الفرزدق وذو الرمة كأنه معاصر لهما . ثم يحدثك في المقامة الحمدانية عن سيف الدولة بن حمدان . ويحدثك عن خلف بن أحمد ، وكان والياً على سجستان معاصراً للهمداني . وقد نخصه البديع ببعض مقاماته ، وأشاد فيها بذكره واطراه .

ونحن نجتزئ بتحليل مقامتين من مقاماته ، إحداهما المضييرية ، وفيها تظهر براعة البديع في الوصف ودقة التصوير، على شيء كثير من السخر وخفة الروح . والآخرى البشرية ، وهي التي وفق بها صاحبنا لاختراع شاعر جاهلي تبتأه التاريخ من بعده ، ألا وهو بيشر بن عوانة العبدي .

المقامة المضييرية^١

يستهل البديع هذه المقامة كما يستهل غيرها بإسناد الحديث إلى روايته : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالبصرة ، ومعى أبو الفتح الإسكندري رجل الفصاحة يدعوها فتُجيبه ، والبلاغة يأمرها فتُطيعه ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقدمت إلينا مضيرة . » وبعد أن وصف المضيرة ،

١ المضييرية : نسبة إلى المضيرة وهي لحم يطبخ بالبن المضير أي الحامض .

وَقَصَعْتُهَا ، وَشَغَفَ الْمَدْعُوبِينَ بِهَا ، قَالَ : « قَامَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَنْدَرِيُّ بِأَعْمَارِهَا ، وَصَاحِبَتِهَا . وَبِمَقْمُتِهَا ، وَآكَلَهَا . . . وَرَفَعْنَاهَا فَارْتَفَعَتْ مَعَهَا الْقُلُوبُ ، وَسَافَرَتْ خَلْفَهَا الْعَيُونُ ، وَتَحَلَّبَتْ لَهَا الْأَفْوَاهُ ، وَتَلَمَّظَتْ لَهَا الشِّفَاهُ . » وَسُئِلَ أَبُو الْفَتْحِ عَنْ أَمْرِهَا ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ دَعَاهُ بَعْضُ التَّاجِرِ فِي بَغْدَادَ إِلَى الْمُضِيرَةِ . فَصَارَ مَعَهُ إِلَى بَيْتِهِ ، وَطَفِقَ التَّاجِرُ وَهُوَ فِي الطَّرِيقِ ، يَصِفُ زَوْجَتَهُ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ هَذَا الْمَشْهَدُ بِقَوْلِ أَبِي الْفَتْحِ : « وَصَدَعَنِي بِصِمَاتِ زَوْجَتِهِ . حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى مَحَلَّتِهِ . » فَشَرَعَ التَّاجِرُ يَصِفُ الْمَحَلَّةَ ، وَعَظْمَةَ دُورِهَا . وَجَعَلَ دَارَهُ مِنْهَا كَالْجَوْهَرَةِ الْوَسْطَى مِنَ الْعَقْدِ . وَانْتَهَى إِلَى بَابِ الدَّارِ . فَوَقَفَ يَصِفُ طَافِتِهَا . فَبَابَهَا . فَحَلَقَةُ الْبَابِ . وَدَخَلَ الْدِهْلِيزَ ، فَجَازَ التَّاجِرُ بِالْدَّعَاءِ . « عَمَّرَكَ اللَّهُ يَا دَارُ . وَلَا خَرَبَتْكَ يَا جِدَارُ . » وَشَرَعَ يَقْصُصُ عَلَى أَبِي الْفَتْحِ ، كَيْفَ امْتَلَكَ الدَّارَ . وَمِمَّنْ اشْتَرَاهَا . ثُمَّ اسْتَطْرَدَ إِلَى ذِكْرِ حَظِّهِ الْحَسَنِ ، فَذَكَرَ خَيْرَ عَقْدٍ مِنَ الْأَوَّلِ اشْتَرَاهُ بِشَمْنِ بَخْسٍ . حَتَّى إِذَا انْتَهَى عَادَ إِلَى دَارِهِ . فَزَوَّى حَادِثَةً حَصِيرَ اشْتَرَاهُ بِالْمَادَاةِ . وَبَعَثَ صَانِعَهُ . وَنَصَحَ لِأَبِي الْفَتْحِ أَنْ يَشْتَرِيَ الْحُصْرَ مِنْ عِنْدِهِ . ثُمَّ عَادَ إِلَى حَدِيثِ الْمُضِيرَةِ ، فَطَلَبَ مِنَ الْغَلَامِ الطُّسْتَ وَالْمَاءَ . فَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ : « إِنَّهُ أَكْبَرُ . رَبِّمَا قُرْبَ الْفَرَجِ ، وَسَهْلَ الْمَخْرَجِ ! » وَمَا أَنْ أَقْبَلَ الْغَلَامَ حَتَّى شَرَعَ التَّاجِرُ يَعْضُ أَوْصَافَهُ ، وَيَقْصُ كَيْفَ اشْتَرَاهُ . وَتَنَاولَ الطُّسْتَ ، فَأَمْعَنَ فِي وَصْفِهِ . ثُمَّ وَصَفَ الْإِبْرِيْقَ ، فَلَمَّا ، فَالْمَسْدِيلَ ، وَدَعَا بِالْخَوَانِ فَجَاءَ بِهِ الْغَلَامُ ، فَرَاحَ بِقَلْبِهِ ، وَيَنْقَرُهُ بِالْبَنَانِ . وَيَعْجَمُهُ بِالْأَسْنَانِ ، وَيَقْصُ قِصَّتَهُ ، وَيَنْعَتُهُ أَحْسَنَ النُّعُوتِ . فَجَاشَتْ نَفْسُ أَبِي الْفَتْحِ ، وَقَدْ تَحَقَّقَ لَهُ أَنَّ التَّاجِرَ سَيَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ يَعْضُ عَلَى الْخَوَانِ ،

١ تَلَمَّظَ : أَخْرَجَ لِسَانَهُ وَمَسَحَ بِهِ شَفَتَيْهِ

ويذكر كيف اشتراه ، ومن أين اشتراه ، ومن صنعه . فحاول الانصراف
تخلصاً ، فظنه التاجر يريد الخروج في حاجة نفسه ، فانبرى يصف له
الكنيف وحسنه ، إلى أن قال : « يتمنى الضيف أن يأكل فيه . » قال أبو
الفتح : « فقلت : كل أنت من هذا الحراب ، لم يكن الكنيف في الحساب .
وخرجت نحو الباب ، وأسرت في الذهاب . وجعلت أعدو ، وهو يتبعني ،
ويصيح : يا أبا الفتح ! المضيرة ! وظن الصبيان أن المضيرة لقَّب لي ،
فصاحوا صياحه . فرميت أحدهم بحجر ، من فرط الضجر . فلقي رجل
الحجر بعمامته ، فغاص في هامته . فأخذت من النعال بما قدّم وحدت ،
ومن الصّفع بما طاب وخبث . وحشّرت إلى الحبس ، فأقمت عامتين
في ذلك النحس . فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت . »

فهذه المقامة من أبدع ما صنع الهمداني ، ففيها جمال القصص ،
وروعة الفن ، ودقة الوصف ، وحسن الانتقال ، واتساق الأفكار . وفيها
السخر والفكاهة والنكتة . ولو وُفق البديع في جميع مقاماته توفيقه فيها ،
لبلغ في هذه الصنعة غاية الغايات .

المقامة البشرية

تمتاز هذه المقامة عن سائر أخواتها من مقامات بديع الزمان في أنها
اصطنعت شاعراً لم تعرفه القرون الحالية ، وزفتته إلى تاريخ الآداب ،
فاحتفل به المؤرخون ، وأعظموا شأنه ، ولم يجدوا مشقة في تحديد عصره ،
فجعلوا وفاته في أواخر القرن السادس للمسيح . وهذا الشاعر هو بشر بن
عَوانة العبدي صاحب القصيدة الشهيرة التي أولها :

أَفَاطِمَ لَوْ شَهِدْتَ بَيْطَنَ خَبْتٍ ، وَقَدْ لَاقَى الْمِزْبَرُ أَحْكَامَ بَيْشَرٍ^١

١ الخبت : اسم موضع والمطمئن من الرمل . والمزبر : الأسد .

والقصيدة وصاحبها من صنع الهمداني ، ولا غرابة في ذلك ، فإن
 البديع لم يكن في مقاماته مؤرخاً ولا راوية . وإنسا هو كاتب متفنن ،
 وقاصّ خيالي . ولم يدع يوماً صحة مقاماته بل كان بالضد يفاخر في
 اختراعه لها ، كما في رسالته إلى أبي بكر الخوارزمي حيث يقول : « فيعلم
 أن من أمل من مقامات الكُدُية أربع مائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين
 لا لفظاً ولا معنى ، وهو لا يقدر منها على عشر ، حقيقى بكشف
 عيوبه . » اهـ . على أن الغريب أن ينخدع بها جماعة من جلّة الأدباء
 والمؤرخين ، فيجعلوا المقامة البشرية قصة حقيقية ، وقصيدة الأسد شعراً
 جاهلياً ، وبشر بن عَوانة بشراً سيّاً . مع أنهم لو راجعوا المظانّ
 الأدبية والتاريخية التي صُنّفت قبل المقامات لما وجدوا كتاباً واحداً يذكر
 بشراً ، أو يشير إلى قصصاته في الأسد . فقد رجعنا إلى أمّهات الكتب القديمة ،
 فلم نسمع لبشر خبراً . فلا الضمّيّ ذكره في مفضليّاته . ولا ابن سلام في
 طبقاته . ولا ابن قتيبة في الشعر والشعراء ، وعيون الأخبار . ولا أبو تمام
 والبحري في حماسيتهما . ولا إلحاحظ في البيان والتبيين ، والحيوان .
 ولا ابن عبد ربه في العقد الفريد . ولا المبرّد في كامله . ولا الطّبري في
 تاريخه . ولا الأصفهاني في أغانيه . ولا المرزباني في الموشح . ولا ابن النديم
 في الفهرست . ولا المسعودي في مروجّه . ولا القالي في أماليه . ونظرنا في
 بعض الكتب الركينة التي تأخر زمن أصحابها عن زمن صاحب المقامات ،
 فلم نرها تذكر بشراً في جملة الشعراء ، أو تضيف إليه قصيدة الأسد .
 ومن هذه الكتب العمدة لابن رشيق ، وزهر الآداب للحصري ، ومعجم
 الأدباء لياقوت ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات لابن
 شاكر الكتبي .

ولعل ضياء الدين بن الأثير ، صاحب المثل السائر ، أوّل من ضل
فأثبت بشراً ، وأضلّ غيره من الأدباء والمؤرخين . فإنه لما عمد إلى الموازنة
بين المتنبي والبحري في قصيدتيهما اللتين وصفا بهما الأسد قال : « أما
البحري فإنه ألمّ بطرف مما ذكر بشر بن عوانة في أبياته الرائية التي أولها :
أفاطيمَ لو شَهِدَتِ بِيَطْنِ خَبَتِ ، وَقَدْ لاقَى الهِزْبُ أُنْخَالَكَ بِبَشَرَا

وهذه الأبيات من النسب العالي الذي لم يأت أحد بمثله . وكل الشعراء
لم تسم قرائحهم إلى استخراج معنى ليس بمذكور فيها . « اه . وقال في
مكان آخر : « ولفطانة أبي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحري من الانسحاب
على ذيل بشر لأنه قصر عنه تقصيراً كثيراً . « اه .

فابن الأثير يزعم أن البحري قد تعلق في بائيته التي وصف بها الأسد
بمعاني بشر بن عوانة ، توهماً منه أن بشراً شاعر جاهلي قديم . ولعلّه
استكثر قصيدة الأسد على بديع الزمان ، وهو من طبيعته لا ينظر إلى حسنات
غيره إلا في شيء من الصلف والتعنت ، وخصوصاً إذا كانوا من أهل
زمانه ، فضنّ بها أن لا تكون لشاعر في الجاهلية ، فأثبت بشراً غير
متحرّج ، وتعمى عن حقيقة فن المقامات ، فجاء بعده من تعلق بأذياه ،
وأدخل بشراً في صلب التاريخ .

ولم يقل أحد قبل صاحب المثل السائر ان البحري سرق عن غيره في
قصيدته التي ذكر بها الأسد ، مع أن الآمدي في موازنته بين الطائيين أورد
كل ما أدرك من السرقات على البحري ، وما كان له أن يغفل عن قصيدة
بشر لو كان بشر معروفاً عنده ، لأن فيها أبياتاً لها أشباه في قصيدة البحري ،
مثال ذلك قول بشر :

إِذَا لَرَأَيْتَ لَيْثًا رَامَ لَيْثًا ، هِزْبَرًا أَغْلَبًا لَاقَى هِزْبَرًا

وقد قال البحرى :

هِزْبَرًا مَشَى يَبْغِي هِزْبَرًا ، وَأَغْلَبًا مِنْ الْقَوْمِ يَغْشَى بِاسِلَ الْوَجْهِ أَغْلَبًا

وكذلك القاضي الجرجاني وهو كالآمدي ممن تقدم زمانهم زمن البديع ، فإنه ذكر في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، قصيدة أبي الطيب في وصف الأسد ، وقال : « ولولا أبيات البحرى في هذا المعنى ، لعددت هذه من أفراد أبي الطيب ، لكن البحرى قال يصف قتل الفتح بن خاقان أسداً عرض له ، فاستوفى المعنى ، وأجاد في الصفة ، ووصل إلى المراد . وأما أبو زبيد فإنما وصف خلق الأسد وزثيره ، وجراته وإقدامه . وكأنما هو مرعوب أو محذر ، والفضل له على كل حال . لكن هذا غرض لم يرُمنه ومذهب لم يسلكه . » اهـ .

فالجرجاني لم يجعل المتنبي منفرداً في وصف الأسد لأن البحرى سبقه إلى ذلك وأجاد . ولكنه جعل الفضل لأبي زبيد الطائي^٢ لأنه سابق^١ إلى هذا الغرض ، وإن يكن سلك إليه مذهباً يختلف عن مذهب أبي عباد وأبي الطيب . ولو عرف القاضي بشر بن عوانة لذكره مع أبي زبيد ، والفرصة أسنح ما يكون لذكره . ولا سيما أن مذهب بشر في وصف الأسد أشبه شيء بمذهب البحرى والمتنبي .

وفي رسائل بديع الزمان أبيات من وصف الأسد استشهد بها صاحبها من غير أن يعزوها إلى بشر مما يدل على أن البديع لم يخطر في باله يوماً أن يجعل من مقاماته قصصاً تاريخية ، ولا من بشر بن عوانة شاعراً حقيقياً .

١ الاغلب : من صفات الاسد . والغليظ الرقبة . الباسل : الكريه .

٢ أبو زبيد الطائي : شاعر نصراني مخضرم ، شهر بوصف الاسد شعراً ونثراً .

تحليل المقامة البشرية

لم يتعمد البديع الصنعة في هذه المقامة ، ولا التزم السجع والتزيين . بل تركها تجري مع الطبع ، فبَعُدَ بها شيئاً عن إنشاء المقامات . فكأنه ، وهو يتحدث عن شاعر في الجاهلية ، أبى إلا أن يجعل كلامه ملائماً لعصر شاعره . وهذا من بعض حسناته ، إلا أنه لم يتأت له أن يبعد بقصته عن الإغراب ، فهي على لطفها ، وفكاهتها ، وحسن سياقها ، فيها أشياء كثيرة لا يطمئن إليها العقل ، ولا يسلم بها المنطق . ولو لم تتخذ هذه المقامة تاريخاً لحياة شاعر حقيقي لما عُنينا بنقد ما فيها من الإغراب ، لأنه مستملح في قصص خيالية كالمقامات .

لا يظهر في هذه المقامة أبو الفتح الإسكندري ، إلا أن عيسى بن هشام يرويها وهو من عرفت . وأولها : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كان بشر بن عوانة العبدى صعلوكاً ، فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة ، فتزوج بها ، وقال : « ما رأيت كالיום ! » اه . فأنشدته السبيبة أبياتاً وصفت بها جارية حسناء . قال بشر : « ويحك من عنييت ؟ » فقالت : « بنت عمك فاطمة . » فقال : « أهى من الحسن بحيث وصفت ؟ » قالت : « وأزيد وأكثر ! » فترى أن بشراً لم يعرف أن له بنت عم حسناء إلا من امرأة غريبة سبها في إحدى غاراته . فلما عرف ذلك ملّ جانبها وطلّقها : « ثم أرسل إلى عمه يخطب ابنته ، ومنعه العم أمنيته ، فألى ألا يرعى على أحد منهم إن لم يزوجه ابنته . ثم كثرت مضراته فيهم ، واتصلت معراته^١ إليهم . فاجتمع رجال الحي إلى عمه ، وقالوا : « كف

١ لا يرعى على أحد : لا يبقى .

٢ معراته : أذيته ، واحداثها مرة .

عنا مجنونك . » فقال : « لا تلبسوني عاراً ، وأمهلونني حتى أهلكه ببعض الحَيْسَل . » فقالوا له : « أنت وذاك . » ثمّ قال له عمه : « إني آليت أن لا أزوّج ابنتي هذه إلّا ممّن يسوق إليها ألف ناقة مهراً ، ولا أرضاها إلّا من نوق خزاعة . » وغرض العم كان أن يسلك بشر الطريق بينه وبين خزاعة . فيفترسه الأسد ، لأن العرب كانت قد تحامت عن ذلك الطريق ، وكان فيه أسد يسمى داداً ، وحية تدعى شجاعاً .

ثمّ إن بشراً سلك ذلك الطريق ، فما نصّفه حتى لقي الأسد وقمص مهره^١ ، فنزل وعقره^٢ . ثمّ اخترط سيفه إلى الأسد ، واعترضه ، وقطّعه^٣ . ثمّ كتب بدم الأسد على قميصه إلى ابنة عمه : « أفاطمَ لو شهدت... » اهـ . وهذه القصيدة شهيرة متداولة وُفّق فيها بديع الزمان كل التوفيق ، فقد ضمّنها دقة الوصف ، وجمال التصوير ، وأفرغها في قالب شائق ، متخيّر الألفاظ ، منسجم التعابير . ولكنها على طبعيّتها ، وجزالتها ، تنتهى سلاسة ورقة ووضوحاً ، فتجعلك تشك في جاهليتها ، لأن الشعر الجاهلي مهما سهل ولان ، لا يخلو من خشونة البداوة وغموض بعض التراكيب ، ولا سيما شعر قيل في وصف الوحوش والإبل والقفار . فإن عاطفة الجاهلي تتصلب في مثل هذه الحالات ، فتصلّب معها ألفاظه . وبوسعك أن تلمس أية قصيدة جاهلية شئت ، فترى اختلافاً بيناً في لغتها ، إذا اجتمع من أغراضها الغزل ، والاستعطاف ، أو الرثاء إلى وصف الوحوش والإبل والقفار . ومعلوم أن بشراً من صعاليك العرب ، وهؤلاء

١ قمص المهر : رفع يديه وطرحهما ، وصحن برجليه من الفرع .

٢ عقره : قطع قوائم .

٣ قطه : قطعه مرضاً .

يعيشون في البراري المقفرة ، ولا يخالطون غير الوحوش ، فيصبحون من الخشونة على جانب عظيم ، وتخشوشن معهم لغتهم . ولنا في شعر الشنفرى ، وتأبط شراً أمثلة صادقة للغة أولئك الصعاليك . أما قصيدة بشر فحضرية أكثر منها بدوية ، وليس ورود بعض الغريب فيها بدليل على جاهليتها ، وهو قليل تافه لا تأثير له ، لتشتته في أثناء اللفظ المأنوس .

وغير عزيز على بديع الزمان أن يأتي بمثل هذه القصيدة على جلالتها ، فإن له في شعره الذي يجري به طبعه ما يشبهها ، كقصيدته التي ردت بها على الشاعر الشعبي ، ودافع عن العرب . وليس لنا اعتراض على ما فيها من وصف وتصوير لأنهما ميزة ألهمذاني في رسائله ومقاماته . على أنها تعجب لبشر وهو الصعلوك الجاهلي ، كيف عرف الكتابة ، فكتب قصيدته بدم الأسد على قميصه ، في حين أن وجوه قبائل البدو كانوا أميين يومئذ ، وندر وجود الكتاب فيهم . أفما كان ينبغي للمدرسة التي خرجت بشر بن عوانة أن لا تضمن بعلمها على زملائه السليك ، والشنفرى ، وتأبط شراً ؟ وأرسل بشر القميص إلى ابنة عمه لتقرأ القصيدة ، ولا نعلم من كان رسوله إليها ، لأن صاحب المقامات لم يذكره ولا ذكره من أرتخ بشراً بعده . غير أننا نعلم أن بشراً ذهب يطلب النوق منفرداً ، وسلك طريقة تحامت عنه العرب .

ولكن وصلت القصيدة إلى ابنة عمه . وقرأها عمه . ففاضت عاطفته فجأة ، واحتل حب بشر قلبه على حين غرة ، وندم على ما فعل ، وخشي أن تغتاله الحية . فجذت في أثره ، مخاطراً بنفسه . « وبلغه وقد ملكته سيرة الحية » . « وإدراكه إياه على هذه الصورة يجعل القصة أشد تأثيراً في

١ سورة الحية : سطوتها وحدتها .

النفس . « فلما رأى عمه أخذته حمية الجاهلية ، فجعل يده في فم الحية ، وحكم سيفه فيها . »

وكان ختام هذه القصة أطروفة في غاية اللطف والفكاهة ، بيّنة الاغراب والاصطناع : « فلما رجع جعل بشر يملأ فمه فخراً حتى طلع أمرد كشق القمر على فرسه ؛ مدججاً في سلاحه . فقال بشر : « يا عمّ إني أسمع حسنّ صيد . » وخرج فإذا بغلام على قيد^١ . فقال : « ثكلتك أمّك يا بشر ! أن قتلت دودة وبهيمة تملأ ماضغيك^٢ فخراً . أنت في أمان إن سلّمت عمّك . » فبارزه بشر ، فقهره الغلام ولو شاء لقتله . ثمّ قال : « يا بشر سلّم عمّك واذهب في أمان . » قال : « نعم ، ولكن بشرطة أن تقول لي من أنت ؟ » فقال : « أنا ابنك ! » فقال : « يا سبحة الله ! ما قارنت عقيلة قط ، فأنتى هذه المنحة ؟ » فقال : « أنا ابن المرأة التي دلتك على ابنة عمك . » فقال بشر :

« تِلْكَ الْعَصَا مِنْ هَذِهِ الْعُصْبَةِ هَلْ تَلِدُ الْحَيَّةُ إِلَّا الْحَيَّةَ ؟^٣ »

وحلف لا ركب حصاناً ولا تزوّج حصاناً ، ثمّ زوج ابنة عمه لابنه . « أفليس عجيباً أن يكبر ولده من المرأة التي سبها ، وهو لم يزل يسعى في صداق ابنة عمه ، ثمّ يكون لهذا الولد الأمرد من البأس ما يمكنه من قهر أبيه ، حتى إذا عرفه بشر تخلى له عن فاطمة ابنة عمه ، وأزوجه إياها ، فكانت من نصيب ابنه لا من نصيبه . »

١ القيد : المقدار . والمراد على قيد رمح أو ميل أي مقدار طوله .

٢ ماضغيك : أصول اللحيين من الفم .

٣ العصا : فرس بلزيمة الأبرش والعصبة امها . والبيت مصنوع من مثلين ، أي ان الولد تابع لأصله .

فهذه هي المقامة البشرية التي خُدع بها جماعة من الأدباء والمؤرخين ، وكان ابن الأثير أول المخدوعين على تنطسه وكثرة دعاويه .

انشاؤه

يمتاز إنشاء البديع في لغة أنيقة التعبير ، فيها رصانة البدو ، ورقة الحضر ، تلازمها الصنعة . دون أن تفسد طبع صاحبها . فالهمداني له باع طويل في تخير ألفاظه وتحسينها ، يعتمد السجع فيرده في جمل قصيرة الفواصل ، أو طوالتها . وربما تعددت فواصله متواطئة على حرف واحد ، فيوتر عندئذ تقصير الحمل ويقطعها تقطيعاً .

وإذا تخلّى عن السجع ، لا يتخلّى عن المجاز والتزيين ، فإن رسائله ومقاماته حافلة بالتشابه والاستعارات والكنائيات وأنواع البديع المعنوي، واللفظي ، ولا سيما الطباق والتشكك والجناس . وقلما تقع على لفظ يعبر عن حقيقة معناه . وقد تمر بك استعارات وكنائيات تدل على معنى واحد . وتقلب الحمل على المعنى كثير في إنشاء البديع ، وهو من لزوميات الصنعة لما فيه من افتنان في التعبير وتنوّق في إبلاغ المعنى . ومن ذلك قوله في مقامة : « ورفناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلبت لها الأفواه . وتلمظت لها الشفاه ؛ واتقدت لها الأكباد ، ومضى في إثرها الفؤاد . »

ويكثر من الاستشهاد بالأشعار سواء كان من مقوله أو منقوله . ويستشهد بجملة أبيات أو بيت ، وربما أدمج نصف بيت في أثناء كلامه . ويُبغّي بحل المنظوم فيجعله نثراً ، ويورد الأمثال ، والتلميحات ، ولا سيما التاريخية ، كقوله من مقامة : « وتشهد لمعاوية ، رحمه الله ، بالإمامة^١ . »

١ يقول: لو كانت هذه المصيرة من طعام معاوية، ودعا الناس لا كلها لاشترأهم بها ، وشهدوا له بحقه بالخلافة .

وإنشأؤه على الجملة مجموعة صور مختلفة التلاوين ، وهو للشعر أقرب منه للنثر . وكأنه في وشيه وترف ألفاظه خُلِقَ ليربى ويترعرع في قصور الطبقة الأرستقراطية من أهل البيان . وليس في هذا الوشي على صنعة الظاهرة ، ما يقرع الأسماع ، وتجفو عنه الطباع ، فإن ما ينضاف إليه من روعة الإنشاء ، وصحة الطبع ، يجعله سهل البلاغ ، طيب المساغ .

منزله

قال الثعالبي : « هو بديع الزمان ، ومعجزة همذان ، ونادرة القلك ، وبكر عطار ، وفرد الدهر ، وغرة العصر . » اهـ .
وفي هذه النعوت ما يدل على شدة إعجاب صاحب البتيمة به . ولم ينفرد بهذا الإعجاب أبو منصور وحده ، بل شاركه فيه جمهرة المتأدين في عصره ، وبعد عصره . وحسب البديع منزلة أن ينتظم له حزب يلف لِفَه وهو ما برح فتي غض الشباب : فقد علمت كيف انشق الناس شطرين بعد مناظرته لأبي بكر ، وكان الشطر الأعظم بجانبه ، يشد أزره ، ويفضله على خصمه . وقد استحق صاحبنا هذه المنزلة ، بذكائه النادر ، وسرعة مخاطره ، واستبحاره في اللغة وآدابها ، وبلاغة إنشائه وحسن مائه وروائه ، وطول باعه في الوصف والتصوير ، ودقة نظره في مراقبة الأشياء ، وبراعته في التوليد والابتكار . وهو خير مصور للحياة في لذتها وألمها ، ولأخلاق الناس ولا سيما المحتالون الذين يتوسلون بمختلف الحيل لابتزاز الأموال ، وأول من ابتكر فن المقامات ، فترسمه فيه أخلافه ، فنحتوا من صخره ، واغترفوا من بحره . وكفاه فخراً أنه خلق لتاريخ الآداب شاعراً خُذِعَ به صنيابة الأدباء ، فرووا شعره ، وأثبتوا خبره ، وظل حديث المجالس ، وحلقات الطلب زهاء عشرة قرون . وبديع الزمان أحد زعماء الأسلوب المنمق ، وأبعدهم صيتاً ، وأوسعهم شهرة ، وأنبههم ذكراً .

القصص

القصص . سيرة عنترة . الف ليلة وليلة . منزلة القصص .

بدأ التّصصّ عند العرب بدأه عند سائر الشعوب ، أسماراً ونوادير وأحاديث ، يقطّعون بها ليالي الشتاء ، وأيام الفراغ . والعرب كغيرهم من الأمم يروقهّم التحدث بأخبار أسلافهم ، والاشادة بمناقبهم ، فقادهم ذلك إلى المبالغة في رواياتهم حتى بلغوا بها حدّ الاغراب والتخريف ، فأصبحت أسمارهم ونواديرهم أقاصيص تلبس فيها الحقيقة بالخيال .

وتضاعفت عناية الناس بالقصص في صدر الإسلام بعد أن جبار العرب ديناً جامعاً ، ودولة منظمة ، وشعباً مجموعاً . واشتمل ذلك العصر على حياة لهو ومجون ، وحياة حرب وجهاد ، فكان القاصّون يعمرّون مجالس اللهو ، ويسمرون بنوادر العشاق والمثيمين . ويقصدون أماكن الفتن ، ومزاحف البعوث ، ويضرمون الحماسة في صدور الرجال بأخبار فرسان العرب وأيامهم المشهورة .

وظفت هذه الأقاصيص ترداداً إغراباً وبهرجةً بمرور الأيام والسنين ، وتتابع القاصين عليها ، وتفاوتهم بنصب الخيال وحب التزيين ، ورغبتهم في استهواء السامعين وإثارة عواطفهم حتى أصبحت خرافات في أكثرها ليس لها من الحقيقة إلا أثر بعد عين .

ولم يُشرع في تدوين القصص إلا في صدر الدولة العباسية ، وأوّل من أخذ بأهداب هذا الفن عبد الله بن المقفع في كتابه كلیلة ودمنة . وفعل فعله

سهل بن هارون في كتابه ثعلة وعفرة ، وعلي بن داود كاتب زبيدة .
ولما ضعف سلطان العباسيين ، وتولى الأتراك عنهم شؤون الدولة ،
انصرف أولئك إلى اللهو والسمر ، فكان القاصون يخرفونهم بالحكايات
والنوادير ، فشاع تصنيف القصص ونقلها ، ولا سيما أيام المقتدر . وما
جاء العصر الثالث حتى كان منها طائفة حسنة ذكرها ابن النديم في
الفهرست ، وفيها قصص عربية الأصل كأخبار العشاق في الجاهلية
والإسلام ، أمثال عروة وعفراء ، ومجنون ليلي ، وعمر بن أبي ربيعة ،
وجميل بثينة . وأخبار الحباب المتظرفات كقصّة هند ابنة النعمان . وأخبار
عشاق الانس للجن ، وعشاق الجن للانس . وأخبار البطالين كقصّة أبي
عمر الأعرج . وأخبار المغفلين كنوادير جمحا . وفيها قصص عجمية الأصل
نقلت عن الفارسية ككتاب هزار افسان ، ومعناه ألف خرافة ، وكتاب
دارا والصنم الذهب . وأشهر هذه القصص وأكبرها اثنتان . إحداهما
عربية النجار وهي سيرة عنتره العبي ، والأخرى فارسية وهي حكايات
ألف ليلة وليلة .

سيرة عنتره

سيرة عنتره كغيرها من القصص ، تداولها ألسنة القاصين زمناً قبل
تدوينها ، وتصرفوا فيها كما شاؤوا وشاء لهم خيالهم من زيادة أو نقصان .
ونرى أنها لم تدوّن دفعة واحدة على ما هي عليه اليوم بل مرّت بها أزمنة
طويلة ، والكتّاب يتواطأون على تصنيفها ، فيغيّرون فيها ، ويضيفون
إليها . حتى وصلت إلينا ضعيفة التأليف ، مختلفة اللغة والشعر ، فيها الحسن
الجيد ، وفيها القبيح الرديء .

وأما الذين تولوا تصنيفها فأشخاص مجهولون إلا اثنين أحدهما يوسف

ابن إسماعيل قيل انه جمعها للعزیز بالله الخليفة الفاطمي ليشغل بها الناس عن ريبة وقعت في قصر الخلافة ، فجعلوا يلهجون بها . وقيل بل جمعت لتستثير الحماسة في صدر الشعب المترف المتخاذل . والآخر ابن الصائغ الجَنَزَرِي من رجال القرن السادس للهجرة (القرن الثاني عشر للمسيح) . وأما نسبتها إلى الأصمعي فلا يبعد أن يكون لها بعض الصحة من قبل رواية حوادثها التاريخية ، وشعرها الثابت ، لا من قبل جمعها وتصنيفها . وهذه القصة أبدع القصص الحماسية ، واجمع ما يكون لمكارم الأخلاق . وفيها تصوير لا بأسَ به للأشخاص .

الف ليلة وليلة

هي حكايات متتابعة ، مأخوذة من أصل فارسي في كتاب اسمه هزار افسان ، ومعناه ألف خرافة ، ولا يُعرف مصنف هذا الكتاب ، ولا ناقله إلى العربية . قال فيه صاحب الفهرست : « ويحتوي على ألف ليلة ، وعلى دون المائتي سمر ، لأن السمر ربما حُدِّث به في عدة ليالٍ ، وقد رأيتُه بتمامه دفعات . وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث . » فمن هذا القول نعلم أن أصل ألف ليلة لم يكن بذی خطر ، ولكن أدباء العرب رفعوا قدره بما أدخلوا عليه من التحسين ، وعفّوا على أصله الفارسي بما بدلوا فيه ، وزادوا عليه .

وليس هذا الكتاب عمل رجل واحد أو عصر واحد ، وإنما شأنه شأن سيرة عنترة ، فقد ظل العرب يشتغلون بتصنيفه حتى أواسط عصر الانحطاط ، فلذلك نجد فيه أخباراً عن الممالك ، وشعراً لشعراء متأخرين . وتمتاز ألف ليلة وليلة في غرائب حوادثها ، وخيالها العجيب ، وفيها

١ العزيز بالله بن المعز بالله . خلافته من سنة ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ و ٩٧٥ - ٩٩٦ م .

أدب كثير ومجون كثير ، وفيها سخط على الظلم والارهاق ، وتمثيل
لحياة المسلمين وحكايتهم في العصور الحالية .

منزلة القصص

ومما يجدر ذكره أن أكثر القصص التي ألفها العرب قصيرة . واما ما
طال منها فينقصه التحام الأفكار ووحدة الموضوع ، فسيرة عذرة مثلاً
وهي أكبر القصص العربية ، لا تجد في أجزائها ارتباطاً محكماً إذ بوسعك أن
تسقط من أخبارها جانباً عظيماً دون أن تحدث خللاً فيها . ويرجع ذلك على
أن حوادثها غير متينة الالتحام في اثتلافها وتسلسلها ، واتجاهها إلى الفكرة
العامة ، وأن نتائجها لا تتعلق بمقدماتها تعلقاً كلياً كما هي الحال في
القصص الغربية الراقية ، فيتعذر الاستغناء عن شيء منها . ولا تنتهم مخيلة
العربي من أجل هذا النقص ، فإن من يقرأ عذرة وألف ليلة وليلة يقع على
خيال قوي في انطلاقه ، مدهش في صوره وألوانه . غير أن صاحبه
مترجرج السير ، قصير النفس ، كثير الانتقال ، مختلط التفكير ، فارغ
الصبر ، لا يرسم خطة إلا ضاق بها ذرعاً ، ونكص عنها قبل أن يستتمها ،
ومضى يتفرّج منها بسواها . لذلك أثر القصة القصيرة على الطويلة ، وإذا
أطالها سرد الحوادث المختلفة دون أن يعنى بوحدةها وربط أجزائها ،
فجاءت قصته ضعيفة الفن ، غثة الأسلوب ، باردة التأليف . ولا ريب
أن تواطؤ الكتاب على القصة الواحدة في عصر متفاوتة اللغة والخيال
والتفكير ، كان له أثر سيء فيها ، إذ أنه زادها اضطراباً ، وأوسعها فساداً ،
فلهذه الأسباب لم تأت قصة راقية الفن عن العرب وإنما جاءت حكايات
ومقامات ونوادر وأحاديث .

العلوم

العلوم : النحو . المعاجم اللغوية الكبيرة . علم الفهرست . الطبيعيات
والرياضيات . الفلسفة الإسلامية . التاريخ والجغرافية .

بلغ التفكير الإسلامي حده الأقصى ، ونضجت العلوم ، وصُنفت
الكتب في مختلف الفنون والأغراض فكتب ابن جنيّ أبحاثاً فلسفية في
أصول النحو ، واشتقاقات اللغة . وأحكام حروف الهجاء وما يصيبها من
إعلال وقلب وإبدال . ووصعت المعاجم اللغوية الكبيرة كتهذيب اللغة
للأزهري ، والمحيط للصاحب بن عباد . والمجمل لابن فارس ، والصحاح
للجوهرية . وظهر علم الفهرست في كتاب ابن النديم .

ونضت العلوم الطبيعية والرياضية ، فقد أدخل ابن الهيثم البصري
أساليب جديدة على الحر والحساب . وطابق بين أحكام الهندسة والمنطق .
وتقدم الطب وكثر أصحابه . وشاعت الصيدلة . واخترعت الأدوية ،
وأصبحت الكيمياء علماً ثابتاً . ودخلت عليها المركبات المستحدثة كماء
الفضة ، وروح النشادر . والسليمانى ، وملح البارود ، والبوتاس ، وغير
ذلك . وألفت الكتب النفيسة في علم النجوم ، وترقى الاستطرلاب .
وشرع العلماء يرحلون لمراقبة الخسوف والكسوف .

وازدهرت الفلسفة الإسلامية ، واستقلت عن الفلسفة اليونانية بميزة
توفيقية خاصة ؛ ونبع الفلاسفة الكبار ، كان سينا وإخوان الصفاء .
وكثرت التواريخ الخصوصية بتكاثر الدولات ، ولكن فن التاريخ
لم يتقدم لأن المؤرخين لبثوا يسردون الأخبار عارية من النقد والتمحيص .

وأما الجغرافية فكانت مختلطة بالتاريخ غير منفصلة عنه ، وقد زادت مادتها
بفضل الرحلات ، فأضيف إليها جهات جديدة ، منها في أواسط افريقية ،
ومنها في داخل آسيّة ، ومنها جزر في المحيط الهندي ، وشاع رسم الخرائط .
وكان المسعودي أشهر من اشتغل بالتاريخ والجغرافية ، وعانى الأسفار
الطوال بسببهما ، ومن آثاره فيهما كتابه الموسوم بمروج الذهب .

•

الادب والادباء

اتسق فن الأدب ، واستقلّ بذاته ، ورغب الأدباء في نقد الشعر على طريقتهم ، فصنّفت الكتب في تعداد سقطات الشعراء ، ومناظرتهم ، كما فعل الصاحب بن عباد ، والحاتمي مع أبي الطيب . وفي الموازنة بينهم ، يعلّ الآمدي في موازنته بين الطائيين ، وإظهاره حسنات كل منهما وسيئاته . وفي الوساطة بين شاعر ونقاده ، كما فعل القاضي الجرجاني في وساطته بين المتنبي وخصومه . وأصبح للشعر نُظُمٌ محدودة ، وأبواب معروفة ، ومناهج مقررة بعد أن صنف ابن رشيق القيرواني كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده ، وأكمل ما بدأ به ابن المعتز وقُدّامة بن جعفر .

وشاع تمحيص الروايات والأخبار ، في المجاميع الأدبية ، وأشهرها الأغاني لأبي الفرج ، وبيتمة الدهر للثعالبي ، وزهر الآداب للحصّري . ونجّزىء هنا بالكلام على أبي الفرج لأن كتابه أشهر المجاميع ، وأكبرها ، وأجزّلها نفعا .

أبو الفرج الأصبهاني

٨٩٧ - ٩٦٦ م و ٢٨٤ - ٣٥٦ هـ

حياته : نسبه . نشأته . صفاته . اخلاقه . آثاره : شعره . كتبه الادبية والتاريخية . الاغاني .
ميزته : الاغاني : جمعه وتأليفه . الاصوات المائة المختارة . اغراضه : تاريخ وأدب . انشاؤه . منزلته .

حياته

هو علي بن الحسين الأموي القرشي ، تتصل عصبية بمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وكنيته أبو الفرج . ولد بأصبهان ، وإليها انتسب ، ونشأ ببغداد ، وبها تخرج على طبقة رفيعة من العلماء والرواة كابن دريد ، والأخفش الأصغر ، والأنباري ، والطبري ، وابن المَرزُبَان وسواهم . فحفظ عنهم شيئاً كثيراً من اللغة والنحو والشعر والأغاني والأخبار والآثار ، والأحاديث المسندة ، والأيام والأنساب ، والخرافات ، والسير ، والمغازي . وحقق شيئاً غير يسير من آلة المنادمة مثل علم الجوارح والبيطرة ، وفتحاً من الطب والنجوم والأشربة وغير ذلك .

وكان متصلاً بالحسن المهدي وزير معز الدولة بن بويه ، منقطعاً إليه يمدحه ويأخذ جوائزه . وأفاد من كتبه ثروة حسنة ، فقد أهدى كتاب الأغاني إلى سيف الدولة ، فأعطاه ألف دينار ، واعتذر إليه من تقصيره في المكافأة ، كما يقتضيه حق الكتاب . وكان أنسابه بنو مروان ملوك

الأندلس يتقدمون إليه بتصنيف الكتب لهم ، فيفعل ، ويسيرها إليهم ،
ويأتيه انعامهم سرّاً . وفُبلج وخواط في أواخر أيامه ، ومات في بغداد

صفاته وأخلاقه

كان لطيف المنادمة ، حسن المعاشرة ، حلو الحديث ، يحب اللذة
ومجالس اللهو ويشرب الخمر ويصحب القيان والمغنين . وكان مع ذلك رث
الهيئة لا يُعنى بتحسين شارته ، كثير الهجاء ، في لسانه سلاطة وهُجر ،
تُخشى معرفته ، ويُحذر جانبه لعلمه بالأنساب والمثالب . وكان أكلوا
نهماً إذا ثقل الطعام في معدته تناول خمسة دراهم فلفلاً مدقوقاً ، ولا يؤذيه
ولا تدمع منه عيناه . وهو مع ذلك لا يستطيع أن يأكل حمصة ، أو يصطبغ
بمرقة قيدر فيها حمص . وإذا أكل شيئاً يسيراً من ذلك شري بدنه كله ،
وبعد ساعة أو ساعتين يُفصد ، وربما فُصد لذلك دفعتين . فلما كان قبل
فالجح سنوات ذهبت عنه العادة في الحمص ، فصار يأكله ولا يضره ،
وبقيت عليه عادة الفلفل . وكان على أمويته يتشيع للعلوين لترتيبه بينهم ،
ومخالطته لهم ، واشتماله بانعامهم .

آثاره

لأبي الفرج شعر أكثره في مدح المهلب ، روى منه الثعالبي طائفة
حسنة في تيممه . ولكن منزلة الأصبهاني لا تقوم على أشعاره وإنما تقوم على
مصنفاته الأدبية والتاريخية وهي كثيرة ، منها في الأيام والأنساب والمثالب ،
ومنها في الشعر والشعراء والشواعر ، ومنها في القيان والمغنين والحانات
وأصحابها . وأشهر هذه الكتب وأبقاها الأغاني ، اشتغل به صاحبه خمسين
سنة ، ووصل إلينا منه واحد وعشرون جزءاً ، والجزء الأخير نشره

المستشرق الأميركي رودلف برونو . ولعلّ الكتاب كان أكبر حجماً .
وضاع منه بكمور الأزمان . قال ياقوت : « وجمعتُ تراجمه فوجدته يعد
بشيء ، ولا يفني به في غير موضع منه ، كقوله في أخبار أبي العتاهية .
« وقد طالت أخباره هاهنا ، وسندكر خبره مع عتبة في موضع آخر . »
ولم يفعل . وقال في موضع آخر : « أخبار أبي نواس مع جنان إذ كانت
سائر أخباره قد تقدمت . » ولم يتقدم شيء ، إلى أشباه لذلك . والأصوات
المائة هي تسعة وتسعون ، وما أظنّ إلاّ أن الكتاب قد سقط منه شيء .
أو يكون النسيان غلب عليه ، والله أعلم . « اهـ . وللأغاني اختصارات
كثيرة لا نرى فائدة من ذكرها .

ميزته

لم يخلص إلينا من آثار أبي الفرج شيء يُعتدّ به إلاّ أغانيه ، فعليه قامت
ميزته ، وبه كان خلوده ، فإليه نستند في الكلام على أدب الأصبهاني .
ومنزله ، ومبلغ تأثيره .

الأغاني - جمعه وتأليفه

يحدّثنا صاحب الأغاني^١ أن الذي بعثه على تأليف هذا الكتاب ان رئيساً
من رؤسائهم كلفه جمعه ، فتكلفه على ما فيه من مشقة ، وبنسائه على
الأصوات المائة المختارة .

وحكاية هذه الأصوات أن هرون الرشيد أمر إبراهيم الموصلي ،
وإسماعيل بن جامع ، وفلّيح بن العوراء باختيارها له من الغناء كله ،
ففعّلوا . ثمّ أمرهم أن يختاروا له ثلاثة منها ففعّلوا . ثمّ رُفعت إلى الواثق

١ الاغاني : جمع أغنية بالضم والكسر وتشديد الياء وتخفيفها ، وهي ما يترنم ويتغنّى به
من الشعر ونحوه .

بالله وهو خليفة ، فأمر إسحق بن إبراهيم الموصلي أن يختار له منها ما رأى
انه أفضل من غيره ، ويبدل ما لم يكن على هذه الصفة بما هو أولى منه ،
ففعل ذلك . فعلى هذه الأصوات المختارة اعتمد أبو الفرج في تأليف كتابه ،
ولكنه لم يقتصر عليها . بل أضاف إليها طائفة كبيرة من الأصوات التي
غني بها ، وليست منها .

وكان إذا ذكر الصوت عرّف قائله ، ومن غنى به ، وبين لحنه
وطريقته وجنسه . ومذهبه في ذلك مذهب إسحق الموصلي ، إذ كان هو
المسأخوذ به يومئذ دون مذهب من خالفوه في أسماء الألحان ، وبيان
أجناسها . ثمّ ينتقل إلى الشاعر الذي قاله ، فيذكر نسبه وأخباره ، وتاريخ
مولده ووفاته ، وطائفة من أشعاره ، وما غني له فيها ، معتمداً بذلك
على الإسناد المتسلسل . ثمّ يفرغ إلى من غنى بهذا الصوت ، فينسبه ويروي
أخباره ويبين صناعته ، ومنزلته ، وما له من الأصوات المعدودة . وإذا
لم يستتم الكلام على الشخص الذي يتحدث عنه ، لأن له أخباراً مع شخص
آخر جعلت على حدة . أشار إلى ذلك بقوله : « وسنذكر خبره مع فلان
في موضع آخر . » ويقول في ذاك الموضع : « أخبار فلان مع فلان إذ
كانت سائر أخباره قد تقدمت . »

وابتدأه بالأصوات الثلاثة المختارة فما يليها جعله لا يراعي في كتابه
طبقات الشعراء ، وأزمنتهم ، ولا طرائق الغناء ، وطبقات المغنين . فإنه
استهل الكتاب بأخبار أبي قَطَيْفَة ، وهو شاعر مخضرم ليس في المعدادين ،
ولا الفحول ، وإنما غنى له معبد في شعره له :

القصرُ، فالتخلُّ، فالحَمَاءُ بينهما أشهى إلى القلبِ من أبوابِ جَيْرُونِ^١

١ الجاء : اسم موضع . جيرون : دمشق .

فَعَدَّةٌ مِنَ الثَّلَاثَةِ الْأَصْوَاتِ الْمُخْتَارَةِ ، فَبَدَأَ بِهِ أَبُو الْفَرَجِ ، ثُمَّ بِمَعْبِدٍ .
وَتَمَّى بِعَمْرِ بْنِ أَبِي رِبِيعَةَ ، ثُمَّ بِابْنِ سُرَيْجٍ ، لِأَنَّ ابْنَ سُرَيْجٍ غَنَّى فِي
الشَّعْرِ عَمْرٍ :

تَشَكَّى الْكُفَيْتُ الْجُرِّيَّ لَمَّا جَهَدَتْهُ ، وَبَيَّنَ لَوْ يَسْطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَ^١
فَعَدَّةٌ مِنَ الثَّلَاثَةِ الْأَصْوَاتِ الْمُخْتَارَةِ . وَثَلَّثَ بِنُصَيْبِ بْنِ رَبَاحٍ .
ثُمَّ بِابْنِ مُحَرَّرٍ لِأَنَّ هَذَا غَنَّى لَهُ فِي شَعْرِهِ :

أَهَاجَ هَوَاكَ الْمَتَزَلُّ الْمُتَقَادِمُ^٢ نَعَمٌ ، وَبِهِ مَمَّنْ شَجَاكَ مَعَالِمُ^٣
فَعَدَّةٌ مِنَ الثَّلَاثَةِ الْأَصْوَاتِ الْمُخْتَارَةِ . وَهَكَذَا مَشَى إِلَى سَائِرِ الْأَصْوَاتِ
عَلَى غَيْرِ تَرْتِيبٍ فِي الشُّعْرَاءِ وَالْمُغَنِّينَ .

اغراضه

رَأَيْتُ أَنَّ الْأَغَانِيَّ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى الْغِنَاءِ وَالْمُغَنِّينَ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَارِيخٌ جَزِيلٌ
الْفَائِدَةُ . فَفِيهِ أَخْبَارُ بَضْعِ مِائَةِ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، وَالْمُغَنِّينَ ، وَالْقِيَانِ ، وَالْأَمَاءِ
وَالْعُلَمَاءِ ، وَالْعِشَاقِ وَالْمَعشُوقَاتِ ، وَالْمُخَشِّينَ ، وَالْمُتَظَرِّفِينَ وَالْمُتَطَرِّفَاتِ .
وَفِيهِ أَخْبَارُ الْخُلَفَاءِ وَالْأُمَرَاءِ وَالْقَوَادِ ، وَمَنْ نَبِغَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ فِي الشَّعْرِ
وَالْغِنَاءِ . وَفِيهِ أَخْبَارُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَأَنْسَابِهِمْ ، وَغَزَوَاتِهِمْ ، وَأَيَامِهِمْ ،
وَمِيَاهِهِمْ . وَفِيهِ مُحَاسِنُ مَا قِيلَ مِنَ الشَّعْرِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْمِائَةِ الْأُولَى
وَالثَّانِيَةِ لِبَنِي الْعَبَّاسِ . وَفِيهِ وَصَفُ مَا كَلَّ الْعَرَبُ وَمَشَارِبِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ
وَحَضَارَتِهِمْ ، وَذَكَرَ عَشَقَهُمْ وَأَنْوَاعَهُ ، وَتَسْرِيتِهِمْ ، وَزَوَاجَهُمْ وَطَلَاقَهُمْ ،

١ الكميّ : الأحمر الضارب إلى السواد يصف به جواده .

٢ المعالم : الآثار والدلائل ، مفردهما معلّم .

وسائر أحوالهم . وفيه تصوير بديع للمجسّال والملاهي ، والرياض والحدائق .

وقد علمت أن أبا الفرج يحب اللذة ويتطلبها ، وبني كتابه على الغناء والغناء يُقصد به إلى اللذة والترفيه عن النفس ، فغلبت ناحية العبث والمجون على كتابه ، وحفل بالنوادر المسلية والمتعهرة . فتراه يُعنى بفضح الشعراء ، وذكر أخبارهم وأشعارهم الفاحشة ، وتصوير فساد أخلاقهم . ولم يتحرّج من تشهير الخلفاء وأبنائهم ، ونسائهم ، وذكر عشقهم واستهتارهم ، وعكوفهم على اللهو والشراب والسماع .

فلهذا لا يسعنا اعتماد الأغاني من النواحي التاريخية الشاملة ، ولا سيما كلامه على الإسلاميين والمولدين ، فإنه قلما تناولهم إلا من ناحية العبث واللهو . ولا ينبغي الاستسلام إلى رواياته كلها دون التوقف عند بعضها في شيء من الشك والاحتياط .

انشاء

لصاحب الأغاني لغة جزلة سمحة ، لم يؤثر فيها أسلوب الرسائل ، فهي تفيض طبعاً وسلاسة ، وتبرأ من كل تكلف وصنعة وتعمد للمجاز . وجملته رشيقة حلوة المساغ . فخمة طلية ، بارعة التصوير ، ملوؤها ماء وحياة ، لا لسان فيها ولا جفاف ، تميل إلى القيصّر لبلاغتها وإيجازها وحسن اختيار ألفاظها التي تؤدي حقيقة المعنى ، من غير تأبّد وخشونة . ولا عيب فيها غير الاكثار من فعل القول .

وليس الأغاني كله من إنشاء صاحبه ، ففيه من أقوال الرواة الذين اخذ عنهم ، وفيه نقل عن كتب يذكر اسماءها ، وفيه تلفيق لأقوال

جمع بعضها إلى بعض ؛ فلذلك اختلفت لغة إنشائه . ولو اختصر الأصبهاني في الإسناد لدفع عن قرائه كل ضجر ، ولكنه أحب أن يزيد روايته ثقة فأساء إلى قرائه بالحديث المَعْنَعَن المتسرد .

منزله

لم يُحدِّث كتاب عند ظهوره من التأثير ما أحدثه الأغاني في حلقات الأدب ، فقد بادر الملوك والناس إلى شرائه ، وتنافسوا في اقتنائه . وكان سيف الدولة أول من اقتناه من ملوك الشرق . وذكر صاحب نفح الطيب ان الحاكم المستنصر ، أحد خلفاء بني أمية بالأندلس ، بعث إلى أبي الفرج بألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه بنسخة من الأغاني قبل أن يخرجها بالعراق . وقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة بن بويه : « لم يكن كتاب الأغاني يفارق عضد الدولة في سفره ولا حضره . » وذكر ابن خلكان : « ان صاحب بن عباد كان يستصحب في أسفاره حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ، فلما وصل إليه هذا الكتاب لم يكن بعد ذلك يستصحب غيره لاستغنائه به عنها . »

وبلغ صاحب أن سيف الدولة أعطى أبا الفرج ألف دينار لما أهدى إليه نسخة من كتابه ، فقال : « لقد قصّر سيف الدولة ، وانه يستحق اضعافها . إذ كان مشحوناً بالمحاسن المنتخبة ، والفقر الغريبة ، فهو للزاهد فكاهة ، وللعالم مادة وزيادة ، وللكاتب والمتأديب بضاعة وتجارة ، وللبلط رجلة وشجاعة ، وللمتظرف رياضة وصناعة ، وللملك طيبة ولذاذة . ولقد اشتملت خزانتي على مائة ألف ، وسبعة عشر ألف مجلد ، ما فيها سميري غيره . »

وأقوال المتقدمين في الأغاني كثيرة ، يطول الكلام عليها ، وكلها تدلّ على إعجاب منهم وإكبار .
ومما يزيد منزلة هذا الكتاب أن صاحبه لم يقتصر فيه على الرواية والإسناد ، بل كان كثيراً ما يمحّص الأقوال ، وينتقدها ، ويظهر صحيحها من مكذوبها ، ويحمل على الرواة الذين يصطنعونها . وربما أورد الخبر على روايات مختلفة ، ثمّ عاد إلى رأيه فرجح إحداها ، أو أبدى شكه فيها ، وجعلها على عهدة أصحابها .
وكتابه كان ولا يزال المورد العذب الذي ينهل منه كل باحث في الآداب ، ولولاه لضاع أدب كثير للجاهلية وصدر الإسلام .

العصر العباسي الرابع

١٠٥٥ - ١٢٥٨ م . ٤٤٧ - ٦٥٦ هـ .

يبتدىء بدخول السلاجقة بغداد
وينتهي باستيلاء هولاكو عليها ، وانتقال الخلافة العباسية إلى مصر .

لمحة تاريخية

الدولة السلجوقية . الدولة الأيوبية . ميزة العصر .

الدولة السلجوقية ١٠٣٦ - ١٣١٨ م ٤٢٨ - ٥٧١٨ هـ

كل أمة انقسمت على نفسها بادت ؛ وانقسام المملكة العباسية دولاً
أزال سلطانها المنع ، وقوض عرشها الرفيع ، وجعلها عبدة في الغابرين .
ولم يكن نشاط هذه الدول في بدء أمرها ليبشر بحميد العقبي ، فإن تناوب
ملوكها وتنافسهم ، وتكالبهم بالعدوان ، وحرصهم على الامتلاك والتوسع ،
جعل ضعيفهم لقمة سائغة للقوي ، وبلادهم دريعة للحروب والفتن والخروج
والعصيان . فبت لا ترى إلا دولاً تقوم وأخرى تضمحل ، وملوكاً تُخلع
وملوكاً تستقل . وهذه الأحوال المضطربة لا يستقيم معها نظام ، ولا يستتب
سلطان ، ولا تأمن فيها البلاد سطوات الأجانب . والدولة العباسية كانت

في اتساع ولاياتها ، مطمح أنظار سائر الشعوب ، فما ان تجزأت وحدتها ، وتقطعت أوصالها ، ونشبت فيها الثورات والفتن حتى مدت الأمم الأعجمية أنظارها ، فرأت الفرصة سانحة ، والشاة ممكنة للرامي ، فتوغل السلاجقة الأتراك في بلاد الفرس ، وزحفوا إلى العراق ، وبنو بويه قد صار أمرهم إلى الضعف ، فدخلوا بغداد ، واستولوا عليها . ودانت لهم البلاد من حدود الصين إلى آخر حدود الشام ؛ ولكنهم لم يحفظوا وحدتهم ، بل تقسموا ممالك ، فكان منهم في الفرس والعراق وكردستان والشام وآسية الصغرى . وفي أيامهم حدثت الحروب الصليبية ، فإن أوربة كانت كغيرها من الأمم ، تلاحظ المملكة الإسلامية ، وتحفز للوثوب عليها .

وفي أوائل القرن السابع للهجرة ظهر جنكيزخان المغولي ، فغزا البلاد الإسلامية حتى خراسان ، فخرّب مدنها ، وحرّق مكاتبها ، ومثّل بأهلها . وجاء بعده حفيده هولاكو ، فأناخ على العراق ودخل بغداد سنة ٦٥٦ هـ . وبطش بأهلها ، وانتهبها ، وألقى كتبها في دجلة ، وقتل المستعصم الخليفة العباسي ، وقتل بأولاده وأهله ، واستولى على ما في قصره من الجواهر والآلئ . وهرب من نجا من بني العباس إلى مصر ، وجعلوا الخلافة فيها ، وكانت يومئذ في حكم الأيوبيين .

وما زال المغول يتوغلون في بلاد المسلمين حتى افتتحوا الشام وآسية الصغرى ، وأزالوا ملك السلجوقيين .

وامتاز عهد السلجوقيين في إنشاء المدارس ، وأشهرها المدرسة النظامية في بغداد ، أنشأها نظام الملك الفارسي ، وزير ملكشاه السلجوقي ، وكان من أستاذها الغزالي .

الدولة الأيوبية ١١٧١ - ١٢٦٠ م و ٥٦٧ - ٦٥٩ هـ

هذه الدولة كردية الأصل ، وزعيمها يوسف بن أيوب المعروف بصلاح الدين ، وكان أبوه أيوب وعمه شيركوه من قواد السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام من قبل الفاطميين . وكانت الدولة الفاطمية قد ضعف أمرها ، واستبد عليها عمالها ووزراؤها . وحدث أن الصليبيين زحفوا إلى مصر يريدون الاستيلاء عليها ، فاستنجد العاضد الخليفة الفاطمي بعامله السلطان نور الدين بن زنكي ، فأرسل إليه قائده شيركوه ، ومعه صلاح الدين ابن أخيه . ثم ارتد الفرنجة عن مصر صلحاً ، واستوزر العاضد شيركوه . ومات شيركوه فاستوزر صلاح الدين ، ولقبه الملك الصالح ، فاستولى على الأحكام ، ولم يدع للخليفة إلا السلطة الدينية . وكان السلطان نور الدين زنكي يراقب حالة مصر عن كثب ، فكتب إلى صلاح الدين يخبره بأنه سيقطع الخطبة عن الفاطميين ، ويقيمها لبني العباس ، ويطلب منه أن يفعل فعله . فوافقه صلاح الدين ، وكلاهما سني . ومات العاضد على أثر ذلك ، وكان مريضاً ، فانقرضت به دولة الفاطميين ، وصار الملك إلى صلاح الدين ، فاستقل بالأمر ، وفتح دمشق واستولى على ملك آل زنكي . وحدثت بينه وبين الصليبيين حروب كثيرة ، فاسترد منهم بيت المقدس ، وغيره من البلاد التي افتتحوها في سورية . وكان قد تولاهم الضعف بعد أن دبّ فيهم الخلاف . وملك صلاح الدين من سنة ٥٦٧ - ٥٨٩ هـ (١١٧١ - ١١٩٣ م) .

وأصاب الدولة الأيوبية ما أصاب السلاجقة من التجزؤ ، فصار منهم ملوك في مصر ودمشق وبلبك وحلب وحماة وحمص وما بين النهرين واليمن ، وناوأ بعضهم بعضاً ، فوهن سلطانهم ، ثم زال سنة ٦٥٩ هـ .

بغارات هولاءكو ، واستثنار مماليكهم التركمان بالسلطان .
وللأيوبيين يد بيضاء على اللغة ، فإن بلادهم أصبحت قرارة العلماء
والأدباء ، لشغفهم بالعربية وعنايتهم بتعزيز العلم والأدب . ونبغ منهم
شعراء كبهرام شاه صاحب بعلبك ، ومؤرخون كالسلطان الملك المؤيد صاحب
صاحب حماة ، المعروف بأبي الفداء ، وعلماء كالملك المؤيد صاحب
اليمن . وعنوا بلغة الدواوين كالفاطميين ، فأقاموا عالماً بالنحو يراقب
الإنشاء ، ويصلح الخطأ .

ميزة العصر

فيتضح ممّا تقدم أن الحالة السياسية كانت على أسوأ ما يكون ، فمن
حروب متواصلة ، ودول متداولة . وفِتْن مشتعلة ، إلى تشقق مطّرد ،
حتى أصبح على كل بلد ملك ذو عرش وصوبلخان . وهذه الحالة القلقة
كانت لا جرّم نذيراً بمصير البلاد إلى الانحطاط ، وبئس المصير .

الشعراء المولدون

العصر الرابع

ميزة الشعر : الشعر الصوفي . الشكوى . وصف الحروب .
لغة الشعراء .

ميزة الشعر

لم تبدل أغراض الشعر وفنونه ، فتجعل له ميزة جديدة ؛ وإنما حدث شيء من التطور في بعضها فنما وقوي ، كالشعر الصوفي ؛ فإن أصحابه تكاثر عددهم بكثرة الفرق الصوفية ، ونظموا فيه القصائد الطويلة ، حاوية اصطلاحات المتصوفين وعلومهم ، كما في شعر عمر بن الفارض . وكذلك باب الشكوى فإنه اتسع لما نزل بالبلاد العربية من المصائب والأهوال ، ولما لقي الشعراء من كساد سوق الشعر ، وفتور أكثر الأمراء عن الأخذ بناصرهم ، وعلى الأخص في أواخر العصر . وأكثروا من ذكر الحروب والفتن . وكان للحروب الصليبية أثر بليغ في أشعارهم .

وأما لغة الشعر فقد مالت إلى اللين لأسباب : منها أن امتداد سلطان الفاطميين إلى سورية جعل شعراء الشام يتأثرون بلغة المصريين ، ويحتذون أسلوب شعرائهم . ومنها أن تسلط الأمم الأعجمية على الأمة العربية ، وذوبانها فيهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، أثر في اللغة الفصحى أسوأ الأثر ، فغلبت اللهجات العامية ، والألفاظ الدخيلة المسترذلة ، وفشا الفساد في لغة البادية ، وعمّ الحزن ، ومضى عهد التبدلي . فصار الشاعر الحضري

لا يرى في سكنى البادية ، والاختلاط بالأعراب مقوماً للسانه كما كان يراه
أسلافه المتقدمون ، فاكتمى بلغته على فسادها ، وبما يحصله بالدرس
والمطالعة .

وأمعن الشعراء في الصناعة كل إمعان ، وقيدوا قرائحهم بقواعد النظم
وشروطه وأبوابه ، كما حددها لهم ابن رشيق وأمثال ابن رشيق ، فقلّ
الطبع وكثر التكلف وضعف الاستنباط ، وابتذلت المعاني والتعابير
لتواطئهم عليها ، وترسمهم لما جاء به الأقدمون . وظهر الابتذال والاسفاف
خصوصاً عند الشعراء الذين جاؤوا في آخر هذا الزمان كابن مطروح والبهاء
زهير . ولا غرابة في ذلك ، فإنه عصر انتقال من القوة إلى الضعف ، ومن
الارتفاع إلى الهبوط ، فلا بد للشعر أن ينحدر شيئاً فشيئاً حتى تلتقي أواخر
عصره بأوائل عصر الانحطاط .

وفي هذا العصر دخلت الموشحات الأندلسية إلى الشرق ، واحتذاها
شعراؤه ولا سيما ابن سناء الملك . ونرجى الكلام على هذا الفن إلى
بحثنا عن الأدب الأندلسي .

واشتهر من الشعراء عدد غير قليل ، فمنهم في مصر ابن سناء الملك ،
وابن النبيه ، وعمر بن الفارض ، وابن مطروح ، و بهاء الدين زهير . ومنهم
في الشام ابن الحياط الدمشقي ، وابن منير الطرابلسي ، وابن حيّوس .
ومنهم في العراق الطُّغْرَاثِي والحاجري . ومنهم في فارس صُرْدَرّ ،
والأرجاني ، وابن الهبّارية ، والابيّوردي . ولكن ليس بين هؤلاء كلهم
واحد يُعدّ من الفحول .

الكتاب المولدون

العصر الرابع

ميزة النثر : الطريقة الفاصلية . جمود الأفكار . اللفظ غاية والمعنى خادم . انبثا الكلمات العامية .

ميزة النثر

بقيت ميزة النثر على حالها . لم يتغير فيها شيء فيجعل لها صبغة خاصة تنفرد فيها ، غير أن الكتاب أسرفوا في تنميق العبارة ، وطلب المحسنات البديعية ، والتزام السجع ، وعلى الأخص بعد ظهور الطريقة الفاصلية في مصر ، فإن صاحبها القاضي الفاضل عني بأنواع البديع عناية عظيمة ، وألح على التورية والجناس ، فأطال جملة وباعد بين فواصلها المسجعة . حتى تتم له القرائن والمرشحات لبيان التورية والجناس ، فوقع في الغموض ، وتعدّد إنشاؤه ، وقلّ ماؤه ، وكثّر غثاؤه . ووافق ظهور طريقته جموداً في الأفكار ، وعجزاً عن الاستنباط لتوالي الحروب والمصائب ، فأقبل الكتاب يضربون على غرارها يلوّك بعضهم أقوال بعض . فأصبح الإنشاء ولا سيما آخر العصر ، عبارات مرصوفة ، ومرادفات مصفوفة ، وضعفت لغته ، وانبثت فيه الكلمات العامية ، فتلقفه زمن الانحطاط بهشاشة وارتياح .

وظهر الحريري في أوائل العصر ، فتحدى بديع الزمان في مقاماته ، فوسّع نطاق هذا الفن ، وأتمّ صناعته اللفظية .

الحريري

١٠٥٤ - ١١٢٢ م و ٤٤٦ - ٥١٦ هـ ؟

حياته : نشأته . علومه . صفاته وأخلاقه . آثاره : درة النواصير . ملحمة
الاعراب . مجموعة رسائل وشعر . المقامات . سبب وضعها .
ميزته : تحليل مقاماته . انشأه . صنعته وتكلفه . منزله .

حياته

هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان ، عربي صريح ينتمي إلى ربيعة بن
نزار ، وكنيته أبو محمد ، ولقبه الحريري نسبة إلى الحرير وعمله ، أويبعه .
ولد في المشان ، وكان من ذوي اليسار ، قيل كان له فيها ثمانية عشر ألف
نخلة . ورغب في العلم مع وافر ثروته ، فجاء البصرة ، وطلبه على علمائها ،
وسكن فيها بمحلة بني حرام ، وهي قبيلة قحطانية ، فقبل له الحرامي .
وما زال يجالس العلماء ، ويشهد حلقات الأدب ، حتى برع في الشعر
والترسل ، واستبحر في اللغة وآدابها ، وحقق الفقه ، وتضلّع من الفرائض .
فأكب على التصنيف حتى وافاه أجله ، وقد وطىء السبعين . وكانت وفاته
بالبصرة ، وخلف ولدين هما نجم الدين عبد الله ، وضياء الإسلام عبيد الله
قاضي قضاة البصرة .

صفاته وأخلاقه

ذكر صاحب معاهد التنصيص أن الحريري كان قدراً في نفسه ،
المشان : بلدة فوق البصرة ، كثيرة النخل ، موصوفة بشدة الوخم أي لا ينبج كلاهما .

وشكله ولبسه ، قصيراً ، دميماً ، بخيلاً ، مولعاً بنتف لحيته . فنهاه أمير
البصرة ، وتوعده على ذلك ، وكان كثير المجالسة له ، فبقي كالقيسد
لا يتجاسر أن يعبت بلحيته . فتكلم في بعض الأيام بكلام أعجب الأمير ،
فقال له : « سلمي شيئاً حتى أعطيك . » فقال : « تُقْطِعي لحيتي . » قال :
« قد فعلت . » وقال ابن خلكان : « انه كان دميماً قبيح المنظر ، فجاءه
شخص غريب يزوره ويأخذ عنه شيئاً ، فلما رآه استزرى شكله ، ففهم
الحريري ذلك منه . فلما التمس منه أن يملي عليه ، قال له : اكتب :
مَا أَنْتَ أَوَّلَ سَارٍ غَرَّهُ قَمَرٌ ، وَرَأَيْدُ أُعْجَبَتْهُ خُضْرَةُ الدِّمَنِ^١
فَاخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ غَيْرِي لِتَنِي رَجُلٌ^٢ مِثْلُ الْمُعَيَّدِي ، فَاسْمَعْ بِي وَلَا تَرْنِي^٣
فخجل الرجل منه ، وانصرف .

آثاره

للحريري تآليف حسان منها درة الغواص في أوهام الخواص ، يبين
فيه مغالط الكتاب في ما يستعملون من اللفظ بغير معناه . ومنها مُسْلَحَةُ

١ سار : سائرليلاً . الرائد : الرجل يرسله القوم ليطلب لهم المرمى . الدمن : جمع دمنة
وهي آثار الدار ، وما تلبد من إبعاد الماشية فيها . وخضرة الدمن : ما نبت من العشب عليها
فيمجج منظره ، على سوء نخبه . وهو مثل يضرب في حسن الظاهر ، وخبت الباطن .
وقوله : غره قمر ، أي غاب عنه بعد أن خدعه بظهوره .

٢ المعيدي : نسبة إلى معد بن عدنان بعد تصغيره وتخفيف داله . وقد جاء في المثل : « تسمع
بالمعدي خير من أن تراه . » قال المفضل الضبي : « أول من تكلم به المنذر بن ماء السماء
قاله لشقة بن ضمرة التميمي الدارمي . وكان قد سمع بذكره ، فلما رآه ، اقتحمته عينه ،
فقال له هذا المثل ، وسارعه . فقال له شقة : « أبيت اللعن ! ان الرجال ليسوا بجزرياد
منها الأجسام ، إنما المرء باصغريه ، قلبه ولسانه . » فاعجب المنذر ما رأى من عقله وبيانه .
وهذا المثل يضرب لمن له صيت وذكر ، ولا منظر له . »

الإعراب ، وهي أرجوزة في النحو . ومنها ديوان شعر ورسائل . ومنها المقامات ، وهي أشهر آثاره ، فإنّها تُرجمت إلى عدة لغات أجنبية ، وشرحها غير واحد من العلماء أمثال الشريشي ، والعسكري ، والزبيدي وغيرهم ، وطُبعت مرّات في بيروت ومصر وأوربة .

سبب وضعه المقامات

ذكر عبد الله بن الحريري السبب الذي من أجله وضع والده المقامات قال : « كان أبى جالساً بمسجد بني حرام ، فدخل شيخ ذو طِمْرَيْن ، عليه أهبة السفر ، رث الحال ، فصيح اللسان ، حسن العبارة . فسأله الحاضرون : « من أين الشيخ ؟ » فقال : « من سروج^١ . » فاستخبروه عن كنيته ، فقال : « أبو زيد . » فعمل أبى المقامة المعروفة بالحرامية . وهي الثامنة والأربعون ، وعزاها إلى أبى زيد السروجي المذكور . واشتهرت فبلغ خبرها الوزير شرف الدين أبا نصر أنوشروان بن خالد بن محمد القاشاني ، وزير الإمام المسترشد بالله^٢ . فلمّا وقف عليها ، أعجبته ، وأشار على والدي أن يضم إليها غيرها ، فأتمها خمسين مقامة . » اهـ .

وذكر ابن خلكان أنه وجد نسخة مقامات بخط مصنفها ، وقد كتب بخطه على ظهرها أنه صنفها للوزير جمال الدين عميد الدولة الحسن بن صدقة وزير المسترشد أيضاً . فعلى هذه الرواية يكون عبد الله بن الحريري قد غلط في اسم الوزير . ويشير الحريري إلى الوزير في خطبة مقاماته بقوله : « فأشار من إشارته حُكْمٌ ، وطاعته غُنْمٌ ، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها

١ سروج : بلدة بجزيرة الفرات .

٢ المسترشد بالله : من الخلفاء العباسيين خلفه من سنة (٥١٢ - ٥٢٩ - ١١١٨ هـ - ١١٣٤ م) .

تَلَوُ البديع ، وإن لم يُدرك الظالع شأو الضليع^١ . « وحمل راوية مقاماته
الحرث بن همّام ، وهو رجل خيالي أخذه من حديث : « كَلَمَكُم
حارث وكلكم همّام^٢ . »

ولم يسلم من اتهام الناس له ، وإنكارهم عليه مقاماته . فقد ذكر ابن
خلكان انه رأى في بعض المجاميع ان الحريري عمل أربعين مقامة ، وحملها
من البصرة إلى بغداد ، وادعاها فلم يصدقها في ذلك جماعة من أدباء بغداد .
وقالوا انها ليست من تصنيفه ، بل هي لرجل مغربي من أهل البلاغة . مات
بالبصرة ، ووقعت أوراقه إليه ، فادعاها . فاستدعاه الوزير إلى الديوان .
وسأله عن صناعته . فقال : « أنا رجل منشئ . » فاقترح عليه إنشاء رسالة
في واقعة عينها . فانفرد في ناحية من الديوان ، وأخذ الدواة والورقة ،
ومكث زماناً كثيراً ، فلم يفتح الله عليه بشيء من ذلك ، فقام خجلان .
فلما رجع إلى بلده عمل عشر مقامات أخر ، وسيّرهن^٣ . واعتذر من عيته
وحصره في الديوان بما لحقه من المهابة . وكان في جملة من أنكر دعواه
علي بن أفلح الشاعر ، وقد قال فيه :

شَيْخُ لَنَا مِنْ رَبِيعَةِ الْفَرَسِ ، يَنْتِفُ عَشْنُونَهُ مِنْ الْهُوسِ^٤
أَنْطَقَهُ اللَّهُ بِالْمَشَانِ كَمَا بَلَاهُ وَسَطَ الدِّيَّانِ بِالْحَرَسِ
على أن المقامات الخمسين ثابتة للحريري ، ولا وجه للشك في نسبها إليه .

١ الظالع : الذي يغمز في مشيته . الضليع : السمين ، القوي الاضلاع .

٢ الحارث : الكاسب . الهام : الكثير الاهتمام بالامور .

٣ ربيعة الفرس : اي ربيعة بن نزار . سمي بذلك لانه اخذ الخيل ارثاً عن والده . العشنون :
اللحية او ما نبت من الشعر على الذقن وتحتة . سفلا . الهوس : الحيرة والاضطراب .

ميزته

لا يُذكر الحريري إلا كانت مقاماته أسبق آثاره إلى الأذهان ، لأن بها قامت ميزته ومنزلته . فإليها نستند في كلامنا عليه ، وإظهار خصائصه في هذا الفن من الإنشاء .

تحليل مقاماته

يبدأ الحريري مقاماته بإسناد الكلام إلى راويتها الحرث بن همام ، ولكنه لا يقتصر كالبديع على قوله : « حدثنا » ، بل يميل إلى التغيير في بدء كل مقامة فينتقل بين حدث وروى وحكى وأخبر وقال .

والحرث بن همام رجل كثير الأسفار ، فإما يطلب السفر من أجل دبرن يبغي قضاءها ، أو سعيًا لرزق يكتسبه . وربما بدا موسرًا يتلهى بالترحال والأسفار والأخبار . وقد يجتمع الحرث وأبو زيد منذ أول المقامة ، فيتعاونان على إنشائها كما في المقامة الواسطية^١ إذ سعى أبو زيد في تزويج الحرث . حتى إذا كان العرس ، دس للناس بنجاً في الطعام ، فتخذروا . فسلم ما في البيوت من الأكياس والتخوت ، ونجا لا يلوي على العرس وأهله .

والحرث أكرم أخلاقاً ، وأشرف نفساً من أبي زيد ، فإنه لم يشركه في لصوبيته ، ولطالما أنبه على دناءته ، وصارمه من أجلها ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى مصاحبته لشغفه بأدبه . وهو على اجتماعه به في كل مقامة لا يعرفه إلا إذا اتبعه وسأله عن حاله ، أو إذا تبين الاحتيال في أقواله وأعماله . فيضطر إلى كتم أمره ، فما يخبر خبره إلا بعد أن ينأى

١ الواسطية : نسبة إلى واسط ، مدينة بالعراق سميت باسم قصر بناء الحجاج بين الكوفة والبصرة .

عن البلد ، ويأمن اللحاق .

وأما أبو زيد فشاعر خطيب مترسل ، عالم باللغة والنحو ، والفقه والفرائض ، متصرف في ضروب الكلام ونوادر البيان ، يحترف الكدية بالاحتيال ، ويسلك إليها مختلف الطرق ، لا عدة له غير لسان فصيح ، وجنان قوي . فهو لص خبيث ، سيكّر خيمير ، بخادع منافق ، مستهتر فاسق . يظهر في كل المقامات ، وغالباً يعاونه على احتياله ولده أو زوجه ، وهما لا يقلان عنه خداعاً وخبثاً ، وفصاحة وعلماً ، ولهما من جمالهما شافع يستعينان به على الاقتناص ، ولكنهما يصونانه عن التبذل .

ومقاماته فيها أدب كثير ، وفيها احتيال كثير ، وفيها دناعة وخساسة ، وفيها حيكم ومواعظ . وتنقسم من حيث الأغراض إلى مقامات أدبية ، تُظهر براعة أبي زيد في تصريف الكلام ، وتقليب نوادر البيان ، كالمقامة القطيعية^١ ، وفيها أحاجٍ نحوية ألقاها أبو زيد على جماعة ، فعجزوا عن حلّها ، فأبى أن يفسرها لهم إلا بعد أن نال منهم الحباء . وإلى فكاهية كالمقامة الواسطية ، وقد مرّ ذكرها . وإلى مجونية كالمقامة الرحيبية^٢ ، وفيها يسوق أبو زيد ولده إلى الوالي متهماً إياه بأنه فتنك بابنه . فينتصر الوالي للغلام ، ويدفع لأبي زيد بعض دية المقتول ، على أن يجمع له الباقي في الغد . فما دجا الليل إلا شمر أبو زيد وفرخه للهرب ، تاركين الوالي على أحرّ من ذات اللهب . وإلى دينية يقف فيها أبو زيد واعظاً مزهداً في الدنيا كالمقامة الصنعانية^٣ . وإلى خلقية اجتساعية كالمقامة الرازية^٤ ، وفيها

١ القطيعية : نسبة إلى قتيمة الربيع وهي حلة ببغداد .

٢ الرحيبية : نسبة إلى رحبة مالك بن طوق وهو بلد على الفرات .

٣ الصنعانية : نسبة إلى صنعاء اليمن على غير قياس .

٤ الرازية : نسبة إلى الري ، بلد بمراق المعجم .

يعمل أبو زيد الوالي الذي يغير بمنصبه ، ولا يعتد بحقوق الناس .
وهذه الأغراض على اختلافها يقصد بها إلى الكدية ، ووسائلها عند
أبي زيد كثيرة ، فمرة يطلبها بالتقوى والتسلك . فيخدع الناس ، وينال
سيئهم ، حتى إذا خلا في مشواه عكف على الخمر والمجون . فكان الحريري
يشل به جماعة من شيوخ الدين . يتحدون النفاق لهم شعاراً ، وينصحون
الناس ، ولا ينتصحن . ومرة يتلاحى وزوجته عند القاضي أو الوالي
ويتجادلان ، وكلاهما فصيح لسن ، فيعجب بهما الحكيم ويصلح بينهما
ويدفع لهما شيئاً من المال . وحيناً يكون الخصام بينه وبين ولده . وأكثر
ما يمثل الولاية والقضاة أغبياء تجوز عليهم الحيل . أو فساقاً يحورون عن
الحق خضوعاً للجمال . وأخباره مع القضاة والولاية كثيرة متشابهة يكاد
لا يختلف بعضها عن بعض .

وأعظم وسيلة عنده للتكدي فصاحة لسانه ، وسعة علمه ، وربما عمد
إلى طرق في غاية الدناءة والخسة كأن يشحد ثمن كفن لميت يدعيه . أو
يقطع الطرق ويسل الخيل . أو يتعمى فتقوده امرأته إلى المسجد ليصطاد
الناس بأحاييله . فالكدية عند أبي زيد ملازمة له في جميع مقاماته ، لا تفارقه
ولا يفارقها .

ولكن لأبي زيد نهاية حسنة ليس لأبي الفتح مثلها . فإنه تاب توبة
نصوحاً في المقامة الأخيرة ، وأقلع عن الاحتيال والفسق ، وتنسك وفارق
راويته فراقاً لا لقاء بعده .

والحريري في مقاماته أكثر تعلقاً بالخواضر من بديع الزمان ، فما يكاد
يخرج إلى البادية إلا في واحدة منها أو اثنتين . ومقاماته في الغالب أطول
من مقامات أستاذه بييد أن طولها لا يعود على اتساع الفن القصصي فيها ،

وإنما على اجتماع خبرير في مقامة واحدة . أو على فيض الألفاظ ، وكثرة المترادفات . ومعاقبة الحمل على المعاني . أو على الاكثار من الشعر ، وفيه القصائد التي يشرح بها أبو زيد أحواله ، ويقص أخباره .

انشاؤه

للحريري لغة متينة . قصيرة الحمل يقطعها تقطيعاً موسيقياً ، فما تعدى جملته الكلمتين أو الثلاث . وقلما زادت فبلغت الخمس أو الست . وهو في إنشائه بادي الصنعة ، ظاهر التكلف ، يعتمد الغريب ، ويسرف في استعماله . ويمرط في اصطناع المجاز والتزيين ، حتى تجفو عبارته ويقل ماؤها . ويعسر مساعها . فقد أولع بالسجع فلم يقتصر على التزامه في فواصل الحمل ، وإنما تعمّله في أجزائها ، وجاء به متوازياً أو مرصعاً كقوله : « وهو يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ، ويقرعُ الأسماع بزواجر وعظه . » وقد يعدد الاسجاع على قافية واحدة . ويتورط معها في تكلف الاستعارة . وتقليب الألفاظ على المعنى الواحد لثم له القوافي .

ويفتّر في الجناس على أنواعه من تام وناقص : « وترغبُ عن هادٍ تستهديه . إلى زادٍ تستهديه . وفي اللحد مَقِيلُكَ ، فما قِيلُكَ ؟ .. لما اقتعدتُ غاربَ الاغتِراب ، وأناثني المَتَرَبَةُ عن الأتراب^١ . »
وكثيراً ما يأتي بالجناس المتكافئ : « أو يعطِفُ عليك مَعَشَرَكَ ، يوم يَضُمُّكَ مَحْشَرَكَ . » وربما حلّى سجعاته بمثلثات متجانسة : « فلمّا استأذنته^٢ في المراح^٣ ، إلى المراح^٤ ، على كاهل المراح^٤ . »

١ الغارب : مقدم طهر الدابة ، استعاره للاغتِراب . المتربة : الفقر .

٢ المراح : الرواح .

٣ المراح : المأوى .

٤ المراح : شدة الفرح والنشاط .

ولطالما تزحلق في تحذلقه إذ يطلب السجع أو الجناس ، فيزور عنه ،
وما يتأتى له إلا بشقّ النفس ، وتظهر عليه البرودة والغثاء كقوله :
« واستعنتُ بقاطبةِ الكتاب ، فكلّ منهم قطبٌ وتاب . » فقد جرّ
قاطبةً من أجل الجناس والسجع ، وهي لا تُستعمل إلا منصوبة على الحال ،
ووضع فعل تاب في غير موضعه ، فبدأ نافراً متقللاً .
ومن قبائحه في المسجوع أن يفصل بين العامل والمعمول كقوله :
« أو لخالِكَ دان ، عبدُ المدان^١ . »

وشغفُ الحريري بهذه المحسنات وغيرها من أنواع البديع اللفظي
والمعنوي ، حمله على أن يجعلها من أغراض مقاماته . فأنشأ مقامات لا غاية
منها إلا إظهار براعته في هذه الأشياء ، وحلاّها بأشعار ورسائل فيها
العواطل والحوالي ، والرُّقط والاختياف ، وفيها التوريات والأحاجي
والألغاز . فتعقّد بها إنشاؤه ، وكثر غموضه . فعني بشرحها وتفسيرها ،
وتحليل معجماتها ومعانيها . فمن العواطل قوله من قصيدة :

أَعَدِدْ لِحُسَادِكَ حَدَّ السَّلَاحِ ، وَأُورِدِ الْآمِلَ وَرْدَ السَّمَاحِ
ومن الحوالي :

فَتَسْتَنِّي ، فَجَنَنْتَنِي تَجَنِّي ، بَتَجَنِّ يَفْتَنُ غِيبَ تَجَنِّ^٢
ومن رقطه قوله من رسالة :
« أَخْلَاقُ سَيِّدِنَا تُحَسِّبُ ، وَيَعْقُوْتُهُ يُلَبِّ^٣ ، وَقُرْبُهُ تُحَفُّ ،
وَنَأْيُهُ تَلَفُّ . »

١ عبد المدان : رجل في الجاهلية يضرب به المثل في المز والشرف .

٢ تجني : اسم امرأة . بتجن : بتيه ودلال . يفتن : يتنوع .

٣ يعقوته : بفنائه . يلبي : من ألب بالمكان أقام .

ومن اخيافه :

« الكرم . ثَبَّتَ اللهُ جَيْشَ سَعُودِكَ ، يَزِينُ . وَاللَّوْمُ ، غَضَّ
الدَّهْرُ جَفْنَ حَسُودِكَ ، يَشِينُ . »

ومن تورياته وألغازه قوله من قصيدة كلها على هذا النمط :

وَكَاتِبِينَ وَمَا حَطَّتْ أُنَامِلُهُمْ حَرْفًا ، وَلَا قَرَأُوا مَا خُطَّ فِي الْكُتُبِ

ومن أحاجيه ومعجماته :

يَا مَنْ بَدَا بَيَانُهُ ، عَنْ فَضْلِهِ مُبَيَّنًا

مَاذَا مِثَالُ قَوْلِهِمْ : حِمَارٌ وَحَشٍ زِينًا ؟

وقوله يحاجي في مسائل فقهية :

« أَيُسْتَبَاحُ مَاءِ الضَّرِيرِ ؟ قال : نعم ، وَيُجْتَنَّبُ مَاءُ الْبَصِيرِ ٣ . »

وله غير ذلك أعاجيب كثيرة ، منها الألفاظ التي تُكْتَبُ بالصاد

والسين ، كالصراط والصقر ، ومنها الشعر الذي لا يستحيل بالانعكاس :

أُسُّ أَرْمَلًا إِذَا عَرَا ، وَارَعٌ إِذَا الْمَرْءُ أَسَا

١ الكاتِبين : اي الحرازين . يقال : كتب السقاء والمزاد ، اذا خرزهما .

٢ حمار وحش زينا : يماثله فرازين ، فان الفراع حمار الوحش ، وزين مجهول زان ، والفرازين

اذا اخذت لفظة واحدة كانت جميع فرزان وهي الملكة من حجارة الشطرنج .

٣ الضرير : الأعمى والمتبادر الى الذهن ان الشرع يبيح ان يفتصب ماء يملكه الاعمى ،

ولا يبيح ذلك في ماء البصير . اما الضرير هنا فمعناه : حرف الوادي . والبصير : الكلب .

وماؤه : بوله .

٤ أس : اعط ، من أس يؤوس اوساً . ارملا : فقيراً نافذ الزاد . عرا : اتي طالباً .

وارع : واحفظ . أسا : أي أساء .

ومنها أشياء أُخترَ يطول بنا الأمر لو عمدنا إلى ذكرها . وان في ما أوردناه كافياً للدلالة على صنعة الحريري ، وإمعانه في طلب المحسنات البديعية حتى جعل لها المقام الأعلى في إنشائه ، فنبأ به عن الطبع ، ولم يسلم مَطالعه من السأم والضجر .

ويُكثر الحريري في مقاماته من الأمثال ، فقد أورد منها طائفة جلييلة ، ومن الأشعار وكلها من نظمته إلا أربعة أبيات ذكرها على سبيل الاستشهاد . وإذناؤه على الإجمال لا تنحطّ بلاغته ، إذا جردته من الرموز والأحاجي والألغاز .

منزله

قال فيه ابن خلكان : « كان أحد أئمة عصره ، رُزق الخطوة التامة في عمل المقامات . واشتملت على شيء كثير من كلام العرب ، في لغاتها وأمثالها . ورموز أسرار كلامها ، ومن عرفها حق معرفتها ، استدل بها على فضل هذا الرجل ، وكثرة اطلاعه ، وغزارة مادته . » اهـ . وقال الزمخشري :

أَقْسِمُ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ ، وَمَشْعَرِ الْحَجِّ وَمِيقَاتِهِ^١
 إِنَّ الْحَرِيرِيَّ حَرِيٌّ بِأَنْ تَسْكُتُ بِالتَّبْرِ مَقَامَاتِهِ^٢
 مُعْجِزَةٌ تُعْجِزُ كُلَّ الْوَرَى ، وَلَوْ سَرَوْا فِي ضَوْءِ مِشْكَاتِهِ^٣

١ المشعر : موضع مناسك الحج وعلاماته .

٢ التبّر : الذهب .

٣ المشكاة : كل كوة غير نافذة ، يشير الى الآية القرآنية : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . » وقوله : ولو سروا في ضوء مشكاته ، أي لو اهدوا بهديه ، واقتفوا معاله .

ومنزلة الحريري لم تقم على جمال القصص في مقاماته ، والتفنن في أغراضها ، وإنما قامت على إنشائها المنمق ، وما فيها من رموز لغوية ، وأحاجٍ بيانية . فالحريري لم يحفل بالفن القصصي فيعمد إلى ترقيته ، بل قصر همته على التصرف في الألفاظ ، وضروب المحسنات والألغاز . فجاءت أقاصيصه متشابهة المواضيع ، محدودة الخيال ، واكتنفا حافلة بكل عجيب من أنواع البيان والبديع ، وكل غريب من كلام العرب ومذاهبهم . وكان التصنع في الانشاء هو الطراز الأعلى يومذاك . ففتن بإنشائه أهل زمانه ، ومن جاء بعدهم . فاتخذوا مقاماته عنواناً للكمال . لا يلتفتون إلى غير الصناعة اللغوية فيها . وإليها أشار ابن خلكان في كلامه ، والزحشرى في شعره .

وكرر بعد الحريري وضاع المقامات ، وأشهر من اصطنعها في المتقدمين الزحشرى والسيوطي ، وفي المتأخرين الشيخ ناصيف اليازجي ، وكلهم اتخذ الحريري أستاذاً له يجري على مثاله .

العلوم

العلوم : اللغة . التاريخ . الجغرافية . الفلسفة .

ظلّ الاشتغال باللغة على نموّ وازدياد ، وتكاثرت الكتب المصنفة ، ولا سيما كتب النحو والبيان . واشتهر من أصحاب اللغة طائفة كبيرة ، منهم أبو زكريا التبريزي وله ملخص اعراب القرآن ، وشرح المعلقات ، والوافي في العروض . ومنهم الحريري وقد تقدم ذكر تأليفه . ومنهم الجرجاني وله أسرار البلاغة في المعاني والبيان ، ودلائل الاعجاز في علم المعاني ، والعوامل المائة . ومنهم الزغشري وله أساس البلاغة في اللغة والمفصل في النحو . ومنهم السكاكي وله مفتاح العلوم في الصرف والاشتقاق والنحو والمعاني والبيان والعروض . ومنهم الصغاني وله مجمع البحرين في اللغة . ومنهم ابن الحاجب وله الكافية والشافية في الصرف والنحو . ومنهم ضياء الدين ابن الأثير وله المثل السائر في علم البيان والصناعة اللفظية والمعنوية ، وسنعود إليه في كلامنا على الأدب والأدباء .

وكذلك التاريخ كان له حظّ حسن ، فقد وُضعت فيه عدة كتب لتعدد الممالك . وأشهر المؤرخين عماد الدين الأصفهاني ، وله كتب في فتوح صلاح الدين وأخبار السلاجقة . وشهاب الدين أبو شامة وله كتاب الروضتين في أخبار صلاح الدين ونور الدين وحروب الصليبيين . والسمعاني وله كتاب الأنساب . والقفطي وله معجم تاريخي للفلاسفة والأطباء والطبيعيين والرياضيين ، وله أنباء النخلة ، وأخبار مصر . وابن عساكر الدمشقي وله

تاريخ دمشق . وعز الدين ابن الأثير وله كتاب الكامل في التاريخ العام ،
ويُعرف بتاريخ ابن الأثير .

وأما الجغرافية فقد كان تقدمها في الأندلس ، ولم يخلُ الشرق من
رجال اشتغلوا بها وبالتاريخ معاً أمثال ياقوت الحموي وله معجم البلدان
وهو كتاب جغرافي كبير بأسماء البلاد . وأمثال أبي الفرج الجَوَزي وله
كتب كثيرة في التاريخ والجغرافية .

وأما الفلسفة فقد ذوت في الشرق بعد أن نبغ الغزالي وأصلاها وأصحابها
حرباً حامية في كتابه تهافت الفلاسفة . ولو لم تتداركها الاندلس لاندثرت
معالمها عند العرب .

البدب والادباء

لم تبدل طرق النقد وأساليبه ، وإنما توسع الأدباء في علم البيان ، وحددوا أصوله وفروعه ، وعثوا بتحسين نُظُم الانشاء ، وضبطها ، كما فعلوا في الشعر من قبل . وكان الفضل في ذلك للجرجاني ، فإن كتابه أسرار البلاغة حقيق بأن يدعى مفتاح علم البيان ، وركن صناعة الانشاء . ثم جاء بعده جماعة من الأدباء ، فنهضوا بهذا الفن ، ورفعوا مناره . فأتسع نطاق النقد ، وشمل النثر والكتّاب ، فأصابهم منه قسط وافر بعد أن كاد يكون مقصوراً على الشعر والشعراء . وضياء الدين ابن الأثير في مقدمة من لهم اليد البيضاء على صناعة النقد وعلم البيان .

ابن الاثير

١١٦٢ - ١٢٣٩ م و ٥٥٨ - ٦٣٧ هـ

حياته : نشأته . اتصاله بالايوبيين . صفاته و اخلاقه . استاذوه و علومه .
أثاره : المثل السائر . الوشي المرقوم . المعاني المخترعة . رسائل .
ميزمه : المثل السائر - اغراضه . علم البلاغة و النقد الادبي . مقدمة
و مقالاتان . المقدمة : موضوع علم البيان . المقالة
الاولى : الصناعة اللفظية . المقالة الثانية : الصناعة المعنوية .
شأوه . منزلته .

حياته

هو نذير الله بن محمد الشيباني ، كنيته أبو الفتح ، ولقبه ضياء الدين ،
و يُعرف بابن الاثير الجَزَري مسوباً إلى جزيرة ابن عمراً وفيها ولد ونشأ .
وانتقل به والده إلى الموصل ، فحصل فيها العلوم ، حتى إذا اكتملت
آلته ، قصد صلاح الدين الأيوبي في دمشق سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م)
فجعله في خدمته ، فلبث بضعة أشهر . ثم صار إلى خدمة والده الملك الأفضل
نور الدين ، فاستوزره هذا . ولما توفي والده استقل بمملكة دمشق ،
واستقل ضياء الدين بالوزارة ، وردت إليه أمور الناس .

١ جزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل تحيط بها دجلة الا من ناحية واحدة شبه الهلال . قال
ياقوت : « ان اول من عمرها الحسن بن عمر بن الخطّاب التغلبي . » وقال ابن خلكان :
« قيل انها منسوبة الى يوسف بن عمر التقي امير العراقيين ، ثم ظفرت بالصواب في ذلك ،
وهو ان رجلاً من اهل برقيد من اعمال الموصل ، بناها واسمها عبد العزيز بن عمر
فاضيقت اليه . »

ثمّ ان الملك الأفضل جرت له وقائع مع أخيه العزيز صاحب مصر ، فاتفق العزيز وعمه الملك العادل على غزو دمشق واستنقاذها من يد نور الدين . وتأتى لهما الأمر سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٥ م) فاستوليا عليها وأعطيا الملك الأفضل صرخداً بدلاً منها . فصار إليها . وأقام بها . وكان ابن الأثير قد أساء السياسة في أهل دمشق ، فسخطوا عليه ، فلما زال ملكه همّوا به ، فوضعه الحاجب محاسن بن عجم في صندوق ، وأخرجوه من دمشق خفية ، فمضى إلى سيده في صرخد .

ثمّ توفي العزيز صاحب مصر سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) وخلفه ابنه الناصر محمد وهو في العاشرة ، فاستدعى رجال الدولة عمه نور الدين من صرخد ليكون له وصيّاً ، وعنه نائباً ، فحضر وتبعه ابن الأثير . وفي المثل السائر ان ضياء الدين جاء مصر سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) .

ونشبت الحرب بين نور الدين وعمه الملك العادل صاحب دمشق ، فقصد الملك العادل مصر سنة ٥٩٦ هـ ، وأخرج الملك الأفضل منها . ولم يجرؤ ابن الأثير أن يخرج من مصر إلا مستخفياً ، لأن جماعة كانوا يقصدون قتله لما لقوا من عنته واستبداده .

وذهب الملك الأفضل إلى سُمَيْسَاط^٢ ولم يسمح له عمه بغيرها ، وعاد ضياء الدين إلى خدمته . ثمّ فارقه سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) واتصل بخدمة أخيه الملك الظاهر صاحب حلب . فلم يطل مقامه عنده ، ولا انتظم أمره ، وخرج مغاضباً . وعاد إلى الموصل ، فلم يستقم حاله ، فورد إربل^٣ ، ثمّ

١ صرخد : بلدة في جبل الدروز فيها قلعة قديمة .

٢ سميساط : قلعة في بر الشام على الفرات .

٣ إربل : مدينة كبيرة قرب الموصل من جهتها الشرقية .

تركها إلى سنجار^١ ، ثمّ رجع إلى الموصل ، واتخذها دار اقامة ، وكتب فيها لصاحبها ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر ، من ملوك الدولة الزنكية^٢ ، وبقي في خدمته حتى مات . وكانت وفاته في بغداد ، وذلك ان ناصر الدين بعثه إليها في مهمة ، فقصى بها نجه ، ودفن فيها بمقابر قریش . وخلف ولداً اسمه محمد ، ذكره ابن خلكان ، ونعته بالنباهة ، وأثنى على أدبه في المنظوم والمثور . وضيء الدين هو أحد الاخوة الثلاثة عز الدين المؤرخ المشهور ، صاحب الكامل ، ومجد الدين صاحب النهاية في غريب الحديث والأثر .

صفاته واخلاقه

عُرف ابن الأثير بكبريائه واستبداده ، فكرهه الناس ، ونذروا دمه غير مرة . وكان كثير الاعجاب بنفسه حتى الغرور ، لا يرى خيراً إلا فيما يقول ويفعل ، وقلماً يرى خيراً فيما يقول غيره ويفعل . فكثرت اذيته في العلماء والأدباء الذين تقدموه أو عاصروه ، ووقع بهم وازدراهم ، وحقّر آراءهم ورماهم بأقبح الأوصاف . فانقبض عنه رجال العلم ، ومقتوه ، وطعنوا عليه ، وعنفوه .

استاذوه وعلومه

درس ابن الأثير في الموصل ، فحفظ القرآن ، وكثيراً من الأحاديث النبوية ، وطرفاً صالحاً من النحو واللغة والبيان ، وشيئاً غير يسير من

١ سنجار : مدينة في العراق العجمي .

٢ الدولة الزنكية : فرع من الدولة السلجوقية ، مؤسسها عباد الدين زنكي ، وكان من موالي ملك شاه السلجوقي ، امتد سلطانها على الجزيرة والشام ، وحكمت من سنة ٥٢١ هـ -

٦٥٧ هـ (١١٢٧ - ١٢٥٨ م) .

الأشعار . ولم نعرف أحداً من أستاذه ، إلا أنه يخبرنا في المثل السائر انه وقف من الشعر على كل ديوان مجموع وانقد شطراً من العذر في الحفظ والمسموع ، فألقاه بجرأ لا يوقف على ساحله . فاقصر منه على ما تكثر فوائده ، واكتفى بشعر أبي تمام والبحري والمتنبي . فهو لاء الثلاثة هم عنده لات الشعر وعُزّاه ومَنّاته . فروى لهم أكثر مما روي غيرهم ، واستفاد من فصاحة أقوالهم ، وبلاغة معانيهم .

آثاره

لضياء الدين مصنفات حسنة أشهرها المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، وستولى تحليله ونقده . ثم كتاب الوشي المرقوم في حل المنظوم ، جعله في مقدمة وثلاثة فصول ، الأول في حل الشعر ، والثاني في حل آيات القرآن ، والثالث في حل الأحاديث النبوية . وله كتاب المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء . ومجموعة رسائل أورد منها شيئاً في المثل السائر .

ميزته

قامت شهرة ابن الأثير على كتاب المثل السائر وهو خير مصنفاته ، وأجمعها لميزاته ، فنكتفي به لإظهار خصائصه الأدبية ، وما له من طرق فيها وأساليب .

المثل السائر - اغراضه

هذا الكتاب يتضمن البحث عن علم البلاغة ، والنقد لصناعة الكاتب والشاعر ، وقد بناء صاحبه على مقدمة ومقالتين . فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ، والمقالتان تشتملان على فروعه . والمقدمة تتضمن عشرة فصول يتكلم فيها على موضوع علم البيان ، وما ينبغي له من

الأدوات . ثمّ بحث الحكم عن المعاني ومعرفة أساليبها في التفسير والتأويل ، والترصيع بينها . ثمّ جوامع الكلم ، والحقيقة والمجاز والفصاحة والبلاغة ، واركاز الكتابة ، وطريق تعلمها .

والمقالة الأولى تبحث عن الصناعة اللفظية ، وهي على قسمين ، الأول في اللفظة المفردة . والثاني في الألفاظ المركبة ، وجعل صناعة تأليفها على إزاة أنواع كالأجوع والتجنيس والترصيع والمعاظلة وسواها .

والمقالة الثانية تبحث عن الصناعة المعنوية ، وهي أيضاً على قسمين ، الأول في الكلام على المعاني مجملات ، والثاني في الكلام عليها مفصلاً . والقسم الأول على صريين ، أحدهما في ما يبتدعه المؤلف من غير أن يقتدي فيه بمن سبته . والثاني في ما يجري فيه على مثال سابق ومنهج مطروق . والقسم الثاني ساه على ثلاثين نوعاً كالتشبيه والاستعارة والتجريد ، والتقديم والتأخير . والإيجاز ، والاطذاب . والكناية ، والسركات الشعرية وغيرها .

ويتخلل هذه المباحث شعر ورسائل ، وآيات وأحاديث ، يبنى عليها كلامه . أو يستشهد بها على صحة أقواله . وربما عمد إلى الموازنة بين شاعرين كما وازن بين البحري والمتنبي في وصفهما الأسد . وكثيراً ما يورد من رسائله ، ويجعلها مثلاً للبلاغة في النوع الذي يتكلم عليه ، ويعنى بتحليل معانيها ، وتنبية القارئ على النظر إليها .

وكأبّن عرض لأقوال غيره من الكتاب فطعن عليها ، وازدراها كما فعل بالحريري وابن نُبّانة الخطيب . فإنه عاب سجعهما من أجل تكرير المعنى بالفاصلتين المتزوجتين . وعاب مثل ذلك على أئمة المترسلين كابن العميد والصابي والصاحب بن عبّاد .

وعرض للشعراء ، فأدرك عليهم ما عاب من أقوالهم ، واستهزأ بمن

يتعصب لبعضهم حتى لا يرى له عيباً ، فعله بالمتنبي وأبي العلاء ، فإنه أورد هذا البيت لأبي الطيب :

فلا يُبرِّمُ الأمرُ الذي هوَ حَالِلٌ ، وَلَا يُحْلَلُ الأمرُ الذي هوَ يُبرِّمُ

وقال : « فلفظة حائل نافرة عن موضعها ، وكانت له مندوحة لو استعمل عوضاً عنها كلمة ناقض . وجعل لا ينقض موضع لا يحلل . » اهـ . ثم قال : « وبلغني عن أبي العلاء بن سليمان المعري انه كان يتعصب لأبي الطيب حتى انه كان يسميه الشاعر ويسمي غيره من الشعراء باسمه . وكان يقول : « ليس في شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو في معناها ، فيجيء حسناً مثلها . » فيا ليت شعري أما وقف على هذا البيت المشار إليه ؟ لكن الموى ، كما يقال ، أعمى ، وكان أبو العلاء أعمى العين خلقة ، واعماها عصبية ، فاجتمع له العمى من جهتين . » اهـ .

وفي كلامه على علم البلاغة لا ينفك يذكر أقوال من تقدمه من علماء البيان ، ويظهر خطأها ، وضعف مدلولها ، وقصر نظرهم فيها . ثم يذكر أقواله ، ويبدل بها ، ويباهاي انه استنبطها ، وفتحت له كنوزها ، ولم يسبق إليها . وإذا سبقه أحد إلى رأي يريد أن يتبناه ، لا يكذب أن يجد فيه عوجاً ، ليكون له الفضل في تقويمه . ومثل هذه الأشياء كثيرة في المثل السائر ، وهي تصور أدق تصوير عجرفة صاحبه ، وشدة غروره .

على انه لا بد لنا أن ننصف ابن الأثير فنقول : إن أقواله في البيان ، واستنباطاته لأحكامه ، تدل على علم صحيح ، وذكاء عجيب ، وقوة استنتاج . ولكن حب المعارضة كان يدفعه إلى الإفراط في المخالفة ، فما يأمن الزلل بعض الأحيان ، مثال ذلك :

« فإن قيل : « انك قلت ان الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين ،

أي المفهوم . ونرى من آيات القرآن ما لا يفهم ما تضمنه من المعنى إلا باستنباط وتفسير . وتلك الآيات فصيحة لا محالة ، وهذا بخلاف ما ذكرته . « قلت : لأن الآيات التي تُستنبط وتحتاج إلى تفسير ليس شيء منها إلا ومفردات ألفاظه كلها ظاهرة واضحة ، وإنما التفسير يقع في غموض المعنى من جهة التركيب لا من جهة ألفاظه المفردة ، لأن معنى المفردة يتداخل في التركيب ، ويصير له هيئة تخصه . وهذا ليس قدحاً في فصاحة تلك الألفاظ ، لأنها إذا اعتُبرت لفظة لفظة ، وُجدت كلها فصيحة أي واضحة ظاهرة . » اهـ .

فهذا القول يبين الضعف ، لأن الغريب في القرآن موجود ، وقد صُنِّفَ فيه الكتب منذ القرون الإسلامية الأولى ، يوم كان الناس بتخاطبون باللغة الفصحى ولا يضيّقون ذرعاً بالألفاظ الغريبة . فأتى لابن الأثير أن ينكره ، وهو في عصر ضعفت لغة أبنائه ، وفشت بينهم اللهجات العامية . وحبه كان له من العلم بكلام العرب ما يجعل ألفاظ القرآن كلها بينة مفهومة عنده ، أفينبغي له أن ينفي الفصاحة عن الغريب ، وهو اضافي بين عصر وعصر ، وشخص وآخر ؟ وماذا يضير فصاحته إذا لطف لفظه ، وحس وقعه ، وسهل مساعه كغريب القرآن ؟

انشاؤه

يختلف إنشاء ضياء الدين في المثل السائر عنه في رسائله ، فبينما هو في الرسائل يلتزم السجع والمحسنات البديعية ، إذا به في المثل السائر يتعد عنها كل البعد ، فما تمر بسجع أو وشي إلا عرضاً ، فإنشاؤه فيه ، ظاهر الطبعية ، سهل العبارة ، واضح الأسلوب ، بريء من التعقيد والاعراب ، غالب عليه الاسهاب . فكأن صاحبه استاذ يعنى بشرح درسه ، وإيضاحه ،

وتعليقه ، ليجعله مفهوماً ، قريباً من الأذهان .
ويمتاز لإنشاؤه في صبغة رياضية بيّنة ، يكثر فيها التقسيم الفيثاغوري
المتشعب . وكثيراً ما يعتمد إلى الأدلة المنطقية لتأييد آرائه : وغلب عليه
الجدل ، فاما يورد أقوال غيره ثمّ يقول : « فأقول في الجواب . » ويرد
عليها . واما يلقي السؤال على نفسه ، ويحجب عنه .

وشخصية ابن الأثير ظاهرة كل الظهور في إنشائه ، تلتقيها
كيف سرت . فتراه أبدأ يحدثك عن نفسه ، وبنه خاطرك إلى آرائه ،
ويُبدل عليك بصحة علمه وقوة استنباطه ، ويملاً رأسك بكثرة دعاويه ،
وينفرك بلوّم طبعه وكبريائه ، حتى لتحسبه وهو يتكلم على ابتداعاته .
نبيّاً يوحى إليه : « وهداني الله لابتداع أشياء ، لم تكن قبلي مبتدعة ،
ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة ، وإنما هي متبّعة .
ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لي عن أسرارها ، وأظفرتني بكنوز
جواهرها إذ لم يظفر غيري بأحجارها . » اهـ .

وإنشاؤه على سهولته ووضوحه وحسن انسجامه لا يُعَدّ في الطراز
العالي ، ولا يجري به مع كبار الكتاب المتقدمين ، وربما وقعت له على
أشياء لا تخلو من الضعف كقوله : « وفي نفس هذا الاعتراض اعتراض
آخر . » ووجه الكلام أن يكون التوكيد بعد المؤكد . على ان هذه الهنات
قليلة عنده لا تكاد تُذكر .

منزلته

قال ابن خلكان : « ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة
فضله ، وتحقيق نبّله ، كتابه الذي سمّاه المثل السائر ، في أدب الكاتب
والشاعر ، جمع فيه فأوعى ، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره . » اهـ .

ولا جَرَمَ أن المثل السائر من عيون الكتب التي صُنفت في علم البلاغة ، وقد نبل فيه صاحبه باتساق أفكاره ، وقوة استنباطه ، وحسن منطقته وتعليله ، على جراءة في النقد والجدل ، لو لم يشنها الصلف لكانت محبة . وقد يُستحسن من العلماء الاعتداد بالنفس ، ولكن ان يخرج بهم إلى الغرور والكبر ، غير محمود ، بل هو ممقوت . وهذا ما أصاب ضياء الدين ، فإن الناس كرهوه ، والعلماء حملوا عليه ، وانتقدوه . وكان في جملة ناقديه ومسفهيه أقواله ابن أبي الحديد المدائني .

ولكن من العدل أن نعرف بفضل ابن الأثير ، فإنه في مقدمة من أوضح معالم البلاغة وأحكم الكلام على فنون الإنشاء ، ورتب فصوله وأنواعه ، وبين أصوله وفروعه ، ودقق في جمال اللفظ المفرد والمركب ، وحلّى النقد الأدبي بجراءة لا تعرف هوادة ولا مداراة ، ورفع بنيانه على قوة المنطق وبراعة التعليل .

*

إلى هنا انتهت بنا الأعصر العباسية بما فيها من أدب زاخر ، وعلوم زاهرة . وإن في مباحث هذا الكتاب على اجتزائه بأشخاص معدودين ، لصوراً جليلة لأطوار الشعر والنثر وما بلغا إليه من نهضة وارتفاع ثمّ التواء . وقد حقّ للأعصر العباسية أن تحمل وحدها مشعل حضارة الإسلام .

فهرس الاعلام

| | | |
|-------------|------------|---------------------------|
| ٣٣٣ | ابن جني | الألف |
| ٢٦٦ | ابن حائك | |
| ٣٢٢ | ابن حجاج | ابان بن عبد ٣٢ - ١٤٤ - |
| ٣٢١ | ابن حنزابه | الحميد اللاحقي ١٨٥ |
| ٩٥ | ابن حمزة | ابراهيم الامام ١٤ |
| ١٧٨ | ابن حنبل | ابراهيم بن الحسن ٥٠ |
| — ٣١٩ — ٣١٧ | ابن خالويه | ابراهيم بن ٣٠ - ١٢٤ - |
| — ٣٦٦ — ٢٩٤ | | |
| ٣٦٨ | | العدي ١٣٣ - ١٧٥ |
| ٢٩٤ — ٣٤ | ابن خلدون | ابراهيم الموصلي ١٧٥ - ٤١٣ |
| — ١٦٠ — ١٤٦ | ابن خلكان | ابقرات ١٧٣ |
| ١٦٧ | | ابن الاثير ٤٤١ - ٤٤٩ |
| ٤٠٨ | ابن جني | ابن الاعرابي ١٦٣ |
| ٢٩٠ | ابن رسته | ابن بويه ٢٩٤ |
| (٢٠٨ — ٢٣٦) | ابن الرومي | ابن جامع ١٧٥ |

| | | | |
|----------------|-------------------|-------------|------------|
| ٢٢٦ | ابن المعتز | ٩٧ - ١١٩ - | ابن الزيات |
| (١٥٨ - ١٣٦) | ابن المقفع | ١٣٣ - ٢٦١ - | |
| ٦٧ - ٧١ - | ابن منظور | ٣٠٠ - ٣٢٢ - | ابن سكر |
| ١٧٠ | ابن الناعمة | ١٦٣ | ابن السكيت |
| | الحمصي | ٣٠١ | ابن سينا |
| ٢٩٤ | ابن نباتة | ١٦٦ | ابن سلمه |
| ٣٠٧ | ابن نباتة السعدي | ١٧٧ | ابن سيرين |
| ١٩٢ - ١٤٢ - | ابن النديم | ٥٨ | ابن شرف |
| ٤٠٨ - ٤٠٠ - | | | القيرواني |
| ١٤٠ | ابن الهبارية | | ابن شهيد |
| ٤٠٨ | ابن الهيثم البصري | ٢٦١ | الاندلسي |
| ٣٦٦ | ابو اسحق الصابي | | ابن الصائغ |
| ١٥٩ - ١٦٠ - | ابو الأسود | ٤٠٦ | الجزري |
| | الدؤلي | | |
| ١٦٦ | ابو بكر الزبيدي | ٣٢٢ | ابن العميد |
| (٩٢ - ١١٢) | ابو تمام | ٣٨٦ | ابن فارس |
| ١٦١ | ابو جعفر | ٢٣٢ | ابن الفياض |
| | الرواسي | ٢٨٦ - ٢٩١ - | ابن قتيبة |
| ١٢ - ١٦ - ٤٠ - | ابو جعفر | ٣١٠ | ابن كروس |
| ١٣٤ - | المنصور | ٢٨٦ | ابن كيسان |

| | | | |
|--------------|----------------------------|--------------|--------------------------|
| ٣٠ | ابو العتاهية | ٣٩ | ابو الحسين بن لنكك |
| ٣١٠ - ٣١٨ | ابو العشائر | ١٨٠ | ابو حنيفة |
| ١٨٧ | ابو علي الجبائي | ١٣٧ | ابو داود بن يزيد |
| ٢٤ - ١٩٤ | ابو عمرو بن العلاء | ٤٣ - | ابو دلامة |
| ٣٠٦ | ابو الفتح البستي | ٩٧ | ابو دلف العملي |
| ٢٩٤ - ٣١٧ | ابو فراس | ١٨٨ (٢٠٠) - | ابو زيد القرشي |
| (٣٦٣ - ٣٧٦) | | ٢٠٣ | |
| ٣٨ - ٤١١ | ابو الفرج | ١٢١ | ابو سعد المخزومي |
| ٤١٨ | الاصبهاني | ٩٤ - ٩٧ | ابو سعيد الطائي |
| ٣١ | ابو الفضل بن نويخت | ١٤٤ | ابو سهل بن نويخت |
| ٣١٥ | ابو محمد بن طغج | ٤٤ | ابو الشمقمق |
| ١٤ - ١٦ - ٤١ | ابو مسلم | ١٢ - ١٥ - | ابو العباس السفاح |
| ٥١ - ١٣٧ | الخراساني | ٢٨٧ | أبو عبدالله البتاني |
| ١٧٤ | ابو معشر البلخي | ١٧٣ | ابو عبدالله الحوارزمي |
| ٢١٨ | ابو نصر الفارابي | ٨٩ (١٨٩) - | ابو عبيدة |
| ٩٣ - ٢٢٨ | ابو نهشل بن حميد الطوسي | ١٩٤ - (١٩٠) | |

| | | | |
|-------------------|------------|-----------------|----------------|
| ابو نواس | ٢١ - ٦٠ - | اسحاق بن العباس | ١١٠ |
| (٢٩١) | | | |
| ابو الهذيل العلاف | ١٨٧ | اسماعيل بن | ٧٠ |
| | | نوبخت | |
| ابو يوسف | ١٨٠ | اسماعيل | ٦٣ |
| الانصارى | | القرطيسي | |
| ابو يوسف | ٢٨٨ | الأصمعي | ١٦٤ - ١٩٤ - |
| الكندي | | | ١٨٨ - ١٩٢ - |
| احمد بن ابي | ٩٧ - ٢٦٣ | | ٤٠٦ |
| داود | | افلاطون | ١٧٥ - ٢٨٨ |
| احمد بن يوسف | ١٣٣ | | |
| الاخفش | ٢٤ - ١٦٠ - | الباء | |
| | ٢٨٦ - | | |
| الاخطل | ٢٨ | | |
| ارسطو | ١٧ | البحري | ٢١٢ - ٢٣٦ (|
| ازهر السمان | ٦٩ | بختيشوع | ٢٧٥ |
| الازهرى | ١٦٦ - ٤٠٨ | بدر الدين عمار | ٣١٤ - ٣١٥ - |
| اسماعيل بن بليل | ٢٤٤ | | ٣٤٧ |
| اسحاق بن | ١٧٧ | بديع الزمان | (٣٨١ - ٤٠٣) |
| راهويه | | بشار بن برد | ٢١ (٣٦ - ٥٩) |
| اسماعيل بن جامع | ٤١٣ | بطليموس | ١٧٣ |

| | | |
|---------------------------|-------------|------------------|
| الحاء | ١٤٦ | بهود بن سحوان |
| الحارث بن كلدة ١٧٢ | ٢٨٨ | البلاذري |
| الثقفي | | |
| الحجاج بن مطر ١٧٢ - ١٧٣ | الثاء | |
| الحريري (٤٢٦ - ٤٣٦) | | |
| الحسن البصري ٣٩ | ٣١٢ | الثعالبي |
| الحسن بن سهل ١٣٤ | ١٤٢ | ثور بن يزيد |
| الحسين بن ٦٣ | | |
| الضحاك | | |
| الحسن بن طغج ٣١٤ | الجيم | |
| الحسن بن علي ١١ | | |
| الحسن بن هاني ٦٠ | ١٨٧ (٢٦٠) - | الجاحظ |
| حنين بن اسحاق ١٦٤ - ١٧١ - | (٢٨٦) | |
| ١٧٠ - ١٧٢ | ١٧٣ | جالينوس |
| الحسين بن ٣١٣ | ١٤٤ | جرجي زيدان |
| اسحاق | ١٨١ | جعفر بن سليمان |
| الحسين علي ١١ | ٨ | الخندي بن عبد |
| الحسين الخياط ٦٣ | | الرحمن |
| حماد عجرد ٤٩ - ٤٢ | ١٧١ - ٤٠٨ | الجوهري |

| | | | |
|-----------|-----------------|--------------|----------------|
| ٣٧٣ | الدمستق | ١٦٧ | حمزة بن الحسن |
| ٢٦ | ديك الجن | | الاصبهاني |
| | الراء | | الخاء |
| ١١٤ | الرشيد | ١٠٢ | خالد بن يزيد |
| | | | الشيبياني |
| | الزين | ٢٩٠ | نور داذاة |
| | | ١٩٤ | خلف الاحمر |
| ١٠٤ | زيد الخيل | ١٦٠ (١٦٤) - | الخليل |
| | | (١٦٧) | |
| | السين | ١٤٢ | الخليل بن احمد |
| ١٧١ | سابور بن ارشير | | الدا |
| ٣٦٨ | سامي الدهان | | |
| ١٤٠ - ١٣٨ | سفيان بن معاوية | ١٣٧ | داوود بن هبيرة |
| ١٧٧ | سفيان بن | ١٨٠ | داوود بن علي |
| ١١ | سليمان بن عبد | | الاصبهاني |
| | الملك | ٦٣ | داوود الواسطي |
| ٣٩ - ٣٨ | سليمان بن هشام | ٢٦ - (١١٣) - | دعبل |
| ٢٧٠ | سلمويه | (١٢٦) | |

| | | | |
|----------------|-------------|-------------------|-------------|
| السلامي | ٣٠٧ | الصلاح | ١٧٠ |
| سهل بن هارون | ١٤٤ - ١٠٨ - | الصفدي | |
| | ٢٦١ - ٤٠٥ | الصولي | ١٤٤ |
| سيبويه | ٢٤ - ١٦٦ - | | |
| | ١٦٠ - ٦٩ - | الطاء | |
| السيد الحميري | ٢٦ | | |
| السيوطي | ١٦٦ | طاهر بن الحسين | ١١٩ - ٢١٠ - |
| | | الخزاعي | |
| | | الطبري | ٢٨٨ |
| الشين | | | |
| الشافعي | ١٨١ | العين | |
| الشريف الرضي | ٣٠٧ | العباس بن ابي | ٨٢ |
| | | جعفر المنصور | |
| الصاد | | عبدالله ابي هاشم | ١١ |
| | | عبدالله بن حسن | ١٢ |
| الصاحب بن عباد | ٣٢٨ - ٣٧٠ - | ابن الحسين بن علي | |
| | ٤٠٨ - | عبدالله بن | ١٧٧ |
| صالح بن عبد | ٣٩ | عباس | |
| القدوس | | عبدالله بن علي | ١٦ |
| صفوان | ٢٢ | عبدالله بن مقفع | ١٧٢ - ١٣٣ - |
| الأنصاري | | | ٤٠٤ - |

| | | | |
|-------------|---------------------------|---------------------------|-------------|
| ١٧٧ | الفراء | عبدالله الحضرمي | ١٦٠ |
| ١٣٢ — ١١٩ | الفضل بن سهل | عبد الحميد بن يحيى | ١٣٩ |
| ١١٩ | الفضل بن مروان | عبد الواحد بن زياد العبدي | ٦٩ |
| ٦٣ | الفضل الروقاشي | عقبة بن سالم | ٥١ |
| ٤١٣ | فليح بن العوراء | علي بن داود | ٤٠٠ |
| | الفاف | علي بن الشاه | ١٤٦ |
| ٢٤٠ | القاسم بن عبد الله الوهبي | عمر بن الخطاب | ١٠٩ |
| | | عمرو عبد العزيز | ١٣ |
| ٢٩٢ | قدامة بن جعفر | عمرو بن عبيد | ٣٩ — ٤٠ — |
| ٣٠٢ | القشبري | | ١٨٧ |
| | | عمر العتكي | ٥٥ |
| | الكاف | عمرو الوراق | ٦٣ |
| | | عمرو بن مسعدة | ١٣٣ — ١٣٤ — |
| ٣١٩ | كافور | عنيسة النيل | ١٦٠ |
| — ١٦١ — ١٦٠ | الكسائي | عيسى بن علي | ١٤١ |
| ٩٧١ | كسرى | | |
| | انوشروان | الفاء | |
| ١٢٠ | الكميت بن زيد | | |
| | الاسدي | الفارابي | ٢٩٤ — ٣٠١ — |

| | | | |
|-------------|------------------|------------------|-------------|
| — ١٨٠ — ١٢ | محمد بن عبد الله | الميم | |
| — ٢٤٤ | | | |
| ٣٠ | محمد بن عبد | مالك الامام ١٧٨ | |
| | الملك | مالك بن انس | ٤٠ — ١٨٠ — |
| — ١٤ — ١٢ | محمد بن علي | ١٨١ | |
| ٤٧ | محمد الطاهر بن | مالك بن طوق | ١١٥ — ١١٩ — |
| | عاشور | ٣٠٠ | |
| ١٧٥ | مخارق | المأمون | ٣٠ — ١٣٣ — |
| ٢٣٠ | المرزباني | المبرد | ٢٨٦ |
| ١٦ — ١٦ | مروان بن ابي | المتنبي | (٣٠٩ — ٣٦٢) |
| | حفصة | المتوكل على الله | ٢٠٤ |
| — ٣٨ — ١٤ | مروان بن محمد | المجمل | ٤٠٨ |
| — ١١٢ — ٢١ | مسلم بن الوليد | محمد بدر الدين | ٤٦ |
| — ١١٩ — ١١٧ | | العلوي | |
| — ١٢٤ | | | |
| — ١٧٨ | مسلم القشيري | محمد بن الحسن | ١٨٠ |
| ٢٤٣ | المسيبي | الشيبياني | |
| ١١٩ | المطلب بن عبد | محمد بن الحنفية | ١١ |
| | مالك | محمد بن حميد | ١٠١ |
| ١٤٠ — ٦٢ | مطيع بن اياس | الطوسي | |
| ١٦١ | معاذ الهراء | محمد بن سلام | (١٩٩ — ١٩٤) |
| — ١١ | معاوية | محمد بن طاهر | ٢٢٨ |

| | | |
|-----------------------------|---------------|---------------------|
| الواو | ٤٠٠ | المقتدر |
| واصل بن العطاء ٣٩ — ٤٠ — ٤٩ | ٣٠١ — | المعري |
| ١٨٧ — | ٣١ — ٥٠ — ١٣٣ | المنصور |
| والبة بن الحباب ٦٢ | ٣١ | المهدي |
| وكيع بن الجراح ١٧٧ | ٣٦٥ | المهلب بن أبي حنيفة |
| الوليد بن يزيد ٩ — ٢٨ — | ٣٠٧ | مهيار الديلمي |
| ٩١ | ١٦٤ — ١٦٥ | مؤرج السدوسي |
| الياء | ١٢٣ | موسى الكاظم |
| | ١٦٠ | ميمون الاقرن |
| يحيى البرمكي ١٣٣ | | |
| يحيى بن خالد ٣٢ | | النون |
| يحيى بن يعمر ١٦٠ | | |
| يحيى القطان ٦٩ | ٨ — ١٤ — | نصر بن سيار |
| يزيد بن منصور ٤٤ | ١٦٠ | نصر بن عاصم الليثي |
| الحميري | ١٦٠ | نصر الجهمي |
| يزيد بن عمر بن ٣٩ | ١٦٤ — ١٦٥ | النضر بن شميل |
| هبيرة | ١٨٧ | النظام |
| يعقوب بن الفرج ٢٣١ | ٢٨٦ | نقطويه |
| يوسف بن اسماعيل ٤٠٦ | | |
| يعقوب الحضرمي ٦٣ — ٦٩ | | الهاء |
| يعقوب بن داود ٤١ | | |
| اليعقوبي ٢٨٨ | | هاشم الكندي ٦٩ |
| يوحنا بن ماسويه ١٧٢ | | هرون الرشيد ٤١٣ |
| يوحنا بن البطريق ١٧٠ — ١٧٢ | | هشام بن عبد الملك ٩ |
| يوستانيانوس ١٧١ | | الهيثم بن عدي ٨٦ |
| يونس بن حبيب ١٩٤ — ١٦٠ | | |

أدباء العرب

في الأعصر العباسية

| | | | | | | |
|-----|---|---|---|---|---|-------------------------------------|
| ٥ | . | . | . | . | . | العصر العباسي الأول - لمحة تاريخية |
| ١٩ | . | . | . | . | . | الشعراء المولدون - ميزة الشعر |
| ٣٦ | . | . | . | . | . | بشار بن برد |
| ٦٠ | . | . | . | . | . | أبو نواس |
| ٩٢ | . | . | . | . | . | أبو تمام |
| ١١٣ | . | . | . | . | . | دمبل |
| ١٢٧ | . | . | . | . | . | الكتاب المولدون - ميزة النثر |
| ١٣٦ | . | . | . | . | . | ابن المقفع |
| ١٥٩ | . | . | . | . | . | علوم اللغة |
| ١٦٤ | . | . | . | . | . | الخليل |
| ١٦٩ | . | . | . | . | . | العلوم الدخيلة |
| ١٧٧ | . | . | . | . | . | العلوم الدينية |
| ١٨٨ | . | . | . | . | . | الأدب والرواة |
| ١٨٩ | . | . | . | . | . | أبو عبيدة |
| ١٩٢ | . | . | . | . | . | الأصمعي |
| ١٩٤ | . | . | . | . | . | محمد بن سلام |
| ٢٠٠ | . | . | . | . | . | أبو زيد القرشي |
| ٢٠٤ | . | . | . | . | . | العصر العباسي الثاني - لمحة تاريخية |
| ٢١١ | . | . | . | . | . | الشعراء المولدون - ميزة الشعر |
| ٢١٢ | . | . | . | . | . | البحري |
| ٢٣٦ | . | . | . | . | . | ابن الرومي |

| | | | | | | |
|-----|---|---|---|---|---|-------------------------------------|
| ٢٥٩ | . | . | . | . | . | الكتاب المولدون - ميزة النشر . |
| ٢٦٠ | . | . | . | . | . | المحافظ |
| ٢٨٦ | . | . | . | . | . | علوم اللغة |
| ٢٨٧ | . | . | . | . | . | العلوم الدخيلة |
| ٢٩١ | . | . | . | . | . | الأدب والأدباء |
| ٢٩٣ | . | . | . | . | . | العصر العباسي الثالث - لمحة تاريخية |
| ٣٠١ | . | . | . | . | . | الشعراء المولدون -- ميزة الشعر . |
| ٣٠٩ | . | . | . | . | . | المتنبي |
| ٣٦٣ | . | . | . | . | . | أبو فراس |
| ٣٧٧ | . | . | . | . | . | الكتاب المولدون - ميزة النشر . |
| ٣٨١ | . | . | . | . | . | بديع الزمان |
| ٤٠٤ | . | . | . | . | . | القصص |
| ٤٠٨ | . | . | . | . | . | العلوم . |
| ٤١٠ | . | . | . | . | . | الأدب والأدباء |
| ٤١١ | . | . | . | . | . | أبو الفرج الأصبهاني |
| ٤١٩ | . | . | . | . | . | العصر العباسي الرابع - لمحة تاريخية |
| ٤٢٣ | . | . | . | . | . | الشعراء المولدون - ميزة الشعر . |
| ٤٢٥ | . | . | . | . | . | الكتاب المولدون - ميزة النشر . |
| ٤٢٦ | . | . | . | . | . | الحريري |
| ٤٣٨ | . | . | . | . | . | العلوم . |
| ٤٤٠ | . | . | . | . | . | الأدب والأدباء |
| ٤٤١ | . | . | . | . | . | ابن الأثير |

